قاعدة فهم السلف الصالح: مفهومها، حجيتها، أثرها، الأسئلة الواردة عليها

دراسة تأصيلية تطبيقية علمية ممتعة
يُكتب لأول مرة على هذا التأصيل والتطبيق

تأليف

الدكتور يحيى بن إبراهيم خليل بن إسحاق

عضو هيئة التدريس في قسم أصول الفقه
بكلية الحقوق قسم الشريعة بجامعة الملك فيصل

المجلد الأول

ح يحي إبراهيم خليل، ١٤٤٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
خليل، يحيى إبراهيم
قاعدة فهم السلف الصالح مفهومها حجيتها أثرها الأسئلة الواردة عليها دراسة تأصيلية تطبيقية علمية ممتعة يكتب لأول مرة على هذا التأصيل والتطبيق ١/ ٢، يحيى إبراهيم خليل- الرياض، ١٤٤٠هـ.
٢مج
ص:؛ ٧٣٧ سم: ١٧× ٢٤
ردمك: ٤- ٨٠٦- ٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ١- ٨٠٧- ٠٣- ٦٠٣- ٩٧٨ (ج١)
١- العقيدة الإسلامية أ. العنوان
ديوي: ٢٤٠ ٨٦٩١/ ١٤٤٠

رقم الإبداع: ٨٦٩١/ ١٤٤٠
ردمك: ٤- ٨٠٦- ٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ١- ٨٠٧- ٠٣- ٦٠٣- ٩٧٨ (ج١)

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م

دار الصميعي للنشر والتوزيع، المركز الرئيسي السويدي، شارع السويدي العام -الرياض
ص.ب: ٤٩٦٧/ الرمز البريدي: ١١٤١٢هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥، ٤٢٥١٤٥٩ فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة، بجوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية
هاتف: ٣٦٢٤٤٢٨، فاكس: ٣٦٢١٧٢٨ مدير التسويق: ٠٥٥٥١٦٩٠٥١
المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: daralsomaie@hotmail.com

دار الصميعي للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

١- قال عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للخوارج يوم ناظرهم: «... وجئتكم من عند أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله...».

٢- وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «والذي لا إله غيره ما أنزل الله سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت سورة في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

٣- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من كان منكم متأسيا، فليتأس بأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

٤- وقال عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من كان منكم مستنا، فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا خير هذه الأمة، وأبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

٥- وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «عليك بالأثر، وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة».

٦- وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتسليم للسنن لا تعارض برأي، ولا تدافع بقياس، وما تأوله السلف تأولناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا، ونتبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج من جماعتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله».

٧- وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... فعلموا ما أراد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاما وخاصا، وعزما وإرشادا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وما جهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وآراؤهم أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا وهكذا نقول ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله».

٨- وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه، أو أثر من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقرب ذلك بما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عن أصحابه، فهم شاهدوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشاهدوا تنزيله وما قصه في القرآن وما عني به، وما أراد أخاص هو أو عام، فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أحد من أصحابه فهذا تأويل أهل البدع».

٩- وقال إمام المفسرين ابن جرير الطبري في ترجيحاته: «وذلك قول

خلاف لقول جميع أهل التأويل من الصحابة والتابعين وحسب قول خطأ أن يكون خلافا لقول من ذكرنا» تفسير الطبري ٩/ ٢٦١ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ٨/ ٢٧: «وهذا قول بعيد عن الصواب لشذوذه، وخروجه عما عليه الحجة مجتمعة وكفى بذلك شاهدا على فساده» وقال في ٢/ ٧٩٨: «ولا يعارض بالقول الشاذ ما استفاض به القول من الصحابة والتابعين». وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ٥/ ١٧٢: «وهذا قول لقول أهل التأويل مخالف، وكفى بخروجه عن قول أهل العلم من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المخالفين على خطئه شاهدا» وقال في ١٦/ ٢٢٩: «وهذا القول وإن كان له وجه يحتمله الكلام، فإن تأويل أهل التأويل خلافه فلا أستجيز لذلك القول به» إلى غير ذلك من ترجيحاته.

١٠- وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]. ولا يقال: الآية مجملة؛ لأنه لا يدرى هل أريد به حال الذبح، أو حال الطبخ، أو حال الأكل؛ لأنا نقول: أجمع السلف على أن المراد بها حال الذبح فتكون مفسرة فتم الاحتجاج بها.

١١- وقال الإمام أبو عيسى الترمذي عقب روايته لحديث فيه ذكر صفة اليمين للرحمن جل وعلا قال: «وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث، وما يشبه هذا من الروايات في الصفات، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا قالوا: قد ثبتت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم، ولا يقال: كيف؟ هكذا روى مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة،

وعبدالله بن المبارك أنهم قالوا: في هذه الصفات: أمروها بلا كيف، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة. وأما الجهمية، فأنكرت هذه الروايات، وقالوا: هذا تشبيه. وقد ذكر الله تعالى في غير موضع من كتابه: اليد، والسمع، والبصر فتأولت الجهمية هذه الآيات، ففسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وقالوا: معنى اليد هاهنا القوة. وقال إسحاق بن إبراهيم: إنما التشبيه إذا قال: يد كيد، أو مثل يد، أو سمع كسمع، أو مثل سمع فهذا التشبيه. وأما إذا قال: كما قال الله تعالى: يد، وسمع، وبصر، ولا يقول: كيف، ولا يقول: مثل سمع، ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيها وهو كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

١٢- وقال الإمام أبو عمر ابن عبدالبر: «وأما احتجاجهم بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حملت عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية هو على العرش وعلمه في كل مكان وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله ذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية قال هو على عرشه وعلمه معهم أين ما كانوا قال وبلغني عن سفيان

الثوري مثله قال سنيد وحدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: الله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم قال سنيد وحدثنا هشيم عن أبي بشر عن مجاهد قال: إن بين العرش وبين الملائكة سبعين حجابا حجاب من نور وحجاب من ظلمة وأخبرنا إبراهيم بن شاكر قال حدثنا عبدالله بن محمد بن عثمان قال حدثنا سعيد بن جبير وسعيد بن عثمان قالا حدثنا أحمد بن عبدالله بن صالح قال حدثنا يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة والعرش على الماء والله تبارك وتعالى على العرش يعلم أعمالكم...».

١٣- وقال الشاطبي: «... وأيضا فإن العمل مخلص للأدلة من شوائب المحامل المقدرة الموهنة؛ لأن المجتهد متى نظر في دليل على مسألة احتاج إلى البحث عن أمور كثيرة لا يستقيم إعمال الدليل دونها، والنظر في أعمال المتقدمين قاطع لاحتمالاتها حتما ومعين لناسخها من منسوخها، ومبين لمجملها، إلى غير ذلك، فهو عون في سلوك سبيل الاجتهاد عظيم؛ ولهذا اعتمده مالك بن أنس ومن قال بقوله وقد تقدم منه أمثلة. وأيضا فإن ظواهر الأدلة إذا اعتبرت من غير اعتماد على الأولين فيها مؤدية إلى التعارض والاختلاف وهو مشاهد معنى؛ ولأن تعارض الظواهر كثير مع القطع بأن

الشريعة لا اختلاف فيها ولذلك لا تجد فرقة من فرق الضلالة من المختلفين في الأحكام الفرعية، ولا الأصولية يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة وقد مر من ذلك أمثلة».

١٤- وقال: «لو كان دليلا عليه لم يعزب عن فهم الصحابة والتابعين، ثم يفهمه هؤلاء فعمل الأولين كيف كان مصادم لمقتضى هذا المفهوم ومعارض له ولو كان ترك العمل، فما عمل به المتأخرون من هذا القسم مخالف لإجماع الأولين، وكل من خالف الإجماع فهو مخطئ وأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تجتمع على ضلالة، فما كانوا عليه من فعل أو ترك فهو السنة والأمر المعتبر وهو الهدى وليس ثم إلا صواب أو خطأ؛ فكل من خالف السلف الأولين فهو على خطأ وهذا كاف...».

١٥- وقال: «فلهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم به الأولون وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب وأقوم في العلم والعمل».

١٦- وقال: «والذي عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ظاهر في الأصول الاعتقادية والعملية على الجملة لم يخص من ذلك شيء دون شيء».

١٧- وقال: «فهذا نص على دخول الأصول العملية تحت قوله: «**ما أنا عليه وأصحابي**» وهو ظاهر، فإن المخالف في أصل من أصول الشريعة العملية لا يقصر عن المخالف في أصل من الأصول الاعتقادئة في هدم القواعد الشرعية».

١٨- وقال: «واستدلال كل من اخترع بدعة أو استحسن محدثة لم تكن في السلف الصالح، بأن السلف اخترعوا أشياء لم تكن في زمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ككتب المصحف، وتصنيف الكتب، وتدوين الدواوين وتضمين الصناع، وسائر ما ذكر الأصوليون في أصل المصالح المرسلة، فخلطوا وغلطوا واتبعوا ما تشابه من الشريعة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وهو كله خطأ على الدين، واتباع لسبيل الملحدين؛ فإن هؤلاء الذين أدركوا هذه المدارك، وعبروا على هذه المسالك؛ إما أن يكونوا قد أدركوا من فهم الشريعة ما لم يفهمه الأولون، أو حادوا عن فهمها وهذا الأخير هو الصواب؛ إذ المتقدمون من السلف الصالح هم كانوا على الصراط المستقيم، ولم يفهموا من الأدلة المذكورة وما أشبهها إلا ما كانوا عليه، وهذه المحدثات لم تكن فيهم، ولا عملوا بها فدل على أن تلك الأدلة لم تتضمن هذه المعاني المخترعة بحال، وصار عملهم بخلاف ذلك دليلا إجماعيا على أن هؤلاء في استدلالاتهم وعملهم مخطئون ومخالفون للسنة. فيقال: لمن استدل بأمثال ذلك: هل وجد هذا المعنى الذي استنبط في عمل الأولين أو لم يوجد؟ فإن زعم أنه لم يوجد - ولا بد من ذلك -؛ فيقال له: أفكانوا غافلين عما تنبهت له، أم جاهلين به، أم لا؟ ولا يسعه أن يقول بهذا؛ لأنه فتح لباب الفضيحة على نفسه، وخرق للإجماع، وإن قال: إنهم كانوا عارفين بمآخذ الأدلة، كما كانوا عارفين بمآخذ غيرها، قيل له: فما حال بينهم وبين العمل بمقتضاها حتى خالفوا إلى غيرها؟ ما ذاك إلا لأنهم

اجتمعوا فيها على الخطأ دونك أيها المتقول، والبرهان الشرعي والعادي دال على عكس القضية فكل ما جاء مخالفا لما عليه السلف الصالح، فهو الضلال بعينه...».

١٩- وقال الحطاب: واختار مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ البناء على اتباع السلف، وإن خالف ذلك القياس. وهذا على أصله أن العمل أقوى من القياس؛ لأن عمل السلف المتصل لا يكون أصله إلا عن توقيف.

٢٠- وقال بعض المالكية: فيجوز للعمل أي عمل السلف الصالح بذلك وما عملوا إلا لفهم الجواز من السنة..

٢١- وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد ثبت وجوب اتباع السلف رحمة الله عليهم بالكتاب، والسنة، والإجماع. والعبرة دلت عليه؛ فإن السلف لا يخلو من أن يكونوا مصيبين، أو مخطئين، فإن كانوا مصيبين وجب اتباعهم؛ لأن اتباع الصواب واجب، وركوب الخطأ في الاعتقاد حرام، ولأنهم إذا كانوا مصيبين كانوا على الصراط المستقيم، ومخالفهم متبع لسبيل الشيطان الهادي إلى صراط الجحيم، وقد أمر الله تعالى باتباع سبيله وصراطه، ونهى عن اتباع ما سواه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وإن زعم زاعم أنهم مخطئون كان قادحا في حق الإسلام؛ لأنه إن جاز أن يخطئوا في هذا جاز خطؤهم في غيره من الإسلام كله، وينبغي أن لا تنقل الأخبار التي نقلوها، ولا تثبت معجزات النبي التي رووها فتبطل الرواية،

وتزول الشريعة، ولا يجوز لمسلم أن يقول هذا ولا يعتقده».

٢٢- وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ أَوْ الْحَدِيثَ وَتَأَوَّلَهُ عَلَى غَيْرِ التَّفْسِيرِ الْمَعْرُوفِ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى اللهِ مُلْحِدٌ فِي آيَاتِ اللهِ مُحَرِّفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَهَذَا فَتْحٌ لِبَابِ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ وَهُوَ مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ».

٢٣- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَمَّا إنْ أَرَادَ بِإِجْرَائِهِ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِي هُوَ الظَّاهِرُ فِي عُرْفِ سَلَفِ الْأُمَّةِ لَا يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلَا يُلْحِدُ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَلَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ بِمَا يُخَالِفُ تَفْسِيرَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ؛ بَلْ يَجْرِي ذَلِكَ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ النُّصُوصُ وَتَطَابَقَ عَلَيْهِ دَلَائِلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ فَهَذَا مُصِيبٌ فِي ذَلِكَ وَهُوَ الْحَقُّ. وَهَذِهِ جُمْلَةٌ لَا يَسَعُ هَذَا الْمَوْضِعُ تَفْصِيلَهَا» وَاَللهُ أَعْلَمُ.

٢٤- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك، بل كان مبتدعا وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤه فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن خالف قولهم وقرأ القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا».

٢٥- وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين؛ فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مراده ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس».

٢٦- وقال أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبهذا الأصل صار الدين لا يمكن أن يؤخذ بحكم العوائد والمحاكاة وما تعلمه من الجاهلين، وإنما يؤخذ حقا تعلما عن أهل العلم الحقيقيين الذين يستمدون فهومهم عن عناصر الدين الأولية التي هي الكتاب والسنة على مقتضى فهوم الأولين من علماء الإسلام الذين إذا تكلموا على العقائد بينوها وبينوا مأخذها وأدلتها وشرحوا ما أذن لهم شرحه وتوقفوا فيما لا مجال للعمل منه أو ردوه إلى ما وضح معناه.

الدكتور يحيى بن إبراهيم بن خليل بن إسحاق

إيميل: yahyaabraham1965@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا. أما بعد:

فإن نعم الله عَزَّوَجَلَّ على عباده كثيرة، ومن أعظم النعم التي امتَنَّ الله بها على هذه الأمة أن خصها بهذا النبي الكريم، عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، وخصها بهذا الكتاب، الذي هو أفضل الكتب وأتمها وأكملها، المتضمن كلام الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

امتَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأمة بجعل مصدر تشريعها ودينها هذين المصدرين العظيمين: الكتاب والسنة، وقد وَكَلَ الله عَزَّوَجَلَّ حفظ الكتب السماوية السابقة إلى أهلها فضيعوها، وزادوا فيها، ونقصوا، وحرفوا كلام الله، وتجرأوا على كلام رسله، وإن أعظم هذه الملل اليهود والنصارى قد حُرِّفَتْ كتبهم في وقت مبكر من ذهاب أنبيائهم.

أما هذه الأمة فقد تكفل الله بنفسه حفظ دستورها فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

لذا ظلت الأمة من زمن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى يومنا هذا تتناقل كلام

الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون أي زيادة أو نقصان، ولو أراد إنسان في شرق الأرض، أو في غربها أن يزيد حركة إعراب بأن يخفض منصوبا أو ينصب مخفوضا، لصاح به المسلمون في أصقاع المعمورة، ولَمَّا تجرأ بعض الجهمية في العصور الأولى، وقرأ قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة، ليجعل موسى المتكلمَ والله هو السامعُ، وليس بمتكلم، لينفي عن الله صفة الكلام، لصاح به المسلمون وما خُدِعُوا هذه الخديعة، فكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، محفوظ في السطور والصدور، تتناقله الأمة كابرًا عن كابر مشافهة وكتابة، وكذا سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه من أعظم الميزات لهذه الأمة.

إن الله عَزَّوَجَلَّ حفظ لنا هذين المصدرين، لكن المشكلات وقعت من أهل الضلال والانحراف وأهل الأهواء والبدع، إذ حَرَّفوا في دلالات نصوص الوحي، وحَمَلُوا كلام الله وكلام رسوله على غير معناه الصحيح، فحرفوا الكلم عن مواضعه، فأهل الضلال والبدع قديما وحديثا يستدلون بنصوص الوحيين: الكتاب والسنة، نجد في كلامهم وفي كتبهم: قال الله، وقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهل يعني هذا أنهم على حق؟ الجواب: لا، لأنهم حَمَلُوا كلام الله على غير معناه الصحيح.

الخوارج الأوائل الذين قتلوا خيرة الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- قتلوهم وهم يستدلون بآيات من القرآن، قتلوا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال له

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَشْقَى الْأَوَّلِينَ؟**» قَالَ: الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**صَدَقْتَ، فَمَنْ أَشْقَى الْآخِرِينَ؟**» قَالَ: لَا عِلْمَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**الَّذِي يَضْرِبُكَ عَلَى هَذِهِ**»، وَأَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَى يَافُوخِهِ. ومع ذلك قتلوه بنصوص القرآن، لكن تأولوه على غير تأويله أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صفتهم فقال: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**».

والجهمية نفوا عن الله أسماءه وصفاته، واستدلوا على ذلك بنصوص الكتاب والسنة، وكذلك المعتزلة، بل أعظم الْفِرَقِ ضلالًا وانحرافا وهم الباطنية، الذين حكم عليهم علماء أهل الإسلام بالزندقة والردة عن الإسلام يستدلون بنصوص الوحيين، ولكنهم حَمَلُوا كلام الله وكلام رسوله على غير معناه الصحيح.

ولقد عرف المسلمون خلال التاريخ فرقا، وأفرادا سلكوا مسلك تحريف النصوص عن معناها، وتحريفها تحريفا يتوافق مع أفهامهم المنحرفة، فما تركوا من أمر الدين إلا حرفوه ولولا حماية الله ورعايته لهذا الذين لدرست معالمه وضاعت حدوده، لقد حرف الضالون الواجبات فصرفوا عن وجهها وهونوا على أتباعهم رميها وراء ظهورهم، وحرفوا المحرمات تحريفا جرأ العصاة على ارتكابها والولوغ فيها.

وحرفوا نصوص عذاب القبر ونعيمه، والساعة وأهوالها، والمعاد، والحشر والميزان، والجنة، والنار بحيث فقدت النصوص تأثيرها في نفوس العباد.

وحرفوا نصوص الصفات تحريفا أضعف صلة العباد بربهم، وأفقد

النصوص هيبتها إذ جعلها لعبة في أيدي المحرفين، يجتهدون ليلهم ونهارهم في صرفها عن وجهها بشتى أنواع التحريف.

ومن الأمثلة على الانحراف في فهم النصوص عند بعض المتقدمين: مانعوا الزكاة الذين زعموا أن قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٢] يدل على أن الزكاة تدفع للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط، فإذا مات فلا زكاة. ولذلك قاتلهم الصديق على منعها. والقرامطة الباطنية حرفوا:

الصلاة: بصلة الداعي إلى دار السلام.

والزكاة: بإيصال الحكمة إلى المستحق.

والصيام: بكتمان أسرارهم

والحج: السفر إلى شيوخهم.

والجنة: بالتمتع في الدنيا باللذات.

والنار: بالتزام الشرائع والدخول تحت أثقالها.

وباطنية الفلاسفة حرفوا:

الملائكة والشياطين بقوى النفس الطيبة والخبيثة.

وأن نصوص المعاد، والبرزخ، والجنة والنار أمثال مضروبة لتفهيم العوام، ولا حقيقة لها عندهم.

والمعتزلة حرفوا:

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

أي جرحه بأظفار المحن ومخالب الفتن

وبعض غلاة الصوفية حرفوا:

١- قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩]. أي تبلغ درجة معينة في الاقتراب منه، فإذا وصلتها فقد ارتفع عنك التكليف.

٢- وأن معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ ﴾ [الغاشية: ١٨]. أي إلى الأرواح كيف جالت في الغيوب.

٣- وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [الغاشية: ١٩] أشار الله تعالى إلى قلوب العارفين كيف أطاقت حمل المعرفة.

٤- ولما سئل بعضهم عن الحجة في الرقص؟ قال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾ [الزلزلة: ١].

وحرف بعض الغلاة:

١- البقرة المطلوبة للذبح في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧] بأنها عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٢- وأن المقصود بقوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرحمن: ١٩] علي وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٣- وأن قوله تعالى: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٢] الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٤- والشجرة الملعونة: بنوا أمية.

٥- وحرف بعضهم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه لا نبي بعدي**» بأنه تبشير بنبي سيأتي بعده اسمه: (لا).

وقال بعضهم:

إن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من بدل دينه فاقتلوه**» يدخل فيه: من انتقل من اليهودية والنصرانية إلى الإسلام، وأنه يجب قتله.

وإن كانت بعض هذه الفرق التي ظهرت في صدر الإسلام اندثرت في هذه العصور المتأخرة بأسمائها لكنها بقيت بمضمونها ومعتقداتها، فظهر في هذه العصور المتأخرة من تَطَاوَلَ على كلام الله وكلام رسوله، وبدأ يستشهد على ضلالاته التي ينشرها بين الناس بأدلة من القرآن والسنة، لكن هل هذا الاستدلال في مكانه؟ الجواب: لا، ولكنه أراد أن يُلَبِّسَ على عامة الناس، فوقع بعض العامة في شيء من الريبة والتردد وانطلت هذه الضلالة على بعض الجهال.

فتبين بهذا العرض أنه ليس كل من استدل بالقرآن والسنة يُعْتَبَرُ مُحِقًّا، إنما المحق الذي يستدل بالنص في مكانه، وبمعناه الصحيح، وبمراد الله، ومراد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا استدل الإنسان بكلام الله على غير مراده فهذا من أعظم الفرية، ومن أعظم الجرم، لأن هذا افتراء على الله عَزَّوَجَلَّ يُحَمِّلُ كلام الله ما لا يحتمل، فإنه لو أتى إنسان وقال: أنت أردت بكلامك كذا وكذا، على غير مرادك، لقلت له: كذبت أنا ما أردت بهذا الكلام هذا

المعنى. فكيف يفتري هؤلاء على الله وعلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَحْمِلُون كلامهما على غير مرادهما، ولهذا لابد من ضوابط وقواعد يُضْبَطُ به الاستدلال بنصوص الوحيين، لنعرف الحق من الباطل، ولنفرق بين المحق والمبطل.

وهذا الضابط هو فهم السلف؛ لأن تفسير السلف أصل أصيل، وركن ركين من أصول التفسير، ولا يجوز لطالب الحق إهماله، أو تركه؛ إذ بتركه يقع المسلم في مزالق خطيرة، وبإهماله يرتكب أخطاء كبيرة. ونجزم قلة الخطأ في تفاسير السلف؛ لأن لها خاصية من أهم الخصائص، ومزية من أهم المزايا التي امتازت بها تفاسيرهم. وأن غالب ما نُسب إلى آحادهم من أخطاء؛ إما أن يكون غير ثابت من جهة النقل، أو أنه فُهِمَ على وجه لم يقصدوه، أو حُمِل على سياق غير السياق الذي قيل فيه، أو مقام غير المقام الذي فسروا فيه. ومن هنا نجزم بضرورة المعرفة لأساليب السلف وطرقهم في تفسير الآيات؛ إذ بهذه المعرفة ترتقي مدارك الباحث، وتتأصل عنده مَلَكَة التفسير، التي من خلالها يُحْسِن فهم كتاب الله، وأن عدم معرفة طرقهم في التعبير عن المعاني من أكبر العوائق التي تحول دون فهم كلامهم، كما أن الجهل بها يوقع في إيهام الخلاف وكثرته بينهم، وكذا يوقع في تخطئتهم دون وجه حق.

إنَّ قضية الفهم عن الله سبحانه وتعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخطر وأهم القضايا، فهي أساس اختلاف الفرق والجماعات، وذلك باستعمال الدليل الواحد للشيء ونقيضه، ولا تنضبط هذه المسألة إلا بالسير على

قواعد واضحةٍ، وموازين دقيقةٍ، يُقتفى فيها أثر السلف، وطريقتهم في التعامل مع النصوص، ومن هنا كان الرجوعُ إلى فهم السلف الصالح حريـًا لفهم هذه النصوص الفهمَ الصحيح، وموافقة مراد الله عَزَّوَجَلَّ، ومراد رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ منها.

ومن زعم أن فهم السلف لا يلزم اتباعه، وأن العبرة بالنصوص نقول له: كيف نفهم النصوص؟ إن قال: نفهمها على القواعد التي وضعها أهل العلم، فقد ناقض نفسه. وإن قال: كل يفهم النصوص بحسب عقله، فقد قال قولا يضحك منه العقلاء. وإنما كان فهم السلف حجة علينا؛ لأن فهمنا ليس معصوما، لا سيما بعد انتشار العجمة.

أما فهم السلف فهو معصوم بدلالة النصوص القطعية التي تفيد أن الأمة لا تجتمع كلها على باطل.

وسبيلهم إنما يعرف بطريقتهم في التعامل مع الوحي، والتي يُعدُّ الفهم مرحلة أولية منها؛ لأنه مقدمة العمل وشرطه؛ ولذا قال عمر بن عبدالعزيز: سنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها وتبديلها ولا النظر فيما خالفها، من اقتدى بها مهتدٍ، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، ولَّاه الله ما تولى وصلَّاه جهنم وساءت مصيرًا ويقصد عمر بقوله: «ولاة الأمر من بعده»: الخلفاء الراشدين.

ولا شك أن هذا الفهم هو الذي يعصم المجتمع من التمزق والحروب

الداخلية الناجمة عن رؤية وفهم الخوارج كما يعصمه من التحلل وانتشار الفساد والجريمة الناجمة عن الرؤية الإرجائية ذلك الفهم الذي يجمع بين العلم والعمل.فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا. لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

من الكلام السابق يتبين لنا أهمية الموضوع:

وخلاصتها من خلال النقاط التالية:

١- قضية الفهم عن الله سبحانه وتعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخطر وأهم القضايا، فهي أساس اختلاف الفرق، وذلك باستعمال الدليل الواحد للشيء ونقيضه، ولا تنضبط هذه المسألة إلا بالسير على قواعد واضحةٍ، وموازين دقيقةٍ، يُقتفى فيها أثر السلف، وطريقتهم في التعامل مع النصوص.

٢- التأكيد على أهمية منهج السلف في فهم النصوص، وبيان فضله؛ لكونه الأولى بالاتباع والاقتفاء.

٣- تحقيق التوازن في حياة الأمة بعيداً عن الهوى والعبث، وحفظ الفرد والجماعة من التيه والضلال من خلال ترسيخ الفهم الصحيح للنص الديني، وبيان دوره في ريادة الأمة.

أسباب اختيار الموضوع:

١- ما ذكرته سابقـًا من أهمية الموضوع هو من أهمِّ أسباب اختياره.

٢- حال الأمة في واقعنا المعاصر وما تمرُّ به من فُرقةٍ وتشتتٍ واختلافٍ، وأمنيتي أن يكونَ لي بصمةٌ في جمع كلمة المسلمين قدر الإمكان.

٣- ما لهذا الموضوع من أهميةٍ عظيمةٍ للأمة الإسلامية؛ لكونه يجمع المنتسبين لأهل السنة والجماعة تحت لواءٍ واحدٍ.

٤- إثراءُ المكتبة الإسلامية بدراسةٍ علميةٍ تكون لها فائدةٌ عمليةٌ في واقع المسلمين وحياتهم.

٥- أن فهم السلف من أسباب معرفة معاني النصوص الشرعية وإدراك مراد الله تعالى، ومن ثم معرفة الاعتقاد الحق بما يوجب بيان محدداته وعلاماته.

٦- أن فهم السلف له معايير وقواعد يمكن من خلالها ضبط معيار الحق والباطل في الاعتقاد.

٧- ما يثار حول فهم السلف من إشكالات وشبهات تتعلق بحقيقته ومعاييره وأهميته، الأمر الذي يدعو إلى دراستها دراسة موضوعية وعلمية.

٨- ما يترتب على إهمال فهم السلف أو عدم اعتباره من آثار سلبية على العقيدة مما يوجب بيان هذه الآثار.

٩- أن إجلاء الحقيقة في منزلة السلف من الاعتقاد مما يعصم -بإذن الله- من التفرق والاختلاف في العقول والأهواء.

١٠- قلة البحوث حول هذا الموضوع.

١١- خطورة الانحراف عن فهم السلف وتعدد الفهوم من آثاره:

أ- الوقوع في الكفر، قال القاضي عياض: «أجمع المسلمون على تكفير من قال من الخوارج: إن الصلاة طرفي النهار، وعلى تكفير الباطنية في قولهم: إن الفرائض أسماء رجال أمروا بولايتهم، والخبائث المحارم أسماء

رجال أمروا بالبراءة منهم، وقول بعض المتصوفة: إن العبادة وطول المجاهدة إذا صفت نفوسهم أفضت بهم إلى إسقاطها، وإباحة كل شيء لهم ورفع عهد الشرائع»[(١)].

ب- الوقوع في البدع: من أسباب ظهور البدع والأهواء والفرق سوء الفهم للنصوص كبدعة الخوارج، وبدعة الرافضة، وبدعة المرجئة، والجهمية، والممثلة.

ت- العبث بالشرع والجرأة في تفسير النصوص الشرعية دون ضوابط علمية دقيقة ومطردة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

أسئلة البحث:

يحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- ما مفهوم فهم السلف وحقيقته؟.

٢- ما هي القواعد التي يتأسس عليها فهم السلف؟

٣- ما خصائص فهم السلف وسماته العامة؟

٤- ما الضابط في معرفة فهم السلف؟

٥- هل فهم السلف حجة أم لا؟

٦- ما أثر فهم السلف الصالح؟

٧- ما الاستشكالات المثارة حول فهم السلف وكيف يمكن مناقشتها؟

---

(١) الشفا٢/ ٢٨٨.

الدراسات السابقة:

لم أجد من بحث هذا الموضوع في بحث مستقل إلا بحثين هما:

١- فهم السلف الصالح للنصوص الشرعية للدكتور عبدالله بن عمر الدميجي وهو بحث مختصر تطرق فيه مؤلفه لمعنى فهم السلف وحقيقته وأهميته بشكل مقتضب.

٢- فهم السلف: حقيقته، وأهميته، وموقف الاتجاهات المعاصرة منه دراسة عقدية رسالة الماجستير قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة. جامعة القصيم.

منهج البحث:

أولا: في تأصيل القاعدة:

تتبعت نصوص الكتاب والسنة الدالة على حجية القاعدة وصنفتها حسب موضوعاتها الدالة عليها.

تتبعت أقوال العلماء من الصحابة وغيرهم التي تدل على حجية القاعدة من حيث تأصيلها، ومن حيث تفريعها.

أفردت أقوال المذاهب الأربعة الدالة على حجية القاعدة من حيث التأصيل والتفريع لما لهم من الأتباع من يثق بأقوالهم.

أفردت أقوال سائر العلماء من الفقهاء والمحدثين من حيث التأصيل والتفريع.

ثانيا: في بيان أثر القاعدة سرت على المنهج التالي:

عنوان الموضوع.

ثم ذكر النصوص الدالة على الموضوع من الكتاب والسنة.

ثم ذكر فهم السلف للنصوص المذكورة.

ثم ذكر مخالفة الخلف للسلف في فهمهم للنصوص.

ثم ذكر شبهاتهم، والجواب عنها.

ثالثا: عملي:

بالنسبة للآيات القرآنية: بينت رقم الآية مع ذكر سورتها في صلب البحث.

خرجت الآحاديث من مصادرها الأصلية، وحكمت عليها بنقل أقوال المحدثين.

وثقت النقول من مصادرها الرئيسية.

عملت فهارس للمصادر، والموضوعات.

خطة البحث:

البحث يتكون من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

أما المقدمة، فيشمل على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث، وخطة البحث، والدراسات السابقة.

وأما التمهيد، فيشمل على الآتي:

مكانة السلف الصالح.

مفهوم القاعدة.

قواعد ها.

خصائصها.

ضوابطها.

وأما الباب الأول: ففي حجيتها. وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأدلة النقلية على حجية القاعدة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: حجيتها في القرآن الكريم، وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات الدالة على خيرية هذه الأمة.

المطلب الثاني: الآيات الدالة على حجية الإجماع.

المطلب الثالث: الآيات الآمرة بلزوم الجماعة والناهية عن الفرقة.

المطلب الرابع: الآيات التي تأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصدقين.

المطلب الخامس: الآيات التي جاءت في مدح الراسخين في العلم.

المطلب السادس: الآيات التي تدل على فضل الصحابة.

المطلب السابع: الآيات التي تدل على وجوب اتباع السلف.

المطلب الثامن: الآيات التي تحذر من الغلو في الدين.

المطلب التاسع: الآيات التي تحذر من البدعة.

وأما المبحث الثاني: ففي حجيتها في السنة الصحيحة، وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: الأحاديث الدالة على خيرية هذه الأمة وتزكية الشارع لهم.

المطلب الثاني: الأحاديث الآمرة بلزوم الجماعة.

المطلب الثالث: الأحاديث التي جاءت في مدح الراسخين في العلم

المطلب الرابع: الأحاديث التي تأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصدقين.

المطلب الخامس: الأحاديث التي تدل على فضل الصحابة.

المطلب السادس: الأحاديث التي فيها دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابة بأن يعلمهم التأويل.

المطلب السابع: الأحاديث التي تدل على وجوب اتباع السلف.

المطلب الثامن: الأحاديث التي تحذر من الغلو في الدين.

المطلب التاسع: الأحاديث التي تحذر من البدعة.

وأما المبحث الثالث: ففي حجيتها في الإجماع، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حجيتها عند الصحابة، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تأصيل القاعدة عندهم، وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: تصريحهم بأنهم أعمق فهما وعلما.

الفرع الثاني: إنكارهم على من خالف فهمهم.

الفرع الثالث: حثهم الناس على اتباعهم في الفهم والعمل.

المسألة الثانية: تفريعهم على القاعدة.

المطلب الثاني: حجيتها عند المذاهب الأربعة، وفيه أربع مسائل:

المسألة الأولى: حجتها عند الأحناف، وفيه سبعة فروع:

الفرع الأول: تأصيل الأحناف القاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة في بيان مجمل النصوص.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة في صرف الأمر من الوجوب إلى الندب.

الفرع الخامس: استدلالهم بالقاعدة في الرد على المخالف.

الفرع السادس: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع السابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية

المسألة الثانية حجيتها عند المالكية، وفيه ثمانية فروع:

الفرع الأول: تأصيل القاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: تقديمهم القاعدة على الآثار في بعض المسائل.

الفرع الرابع: تقديمهم القاعدة على القياس.

الفرع الخامس: استدلالهم بالقاعدة في بيان المراد من نصوص الكتاب والسنة:

الفرع السادس: جعلهم القاعدة دليلا على المنسوخ.

الفرع السابع: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الثامن: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

حجيتها عند الشافعية، وفيه ستة فروع:

الفرع الأول: تأصيل الشافعية القاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على طهورية الماء وعدمه.

الفرع الخامس: جعلهم القاعدة ميزانا لصحة المذهب.

الفرع السادس:استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

المسألة الرابعة: حجيتها عند الحنابلة، وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: تأصيل الحنابلة للقاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة

الفرع الثالث: الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية:

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية

المطلب الثالث: حجيتها عند سائر العلماء، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: حجيتها عند الفقهاء المجتهدين، وأئمة أهل الكلام المثبتين، وأئمة الصوفية، وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: تأصيلهم للقاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

المسألة الثانية: حجيتها عند علماء الحديث، وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: تأصيلهم القاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

الفصل الثاني: الأدلة العقلية على حجية القاعدة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ميزات السلف.

المبحث الثاني: خصائص السلف.

المبحث الثالث: قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

الباب الثاني: أثر القاعدة:

الفصل الأول: أثرها على الاتجاهات المنحرفة في التفسير، وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: أثرها على تفسير الخوارج.

المبحث الثاني: أثرها على تفسير الشيعة.

المبحث الثالث: أثرها على تفسير المعتزلة.

المبحث الرابع: أثرها على تفسير الأشاعرة.

المبحث الخامس: أثرها على تفسير الصوفية.

المبحث السادس: أثرها على تفسير أصحاب التفسير العلمي.

المبحث السابع: أثرها على تفسير مدعي التجديد.

الفصل الثاني: أثرها على العقيدة، وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: أثرها على الإيمان، وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: أثرها على مفهوم الإيمان.

المطلب الثاني: أثرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الثالث: أثرها على شعب الإيمان.

المطلب الرابع: أثرها على العلاقة بين الإسلام والإيمان.

المطلب الخامس: أثرها على الاستثناء في الإيمان.

المطلب السادس: أثرها على تفاضل أهل الإيمان في الإيمان.

المطلب السابع: أثرها على الأسماء والأحكام.

المطلب الثامن: أثرها على الخروج على الإمام.

المبحث الثاني: أثرها على التوحيد فيما يتعلق بذات الله، وفيه أربعة مطالب.

المطلب الأول: أثرها على تقسيم التوحيد.

المطلب الثاني: أثرها على الربوبية، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أثرها على ادعاء علم الغيب.

المسألة الثانية: أثرها على ادعاء تصرف الخلق في الكون.

المطلب الثالث: أثرها على الألوهية، وفيه خمس عشرة مسائل:

المسألة الأولى: أثرها على أول واجب على المكلف.

المسألة الثانية: أثرها على مفهوم التوحيد.

المسألة الثالثة: أثرها على معنى (لا إله إلا الله)

المسألة الرابعة: أثرها على الدعاء.

المسألة الخامسة: أثرها على التبرك.

المسألة السادسة: أثرها على التوسل.

المسألة السابعة: أثرها على القبور.

المسألة الثامنة: أثرها على شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة.

المسألة التاسعة: أثرها على الذبح.

المسألة العاشرة: أثرها على الرقى الشركية والتمائم.

المسألة الحادي عشرة: أثرها على الاستعانة بالجن.

المسألة الثانية عشرة: أثرها على دخول الجن في الإنس.

المسألة الثالثة عشرة: أثرها على السحر.

المسألة الرابعة عشرة: أثرها على النشرة.

المسألة الخامسة عشرة: أثرها على العين.

المطلب الرابع: أثرها على الأسماء والصفات، فيه مسألتان:

المسألة الأولى: أثرها على الأسماء الحسنى.

المسألة الثانية: أثرها على الصفات العليا.

المبحث الثالث: أثرها على الملائكة.

المبحث الرابع: أثرها على الكتب.

المبحث الخامس: أثرها على الرسل.

المبحث السادس: أثرها على الإيمان باليوم الآخر.

المبحث السابع: أثرها على الإيمان بالقدر.

الفصل الثالث: أثرها على السنة والبدعة، وفيه ثلاثة عشر مبحثا:

المبحث الأول: أثرها على الابتداع في الدين.

المبحث الثاني: أثرها على القرآن.

المبحث الثالث: أثرها على الذكر.

المبحث الرابع: أثرها على الطهارة.

المبحث الخامس: أثرها على الصلاة.

المبحث السادس: أثرها على الزكاة.

المبحث السابع: أثرها على الصيام.

المبحث الثامن: أثرها على الحج.

المبحث التاسع: أثرها على البيوع.

المبحث العاشر: أثرها على النكاح.

المبحث الحادي عشر: أثرها على الأزمنة.

المبحث الثاني عشر: أثرها على الأمكنة.

المبحث الثالث عشر: أثرها على الأناشيد التي تسمى بالأناشيد الإسلامية.

الباب الثالث: الأسئلة الواردة عليها.

الفصل الأول: أسباب تنصل العصرانيين الإسلاميين من الالتزام بفهم السلف للنصوص الشرعية وعدم اعتماده.

الفصل الثاني: الشبهات والجواب عنها.

https://t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

التمهيد

وفيه :

- مكانة السلف الصالح .
- مفهوم القاعدة.
- قواعد ها .
- خصائصها .
- ضوابطها .

مكانة السلف الصالح

إنَّ للسلف الصالح مكانةً عظيمةً، ومنزلةً رفيعةً في نفس كل مسلمٍ صادق، فحُبُّهم دينٌ وإيمانٌ، واتباعهم شرفٌ واهتداءٌ، ومخالفتهم ضلالٌ وانحرافٌ، وبغضهم نفاقٌ وطغيانٌ، ومن عظيم مكانتهم، أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا أثنى عليهم في كتابه الكريم، وأثنى عليهم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة المطهرة، لما لهم من المحاسن والفضائل التي لا يمكن أن يلحقهم فيها من جاء بعدهم، فهم خير من جاء في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن ثناء الله سبحانه وتعالى على السَّلف في كتابه العزيز، قولُه تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠] ففي هذه ا لآية «أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم، أو سَبَّهم، أو أبغض، أو سبَّ بعضَهم»[(١)].

وقد أثنى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السلف ثناءً عطراً، ويكفيهم فخراً أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان راضياً عنهم، وشهد بخيريتهم، ومن ثنائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السلف عامةً والصحابة خاصةً، قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تسبوا أحداً من أصحابي فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[(٢)]؛

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٣.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٣٤٣ برقم: ٣٦٧٣.

بل لقد جاء في فضلهم ما هو أعظم من ذلك، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «لا تسبوا أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن مَقام أحدهم ساعةً -يعني مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أفضل من عمل أحدكم عمره»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيان خيريتهم: «**خيرُكم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(٢)] فهذا دليلٌ على أفضلية السلف، وعلى أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الوجود، فقد تركهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على محجةٍ بيضاء صافيةٍ، فعن العِرباض بن ساريةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**وعظنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موعظةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودعٍ، فماذا تعهد إلينا؟ قال: قد تركتكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ، ومن يَعشْ منكم، فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**»[(٣)].

ولقد فاض كلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، في الثناء على السلف، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير

---

(١) الاعتقاد للبيهقي ١/ ٣٢١ وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٧/ ١٣٢٣ برقم: ٢٣٥٠.

(٢) صحيح البخاري ٨/ ٩١ برقم: ٦٤٢٨.

(٣) خرجه أحمد ٢٨/ ٣٧٣ برقم: ١٧١٤٤ وأبو داوود في السنن ١٢/ ٢٣٤ برقم: ٤٥٩٤ بالعون والترمذي٥/ ٤٣ برقم: ٢٦٧٦ وقال: حسن صحيح وقال الهروي: هذا من أجود حديث في أهل الشام وقال البزار: حديث صحيح ثابت وقال ابن عبدالبر: حديث ثابت.

قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه»[(١)].

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا: «من كان منكم متأسيًا فليتأسَّ بأصحاب محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالاً، قومًا اختارهم الله سبحانه وتعالى لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتَّبعوهم في آثارهم؛ فإنَّهم كانوا على الهدي المستقيم»[(٢)].

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم، فلعَمري لئن اتبعتموه، لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالًا، لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»[(٣)].

ولقد امتلأت مصنفات علماء الإسلام، عبر القرون الإسلامية، بالثناء على ما كان عليه الرعيلُ الأول من الصحابة والتابعين ومن بعدهم؛ وما كانوا عليه من الهدى في العلم والعمل، فقد قال الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم ما جاء عن أصحاب محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما لم يجئ عن واحدٍ منهم، فليس بعلمٍ»[(٤)].

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٨٤ برقم: ٣٦٠٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٤٧ برقم: ١٨١٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

وقال أيضاً: «اصبر نفسك على السنة، وقِف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا وكفَّ عما كفُّوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم»[(١)].

وقال الحافظ ابن رجبٍ الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ابتُلينا بجهلةٍ من النَّاس، يعتقدون في بعض من توسَّع في القول من المتأخرين، أنَّه أعلم ممَّن تقدَّم، فمنهم من يظنُّ في شخصٍ أنَّه أعلم من كلِّ من تقدم من الصحابة ومن بعدهم؛ لكثرة بيانه ومقاله، وهذا تنقُّصٌ عظيمٌ بالسلف الصالح، وإساءة ظنٍ بهم، ونسبته لهم إلى الجهل، وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(٢)].

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصحابُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيار المؤمنين»[(٣)].

وقال في موضعٍ آخرَ: «ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبَّر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهلُ السنة والجماعة من جميع الطوائف، أنَّ خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كلِّ فضيلةٍ، القرنُ الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وأنَّهم أفضل من الخلف في كلِّ فضيلةٍ، من علمٍ، وعملٍ، وإيمانٍ، وعقلٍ، ودينٍ، وبيانٍ، وعبادةٍ، وأنّهم أولى بالبيان لكلِّ مُشكِلٍ، وهذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علمٍ»[(٤)].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٣٤ برقم: ٣١٥.

(٢) انظر فضل علم السلف على الخلف ٥.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٥/ ٥٩.

(٤) المرجع السابق ٤/ ١٥٧.

وبناءً على ما سبق من بيان فضل السلف ومكانتهم، فإنَّ أفضل ما ورد في تفسير القرآن، ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام، هو ما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة الإسلام المشهورين، المُقتدى بهم، وفي ذلك يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ خطباؤه، قليلٌ سؤاله، كثيرٌ مُعطوه، العمل فيه قائدٌ للهوى، وسيأتي من بعدكم زمانٌ، قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ خطباؤه، كثيرٌ سؤاله، قليلٌ مُعطوه، الهوى فيه قائدٌ للعمل، اعلموا أن حسن الهدي، في آخر الزمان، خيرٌ من بعض العمل» (١).

وختامًا فإنَّ الاشتغال بتعلم عقيدة السلف وطريقتهم في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة هو من أشرف ما تُقضى فيه الأوقات، وهو العلم النافع بلا شكٍّ، كما قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعلم النافع من هذه العلوم كلِّها، ضبطُ نصوص الكتاب والسنَّة، وفهمُ معانيها، والتقيُّدُ في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف، وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحِه من سقيمِه أولاً، ثمَّ الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهُّمِه ثانيًا، وفي ذلك كفايةٌ لمن عقل، وشغلٌ لمن بالعلم النافع عُنِي واشتغل» (٢) رزقنا الله العلم النافع بفهمٍ وعملٍ، اللهم آمين.

❁❁❁

(١) الأدب المفرد ١/ ٢٦٥ وحسنه الألباني.

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف ص٦.

مفهوم القاعدة باعتبار مفرديه:

أولا: الفهم لغةً:

جاء في لسان العرب، الفهم هو: «معرفة الشيء بالقلب، وفهمتُ الشيء: عقلتُه وعرفتُه»[(١)].

وقال ابن فارس: «الفاء والهاء والميم عِلمُ الشيء»[(٢)].

وجاء في القران الكريم قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩] أي: «علمناه حقيقة القضية، وحسن الحكومة»[(٣)].

وممَّا سبق يتبين أنَّ المعاني اللغوية تتفق على أن الفهم هو العلم بالشئ ومعرفتُه بالقلب، ونُسبت المعرفة إلى القلب؛ لأنَّها هي المعرفة النافعة التي تُؤثر في حصول الشئ وتحققه، وإذا وقر الشيء في القلب صار له أثرٌ في الجوارح.

ثانيا: الفهم عن الله ورسوله أي العلم والمعرفة بمعاني كلام الله وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والفقه أخص من الفهم. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفقه أخص من الفهم وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة»[(٤)].

---

(١) لسان العرب ١٢/ ٤٥٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٤٥٧.

(٣) أوضح التفاسير ١/ ٣٩٦.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٢٥٩.

ثالثا: أقسام الفهم: **وينقسم الفهم إلى نوعين هما:**

أ – الفهم الصحيح: هو الفهم المستمد من كتاب الله، ومن سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الموافق لفهم أئمة السلف الصالح.

ب– الفهم الفاسد: وهو الذي لم يُستمد من كتاب الله، ولا من سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو المخالف لفهم أئمة وعلماء السلف.

وصاحب هذا الفهم يفسد أكثر مما يصلح، كما قال عليٌّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنه لا خير في عبادةٍ لا علم فيها، ولا خير في علمٍ لا فهم فيه»[(١)].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «سوء الفهم عن الله ورسوله، أصل كل بدعةٍ وضلالةٍ نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأٍ في الأصول والفروع»[(٢)]، ويقول أيضًا في بيان أنَّ الآفة في الذهن العليل، لا في نفس الدليل:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا وآفتُه من الفهم السقيمِ[(٣)]

رابعًا: السَّلَف لغةً:

السلف في اللغة هو التَقدُّم والسبق، قال ابن فارس: «السين واللام والفاء أصلٌ يدلُّ على تَقدُّمٍ وسبقٍ، من ذلك السلف: الذين مضوا، والقوم السُّلَّاف: المتقدِّمون، والسُّلْفة: المُعجَّل من الطعام قبل الغداء»[(٤)].

---

(١) مسند الدارمي ١/ ٣٣٩ برقم: ٣٠٦.

(٢) الروح ١/ ٦٣.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٣١٩.

(٤) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٩٥.

والسلف من تقدَّمك من آبائك وذوي قرابتك، الذين هم فوقك في السنِّ والفضل؛ ولهذا سُمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح [(١)].

وقد استعُملت كلمة «سلف» في القرآن الكريم على المعنى نفسه، في ثمانية مواضع، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥]، أي: ما سبق وتقدم، ويدلُّ على هذا، قولُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنته فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لما أخبرها بدنو أجله: ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك [(٢)].

ومن خلال التعريف اللغوي لكلمة «سَلَفَ»، يتبين أنها تدور في أغلب استعمالاتها حول معنى التقدُّم والمضي والسبق الزمني.

خامسًا: السَّلَف اصطلاحًا:

كلمة السلف من حيث المعنى الاصطلاحي، لها إطلاقان، كما يلي:

أ- المفهوم التاريخي للمصطلح: وهو اطلاقه على حقبةٍ زمنيةٍ مُعينةٍ، تختص بأهل القرون الفاضلة الثلاثة المتقدمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فهي متضمنةٌ للمنهج والزمان، ويدلُّ عليه قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم [(٣)].

---

(١) لسان العرب ٩/ ١٥٩.

(٢) صحيح البخاري ٨/ ٦٤ برقم: ٦٢٨٥.

(٣) المرجع السابق ٣/ ١٦١.

واختلُف في تحديد مفهوم السلف زمنيًا على عدة أقوالٍ، كما يلي:

القول الأول: من قَصَرَه على جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقط، وهو استعمال بعض التابعين[(١)]، وهذا الاستعمال صحيح في حقهم؛ لأنهم لم يسبقهم إلى طريق الحق والهداية إلا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهم سلف لهم، والتابعون سلفٌ لنا؛ ولهذا قد يكون الرجل سلفيـًا متبعـًا لمن سبقه، ثمَّ يصبح سلفـًا مُتبَعـًا عند من بعده، وهذه خيرية هذه الأمة أنَّ كلَّ جيلٍ من أجيالها يوصل الخير للجيل الذي يليه.

القول الثاني: من قَصَرَه على جيل الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإليه ذهب أبو حامد الغزالي في قوله: «اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر، هو مذهب السلف، أعني مذهب الصحابة والتابعين»[(٢)].

القول الثالث: أنهم الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أي: القرون الثلاثة التي أثبت لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخيرية، وإليه ذهب أكثر أهل العلم قديما وحديثا[(٣)]، وعليه يدلُّ صنيع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول: «سلف الأمة وخيار قرونها»[(٤)].

والقول الذي عليه جمهور العلماء، أن السلف بالمفهوم الزمني هم أصحاب القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،

---

(١) المرجع السابق ٤/ ٣٠.

(٢) إلجام العوام عن علم الكلام ص٥٣.

(٣) التحف في مذاهب ص٦-٨ ولوامع الأنوار البهية ١/ ٢٠.

(٤) درء تعارض العقل والنقل ٦/ ٣٤.

ومنهم من زاد فيه إلى عصر الإمام أحمد بن حنبل ت٢٤١هـ.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي زماننا يتعين كتابة كلام السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي وأحمد»[(١)]، وقد أشار إلى ذلك الإمام الآجري من قبل وغيره من المتقدمين[(٢)] أمَّا لفظ الخَلَف فإنّه يُطلق على من جاء بعد هذه الفترة إذا كانوا على الإسلام والحق، أمَّا المُغيِّرون والمنحرفون فيقال لهم: الخَلْف بسكون اللام، بمعنى: خالف بسوءٍ، فالخلَفَ معهم الإيمان، ولكن هم أنقص من السلف، والخَلْف خَلَف سوءٍ، كما في قول الله تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ۝٥٩ ۞﴾ [مريم: ٥٩]، فالخلَف بالفتح الصالح، وبالجزم الطالح، وخَلْف بالإسكان تُستعمل في الذم، وخَلَف بالفتح في المدح، ومنه قيل للرديء من الكلام: خَلْفٌ، وهذا هو المستعمل المشهور[(٣)].

وينبغي التنبيه إلى أنَّنا إذا قلنا بأنَّ المراد بالسلف زمنيًا هم أهل القرون الثلاثة المفضلة، فليس معناه أنَّ كلَّ من عاش في هذه القرون يُعد سلفًا يُقتدي بهم؛ وذلك لوجود بعض أئمة أهل البدع والأهواء في تلك الحِقبة، ففيها خرجت الخوارج في عهد الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب، وفيها ظهر التشيع والروافض على يد ابن سبأ اليهودي الذي ادعى الإسلام،

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف ص٦٠.

(٢) الشريعة للآجري ١/ ١٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣١١.

وزعم محبة آل البيت، وفيها نبتت فتنة القدرية، وفيها أيضًا ظهرت بدعة الإرجاء، وفيها ظهر التجهم، والاعتزال؛ وبهذا يتضح أن القرون الثلاثة عاش فيها سلفٌ صالحٌ يُقتدي به، كما عاش فيها أصحاب أهواءٍ وابتداعٍ، أدخلوا على الإسلام والمسلمين أمورًا ليست من الدين، وفتحوا عليهم أبواب شرٍ عظيمٍ، ما زالت الأمة تعاني من آثاره إلى اليوم، ولكن أصحاب هذه البدع شكَّلوا حالاتٍ فرديةً شاذةً في أغلبها، لا تُمثِّل أهل تلك الحقبة الزمنية المباركة [(١)]؛ ولذلك فإن السبق الزمني ليس كافيًا في تعيين السلف؛ بل لا بد أن يُضاف إلى هذا السبق الزمني، موافقةَ الكتاب والسنة، فمن خالف رأيُه الكتاب والسنة، فليس بسلفيٍ وإن عاش بين ظهراني الصحابة والتابعين، ولذا فمن المستحسن تقييدُ هذا المصطلح إما بالجمهور؛ ليخرج منهم الشواذ، أو بوصف السلف الصالح، ليخرج الطالح من أهل الأهواء، فتقييد لفظ السلف بالمفهوم المنهجي هو الضابط الأساس في تحديد مفهوم السلف، وما تقدم من حقبة تاريخية هي في الحقيقة راجعةٌ إليه ومُقيَّدةٌ به [(٢)].

ب- المفهوم المنهجي لمصطلح السلف: وهو إطلاق التعريف على منهجٍ محددٍ، غير مرتبطٍ بزمنٍ مُعينٍ؛ بل بالطريقة التي كان عليها الصحابة والتابعون، ومن تبعهم بإحسان، من التمسك بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، قولاً وعملاً [(٣)].

---

(١) فهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة ص١٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ١/ ٣٥-٣٦.

فالسلف بالمفهوم المنهجي هو: «ما كان عليه الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شُهد له بالإمامة، وعُرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلفٍ، دون من رُمي ببدعة، أو شُهر بلقبٍ غير مرضيٍ، مثل: الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة، والجبرية، والجهمية، والمعتزلة، والكرَّامية، ونحو هؤلاء»[(١)] فمن تلبس بشيءٍ من هذه الأهواء والبدع فلا يُعد من السلف المقتدى بهم، ولو عاش في تلك القرون المفضلة، ويشهد لهذا المفهوم المنهجي ما ورد في بعض روايات حديث الافتراق، عندما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفرقة الناجية: وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين ملةً، كلُّهم في النار إلا ملةٌ واحدةٌ، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي[(٢)] فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يربط الفرقة الناجية بما كان عليه أهل فترةٍ زمنيةٍ مُحددةٍ، وإنما بمنهجٍ واضحٍ محدد المعالم، وهو ما عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا يشمل كل ما كانوا عليه في الاعتقادات والعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك[(٣)].

وبناءً على ذلك فمفهوم السلف مرتبطٌ بهذا المنهج، وإنْ تأخَّر به الزمان، فمن التزمه فهو سلفيٌّ، وإن كان في العصور المتأخرة، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «هل يُمكن أن تكون السلفية في وقتنا الحاضر؟ نعم يمكن،

(١) لوامع الأنوار البهية ص٢٠.

(٢) جامع الترمذي ٥/ ٢٦ برقم: ٢٦٤١ وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) فهم السلف الصالح للنصوص الشرعية ص٢٨.

ونقول: هي سلفيةُ عقيدة، وإن لم تكن سلفيةً زمنـًا؛ لأن السلف سبقوا زمنـًا، لكن سلفية هؤلاء سلفيةُ عقيدة؛ بل عقيدةٌ وعملٌ»[(١)].

وبناء على ما سبق؛ فإنَّ المنتسبين للسلف لا يحصرهم مكانٌ ولا زمانٌ، فهم بحمد الله موجودون في أكثر من مكانٍ، وأكثر من بلدٍ، وهم في أرض الله الواسعة منتشرون، كما قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة: «ويحتمل أنَّ هذه الطائفة مُفرقةٌ بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواعٍ أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين؛ بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض، وفي هذا الحديث معجزةٌ ظاهرةٌ، فإنَّ هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتيَ أمر الله»[(٢)].

❁❁❁

(١) شرح العقيدة السفارينية ص١٩.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٦٧.

مفهوم القاعدة باعتباره لقبا

فهم السلف هو: ما كانوا عليه من تأويل، أو بيان، أو استنباط، أو فعل، أو ترك، أو إمساك مما أجمعوا عليه، أو اختلفوا فيه لا يخرج من جماعتهم، او طريقتهم في التعامل مع النصوص [(١)].

الشرح: أن المقصود بفهم السلف: إجماعهم على قول، أو على قولين، ويدخل في معنى إجماعهم ما إذا قال الصحابي قولا واشتهر ولم يعلم له مخالف من الصحابة، وهو الإجماع السكوتي. قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلموا أن جميع هذه الفرق متفقة على أن إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إجماع صحيح، وقائلون بأن كل ما اشتهر فيهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولم يقع منهم نكير له فهو إجماع صحيح [(٢)].

أو إجماعهم على طريقة التعامل مع النصوص استدلالا واستنباطا.

ويكون إجماعهم على فهم النصوص:

- تأويلا وبيانا واستنباطا وأمثلته أكثر من أن تحصى كما نقلت عنهم كتب التفسير بالمأثور.
- كما يكون فعلا، أوتركا؛ إذ كلُّ اعتقادٍ وعملٍ تعبديٍ اعتقده السلف

---

(١) قلت: هذا المفهوم لفهم السلف عرضته على سماحة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك ليلة الثلاثا الموافق ٤/ ٦/ ١٤٣٩هـ بين المغرب والعشاء في مقر درسه في المسجد بعد عرض أقوال الأئمة على سماحته، فقال لي: هذا المفهوم مستمد من أقوال الأئمة وأصولهم فاعتمده وبعد الجلسة وقبل صلاة العشاء كتبت هذا التعليق في مسجده.

(٢) الإحكام ٤/ ٤٣٩.

الصالح، وعملوا به تقربًا إلى الله سبحانه وتعالى، إنما هو مبنيٌّ على ما فهموه من نصوص الكتاب والسنة، الدالة على ذلك، وكلُّ اعتقادٍ أو عملٍ تعبديٍّ تركه السلف مع وجود المقتضى، فهو مما لم تدل عليه النصوص؛ ولذلك وجب على المتعبِّد لله جَلَّ وَعَلَا، أن يبحث عن فهم السلف للنصوص الشرعية، ويلتزم به.

قال الحطاب في مسألة البناء في الرعاف: «واختار مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ البناء على اتباع السلف، وإن خالف ذلك القياس. وهذا على أصله أن العمل أقوى من القياس؛ لأن عمل السلف المتصل لا يكون أصله إلا عن توقيف»[(١)]. وقال بعض المالكية: فيجوز للعمل أي عمل السلف الصالح بذلك وما عملوا إلا لفهم الجواز من السنة.

وأمثلته كثيرة: منها: أن الصحابة كانوا يتبركون بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التبرك الذاتي الحسي فقد تبركوا بوضوئه، وشعره، وثيابه فهذا الفعل هو فهمهم، وأجمعوا على ترك التبرك الحسي بغيره حتى بأبي بكر فهذا الترك هو فهمهم للنصوص.

ومنها: أن السلف أجمعوا على التوسل بدعاء الحي الحاضر فقد توسلوا بدعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما توسلوا بدعاء عباس، وبدعاء يزيد بن الأسود الجرشي فهذا الفعل هو فهمهم من النصوص، كما أجمعوا على ترك التوسل بدعاء الميت، أو الغائب ومن هنا عدلوا بعد وفاة النبي

(١) مواهب الجليل ٢/ ١٤٩ ط/ دار العالم.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى دعاء عباس مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقارن بأحد من أمته فهذا الترك فهمهم.

ومنها: أجمعوا على مشروعية زيارة القبور فهذا الفعل هو فهمهم، كما أجمعوا على ترك شد الرحال إلى القبور مستدلين بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد الحديث ففهموا من الحديث عموم المستثنى منه. والأمثلة كثيرة:

وهذا التعريف مستمد من أقوال الأئمة وأصولهم وهي تلخص المقصود بفهم السلف، كما أنها تبين مدى حجيته المعتبرة في كمال العلم مع كمال العقل، وكونهم أولى الناس بالحق، ولا يجوز الخروج عن أقوالهم ولا مخالفة إجماعهم وإليك أقوالهم:

١- قال عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للخوارج يوم ناظرهم: «... وجئتكم من عند أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله...»[(١)]. استدل بإجماعهم.

٢- وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من كان منكم متأسيا، فليتأس بأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا قوم اختارهم الله لصحبة

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ٢/ ٩٦٢ برقم: ١٨٣٤ ط/ ٣ دار ابن الجوزي قال المحقق: إسناده حسن.

نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[(١)].

٣- وقال عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من كان منكم مستنا، فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا خير هذه الأمة، وأبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٢)].

٤- وقال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا لم يكن في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نظرت في أقاويل أصحابه، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم...»[(٣)].

٥- وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتسليم للسنن لا تعارض برأي، ولا تدافع بقياس، وما تأوله السلف تأولناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا، ونتبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج من جماعتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله»[(٤)].

٦- وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فعلموا ما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاما وخاصا، وعزما وإرشادا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وما جهلنا، وهم

(١) جامع بيان العلم وفضله برقم: ١٨١٠ وذم الكلام للهروي ص١٨٨.
(٢) أخرجه أبو نعيم ١/ ٣٠٥.
(٣) الانتقاء ص١٤٣.
(٤) الجامع لابن أبي زيد ص١٨٤ واجتماع الجيوش الإسلامية ص١٥٥.

فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وآراؤهم أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا وهكذا نقول ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله»[(١)].

٧- وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «يلزم من قال: يخرج من أقاويلهم إذا اختلفوا، أن يخرج من أقاويلهم إذا أجمعوا» وقال أيضًا: «إذا اختلف أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختار من أقاويلهم، ولا يخرج عن قولهم إلى من بعدهم»[(٢)].

٨- وقال أمام المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فإذا كان كذلك، فأحق المفسرين بإصابة الحق - في تأويل القرآن الذي إلى علم تأويله للعباد السبيل - أوضحهم حجة فيما تأول وفسر، مما كان تأويله إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون سائر أمته من أخبار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابتة عنه، إما من جهة النقل المستفيض، فيما وجد فيه من ذلك النقل المستفيض، وإما من جهة نقل العدول الأثبات، فيما لم يكن في النقل المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوصة على صحته، وأصحهم برهانا - فيما ترجم وبين من ذلك - مما كان مدركا علمه من جهة اللسان إما

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٦٤.

(٢) العدة لأبي يعلى الفراء ٤/ ١١١٣.

بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائنا من كان ذلك المتأول والمفسر، بعد أن لا يكون خارجا تأويله وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة»[١]. وقال إمام المفسرين ابن جرير الطبري في ترجيحاته: «وذلك قول خلاف لقول جميع أهل التأويل من الصحابة والتابعين وحسب قول خطأ أن يكون خلافا لقول من ذكرنا»[٢] وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا قول بعيد عن الصواب لشذوذه، وخروجه عما عليه الحجة مجتمعة وكفى بذلك شاهدا على فساده»[٣] وقال: «ولا يعارض بالقول الشاذ ما استفاض به القول من الصحابة والتابعين»[٤]. وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا قول لقول أهل التأويل مخالف، وكفى بخروجه عن قول أهل العلم من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المخالفين على خطئه شاهدا»[٥] وقال: «وهذا القول وإن كان له وجه يحتمله الكلام، فإن تأويل أهل التأويل خلافه فلا أستجيز لذلك القول به»[٦] إلى غير ذلك من ترجيحاته.

٩- وقال الإمام أبو حاتم الرازي كما رواه الخطيب البغدادي في باب

(١) تفسير الطبري ١/ ٩٣ تحقيق أحمد شاكر.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٦١.

(٣) المرجع السابق ٨/ ٢٧.

(٤) المرجع السابق٢/ ٧٩٨.

(٥) المرجع السابق ٥/ ١٧٢.

(٦) المرجع السابق ١٦/ ٢٢٩.

القول فيما يعرف به الإجماع ومن يعتبر قوله ومن لا يعتبر: أنا محمد بن عيسى بن عبدالعزيز الهمذاني، نا صالح بن أحمد بن محمد الحافظ، قال: سمعت القاسم بن أبي صالح، يقول: سمعت أبا حاتم الرازي، يقول: «العلم عندنا ما كان عن الله تعالى من كتاب ناطق، ناسخ غير منسوخ، وما صحت الأخبار عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما لا معارض له، وما جاء عن الألباء من الصحابة ما اتفقوا عليه، فإذا اختلفوا لم يخرج من اختلافهم فإذا خفي ذلك ولم يفهم فعن التابعين، فإذا لم يوجد عن التابعين، فعن أئمة الهدى من أتباعهم مثل: أيوب السختياني، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وسفيان، ومالك بن أنس، والأوزاعي، والحسن بن صالح، ثم من بعد، ما لم يوجد عن أمثالهم، فعن مثل: عبدالرحمن بن مهدي، وعبدالله بن المبارك، وعبدالله بن إدريس، ويحيى بن آدم، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، ومن بعدهم: محمد بن إدريس الشافعي، ويزيد بن هارون، والحميدي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي، وأبي عبيد القاسم بن سلام. قلت: قصد أبو حاتم إلى تسمية هؤلاء، لأنهم كانوا المشهورين من أئمة أهل الأثر في أعصارهم، ولهم نظراء كثيرون من أهل كل عصر أولو نظر واجتهاد، فما أجمعوا عليه فهو الحجة، ويسقط الاجتهاد مع إجماعهم»[(١)].

١٠- وقال الإمام الخطيب البغدادي: «باب القول في أنه يجب اتباع ما سنه أئمة السلف من الإجماع والخلاف، وأنه لا يجوز الخروج عنه إذا

(١) الفقيه والمتفقه ١/ ٢٤.

اختلف الصحابة في مسألة على قولين، وانقرض العصر عليه، لم يجز للتابعين أن يتفقوا على أحد القولين، فإن فعلوا ذلك لم يزل خلاف الصحابة والدليل عليه أن الصحابة أجمعت على جواز الأخذ بكل واحد من القولين، وعلى بطلان ما عدا ذلك، فإذا صار التابعون إلى القول بتحريم أحدهما، لم يجز ذلك، وكان خرقا للإجماع، وهذا بمثابة ما لو اختلفت الصحابة في مسألة على قولين، وانقرض العصر عليه، فإنه لا يجوز للتابعين إحداث قول ثالث، لأن اختلافهم على قولين إجماع على إبطال كل قول سواهما، كما أن إجماعهم على قول إجماع على إبطال كل قول سواه، فكما لم يجز إحداث قول ثان فيما أجمعوا فيه على قول لم يجز إحداث قول ثالث فيما أجمعوا فيه على قولين»[(١)].

١١- وقال الإمام الأصولي الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو كان دليلا عليه لم يعزب عن فهم الصحابة والتابعين، ثم يفهمه هؤلاء فعمل الأولين كيف كان مصادم لمقتضى هذا المفهوم ومعارض له ولو كان ترك العمل، فما عمل به المتأخرون من هذا القسم مخالف لإجماع الأولين، وكل من خالف الإجماع فهو مخطئ وأمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تجتمع على ضلالة، فما كانوا عليه من فعل أو ترك فهو السنة والأمر المعتبر وهو الهدى وليس ثم إلا صواب أو خطأ؛ فكل من خالف السلف الأولين فهو على خطأ وهذا كاف...»[(٢)].

---

(١) المرجع السابق ١/ ٢٤٦.

(٢) الموافقات ٣/ ٧٢.

١٢- وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنهم «يعني السلف» أفضل ممن بعدهم، ومعرفة إجماعهم، ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم. وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصومًا، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم، فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه»[(١)].

١٣- وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إحداث القول في تفسير كتاب الله الذي كان السلف والأئمة على خلافه يستلزم أحد أمرين: إما أن يكون خطأ في نفسه، أو تكون أقوال السلف المخالفة له خطأ، ولا يشك عاقل أنه أولى بالغلط، والخطأ من قول السلف»[(٢)]. ويؤكد الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المعنى، وأن علم الشريعة محقق عند السلف، والناس تبع لهم في ذلك، فيقول: «كل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم، وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء، فالمتأخرون في شأن، والقوم في شأن آخر، وقد جعل الله لكل شيء قدرا»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٣.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة للموصلي ١/ ٣٧٣.

(٣) شرح الطحاوية ص٢٥.

١٤- وقال الإمام أبو الحسن الأشعري: «وأجمعوا... على أنه لا يجوز لأحد أن يخرج عن أقاويل السلف فيما أجمعوا عليه، وعما اختلفوا فيه، أو في تأويله؛ لأن الحق لا يجوز أن يخرج عن أقاويلهم»[(١)].

ومعنى هذا أن فهم السلف حجة لازمة لنا ولغيرنا، فإذا اتفق السلف وجب اتباعهم في اتفاقهم، وإذا اختلف السلف وجب اختيار القول الذي يوافق النصوص من كلامهم، ولم يجز الخروج عن أقوالهم، وهذا قول أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو قول أهل السنة. وإذا كان لا يجوز إحداث قول ثالث فيما إذا اختلفت الأمة على قولين، فألا يجوز إحداث تأويل ثالث في معنى آية أو حديث فيما إذا اختلفت الأمة في تأويلها أو تأويله على قولين أولى. إذ تجويز ذلك معناه أن الأمة كانت مجتمعة على الضلال في تفسير القرآن والحديث، وأن الله قد أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون، لأن كلا القولين خطأ والصواب هو القول الثالث الذي لم يقولوه، اللهم إلا إن كان المراد من إحداث تأويل ثالث إيراد معنى تحتمله الآية أو الحديث من غير حكم بأنه المراد، فهذا جائز؛ إذ ليس فيه نسبة الأمة إلى تضييع الحق والغفلة عن الصواب والإجماع على الضلالة والخطأ.

فالمحذور هو أن تكون الأمة قد قالت: إن هذه الآية أو الحديث لا يراد بها أو به إلا هذا المعنى أو هذا المعنى، فيكون القول الثالث تجويزًا لخفاء مراد الله عن كافة الأمة وهذا ممتنع قطعًا[(٢)].

---

(١) رسالة إلى أهل الثغر ص١٧٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٥٩-٦٠.

وهذا الذي قرره الأئمة هو الذي قرره الأصوليون:

وإليك التحقيق من كتب الأصول:

وفي «المسودة»: «مسألة اذا اختلفت الصحابة على قولين لم يجز لمن بعدهم أحداث قول ثالث يخرج عن أقاويلهم نص عليه وهو قول الجماعة وأجازه بعص الناس قال ابن عقيل هو قول بعض الرافضة وبعض الحنفية وقال ابن برهان هو قول أصحاب أبى حنيفة وأهل الظاهر وقال أبو الطيب هو قول بعض المتكلمين ورأيت بعض الحنفية يختاره وينصره وقال الجوينى هو قول شرذمة من طوائف الاصوليين صرح أبو الطيب بذكر هذه المسألة وذكر التى قبلها كما ذكرناه مسألتين»[(١)].

قال الشوكاني: فهل يجوز لمن بعدهم إحداث قول ثالث اختلفوا في ذلك على أقوال:

القول الأول: المنع مطلقًا؛ لأنه كاتفاقهم على أنه لا قول سوى هذين القولين، قال الأستاذ أبو منصور، وهو قول الجمهور، قال إلكيا: إنه صحيح وبه الفتوى، وجزم به القفال الشاشي والقاضي أبو الطيب الطبري والروياني والصيرفي ولم يحكيا خلافه إلا عن بعض المتكلمين، وحكى ابن القطان الخلاف في ذلك عن داود.

القول الثاني: الجواز مطلقًا حكاه ابن برهان وابن السمعاني عن بعض الحنفية والظاهرية، ونسبه جماعة منهم القاضي عياض إلى داود وأنكر ابن حزم على من نسبه إلى داود.

---

(١) المسودة ١/ ٢٩٢.

القول الثالث: أن ذلك القول الحادث بعد القولين إن لزم منه رفعهما لم يجز إحداثه وإلا جاز، وروي هذا التفصيل عن الشافعي واختاره المتأخرون من أصحابه، ورجحه جماعة من الأصوليين منهم ابن الحاجب، واستدلوا له بأن القول الحادث الرافع للقولين مخالف لما وقع الإجماع عليه، والقول الحادث الذي لم يرفع القولين غير مخالف لهما، بل موافق لكل واحد منهما من بعض الوجوه[(١)].

الخلاصة: المقصود بفهم الصحابة أحد أمرين:

الأول: اتفاقهم ويُقصد به الإجماع[(٢)]، وهذا لا خلاف أن منكره ضال، أو مبتدع، لأنه إنكار للإجماع، قال شيخ الإسلام: «الإجماع متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة، لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة، وأما بعد ذلك فتعذر العلم به غالبا»[(٣)].

وقد دلَّ على اعتباره قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾

(١) إرشاد الفحول ١/ ٢٢٩. وانظر الإبهاج ٢/ ٣٦٩. والبحر المحيط ٢/ ٥٨٠. واللمع للشيرازي ١/ ٥١. والمحصول ٤/ ١٩٧. والمعتمد ٢/ ٤٤. وتيسير التحرير٢/ ٢٦٠ وحاشية العطار على جمع الجوامع ٢/ ٢٣٢ وشرح الكوكب المنير ٢/ ٢٦٤. وقواطع الأدلة ١:٤٨٧. والإحكام والأحكام للآمدي ١/ ٣٢٩.

(٢) ينظر شبهات العصرانيين الإسلاميين حول اعتماد فهم السلف للنصوص الشرعية ص١٤.

(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٤١.

[النساء: ١١٥] في دلائل كثيرة. فلو لم يكن لاتباعهم معنى إضافيًّا في توضيح الحق، ولزوم الجادة، لما كان لذكره في القرآن فائدة، وسبيلهم إنما يعرف بطريقتهم في التعامل مع الوحي، والتي يُعدُّ الفهم مرحلة أولية منها؛ لأنه مقدمة العمل وشرطه؛ ولذا قال عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر فيما خالفها، من اقتدى بها مهتدٍ، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، ولَّاه الله ما تولى وصلَّاه جهنم وساءت مصيرًا»[(١)]. ويقصد عمر بقوله: «ولاة الأمر من بعده»: الخلفاء الراشدين. ومن المعلوم أن الآية نزلت في طُعْمَةَ بْنَ أُبَيْرِق، كما نص على ذلك بعض المفسرين، وكان قد ارتدَّ، ولا يعلم يومها مؤمنون غير الصحابة، فجعل الله تعالى مفارقتهم مفارقة لدين الحق وعلامة على الضلال.

ويدخل في معنى إجماعهم ما إذا قال الصحابي قولا واشتهر ولم يعلم له مخالف من الصحابة، وهو الإجماع السكوتي. قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلموا أن جميع هذه الفرق متفقة على أن إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إجماع صحيح، وقائلون بأن كل ما اشتهر فيهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولم يقع منهم نكير له فهو إجماع صحيح»[(٢)].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢.

(٢) الإحكام ٤/ ٤٣٩.

الثاني: طريقتهم في التعامل مع النصوص.

وهي قائمة على فهم قواعدهم في الفهم والاستنباط، كحَمْل الكتاب على المعهود من اللسان العربي في الخطاب، وعدم التكلف في التأويل، وقبول كل ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي طريقة الراسخين في العلم[(١)].

والمقصود بقولنا: «حمله على المعهود من اللسان العربي»: أن العرب جروا في خطابهم على التمسك بالظاهر، وقد يخرجون عنه إلى غيره؛ لدليل يقتضيه، لكن الأصل هو الظاهر، فلا يُعدَل عنه إلا بدليل؛ ولذلك تمسك الصحابة بظواهر القرآن والسنة وعملوا بها، ولم يعدلوا عنها إلى غيرها إلا بدليل، ومن ذلك ما رواه البخاري: عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] شقّ ذلك على أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾» [لقمان: ١٣]، فتمسَّكوا بالعموم حتى وجدوا المخصص، وهذا المجال رحب والخلاف فيه قد يقع بينهم تبعًا لتفاوتهم في العلم، فمن اطَّلع على مخصص للدليل فإنه يعدل عن الظاهر -وهو العموم- إلى الخصوص، ومن لم يطلع عليه تمسك بالظاهر وهو العموم، أو الإطلاق، أو المفهوم، أو الحقيقة، وهذه مباحث معروفة في أصول الفقه، يرجع إليها في بابها ومما يدل

(١) ينظر الاعتصام للشاطبي ١/ ١٢٠.

على تمسك الصحابة بالظاهر إلا بدليل حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَنَّ بَعْضَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّنَا أَسْرَعُ بِكَ لُحُوقًا قَالَ: أَطْوَلُكُنَّ يَدًا فَأَخَذُوا قَصَبَةً يَذْرَعُونَهَا فَكَانَتْ سَوْدَةُ أَطْوَلَهُنَّ يَدًا فَعَلِمْنَا بَعْدُ، أَنَّمَا كَانَتْ طُولَ يَدِهَا الصَّدَقَةُ، وَكَانَتْ أَسْرَعَنَا لُحُوقًا بِهِ، وَكَانَتْ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ**» والأمثلة كثيرة.

والمسلمون مطالبون بـ«معرفة ما أراد الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألفاظ الكتاب والسنة؛ بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ؛ فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرّفهم ما أراد بتلك الألفاظ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه، وقد بلّغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه؛ فإن المعاني العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين مثل معنى التوحيد، ومعنى الواحد والأحد، والإيمان والإسلام، ونحو ذلك، كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من معرفته»[(١)].

وهذا الذي قرره علماء الأمة من أن المراد بفهم السلف إجماعهم على قول أو قولين، أو إجماعهم على طريقة التعامل مع النصوص هو ظاهر القرآن والسنة فمن القرآن:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٧].

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ٣٥٣.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥] وغيرها من الآيات.

ومن السنة: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[(١)].

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**»[(٢)] الحديث.

قواعد فهم السلف:

لم يكن فهم السلف للنصوص مبنيا على هوى نفس، أو عقل مجرد عن الاستدلال بالوحي أو قواعد للفهم صنعها البشر، بل كان فهما مبنيا على أسس وقواعد ربانية المصدر، وبمجموع هذه الأصول والقواعد تحصل المعرفة وكمال العلم، وتحقيق العمل الصالح، وقصارى ما بذل العلماء هو: استخراج تلك القواعد والضوابط وبيانها.

يحسن قبل الدخول في القواعد التي فهم بها السلف النصوص أن نبين مكانة النصوص الشرعية عندهم من خلال بعض المعالم:

١- حفظ النص الشرعي: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[(٣)] حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ألخ.

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله تعالى.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري ٤/ ١٩١٩ برقم: ٤٧٣٩.

٢- نصرة النص الشرعي: انبرى السلف الصالح في الدفاع عن النصوص فدافعوا عن النصوص الشرعية ما تأوله الخوارج والشيعة والجهمية والمعتزلة ولهم مؤلفات في الرد عليهم.

٣- فهم النص الشرعي فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «والله الذي لا إله غيره ما أنزلت آية ألخ»[(١)]. ومجاهد يقول: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات»[(٢)].

٤- خدمة النص الشرعي.

وإليك القواعد:

القاعدة الأولى: التسليم للنص الشرعي:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. ففي هذه الآية عدة مؤكدات.

أولا: أقسم الله بنفسه، وهذا أعظم قسم في القرآن ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يحصل لهم الإيمان.

---

(١) المرجع السابق ٤/ ١٩١٢ برقم: ٤٧١٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/ ٧٧ برقم: ١١٠٦٧.

ثانيا: وقوله: ﴿ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ إذا اختلفوا في شيء فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يحكم فيه، لا قول فلان، ولا قول علان.

ثالثا: وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا ﴾ فمع تحكيم كلام الله وكلام الرسول، تستسلم بقلبك، ثم لا تجد في نفسك ترددًا.

وأخيرا: قوله: ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ويسلموا بجوارحهم، ويسلموا لهذا الأمر إن كان أمرًا فعلوه، أو نهيا انتهوا عنه، وبهذا يحصل الإيمان.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢]. قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام»[(١)].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٧].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣]. ولهذا قال الإمام أحمد: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك[(٢)].

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص٤٥٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص٤٨٣.

وجاء رجل إلى الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إمام أهل المدينة فقال له: «يا أبا عبدالله أريد أن أعتمر فمن أين أُحْرِم؟ قال له: أَحْرِم من حيث أحرم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذي الْحُلَيْفَة فقال: أريد أن أحرم من مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخشى عليك الفتنة». قال له: أي فتنة في أميال أزيدها. قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخشى عليك مخالفة فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والله عَزَّوَجَلَّ يقول فيه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، أَحْرِم من حيث أحرم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤] يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ مَوْضِعًا مِنْ الْقُرْآنِ، وَقَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ، وَقَرَنَ بَيْنَ مُخَالَفَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، كَمَا قَرَنَ بَيْنَ اسْمِهِ وَاسْمِهِ»[(٢)].

---

(١) الباعث على إنكار البدع ص ٢١.

(٢) مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٤٦.

ولما سأل رجل الإمام الشافعي عن مسألة قال: قضى فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكذا وكذا. فقال له الرجل: ما تقول أنت؟ فغضب الإمام الشافعي وقال له: «تراني في بيعَة، تراني في كَنِيسَة، ترى عَلَيَّ زِي الْكفَّار، هُوَ ذَا تَراني في مَسْجِد الْمُسلمين عَلَيَّ زِي الْمُسلمين مُسْتَقْبل قبلتهم، أروى حَدِيثا عَن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ لَا أَقُول بِهِ».

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ اعْتِصَامُهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَكَانَ مِنْ الْأُصُولِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ قَطُّ أَنْ يُعَارِضَ الْقُرْآنَ، لَا بِرَأْيِهِ، وَلَا ذَوْقِهِ، وَلَا مَعْقُولِهِ، وَلَا قِيَاسِهِ، وَلَا وَجْدِهِ...»[(١)].

تطبيق السلف التسليم لله عَزَّوَجَلَّ وللرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تطبيقًا عمليًا. وقد طبق السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ هذا عمليا في حياتهم وفي عبادتهم، فهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقف أمام الحجر الأسود ويقول: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»[(٢)]. يعني: لو رجع الأمر إليه فهو يعلم ويعتقد أنه حجر لا ينفع ولا يضر، لكنه التسليم والمتابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يرى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَسْتَلِمُ الْأَرْكَانَ كُلَّهَا، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لِمَ تَسْتَلِمُ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ؟ وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ

---

(١) المرجع السابق ٣٠/ ٢٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٢/ ٥٧٩ برقم: ١٥٢٠.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَلِمُهُمَا»، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْبَيْتِ مَهْجُورًا» فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال له معاوية: صدقت[(١)].

ورأى سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا يُصَلِّي بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَكْثَرَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ يُكْثِرُ فِيهَا الرُّكُوعَ، وَالسُّجُودَ فَنَهَاهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ يُعَذِّبُنِي اللهُ عَلَى الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «لَا وَلَكِنْ يُعَذِّبُكَ عَلَى خِلَافِ السُّنَّةِ»[(٢)].

والآثار في هذا كثيرة، منها: ما وقع لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حادث الإسراء والمعراج، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَى رِجَالٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِي مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[(٣)] هذا هو التسليم والاستسلام لنصوص الوحيين.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٦٩ برقم: ١٨٧٧.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٦٦ برقم: ٤٦٢١ ومصنف عبدالرزاق ٢/ ٥٢ برقم: ٤٧٥٥.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٨١ برقم: ٤٤٥٨.

وهذا عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة لأصحابه: «لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْبَابَ لِلنِّسَاءِ، قَالَ نَافِعٌ: فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَتَّى مَاتَ»(١).

ولما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً لَهُ، قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ الْبَقَرَةُ فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، وَلَكِنِّي إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ تَعَجُّبًا وَفَزَعًا، أَبَقَرَةٌ تَكَلَّمُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ**»(٢).

القاعدة الثانية: قاعدة اللغة أي أن يكون فهم الكتاب والسنة وفق قواعد اللغة التي أنزل بها قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢].

هذا ضابط مهم لأن نصوص الوحيين نزلت باللغة العربية، ولا يمكن أن يُفْهم النص إلا بهذه اللغة، وعندما انتشرت العجمة واختلط اللسان العربي بغيره ألف العلماء معاجم اللغة وفي ألفاظ القرآن بما يحفظها، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إلَى شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَعْرِفَةُ مَا أَرَادَ اللهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفَاظِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بِأَنْ يَعْرِفُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ الَّتِي بِهَا نَزَلَ، وَمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَسَائِرُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَانِي تِلْكَ الْأَلْفَاظِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمَّا خَاطَبَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَرَّفَهُمْ مَا أَرَادَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ» وثمة ضوابط في قاعدة اللغة وهي:

---

(١) أخرجه أبو داوود في السنن ١/ ١٧٥ برقم: ٤٦٢ وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه مسلم ٧/ ١١٠ برقم: ٦٣٣٤.

- دلالة اللفظ على معناه جاء بطريق السماع أي أن ينقل عن العرب.
- التثبت في قبول اللغة.
- ترك الأخذ بالشاذ والغريب.
- الأخذ بما تفهمه العرب من كلامها.
- الأخذ بالظاهر وعدم العدول عنه إلا بقرينة.
- مراعاة دلالة السياق وأحوال المتكلم والمخاطب والقرائن.
- عدم تفرد المعايير النحوية والأساليب اللغوية بفهم القرآن.

القاعدة الثالثة: قاعدة الشمول والتكامل أي أن فهم السلف يقوم على فهم شامل متكامل، فلا يأخذون ببعض النصوص ويتركون ببعضها، ولا يبترون النص:

منهج أهل السنة والجماعة الأخذ بجميع النصوص، فأهل السنة يَرْوُون مالهم وما عليهم، أما أهل البدع فإنهم يأخذون من النصوص ما يؤيد بدعتهم بزعمهم ويَدَعُون ما يخالف بدعتهم، وهذا هو الذي يوقع الإنسان في الضلالة والانحراف، ولهذا أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالرجوع إلى أهل العلم، لأنهم الأقدر والأجدر بالنظر في جميع النصوص، لأن من النصوص نصوص عامة ونصوص خاصة، ومطلق ومقيد، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، ولا يُعْرَف هذا إلا من أهل العلم.

فلابد من الأخذ بجميع النصوص وألا نقتصر على جانب واحد من جوانب النصوص، فالخوارج أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص

الوعد، والمرجئة أخذوا بنصوص الوعد وتركوا نصوص الوعيد، والمعطلة أخذوا بنصوص التنزيه وتركوا نصوص الإثبات، والممثلة أخذوا بنصوص الإثبات وتركوا نصوص التنزيه، أما أهل السنة فأخذوا بجميع النصوص.

وقد تضمنت قاعدة الشمول والتكامل جملة من الأمور التي راعاها السلف في فهمهم للنصوص واستفادوا منها، ولم يهملوها حتى تحقق لهم الفهم الشامل الكامل وهذه الأمور هي:

المحكم والمتشابه وقد اختلت قاعدة الشمول في النظر إلى المحكم والمتشابه عند بعض الفرق: منها: عند المفوضة الذين قالوا: بأن الأسماء والصفات من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، ففوضوا معاني الصفات وزعموا أن معناها غير مفهوم لنا، فما ردوا المتشابه إلى المحكم، بل نظروا إلى جانب واحد وهو المتشابه، والمؤولة قالوا: إن الراسخين يعلمون تأويله فاشتغلوا بتأويلها إلى معنى بعيد لا يدل عليه مراد الشارع وصار تأويلهم تحريفا للنصوص وذلك أنهم لم يفهموا حدود المحكم والمتشابه كما فهمه السلف ورد الجهمية النصوص المحكمة غاية الإحكام وهكذا.

ونحن نعلم أن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ منه المحكم ومنه المتشابه، يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧] كتاب الله وكلام رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه المتشابه وفيه المحكم،

فيجب الإيمان بالمتشابه والعمل بالمحكم، ورَدُّ المتشابه إلى المحكم، هذا هو منهج أهل السنة، أما منهج أهل الأهواء وأهل البدع فيستدلون بالمتشابه منه.

أقسام التشابه: والتشابه ينقسم إلى قسمين:

تشابه حقيقي مثل: كيفية صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا التشابه الحقيقي الذي لا يمكن للعقول ولا يمكن للإنسان أن يدرك كيفية الصفة.

والقسم الثاني: تشابه نِسْبِي قد يتشابه هذا النص عليك، أو على هذه الطائفة، لكن لا يتشابه على الطائفة الأخرى، ولهذا إذا رُدَّ المتشابه إلى المحكم وضحت دلالته، وسَلِمَ الْمُسْتَدِلُّ، وأدى المعنى المطلوب.

أسباب النزول ولأسباب النزول أهمية كبرى في فهم النصوص.

التحقق من صحة النص.

المطلق والمقيد.

القاعدة الرابعة: درء التعارض:

درء تعارض النصوص مع بعضه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]. وقد ذكر العلماء أسباب وقوع التعارض الظاهر بين النصوص ويمكن إجمالها:

قد يكون التعارض بسبب العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، وقد يكون أحد الدليلين ناسخا فبسبب عدم العلم بالناسخ والمنسوخ يظن الظاهر أن ثم تعارضـًا، ما يقع في بعض الأحاديث من وهم الراوي، حمل كلام الشارع على الاصطلاحات الحادثة.

درء تعارض العقل والنقل، وينتظم الفهم السلفي موقفه من العقل في أمور:

أولا: لا حكم للعقل في مورد النص الصريح.

ثانيا: العقل يؤيد النقل ولا يعارضه.

ثالثا: العقل الصحيح هو ما وافق النقل الصريح.

إن معارضة النص بالعقل من أعظم أسباب تفرق الأمة وظهور أهل البدع والضلال، لأن أصحاب هذا المنهج عارضوا نصوص الوحيين بعقولهم، وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالتسليم المطلق لهذه النصوص، وعدم مقابلة هذه النصوص بأذواقنا، ولا بعقولنا، ولا باجتهاداتنا.

إن منهج أهل السنة والجماعة: لا يتعارض النص الصحيح مع العقل الصريح، فإذا وقع التعارض فيكون لعدم صحة النقل أو عدم صحة الدليل العقلي، وإذا صح العقل وصح النقل فيكون التعارض من المستحيلات.

مثال ذلك الحديث القدسي الصحيح الثابت: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، يا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي**»[(١)]، أشكل هذا الحديث على بعض أهل البدع واتخذوه حجة للقول: بأن الشرع يمكن أن يتعارض مع العقل. قالوا: هذا الحديث يتعارض مع العقل كيف يمكن عقلًا أن ينسب لله الجوع والمرض، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا؟ لا يمكن. والحديث صحيح. قلنا: لا إشكال، الحديث صحيح، الدليل العقلي الذي أوردتموه صحيح، الله عَزَّوَجَلَّ لا

(١) أخرجه أحمد ١٥/ ١٣٥ برقم: ٩٢٤٢ ومسلم ٨/ ١٢ برقم: ٦٧٢١.

يجوز أن ينسب له النقص من جوع ومرض، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وإنما الإشكال في الدلالة. أنتم كيف فهمتم أن هذا الحديث يدل على أن الله منسوب له الجوع والمرض، آخر الحديث يوضح أوله: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي» فالجوع والمرض ليس منسوبا لله عَزَّوَجَلَّ .

فهذا الحديث الشاهد منه أن منهج أهل السنة في فهم نصوص الوحيين أنها لا تُعَارَض بالعقل، فإذا لم يستطع العقل إدراك معنى النص يقدم الإنسان النص، لأن النقل ثابت معصوم من الخطأ، أما العقل فمتغير وغير معصوم من الخطأ، فالعقول متفاوتة فالرازي - رحمه الله وعفا الله عنا وعنه- يقرر المسألة بالدليل العقلي في موضع ثم يقرر ما يناقضها في موضع آخر، ولهذا يجب تقديم النص إذا تعارض مع العقل.

درء التعارض بين النقل والواقع؛ لأن دين الإسلام دين واقعي ولا يمكن أن يتعارض مع الواقع. ومن ضوابط النص: لا بد من الإقتصار على النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة، أو ما صح عن الصحابة. ومن ضوابط المجتهد في التنزيل: أن يكون من أهل العلم بالشريعة بأحكامها المطلعين على أقوال السلف وأحكامهم. ومن ضوابط الواقع: لآبد من النظر الدقيق في مدى انطباق الحديث عليها.

القاعدة الخامسة: مراعاة تحقيق الأهلية (الرسوخ العلمي).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧]. من الضوابط التي تتعلق بقاعدة الأهلية:

- العلم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- العلم بما كان عليه الصحابة من الاعتقاد والعمل.
- معرفة العلوم الخادمة للنصوص.
- العدالة والتقوى.
- التجرد للحق.

القاعدة السادسة: أن القرآن حفظه الله عَزَّوَجَلَّ وتكفل بحفظه لفظا ومعنى.

وأن القرآن نقل إلينا بالتواتر من زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومنا هذا، فلا يزاد فيه ولا ينقص.

أما حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو ينقسم من حيث النقل إلى قسمين: متواتر، وآحاد.

المتواتر: ما نقله جماعة عن جماعة حتى دُوِّنَ الحديث.

والآحاد: ما كان في أحد طبقات السند رجل واحد أو أكثر، ولم يبلغ حد التواتر.

إن أكثر السُّنَّة ورد إلينا بطريق الآحاد وليس بالتواتر، لكن خبر الآحاد إذا اقترنت به بعض القرائن أفاد العلم وأوجب العمل، هذا هو مذهب أهل السنة، وهو ألا نفرق بين المتواتر والآحاد في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حيث القبول والرد. وقد ألف أهل العلم في الأحاديث المتواترة وألفوا في الفَرْق بين الآحاد والمتواتر، ومعرفة المتواتر من حيث القبول والرد.

أما البدعة المنكرة التي أظهرها المعتزلة وقالوا: لا نقبل بخبر الآحاد في باب العقائد. فكما ذكر ابن القيم والمقريزي وغيرهما أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما كانوا يفرقون بين أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل نقلت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتواتر، أو نقلت بالآحاد، فكان إذا صح عندهم الخبر عملوا به، وهذا هو منهج أهل السنة.

فيجب ألَّا نفرق في الاستدلال بين ما ثبت من طريق التواتر وما ثبت من طريق الآحاد، التواتر يعطي زيادة قوة في الثبوت، لكن الآحاد كما قال شيخ الإسلام: إن الحديث وإن كان آحادًا إذا اتفق عليه البخاري ومسلم في كتابيهما الصحيحين، فإننا نعتقد اعتقادًا جازمًا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله كأننا سمعناه منه مباشرة، لأن هناك قرينة.

قد يقول قائل: يجوز على الناقل الخطإ، ويجوز عليه السهو. صحيح، لكن إذا اقترنت به قرائن أخرى، مثل وجود الحديث في الصحيحين فهذه قرينة من أقوى قرائن ثبوته عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن صاحِبَي الصحيح اشترطا شروطا دقيقة في إخراج هذه الأحاديث في كتابيهما.

القاعدة السابعة: مراعاة أحوال المخاطبين في فهم النص:

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الْمَسَائِلَ الْخَبَرِيَّةَ الْعِلْمِيَّةَ قَدْ تَكُونُ وَاجِبَةَ الِاعْتِقَادِ، وَقَدْ تَجِبُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ، وَعَلَى قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَحَبَّةً غَيْرَ وَاجِبَةٍ، وَقَدْ تُسْتَحَبُّ لِطَائِفَةٍ أَوْ فِي حَالٍ كَالْأَعْمَالِ سَوَاءً، وَقَدْ تَكُونُ مَعْرِفَتُهَا مُضِرَّةً لِبَعْضِ النَّاسِ فَلَا يَجُوزُ تَعْرِيفُهُ بِهَا، كَمَا قَالَ عَلِيٌّ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»[(١)] وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُحَدِّثُ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ»[(٢)]. وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢] لو أَخْبَرْتُك بِتَفْسِيرِهَا لَكَفَرْت؟ وَكُفْرُك تَكْذِيبُك بِهَا.

وَقَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤] هو يوم أخبر الله بِهِ، اللهُ أَعْلَمُ بِهِ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ عَنْ السَّلَفِ»[(٣)]. اهـ

ويقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا يُعْلَمُ مِمَّا هُوَ حَقٌّ يُطْلَبُ نَشْرُهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَمِمَّا يُفِيدُ عِلْمًا بِالْأَحْكَامِ، بَلْ ذَلِكَ يَنْقَسِمُ، فَمِنْهُ مَا هُوَ مَطْلُوبُ النَّشْرِ، وَهُوَ غَالِبُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَمِنْهُ مَا لَا يُطْلَبُ نَشْرُهُ بِإِطْلَاقٍ، أَوْ لَا يُطْلَبُ نَشْرُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالٍ أَوْ وَقْتٍ أَوْ شَخْصٍ»[(٤)]. اهـ

فإذا كان هذا النص مما لا تحتمله عقول المخاطبين، وليس تحته عمل، ولا فيه حَدٌّ من حدود الشريعة فيمكن كتمانه مراعاة لأحوال المخاطبين.

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٥٩ برقم: ١٢٧.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ٩ برقم: ١٤.

(٣) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٦/ ١٨٧.

(٤) الموافقات ٥/ ١٦٧.

القاعدة الثامنة: عدم معارضة السنة بالقرآن:

معناه ألا نعارض كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلام الله عَزَّوَجَلَّ فكلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو تبيان وإيضاح وتفسير لكلام الله عَزَّوَجَلَّ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤] لذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ**».

القاعدة التاسعة: فهم النص وفق فهم السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

هذه النصوص ليس لها أفهام جديدة، فيجب أن تُفهم على وفق ما فهمه السلف الأول، ويستحيل عقلا وشرعا وحِسًّا أن نفهم من الآية، أو الحديث فهما جديدًا لم يفهمه السلف الصالح، كيف يكون هذا والله عَزَّوَجَلَّ أثنى عليهم فقال تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأثنى عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[(١)]، ولما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أن هذه الأمة ستفترق، وسأله الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- عن الفرقة الناجية فقال** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»، فقرن النجاة بما كان عليه هو وأصحابه[(٢)]، فكيف يقول عاقل إنه يمكن أن يفهم من النص فهمًا جديدًا لم يفهمه السلف الصالح، من نزل عليهم القرآن،

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله.

(٢) سيأتي تخريجه.

ونزل القرآن بلغتهم، وعرفوا أسباب النزول، بل نزل القرآن ليحدد مسارهم ويصحح أفعالهم، عاصروا نزوله، وعاملوه عمليًّا ونظريًّا، ولهذا يقول شيخ الإسلام: إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تلقوا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاني القرآن، وكان حرصهم على المعنى أكثر من حرصهم على اللفظ، وأدوه إلى التابعين كذلك. لهذا بعض العلماء كان يتحرج أن يقول بقول لم يسبقه إليه أحد.

بدعة إعادة قراءة النص:

ظهرت بدعة مؤخرًا -وليست بجديدة-، وهي ما يسمى بإعادة قراءة النص، يرددها بعض المنتسبين للمثقفين، والذين أرادوا أن يغيروا ويبدلوا في شرع الله عَزَّوَجَلَّ، ما معنى إعادة قراءة النص؟ إن كان المقصود به: تنزيل النصوص على ما جَدَّ من الحوادث، فهذا أمر مسلم به، ولا ضرر فيه، ولا يزال العلماء قديمًا وحديثًا كلما جَدَّت حادثة ونزلت نازلة التمسوا لها دليلا في الكتاب والسنة، والتمسوا النظائر والأشباه لها، لكن أصحاب هذه البدعة لا يريدون هذا المعنى، وإنما يريدون أن يُفهم النص فهمًا جديدًا لم يفهمه السلف وأهل العلم قبلهم، ولهذا جَنَوا على نصوص الوحيين، وافتروا على الله وعلى رسوله، لأنهم حَمَّلُوا كلامهما ما لا يحتمل، يقولون: الله عَزَّوَجَلَّ أراد بهذه الآية كذا، وهذا ليس بصحيح، إذ لو أراد الله عَزَّوَجَلَّ به هذا المعنى لفهمه السلف، الذين هم أعلم منا ومنهم.

خصائص فهم السلف:

- موافقة فهم السلف للكتاب والسنة.

- موافقته للعقل.
- موافقته للفطرة.
- موافقته للغة العربية.
- الاطراد.
- الثبات والاستقرار.
- اليسر والسهولة.
- استيعابه للنوازل والمستجدات.
- الدقة والعمق في الفهم.
- أنه يوصل إلى الجنة.

ضوابطها:

ضوابط التزام فهم السلف.

١- التأكد من ثبوت النص: هذا الضابط خاص بأحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن ما يروى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما نقل عنه ينقسم إلى: صحيح، وضعيف، وموضوع مكذوب على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجب التمييز بين الصحيح وغير الصحيح.

٢- صحة نسبة القول لقائله من السلف.

٣- وأن لا يكون هذا القول من الإسرائيليات. و أخص بالذكر تلك التي هي من قسم المردود الذي لا يقبله عقل و لا نقل. وللتوضيح أذكر مثالا: وهو ما ذكره الإمام ابن جرير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: فأما ما كان من هم يوسف بالمرأة وهمها به، فإن أهل العلم قالوا في ذلك ما أنا ذاكره:

عن ابن عباس، سئل عن همّ يوسف ما بلغ؟ قال: حَلّ الهِمْيان، وجلس منها مجلس الخاتن.

عن عبدالله بن أبي يزيد، قال: سمعت ابن عباس سئل: ما بلغ من همّ يوسف؟ قال: حلّ الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن.

عن ابن أبي مليكة، قال: سألت ابن عباس: ما بلغ من همّ يوسف؟ قال: استلقت له، وجلس بين رجليها.

عن ابن أبي مليكة: «ولقد همت به وهم بها» قال: استلقت له، وحلّ ثيابه.

عن ابن أبي مليكة، قال: سألت ابن عباس ما بلغ من همّ يوسف؟ قال: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها لينزعَ ثيابه.

عن ابن أبي مليكة، قال: سئل ابن عباس، عن قوله: «ولقد همت به وهم بها» ما بلغ من هم يوسف؟ قال: حل الهميان = يعني السَّراويل.

عن مجاهد، في قوله: «ولقد همت به وهم بها» قال: حلَّ السراويل حتى أَلْيَتيه واستلقت له.

عن مجاهد: «ولقد همت به وهم بها» قال: جلس منها مجلس الرجل من امرأته.

عن سعيد بن جبير وعكرمة، قالا حلّ السراويل، وجلس منها مجلس الخاتن.

عن سعيد بن جبير: «ولقد همت به وهم بها» قال: أطلق تِكَّة سراويله... اهـ.

بشيء من الاختصار.

ولا ريب أن هذه الأخبار تتعلق بأمور غيبية قد مضت، فإما أن تكون متلقاة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عن بني إسرائيل، فأما الأول فمحال أن يصح شيء من ذلك عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيبقى الثاني و هو أن تكون هذه الروايات مأخوذة عن بعض أهل الكتاب.

يقول الشيخ أبو شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»: «ومن الإسرائيليات المكذوبة التي لا توافق عقلا ولا نقلا: ما ذكر ابن جرير في تفسيره، وصاحب: «الدر المنثور» وغيرهما من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ ﴾ [يوسف: ٢٤]. فقد ذكروا في هم يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما ينافي عصمة الأنبياء وما يخجل القلم من تسطيره، لولا أن المقام مقام بيان وتحذير من الكذب على الله وعلى رسله، وهو من أوجب الواجبات على أهل العلم»[(١)]. اهـ

وقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ عدة وجوه في بيان بطلان تلك المرويات.

ويقول الإمام محمد أمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضوائه» بعد أن ذكر مجموعة من أقوال السلف في تفسير الهم المذكور: «هَذِهِ الْأَقْوَالُ الَّتِي رَأَيْتَ

(١) الإسرائيليات المكذوبة والموضوعة ١/ ٢٨٣.

نِسْبَتُهَا إِلَى هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ لَمْ يَثْبُتْ نَقْلُهُ عَمَّنْ نَقَلَهُ عَنْهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، وَهَذَا لَا إِشْكَالَ فِي سُقُوطِهِ، وَقِسْمٌ ثَبَتَ عَنْ بَعْضِ مَنْ ذُكِرَ، وَمَنْ ثَبَتَ عَنْهُ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَالظَّاهِرُ الْغَالِبُ عَلَى الظَّنِّ الْمُزَاحِمُ لِلْيَقِينِ: أَنَّهُ إِنَّمَا تَلَقَّاهُ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَجَالَ لِلرَّأْيِ فِيهِ، وَلَمْ يُرْفَعْ مِنْهُ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي التَّجَرُّؤُ عَلَى الْقَوْلِ فِي نَبِيِّ اللهِ يُوسُفَ بِأَنَّهُ جَلَسَ بَيْنَ رِجْلَيْ كَافِرَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ، يُرِيدُ أَنْ يَزْنِيَ بِهَا...»[1]. اهـ

وقد تعددت أقوال الخلف في تفسير الهم: فمنهم من قال أنه هم بها هما تركه لله عَزَّوَجَلَّ، وهو ما يكون في خاطر الإنسان فيصرفه، كما نقل البغوي عن بعض المحققين أن الهم همان: هم ثابت وهو ما يكون معه عزم ورضى وعقد، وهم عارض وهو ما يكون من قبيل حديث النفس فلا يستقر في القلب.

ومنهم من قال أنه هم بضربها.

لعل الراجح ما اختاره صاحب البحر المحيط وغيره وهو أن الكلام وقف عند قوله تعالى: «وهمت به»، ثم استأنف بقوله جَلَّ وَعَلَا: «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه»، أي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يحصل منه هم البتة لأنه رأى برهان ربه، وحرف لولا كما هو معلوم حرف امتناع لوجود أي امتناع الجواب لوجود الشرط، فهنا وجد الشرط وهو رؤيته لبرهان ربه، فامتنع الجواب فلم يهم بها.

---

(١) أضواء البيان ٢/ ٣٢١.

ومن منع ذلك فحجته عدم جواز تقدم جواب لولا عليها، و هذا كما ذكر الأئمة منهم أبو حيان أمر مختلف فيه بين النحويين، فيجيزه الكوفيون وبعض البصريين.

وسلمنا جدلا عدم جواز ذلك فكما يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ «هدم ألف قاعدة أهون من عدم آية» أو كما قال.

وكما وردت إسرائيليات كثيرة في هم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد وردت إسرائيليات في البرهان الذي رآه، فقيل رآى يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاضا على أنامله، وقيل رآه فلم ينزجر حتى ضربه فخرجت شهوته، وقيل رآى كفا تخرج بينه وبين امرأة العزيز مكتوب عليها بعض الآيات، وقيل غير ذلك مما لا يقبله نقل ولا عقل.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك ما ينقله بعضهم عن يوسف أنه حَلَّ سراويله، وأنه رأى صورة يعقوب وغير ذلك، كل ذلك من الأحاديث التي غالبها أن يكون من كَذِب اليهود. فإن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]. فقد أخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء فلم يفعل سوءًا ولا فحشاء، فإن ما صرفه الله عنه انصرف عنه. ولو كان يوسف قد أذنب لتاب، فإن الله لم يذكر ذنب نبي إلا مع التوبة، ولم يذكر عن يوسف توبة، فعُلِمَ أنه لم يُذنب في هذه القضية أصلا، والله أعلم. إنما أخبر عنه بالهمِّ وقد تركه لله فهو مما أثابه الله عليه»[(١)]. اهـ

(١) جامع المسائل: ٥/ ٢٥٥.

يقول الشيخ أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الأقوال التي أسرف في ذكرها هؤلاء المفسرون: إما إسرائيليات وخرافات وضعها زنادقة أهل الكتاب القدماء، الذين أرادوا بها النيل من الأنبياء والمرسلين، ثم حملها معهم أهل الكتاب الذين أسلموا وتلقاها عنهم بعض الصحابة، والتابعين، بحسن نية، أو اعتمادا على ظهور كذبها وزيفها. وإما أن تكون مدسوسة على هؤلاء الأئمة، دسها عليهم أعداء الأديان، كي تروج تحت هذا الستار، وبذلك يصلون إلى ما يريدون من إفساد العقائد، وتعكير صفو الثقافة الإسلامية الأصيلة الصحيحة، وهذا ما أميل إليه...!»[(١)]. اهـ

❁❁❁

(١) سبق توثيقه.

الباب الأول

حجيتها

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأدلة النقلية على حجية القاعدة.

الفصل الثاني: الأدلة العقلية على حجية القاعدة.

الفصل الأول

الأدلة النقلية على حجية القاعدة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: حجيتها في القرآن.

المبحث الثاني: حجيتها في السنة.

المبحث الثالث: حجيتها في الإجماع.

المبحث الأول

حجيتها في القرآن الكريم

وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات الدالة على خيرية هذه الأمة.

المطلب الثاني: الآيات الدالة على حجية الإجماع.

المطلب الثالث: الآيات الآمرة بلزوم الجماعة والناهية عن الفرقة.

المطلب الرابع: الآيات التي تأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصدقين.

المطلب الخامس: الآيات التي جاءت في مدح الراسخين في العلم.

المطلب السادس: الآيات التي تدل على فضل الصحابة.

المطلب السابع: الآيات التي تدل على وجوب اتباع السلف.

المطلب الثامن: الآيات التي تحذر من الغلو في الدين.

المطلب التاسع: الآيات التي تحذر من البدعة.

مدخل: الأدلة على حجية فهم السلف جاءت بأساليب وطرائق مختلفة: فتارة تثني النصوص عليهم، وتارة تأمر بالتمسك بطريقهم، وتارة تحذر من مخالفتهم، وتارة تبرز مواقفهم التي توجب الاقتداء بفهمهم، وهذا التنوع دليل على ضرورة وأهمية الأخذ بفهمهم بل وجوب ذلك كالأخذ بفهمهم في مسائل أصول الدين مثلا وإليك المطالب:

المطلب الأول: الآيات الدالة على خيرية هذه الأمة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ: ٦] قال قتادة: أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ [البينة: ٧]. والصحابة من الذين آمنوا وعملوا الصالحات قطعا، فهم خير البرية في علمهم وعملهم واعتقادهم وفهمهم للنصوص ولو لم يكن فهمهم مهما لما كانوا خير البرية ففهمهم الذي أو صلهم هذه الخيرية هو الفهم الذي يوصل

من سواهم من الناس فمن سار على وفق ما فهموه من النصوص بلغ ما نالوه من الخيرية التي ذكرها الله تعالى، ومن خالف فهمهم فلن يبلغ هذه الخيرية قطعا؛ لأن طريقها واحد وهو الصراط المستقيم.

وجه الاستدلال بهذه الآيات: أن هذه الخيرية لا شك أنها في كمال العلم، وتمام الفهم عن الله تعالى.

المطلب الثاني: الآيات الدالة على حجية الإجماع:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥].

حيث إنَّه ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم بإحسان، هم أولى الناس دخولاً في من سمَّاهم الله هنا بالمؤمنين، محذراً ومتوعداً من اتَّبع غير سبيلهم، «وقد شهد الله لأصحاب نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومن تبعهم بإحسان بالإيمان، فعُلم قطعًا أنهم المراد بالآية الكريمة»، «والآية آمرةٌ باتِّباع سبيل السلف الصالح، متوعدةٌ من خالفهم، واتبع غير سبيلهم بالخذلان والنار، وقد ضمنت لهم العصمة من الخطأ في اجتماعهم؛ تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ»، «وهذه الآية قد استدلَّ بها العلماء على أنَّ إجماع هذه الأمة حجةٌ قاطعةٌ» وأنَّها في جملتها معصومةٌ من الخطأ؛ ولذلك فإنَّ مخالفة ما كانوا عليه خرقٌ للإجماع، واتباعٌ لغير سبيلهم، وقد جعل الله سبحانه وتعالى مشاقة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، واتباع غير سبيل المؤمنين متلازمين، فكلٌّ من شاقَّ الرسول من بعد ما تبين

له الهدى، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، وكلُّ من اتَّبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما تُفيد الآيةُ وجوب متابعة سبيل السلف، وهي طريقتهم في عقائدهم وأعمالهم؛ لأنَّ النهي عن مخالفة سبيلهم، يتضمن بمفهوم المخالفة الأمر باتباع سبيلهم، واتباعهم يكون باعتماد ما اعتمدوه، وأجمعوا عليه من القول والعمل، ومن المعلوم أنَّ الأقوال والأعمال إنَّما تصدر عن فهم، ومتابعتهم في أقوالهم واعتقاداتهم يتضمن متابعتهم في فهمهم؛ لأنَّ من خالفهم في الفهم لا بدَّ أن يخالفهم لزاماً في القول والعمل.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وجه الاستدلال بهذه الآيات: أن إجماعهم ناتج عن فهمهم لنصوص الكتاب والسنة هذا من وجه. ومن وجه آخر: أنهم مجمعون على حجية فهمهم في الجملة.

المطلب الثالث: الآيات الآمرة بلزوم الجماعة والناهية عن الفرقة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ

وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢- ٦٣].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١- ٣٢].

وجه الاستدلال بهذه الآيات: أن الجماعة هم أصحابه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه لم تكن آنذاك جماعة غير أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن اتباعهم في الفهم والعلم والعمل.

المطلب الرابع: الآيات التي تأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصدقين:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]. قال عبدالله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: مع محمد وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبي بكر، وعمر وأصحابهما. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١].

وجه الاستدلال بهذه الآيات: أن الصحابة هم أئمة الصادقين، وأن هذه المعية المأمور بها معية ائتمام واقتداء في العلم والفهم والعمل والاعتقاد، وأن من خالفهم في شيء من ذلك لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ يصدق عليه أنه ليس معهم.

المطلب الخامس: الآيات التي جاءت في مدح الراسخين في العلم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: ٧].

فائدة: قال العلامة عبدالرحمن المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الرسوخ عن كثرة العلم، ولكن الرسوخ رسوخ الإيمان في القلب، ويوشك أن يكون هو اللب في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾. وإنه ليشم روائح الرسوخ من قولهم: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران: ٧-٩]. فالخائف الخاشي المسيء الظن بنفسه جدير بألا يستخفه ما عنده من العلم على الخوض فيما ليس له به علم، وعلى البحث فيما لم يكلف البحث فيه وهو من موارد الخطر ومزالق النظر هذا لو كان يمكن العلم به فكيف إذا كان مما لا سبيل للعلم به، وإنما الزائغ الجريء على ربه المتكل على نفسه[(١)].

(١) مجموع رسائل العقيدة ٥٨.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ [النساء: ١٦٢].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ: ٦]. قال قتادة: هم أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رواه الطبري.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل: ٥٩]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هم أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وجه الاستدلال بهذه الآيات: أن الصحابة هم أئمة الراسخين في العلم والفهم قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله» وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... فعلموا ما أراد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاما وخاصا، وعزما وإرشادا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وما جهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل...».

المطلب السادس: الآيات التي تدل على فضل الصحابة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨-٩].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة: ٨٨].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: ٧٤].

قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦].

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من كفار مكة ﴿وَأَهْلَهَا ۚ﴾ أي: وكانوا أهلها في علم الله؛ لأن الله تعالى اختار لدينه وصُحبة نبيه أهل الخير ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

وجه الاستدلال بهذه الآيات: أن القرآن مدحهم، ونص على أنهم أهل

لكل خير، وأولى الناس بكل صواب، فقال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ أي علما وفهما وعملا؛ ولذلك اختارهم لدينه وصحبة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المطلب السابع: الآيات التي تدل على وجوب اتباع السلف:

قال الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد ثبت وجوب اتباع السلف رحمة الله عليهم بالكتاب، والسنة، والإجماع»(١).

قال أبو المظفر السمعاني: «قد دللنا -فيما سبق- بالكتاب الناطق من الله عَزَّوَجَلَّ، ومن قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أقوال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنا أمرنا بالاتباع... ونهينا عن الابتداع وزجرنا عنه. وشعار أهل السنة: اتباعهم السلف الصالح، وتركهم كل ما هو مبتدع محدث وهل زاغ من زاغ وهلك من هلك وألحد من ألحد إلا بالرجوع إلى الخواطر والمعقولات واتباع الآراء في قديم الدهر وحديثه؟ وهل نجا من نجا إلا باتباع سنن المرسلين....»(٢).

وقال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا عيب على من أظهر مذهب السلف، وانتسب إليه، واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق؛ فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقا»(٣).

وقال: «شعار أهل البدع: هو ترك انتحال اتباع السلف»(٤).

---

(١) ذم التأويل ص٣٣.

(٢) الانتصار لأصحاب الحديث ص٣١ وانظر الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٩٥.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ١٤٩.

(٤) المرجع السابق ٤/ ١٥٥.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ١ - ٧].

فقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يدل على أن الهداية متوقفة على الكتاب، والسنة. وقوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وفق فهم السلف الصالح.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧﴾ [البقرة: ١٣٧].

أناط سبحانه وتعالى الهداية في هذه الآية بالإيمان بمثل ما آمن به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فالإيمانُ المَرْضيُّ إذاً هو كإيمان الصحابة ولا شكَّ أنَّ هذا الإيمان إنَّما هو نتيجةُ الفهم الثاقب، والعلم الصائب للوحي الرباني، ولا يمكنُ لمنْ جاء بعدهم أن يتساوَوا معهم في كمية الإيمان، فدلَّ على أنَّه لم يبقَ إلا المساواة في الكيفية، وهو المنهج والسبيل المذكور في الآية.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقد احتج الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية على وجوب اتباع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ [(١)].

(١) اعلام الموقعين ٤/ ١٢٣.

والاتباع للسابقين -وهم الصحابة- إذا لم يكن في الفهم والمنهج والعلم فبأي شيء يكون؟ وهذه الآية صريحةٌ في الثناء على المُتَّبِعين لأئمة السلف الصالح، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وهذا الاتِّباع شاملٌ للاعتقاد والعمل، المبنيِّ على صحة الفهم، ومدحهم يتضمن صحة ما كانوا عليه من الاعتقاد والعمل، كما دلَّت بمفهوم المخالفة على بطلان ما خالفهم في ذلك، ومن هنا يتبين أنَّ فهمهم حجةٌ على من بعدهم في مسائل العقيدة والعمل.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يهتدى بنا في الخير وقال أبو صالح يقتدى بهدانا وقال مكحول أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون وقال مجاهد اجعلنا مؤتمين بالمتقين مقتدين بهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأشكل هذا التفسير على من لم يعرف قدر فهم السلف وعمق علمهم وقال يجب أن تكون الآية على هذا القول من باب المقلوب على تقدير واجعل المتقين لنا أئمة ومعاذ الله أن يكون شيء مقلوبا على وجهه وهذا من تمام فهم مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه لا يكون الرجل إماما للمتقين حتى يأتم بالمتقين فنبه مجاهد على هذا الوجه الذي ينالون به هذا

المطلوب وهو اقتداؤهم بالسلف المتقين من قبلهم فيجعلهم الله أئمة للمتقين من بعدهم وهذا من أحسن الفهم في القرآن وألطفه ليس من باب القلب في شيء فمن ائتم بأهل السنة قبله ائتم به من بعده ومن معه»[(١)].

وجه الاستدلال بهذه الآيات: ان الاتباع للسابقين -وهم الصحابة- إذا لم يكن في الفهم الثاقب، والعلم الصائب للوحي الرباني، والمنهج والعلم فبأي شيء يكون؟.

المطلب الثامن: الآيات التي تحذر من الغلو في الدين:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة: ٧٧].

وجه الاستدلال بهذه الآيات: خطورة الغلو في الدِّين والانحراف عن الحقِّ ومجانبة ما كان عليه أهل السنَّة والجماعة؛ حيث نهى الله عن الغلو وبين خطورته البالغة التي تؤدي إلى الشرك والبدعة واتباع الهوى.

---

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص١٢.

المطلب التاسع: الآيات التي تحذر من البدعة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧].

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣]. وغيرها؛ لأن إحداث فهم مخالف لفهم السلف بدعة كتفسير الجهمية قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [طه: ٥] باستولى.

وجه الاستدلال من هذه الآيات: أن فهم السلف الفهم - الذي يجمع بين العلم والعمل- هو الذي يعصم المجتمع من التمزق والحروب الداخلية الناجمة عن رؤية وفهم الخوارج كما يعصمه من التحلل وانتشار الفساد والجريمة الناجمة عن الرؤية الإرجائية.

❀❀❀

المبحث الثاني

حجيتها في السنة الصحيحة

وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: الأحاديث الدالة على خيرية هذه الأمة وتزكية الشارع لهم.

المطلب الثاني: الأحاديث الآمرة بلزوم الجماعة.

المطلب الثالث: الأحاديث التي جاءت في مدح الراسخين في العلم

المطلب الرابع: الأحاديث التي تأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصدقين.

المطلب الخامس: الأحاديث التي تدل على فضل الصحابة.

المطلب السادس: الأحاديث التي فيها دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابة بأن يعلمهم التأويل.

المطلب السابع: الأحاديث التي تدل على وجوب اتباع السلف.

المطلب الثامن: الأحاديث التي تحذر من الغلو في الدين.

المطلب التاسع: الأحاديث التي تحذر من البدعة.

المطلب الأول: الأحاديث الدالة على خيرية هذه الأمة وتزكية الشارع لهم.

لأن خيرهم القرن الذي بعث فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

عن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها، وأنتم أكرم على الله** عَزَّوَجَلَّ»(١). قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذي ويروى عن معاذ بن جبل، وأبي سعيد نحوه.

وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطيت سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي** عَزَّوَجَلَّ **فزادني مع كل واحد سبعين ألفا**»(٢).

عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ فكبرنا، ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة**»(٣).

عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أهل الجنة عشرون**

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٣/ ٢٢٨ برقم ٢٠٠٢٥. الترمذي ٥/ ٢٢٦ برقم ٣٠٠١ وقال: حديث حسن. والمعجم الكبير ١٩/ ٤٢٢ برقم: برقم: ١٠٢٣. وحسنه الألباني.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٦١ برقم ١١٦٠٤.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٩٢ برقم: ٦١٦٣ ومسلم ٢/ ١٦٠ برقم: ٥٥٢.

ومائة صف، ثمانون منها من أمتي»[(١)].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع غدا لليهود، وللنصارى بعد غد**»[(٢)].

وقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[(٣)].

وجه الاستدلال: أن هذه الخيرية الواردة في الأحاديث خيرية دين وعلم وفضل، فلا يخلو هذه العصور الفاضلة من الحق والصواب حتى يكون فيمن بعدهم من أهل القرون المفضولة من يعلمه؛ لأنه يلزم من ذلك أن يكون هذا القرن المتأخر خير من القرون الفاضلة ولو في هذا الوجه، وهذا ما يدل نص الحديث على بطلانه، بل يجب تقديمهم على من بعدهم.

المطلب الثاني: الأحاديث الآمرة بلزوم الجماعة (الجماعة الأولى):

قال الحافظ أبو محمد عبدالرحمن المعروف بأبي شامة: «وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك بالحق قليلا

---

(١) البحر الزخار مسند البزار ٥/ ٤٠٩ برقم: ١٧٦٣. والمعجم الكبير ٩/ ١٢ برقم: ١٠١٩٦ وصحيح ابن حبان ١٦/ ٤٩٨ برقم ٧٤٥٩. قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٦ برقم: ٢١١٧.

(٣) أخرجه البخاري ٢/ ٩٣٨ برقم: ٢٥٠٩.

والمخالف كثيرا؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي نصوص القرآن، والسنة نصوص كثيرة في الحض على الجماعة والأمر بها. وهذا اللفظ النبوي يفيد أن الجماعة هم أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنه لم تكن آنذاك جماعة غير أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أيها الناس، عليكم بالطاعة و الجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به وما تكرهون في الجماعة، خير مّما تحبّون في الفُرقة»[(٢)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[(٣)]، ففي هذه الحديث النبويّ الشريف، البدء بأساس الجماعة وأصله، «أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، والاعتصام بحبل الله، الذي هو الجماعة، وعدم التّفرق، ومناصحة وليّ الأمر، وهذه الثلاث قد نصّ عليها في حديث رواه الإمام أحمد في المسند بإسناد جيّد عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**نضّر الله امرأً سمع منّا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره، فإنه ربّ**

---

(١) الباعث على إنكار البدع ص٢٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٩/ ١٩٨ برقم: ٨٩٧٢.

(٣) أخرجه مسلم ٣/ ١٤٣ برقم: ١٧١٥.

حامل فقه ليس بفقيه وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث خصال لا يغلُّ عليهنّ قلب مسلم أبدا: إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإنّ دعوتهم تحيط بهم من ورائهم...» الحديث[(١)].

وجاء هذا الحديث بأسانيد بعضها صحيحة، وبعضها حسنة، وبعضها معلولة، عن جماعة من الصحابة، فهو متواتر.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما كان الله ليجمع هذه الأمة على الضلالة أبدا، ويد الله على الجماعة هكذا فعليكم بالسواد الأعظم؛ فإنه من شذ شذ في النار**»[(٢)].

عن أسامة بن شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يد الله على الجماعة**»[(٣)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**إن الله قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة**»[(٤)].

وعنه قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم الحق وأهله**»[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد ٧/ ٢٢١ برقم: ٤١٥٧ وأبو داوود ٣/ ٣٦٠ برقم: ٣٦٦٢ والترمذي ٥/ ٣٣ برقم: ٢٦٥٦وابن ماجه ١/ ٨٤ برقم: ٢٣٠ وقال الألباني: صحيح.

(٢) السنة لابن عاصم ١/ ٣٩ برقم: ٨٠.

(٣) المرجع السابق ١/ ٤٠ برقم: ٨١.

(٤) المرجع السابق ص٤١.

(٥) المرجع السابق.

وجه الاستدلال بهذه الأحاديث: أن الجماعة هم أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنه لم تكن آنذاك جماعة غير أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن اتباعهم في الفهم والعلم والعمل.

المطلب الثالث: الأحاديث التي جاءت في مدح الراسخين في العلم:

عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»(٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**بينا أنا نائم أتيت بقدح من لبن فشربت حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: «**العلم**»(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة**»(٤).

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٩ برقم: ٧١ ومسلم ٢/ ٩٤ برقم: ٢٤٣٦.

(٢) جامع الترمذي ٥/ ٤٨ برقم: ٢٦٨٢ قال الألباني: صحيح وابن ماجه ١/ ٨١ برقم: ٢٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٤٣ برقم: ٨٢ ومسلم ٧/ ١١٢ برقم: ٦٣ ٤١.

(٤) روا أحمد في مسنده ١٤/ ٦٦ برقم: ٨٣١٦ وأبو داوود ٢/ ٣٥٤ برقم: ٣٦٤٣ والترمذي ٥/ ٢٨ برقم: ٢٦٤٦ وابن ماجه ١/ ٢٦٨ برقم: ٢٢٨ قال الترمذي: حديث حسن وقال الألباني: صحيح.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[(١)] الحديث.

وجه الاستدلال من هذه الأحاديث: سبق في مباحث القرآن.

المطلب الرابع: الأحاديث التي تأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصدقين:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[(٢)].

عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حفظت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»[(٣)]، قوله يريبك هو بفتح الياء وضمها ومعناه اترك ما تشك في حله واعدل إلى ما لا تشك فيه.

عن أبي سفيان صخر بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل في قصة هرقل قال هرقل فماذا يأمركم يعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال أبو سفيان قلت يقول:

---

(١) أخرجه أبو داوود ٣/ ٣٥٤ برقم: ٣٦٤٣ والترمذي ٥/ ٥٠ برقم: ٢٦٨٥ وابن ماجه ١/ ٨١ برقم: ٢٢٣ وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه البخاري ٥/ ٢٢١٦ برقم: ٥٧٤٣ ومسلم ٨/ ٢٩ برقم: ٦٨٠٣.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٢٤٩ برقم: ١٧٢٣ والترمذي ٩/ ٤٣٣ برقم: ٢٧٠٨ وقال: حديث حسن صحيح.

«**اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة**»(١).

عن أبي ثابت وقيل أبي سعيد وقيل أبي الوليد سهل بن حنيف وهو بدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»(٢).

عن أبي خالد حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبًا وكتما محقت بركة بيعهما**»(٣)، والأحاديث في الباب كثيرة.

وجه الاستدلال بهذه الأحاديث: سبق في مباحث القرآن.

المطلب الخامس: الأحاديث التي تدل على فضل الصحابة:

عن عمرو قال: سمعت جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: حدّثنا أبوسعيد الخدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يأتي على النّاس زمان فيغزو فئام من النّاس فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثمّ يأتي على النّاس زمان فيغزو فئام من النّاس فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم، ثمّ يأتي على النّاس زمان**

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٧ برقم: ٧

(٢) أخرجه مسلم ٦/ ٤٨ برقم: ٥٠٣٩

(٣) أخرجه البخاري ٢/ ٧٣٢ برقم: ١٩٧٣ ومسلم ٥/ ١٠ برقم: ٣٩٣٧.

فيغزو فئام من النّاس. فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ **؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم»**[(١)].

عن أبي بردة، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صلّينا المغرب مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثمّ قلنا: لو جلسنا حتّى نصلّي معه العشاء. قال: فجلسنا فخرج علينا، فقال: «**ما زلتم ههنا**»؟ قلنا: يا رسول الله صلّينا معك المغرب ثمّ قلنا: نجلس حتّى نصلّي معك العشاء. قال: «**أحسنتم، أو أصبتم**». قال: فرفع رأسه إلى السّماء وكان كثيرًا ممّا يرفع رأسه إلى السّماء فقال: «**النّجوم أمنة للسّماء، فإذا ذهبت النّجوم أتى السّماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمّتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمّتي ما يوعدون**»[(٢)].

عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآني وصاحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني وصاحب من صاحبني**»[(٣)]، والأحاديث في الباب كثيرة.

وجه الاستدلال: سبق في مباحث القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ١٣٣٥ برقم ٣٤٤٩.

(٢) سبق تخريجه

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٨٥ برقم: ٢٠٧ وابن أبي شيبة ٦/ ٤٠٥ برقم: ٣٢٤١٧. هذا حديث حسن رجاله رجال الصحيح.

المطلب السادس: الأحاديث التي فيها دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابة بأن يعلمهم التأويل والعلم.

دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأن يعلمه التأويل، فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»(١).

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم تزعمون أنَّ أبا هريرة يُكثر الحديث على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله الموعِد، إني كنتُ امرأً مسكينًا، ألزَمُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ملء بطني، وكان المهاجرون يَشْغَلُهُم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يَشغلُهم القيام على أموالهم، فشهدتُ مِن رَسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، وقال: «**مَن يَبسُط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يَقبضه، فلن ينسى شيئًا سمعه مني**»، فبسطتُ بردةً كانت عليَّ، فوالذي بعثه بالحق، ما نسيتُ شيئًا سمعتُه»(٢).

وجه الاستدلال بهذه الأحاديث: أنهم أعمق فهما وعلما بدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بأن يعلمهم التأويل والعلم.

المطلب السابع: الأحاديث التي تدل على وجوب اتباع السلف:

منها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا**

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٦٦ برقم: ١٤٣.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٣٠ برقم: ٦٣٥٤.

عليه اليوم وأصحابي»[(١)].

ومنها: حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «... **فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»[(٢)].

ومنها: عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»[(٣)].

ومنها: عن أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنها ستكون فتن**» قالوا: فكيف لنا يا رسول الله أو كيف نصنع؟ قال: «**ترجعون إلى أمركم الأول**»[(٤)]. أي ما عليه سلفكم وهذا شامل لفهمهم للنصوص وعملهم بمقتضاها.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٤/ ١٢٤ برقم: ٨٣٩٦ وأبو داوود ٤/ ٢٢٢ برقم: ٤٥٩٨ وابن ماجه ١٢/ ١٤٢ برقم: ٤١٢٧ وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٢٨/ ٣٧٣ برقم: ١٧١٤٤ وأبو داوود ١٢/ ٢٣٤ برقم: ٤٥٩٤ بعون المعبود والترمذي ٥/ ٤٣ برقم: ٢٦٧٦ وقال: حسن صحيح وقال الهروي: وهذا أجود حديث في الشام وقال البزار: حديث صحيح ثابت وقال ابن عبدالبر: حديث ثابت.

(٣) رواه مسلم: ٢٥٣١.

(٤) رواه الطبراني في الكبير ٣/ ٢٤٩ والأوسط ٨/ ٢٩٤ قال الهيثمي في «المجمع» وفيه عبدالله بن صالح وقد وثق وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح وصححه الألباني في الصحيحة ح ٣١٦٥.

ومنها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقتدوا بالذين من بعدي أبو بكر، وعمر**»[(١)].

ومنها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للذي قال: إن جئت ولم أرك فإلى من؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإلى أبي بكر**»[(٢)].

ومنها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من نبي بعثه الله قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف: يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون؛ فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس رواء ذلك من الإيمان حبة خردل**». وجه الاستدلال أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف أصحابه بأنهم يقتدون بأمره ويأخذون بسنته، ومن كان كذلك وجب الاقتداء به؛ لأنه السبيل إلى الاقتداء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)].

وجه الاستدلال: وضحه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان وجه الاستدلال بحديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «أنه جعل نسبة أصحابه إلى من بعدهم كنسبته إلى أصحابه، وكنسبة النجوم إلى السماء، ومن المعلوم أن هذه النسبة يعطي من وجوب اهتداء الأمة بهم ما هو نظير اهتدائهم بنبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونظير اهتداء أهل الأرض بالنجوم، وأيضا فإنه جعل بقاءهم بين الأمة أمنة لهم وحرزا من الشر وأسبابه، فلو جاز أن يخطئوا فيما أفتوا

---

(١) أخرجه أحمد ٢٨/ ٢٨٠ برقم: ٢٣٢٤٥ والبزار ٧/ ٢٥٠ برقم: ٢٨٢٨ والطبراني في الكبير ٩/ ٧٩ برقم: ٨٤٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة

(٣) أخرجه مسلم ١/ ٥٠ برقم: ١٨٨.

فيه ويظفر به من بعدهم لكان الظافرون بالحق أمنة للصحابة وحرزا لهم فهذا من المحال»[١].

المطلب الثامن: الأحاديث التي تحذر من الغلو في الدين:

منها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رُئيت بهجته عليه وكان ردءاً للإسلام، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك**»، قلت: يا نبيَّ الله! أيُّهما أولى بالشرك: الرامي أو المرمي؟ قال: «**بل الرامي**»[٢].

ومنها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله**»[٣].

ووجه الاستدلال من هذ الأحاديث: أن هذه الأحاديث تدلُّ على خطورة الغلو في الدِّين والانحراف عن الحقِّ ومجانبة ما كان عليه أهل السنَّة والجماعة كما سبق.

المطلب التاسع: الأحاديث التي تحذر من البدعة:

منها: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في خطبته: «**أما بعد؛ فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»[٤].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ١٠٢.

(٢) رواه البخاري في التاريخ وأبو يعلى وابن حبان والبزار، انظر الصحيحة للألباني (٣٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري ٣/ ١٢٧١ برقم: ٣٢٦١.

(٤) أخرجه مسلم ٦/ ٣٩١ برقم: ٢٠٠٢.

ومنها: حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد**»[(١)] وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(٢)]. قال قوام الدين الإمام العلامة أبو القاسم الأصبهاني بعد إيراده هذا الحديث: «قال الشيخ الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: أنكر السلف الكلام في الجواهر والأعراض، وقالوا: لم يكن على عهد الصحابة والتابعين رضي الله عن الصحابة ورحم التابعين، ولا يخلو أن يكونوا سكتوا عن ذلك وهم غافلون به فيسعنا السكوت عما سكتوا عنه، أو يكونوا سكتوا عنه وهم غير غافلين فيسعنا أن لا نعلم ما لم يعلموه. والحديث الذي ذكرناه يقتضي أن ما تكلم فيه الآخرون من ذلك ولم يتكلم فيه الأولون يكون مردودا»[(٣)].

ومنها: حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)] والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وفي أحاديث الخوارج قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم**».

ومنها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**»[(٥)] قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك أصحابه على ملة قويمة مستقرة، ومحجة بيضاء ناصعة،، لا خفاء فيها، ولا

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٦٨٤ برقم: ٢٦٩٧ ومسلم ٣/ ١٣٤٣برقم: ١٧١٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية ١٢/ ٢٤٢ برقم: ٤٤٦٨

(٣) الحجة في بيان المحجة ١/ ١٠٧.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨/ ٢٤٧ برقم: ٦١٩.

لبس، ولا إيهام، لا عذر لمن انحرف عنه؛ لأن الحجة قامت عليه وبلغته» وذلك من خصوصيات الصحابة؛ لأنهم دون غيرهم الآخذون المتلقون المبلغون، والناس تبع لهم في العلم بهذا البيان الناصع، وعالة عليهم في ذلك؛ لأن هذا أمر لم يتفق لغيرهم أصالة.

وجه الاستدلال بهذه الأحاديث: أن منهج الصحابة هو الحق الذي لا مرية فيه؛ فمن تمسك به كان على صراط مستقيم، ومن خالفه تفرقت به السبل عن البيضاء النقية.وهذا يدل على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعملهم ميزانا لوزن أفهام وأعمال من بعدهم فمن وافقهم، فقد نجا، ومن خالفهم هلك.

❁❁❁

المبحث الثالث

الإجماع

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حجيتها عند الصحابة.

المطلب الثاني: حجيتها عند المذاهب الأربعة.

المطلب الثالث: حجيتها عند سائر العلماء.

مدخل: نقل إجماع التابعين على الأخذ بقول الصحابة واتباعهم وعدم مخالفتهم العلائي حيث يقول: «الوجه السادس وهو المعتمد أن التابعين أجمعوا على اتباع الصحابة فيما ورد عنهم، والأخذ بقولهم والفتيا به من غير نكير من أحد منهم»[(١)].

وممن نقل الإجماع ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «من المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقادات وغيرها من كل فضيلة أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم»[(٢)].

---

(١) إجمال الإصابة في أقوال الصحابة ص٦٦ تحقيق الأشقر.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٥٨.

المطلب الأول

حجيتها عند الصحابة

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تأصيل القاعدة عندهم.

المسألة الثانية: تفريع الصحابة على القاعدة

المسألة الأولى:

تأصيل القاعدة عندهم

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: تصريحهم بأنهم أعمق فهما وعلما.

الفرع الثاني: إنكارهم على من خالف فهمهم.

الفرع الثالث: حثهم الناس على اتباعهم في الفهم والعمل .

الفرع الأول: تصريحهم بأنهم أعمق فهما وعلما:

١- قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل»[(١)].

٢- وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سئل: «هل خصكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء دون الناس؟ فقال: لا؛ والذي فلق الحبة وبرأ النسمة؛ إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه»[(٢)]. فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الذي أنبتته الأرض الطيبة. وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية؛ وهي التي حفظت النصوص فكان همها حفظها وضبطها؛ فوردها الناس وتلقوها بالقبول؛ واستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها واتجروا فيها؛ وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات؛ ورووها كل بحسبه.

٣- وقال عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للخوارج يوم ناظرهم: «... وجئتكم من عند أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله...»[(٣)].

٤- وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «والذي لا إله غيره ما أنزل الله سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت سورة في كتاب الله

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٣٨ وابن عساكر في التاريخ ٣٤/ ٣٩٨.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ١١١١ برقم: ٢٨٨٢ ومسلم ١/ ٨٦ برقم: ١٣١.

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ٢/ ٩٦٢ برقم: ١٨٣٤ ط/ ٣ دار ابن الجوزي قال المحقق: إسناده حسن. وقد صحح إسنادها ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٢٨٠-٢٨١).

إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[(١)].

٥- وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كان منكم متأسيا، فليتأس بأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هدى، وأحسنها حالا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[(٢)].

٦- وقال عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من كان منكم مستنا، فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا خير هذه الأمة، وأبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٣)].

الفرع الثاني: إنكارهم على من خالف فهمهم ولها نماذج:

١- إنكار أبي بكر على الذين يفهمون من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقام فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن برقم ٥٠٠٢ ومسلم في فضائل الصحابة برقم: ٢٤٦٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله برقم: ١٨١٠ وذم الكلام للهروي ص١٨٨.

(٣) أخرجه أبو نعيم ١/ ٣٠٥.

الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أو شك الله عَزَّوَجَلَّ أن يعمهم بعقابه»[(١)].

٢- ومنها إنكار علي على فهم الخوارج: عن بُسر بن سعيد عن عُبيد الله بن أبي رافع أن الحرورية هاجت وهو مع عليّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقالوا: «لا حُكم إلا لله» فقال: عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كلمة حق أريد بها باطل. إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصف ناسًا وأشار إلى خلق من أبغض خلق الله إليه، فيهم أسوَد، إحدى يديه طبْيُ شاة أو حَلمَةُ ثدي» قال عبيد الله: «وأنا حاضرٌ ذلك من أمورهم، وقول عليّ فيهم»[(٢)].

٣- ومنها: إنكار ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا على فهم الخوارج ومناظرته إياهم حيث قال: «أتيتكم من عند صحابة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المهاجرين والأنصار لأبلغكم ما يقولون... فعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بالوحي منكم، فيهم أنزل، وليس فيكم منهم أحد، فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشا، فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٨]، قال ابن عباس: وأتيت قوما لم أر قوما قط أشد اجتهادا منهم مسهمة وجوههم من السهر كأن أيديهم وركبهم تثنى عليهم فمضى من حضر، فقال بعضهم: لنكلمنه ولننظرن ما يقول، قلت: أخبروني ما ذا نقمتم على ابن عم رسول الله وصهره، والمهاجرين، والأنصار؟ قالوا: ثلاثا، قلت: ما هن؟ قالوا: أما

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢ برقم: ١ والترمذي ٤/ ٤١٦ برقم: ٢٠٩٤ والنسائي في الكبرى ٦/ ٢٣٨ برقم: ١١١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم ٣/ ١١٦ برقم: ٢٦١٥.

إحداهن، فإنه حكم الرجال في أمر الله وقال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] وما للرجال وما للحكم، فقلت: هذه واحدة، قالوا: وأما الأخرى، فإنه قاتل، ولم يسب ولم يغنم فلئن كان الذي قاتل كفارا، لقد حل سبيهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم، قلت: هذه ثنتان، فما الثالثة؟ قال: إنه محا نفسه من أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين، قلت: أعندكم سوى هذا؟ قالوا: حسبنا هذا، فقلت لهم: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله، ومن سنة نبيه ما يرد به قولكم أترضون؟، قالوا: نعم، فقلت: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله، فانا أقرأ عليكم ما قد رد حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم في أرنب ونحوها من الصيد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥] فنشدتكم الله أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم؟، وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرجال، وفي المرأة وزوجها قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥]، فجعل الله حكم الرجال سنة مأمونة أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، وأما قولكم: قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ثم تستحلون منها ما يستحل من غيرها؟ فلئن

فعلتم فقد كفرتم وهي أمكم، ولئن قلتم: ليست أمنا فقد كفرتم؛ فإن الله يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب: ٦]. فإنكم تدورون بين ضلالتين أيهما صرتم إليها صرتم إلى ضلالة، فنظر بعضهم إلى بعض، قلت: أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، وأما قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بمن ترضون وأريكم، قد سمعتم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو، وأبا سفيان بن حرب، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكتب يا علي هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله، فقال المشركون: لا والله لا نعلم أنك رسول الله، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهم أنك تعلم أني رسول الله اكتب يا علي هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله، فو الله لرسول الله خير من علي، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه، قال عبدالله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فرجع من القوم ألفان وقتل سائرهم على ضلالة»[(١)].

٤- ومنها: إنكار ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا على فهوم الخلف مع بيان سبب

(١) السنن الكبرى للنسائي ٧/ ٤٨٠ برقم: ٨٥٢٢ جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٦٢-٩٦٤ والمصنف لعبدالرزاق ١٠/ ١٥٧ برقم: ١٨٦٧٨ والمعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢٥٧- ٢٥٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٣١١ والمستدرك للحاكم ٢/ ١٥٠ والحلية لأبي نعيم ١/ ٣١٨-٣٢٠ وأخرج بعضه الإمام أحمد ١/ ٣٤٢ وإسناده على شرط مسلم.

مخالفتهم لفهم السلف وموافقة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليه: خرج أبو عبيد في فضائل القرآن، و سعيد بن منصور في تفسيره عن إبراهيم التميمي قال: «خلا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة ـ زاد سعيد وكتابها واحد ـ قال، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين: إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما أنزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي فإذا كان كذلك اختلفوا، وقال سعيد: فيكون لكل قوم رأي، فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. قال: فزجره عمر وانتهره علي فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه، فأرسل إليه وقال: أعد علي ما قلته. فأعاد عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه»[(١)]. علق الشاطبي على ما

(١) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص٤٥-٤٦، وسعيد بن منصور في «سننه» (١/ ١٧٦/ رقم ٤٢، ط الجديدة)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٢٣٠-٢٣١/ رقم ٢٠٨٦) والخطيب البغدادي في «الجامع» (٢/ ١٩٤/ رقم ١٥٨٧)، عن هشيم عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي به، والتيمي لم يدرك زمن عمر؛ فإسناده منقطع.

وأخرجه ابن ديزيل في «جزئه» (رقم ٢٦) من طريق هشيم عن إبراهيم التيمي به؛ دلس في هذا الإسناد وأرسل.

وأخرجه عبدالرزاق في «جامع معمر» (١١/ ٢١٧-٢١٨/ رقم ٢٠٣٦٨)، ومن طريقه الهروي في «ذم الكلام» (رقم ١٩٨)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٥١٦-٥١٧) عن علي بن بذيمة الجزري عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس به نحوه، وإسناده صحيح. =

سبق، فقال: وما قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو الحق، فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها، فلم يتعد ذلك فيها، وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أوجهاً. فذهب كل إنسان مذهباً لا يذهب إليه الآخر، وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم إلى الصواب، أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات، فلم يكن بد من الأخذ ببادىء الرأي، أو التأويل بالتخرص الذي لا يغني من الحق شيئاً، إذ لا دليل عليه من الشريعة، فضلوا وأضلوا [(١)].

٥- إنكار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على الذي خفي عليه سبب النزول روى أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أُتِيَ برجلٍ من المهاجرين الأولين قال: وفي أيّ كتاب الله تجد أن لا أجلدك؟. قال: فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة: ٩٣]، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا؛ شهدت مع رسول الله: بدراً، وأحداً، والخندق، والمشاهد. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا تَرُدّون عليه؟ فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هؤلاء

= وما بين المعقوفتين الأولى ليست في الأصل ولا في «ط»، والثانية ليست «إلا» فيهما. وأخرج الحاكم في «المستدرك» في كتاب الأهوال عن ابن عمر -لا عن عمر- نحوه، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، وانظر: «تخريج الزيلعي على الكشاف» (٣/ ٢٠٤).

(١) نقله الشاطبي في الاعتصام ١/ ٤٦٤.

الآيات نزلت عذراً للماضين، وحجّة على الباقين، عذراً للماضين؛ لأنهم لَقُوا الله قبل أن حرّم الله عليهم الخمر، وحجة على الباقين؛ لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠] حتى بلغ الآية الأخرى»[(١)]. فانظر كيف خفي على هذا البدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حكم هذه الآية لمّا لم يكن يعلم سبب نزولها؟ وكيف لم تكن مشكَلة عند من علم سبب نزولها؟ فنزلها منزلتها، وبيّن معناها.

٦- ومنها: إنكار جابر بن عبدالله على فهم الخوارج: قال يزيد الفقير: كنت قد شغفني رأى من رأى الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج، ثم نخرج على الناس، قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدث القوم، جالس إلى سارية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فإذا هو قد ذكر الجهنميين، قال: فقلت له: يا صاحب رسول الله ما هذا الذي تحدثون؟ والله يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران: ١٩٢]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ٢٠]. فما هذا الذي تقولون؟ قال: فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعت بمقام محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني الذي يبعثه الله فيه؟ قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج. قال: ثم نعت وصف الصراط، ومرور الناس عليه، قال:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٤١٧ برقم: ٨١٣٢ قال ذهبي في التلخيص: صحيح.

وأخاف أن لا اكون أحفظ ذاك قال: غير أنه قد زعم أن قوما يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم، قال: فيدخلون نهرا من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس، فرجعنا، قلنا: ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فرجعنا فلا والله ما خرج منا غير رجل واحد»[(١)].

٧- ومنها: إنكار ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على القدرية فعن يحيى بن يعمر قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا، وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجين، أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دَاخِلاً الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِى أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِى سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَىَّ فَقُلْتُ أَبَا عبدالرحمن إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّى بَرِىءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّى وَالَّذِى يَحْلِفُ بِهِ عبدالله بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ... الحديث»[(٢)]. ووجه الاستدلال: أولا: أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنكر على فهم القدرية وتبرأ منهم. ثانيا: أن هؤلاء

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٦/ ١١٦٥ والاعتصام للشاطبي ١/ ١٩٤.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ٣٦ برقم: ١٠٨.

التابعين رجعوا في معرفة حقيقة مقالة معبد الجهني وأصحابه إلى فهم الصحابة ومنهجهم؛ فدل على أن التابعين يرون حجية فهم الصحابة، وأن المحدثات بعدهم يجب أن تعرض على منهجهم وفهمهم؛ لأنه المعيار في قبول ذلك، أو رده.

٨- ومنها إنكار ابن عمر على الخوارج وقد أخرج ابن وهب عن بُكيْر أنه سأل نافعًا: كيف رأي ابن عمر في الحرورية أي: الخوارج فقال إن ابْنُ عُمَرَ يَرَاهُمْ شِرَارَ خَلْقِ اللهِ وَقَالَ إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا عَلَى الْمُؤْمِنِين[(١)]. سُرَّ سعيد بن جبير من ذلك، فقال مما يتّبع الحرورية من المتشابه قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤] ويقرنون معها: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١] فإذا رأوْا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر، ومن كفر

(١) أخرج البخاري في «صحيحه» «كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، ١٢/ ٢٨٢» تعليقًا، قال: «وكان ابن عمر يراهم شرار الخلق، وقال: إنهم انطلقوا...»، وذكر الأثر.
ووصله ابن جرير في «تهذيب الآثار» -كما في «تغليق التعليق» (٥/ ٢٥٩)، و«الفتح» (١٢/ ٢٨٦)- من طريق بكير بن عبدالله بن الأشج؛ أنه سأل نافعًا: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ فذكره، قال ابن حجر: «وسنده صحيح».
انظر: «مجموعة الرسائل الكبرى» (١/ ٣٦-٣٧) لابن تيمية، و«الاعتصام» (٢/ ٦٩٢) للشاطبي؛ وعزاه لابن وهب أيضًا، وكذا ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٨/ ٩٠/ رقم ١٠٥٧٦).

عَدَلَ بربه؛ ومن عدل بربه فقد أشرك، فهذه الأمة مشركون. فيخرجون -أي الحرورية- فيقتلون ما رأيت، لأنهم يتأولون هذه الآية [١].

٩- إنكار ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على من عطس وقال: الحمد لله، والسلام على رسوله، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وأنا أقول: الحمد لله والسلام على رسول الله، وليس هكذا علمنا رسول الله، علمنا أن نقول: الحمد لله على كل حال». فقد أنكر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على هذا الرجل، مع أن عموم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]. تدخل فيه تلك الصلاة، ولكن ما هكذا فهمها الصحابة فمن بعدهم، وما هكذا طبقها السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفهمهم أولى، ومرتبتهم أعلى.

١٠- إنكار ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على من ثوب في الظهر أو العصر، فقال: «اخرج بنا فإن هذه بدعة»[٢]. قلت: فهم الصحابة: أن التثويب في اذان الفجر كما وردت السنة.

١١- إنكار أبي سعيد الخدري على مروان حين بدأ بالخطبة قبل الصلاة يوم العيد فعن عياض بن عبدالله من رواية زيد بن أسلم عنه عن أبي سعيد قال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى وأول شيءٍ يبدأ به الصلاة ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس

(١) ذكره الشاطبي في الاعتصام ١/ ٤٦٥.

(٢) أخرجه أبو داوود ٢/ ٢٤١ برقم: ٥٤٣ وحسنه الألباني في الإرواء.

جلوسٌ على صفوفهم فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم وإن كان يريد أن يقطع بعثًا أو يأمر بشيءٍ أمر به ثم ينصرف قال أبو سعيد فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان - وهو أمير المدينة - في أضحى أو فطر فلما أتينا المصلى إذا منبرٌ قد بناه كثير بن الصلت فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجبذت بثوبه فجبذني وارتفع فخطب قبل الصلاة فقلت له غيرتم والله فقال أبا سعيد ذهب ما تعلم فقلت ما أعلم - والله - خيرٌ مما لا أعلم فقال لي إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة»[(١)].

١٢- إنكار عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على عروة فهمه لقوله تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨]. وذلك أن عروة فهم من الآية أن لا جناح على من لم يطف بهما، فأنكرت عليه ذلك وبينت أن الآية نزلت في الأنصار الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالصفا والمروة لما كانوا يهلون في جاهليتهم لمناة الطاغية، فسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزل الله هذه الآية[(٢)].

١٣- إنكار أبي أيوب على من حمل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]. على الحمل على العدو: وذلك لما حمله رجل يوم القسطنطينية على العدو، فقال الناس مه لا إله إلا الله يلقي بنفسه إلى التهلكة... فذكر أبو أيوب سبب نزولها

(١) أخرجه البخاري ١/ ٢٢٦ برقم: ٩١٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم/ ١٦٤٣ ومسلم برقم: ١٢٧٧.

وقال: فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد[١].

١٤- إنكار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على مروان بن الحكم فعن حميد بن عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبره أن مروان بن الحكم قال: اذهب يا رافع -لبوابه- إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقل: لئن كان كل امرئ منا بما أتى وأحب أن يحمد بما يفعل معذبا لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما لكم ولهذه الآية إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وتلا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سألهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء كتموه وأخبروه بغيره فخرجوا وفرحوا أنهم أخبروه بما سألهم واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه[٢].

١٥- وقد روى البخاري في مناسبة هذه الآية عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا إذا خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٩٩.

(٢) جامع الترمذي ٥/ ٢٣٣ برقم: ٣٠١٤ قال الترمذي: حسن صحيح وقال الألباني: صحيح.

خلاف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] إذا الآية تحمل على كل من فرح بما أتى وانشغل عن طاعة ربه فاستحمد ذلك حتى أخرجه عن شكر ربه[(١)].

١٦- إنكار ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على الذين يعدون التسبيح بالحصى في القصة التي رواها الدرامي من طريق عمرو بن يحيى قال: «سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاء أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أخرج عليكم أبو عبدالرحمن؟ قلنا: لا بعد، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبدالرحمن، إني رأيت في المسجد آنفا أمرا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا. قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه. قال: ورأيت في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصا، فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئا انتظار رأيك، أو انتظار أمرك قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم،

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٦٦٤ برقم: ٤٢٩١.

فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبدالرحمن حصا نعد به التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو مفتتحو باب ضلالة. قالوا: والله يا أبا عبدالرحمن ما أردنا إلا الخير. قال: كم مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدثنا أن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وايم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم. فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعوننا يوم النهروان مع الخوارج»[(١)].

الفرع الثالث: حثهم على الاتباع في الفهم والعمل:

١- منها: ما جاء عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في خطبته: «إنما أنا بشر مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطيقه، إن الله اصطفى محمدا على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني وإن زغت فقوموني»[(٢)]. يقول ذلك على رءوس الصحابة ولم ينكره أحد فيكون إجماعا.

٢- ومنها: ما جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: «أصدق القيل قيل الله، وإن أحسن الهدى هدى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن شر الأمور

(١) سنن الدارمي ١/ ٢٨٦ برقم: ٢١٠ قال الألباني إسناده صحيح والطبراني في الكبير برقم: ٨٦٣٦ وابن أبي شيبة ١٥/ ٣٠٦ برقم: ١٩٧٣٦ بأسانيد صحح بعضها الهيثمي.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٤ والبداية والنهاية ٩/ ٤١٨.

محدثاتها، ألا وإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[(١)]. قلت: تأمل في قول عبدالله بن عكيم: كان يقول، وكان تأتي للدوام غالبا.

٣- وما جاء عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خطب الناس، فقال: «أيها الناس قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة إلا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا»[(٢)] تأمل في قوله: وتركتم على الواضحة إلا أن تضلوا يمينا وشمالا تجد صريحا جدا.

٤- وعن أسلم مولى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى على طلحة بن عبيد الله ثوبا مصبوغا وهو محرم، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة؟، فقال طلحة: يا أمير المؤمنين إنما هو مدر، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنكم أيها الرهط أئمة يقتدي بكم الناس»[(٣)]. فقد بَيَّن عمر أن الصحابة أئمة يقتدي بهم الناس.

٥- وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة»[(٤)].

٦- وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن الله نظر في قلوب العباد فاختار

---

(١) رواه ابن نصر في السنة ١/ ٢٨ برقم: ٧٥ وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» ص٢٤ برقم: ٥٩، واللالكائي ١/ ٩٤ من طريق سفيان عن هلال الوزان عن عبدالله بن عكيم عن عمر. وإسناده صحيح رجاله رجال مسلم.

(٢) الموطأ للإمام مالك مع التمهيد ١٤/ ٦٤.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٣٢٦. ط/ دار إحياء التراث العربي مصر.

(٤) رواه المروزي في السنة واللالكائي ١/ ٩٢ وذم الكلام ٢/ ١٢٦. قال الألباني: صحيح الإسناد.

محمدا فبعثه برسالاته وانتخبه بعلمه، ثم نظر في قلوب الناس بعده فاختار له أصحابه فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحا فهو عند الله قبيح»[(١)].

٧- وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[(٢)].

٨- وقال أيضاً: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم وكل بدعة ضلالة»[(٣)].

وهذا أيضا نص في محل النزاع؛ لأن قوله: ولا تبتدعوا صيغة عموم ثم أكد بقوله: وكل بدعة ضلالة.

٩- وقال: «أيها الناس ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالأمر الأول»[(٤)].

١٠- وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب كل خميس، فيقول: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ص٢٨٦ والبزار ٥/ ٢١٢ والآجري في الشريعة ٤/ ١٦٧٥ قال الهيثمي: رجاله موثقون وقال الألباني: ورد موقوفا على ابن مسعود وإسناده حسن.

(٢) المعجم الكبي للطبراني ٩/ ١٦٨ برقم: ٨٧٧٠ والدارمي ١/ ٢٨٨ برقم: ٢١١ قال في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح وقال المنذري: إسناده حسن.

(٣) رواه أبو خيثمة في العلم رقم: ٥٤ من طريق إبراهيم النخعي قال: وقال عبدالله. وهذا إسناد صحيح لما هو معروف عن إبراهيم في هذه الصيغة أنها عن غير واحد عن ابن مسعود.

(٤) رواه اللالكائي ١/ ٧٧ برقم ٨٥ والسنة للمروزي ١/ ٢٩ برقم ٨٠.

(٥) رواه ابن وضاح ص٢٤. وانظر صحيح البخاري بالفتح ١٣/ ٢٦٣ حديث رقم: ٧٢٧٧.

١١- وفي «السنة» لمحمد بن نصر المروزي: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إنكم اليوم على الفطرة، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهدي الأول».

١٢- وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعلموا العلم قبل أن يقبض... وعليكم بالأمر العتيق»[(١)]. والعتيق هو الأمر الأول وهو ما عليه المتقدمون من السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

١٣- وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أوشك قائلا من الناس يقول: قد قرأت القرآن ولا أرى الناس يتبعوني ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره فإياكم وما ابتدع؛ فإن ما ابتدع ضلال»[(٢)].

١٤- وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كل عبادة لم يتعبد بها أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا تتعبدوا بها»[(٣)].

١٥- وقال: «يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقا بعيدا، وإن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا»[(٤)].

---

(١) سنن الدارمي ١/ ٦٦.

(٢) رواه أبو داوود برقم: ٤٦١١.

(٣) عزاه إلى أبي داود في السنن: أبو شامة (الباعث، ص٧٠-٧١، ت مشهور سلمان) والسيوطي (الأمر بالاتباع، ص٦٢، ت مشهور، ط٣، ١٤٢٢هـ) والقاسمي (إصلاح المساجد، ص١٤، ط٦، ١٤٢٢هـ) ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ينظر: رسائل في حكم الاحتفال بالمولد النبوي، ١/ ٢٨-٢٩) وغيرهم.

(٤) صحيح البخاري بالفتح ١٣/ ٢٦٣.

١٦- ومنها: ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «عليك بتقوى الله والاستقامة اتبع ولا تبتدع»[(١)]. قوله: ولا تبتدع صيغة عموم؛ لأنه من باب النكرة في سياق النفي.

١٧- وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أبغض الأمور إلى الله البدع، وإن من البدع الاعتكاف التي في الدور»[(٢)].

١٨- وما جاء عن غضيف بن الحارث قال: «بعث إلي عبدالملك بن مروان، فقال: قد جمعنا الناس على رفع الأيدي على المنبر يوم الجمعة، وعلى القصص بعد الصبح والعصر، فقال: أما إنهما أمثل بدعكم عندي ولست بمجيبكم إلى شيء منهما؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما أحدث قوم بدعة إلا رفع من السنة مثلها فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة**»[(٣)]».

قال الحافظ: وإذا كان هذا جواب هذا الصحابي في أمر له أصل في السنة فما ظنك بما لا أصل له فيها فكيف بما اشتمل على ما يخالفها.

المسألة الثانية: تفريع الصحابة على القاعدة فعلا وتركا.

١- إجماعهم على أن العبادة حق صرف لله تعالى لا يصرف شيء منها لملك مقرب، ولا لنبي مرسل بناء على فهمهم من النصوص.

٢- إجماعهم على أن من صرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله، فقد أشرك شركا أكبر بناء على فهمهم من النصوص.

---

(١) سنن الدارمي ١/ ٢٥٠ برقم: ١٤١ والبدع والنهي عنها ص٥٩ برقم: ٦٤.

(٢) سنن البيهقي ٤/ ٣١١ باب الاعتكاف في المسجد.

(٣) رواه أحمد قال الحافظ بسند جيد انظر الفتح ١٣/ ٢٦٧.

٣- إجماعهم على أن الإيمان قول، وعمل بناء على فهمهم من النصوص.

٤- إجماعهم على أن الإيمان يزيد ويتقص بناء على فهمهم من النصوص.

٥- إجماعهم على أن الإيمان ذو شعب بناء على فهمهم من النصوص.

٦- إجماعهم على الاستثناء في الإيمان بناء على فهمهم من النصوص.

٧- إجماعهم على أن مرتكب الكبيرة (غير الشرك، وغير المستحل) مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الإسم المطلق، ولا يسلب مطلق الإيمان بناء على فهمهم من النصوص.

٨- إجماعهم على أن التكفير العام لا يستلزم تكفير المعين إلا بثبوت الشروط، وانتفاء الموانع بناء على فهمهم من النصوص.

٩- إجماعهم على أن بلوغ النص شرط في قيام الحجة بناء على فهمهم من النصوص إجماعهم على أن مطلق الفهم شرط في قيام الحجة بناء على فهمهم من النصوص.

١٠- إجماعهم على أن الفهم المطلق ليس بشرط في قيام الحجة بناء على فهمهم من النصوص.

١١- إجماعهم على أن أن الغيب لا يعلمه إلا الله بناء على فهمهم من النصوص.

١٢- إجماعهم على أن الخلق لا يتصرفون في الكون بناء على فهمهم من النصوص.

١٣- إجماعهم على أن مجرد الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام بناء على فهمهم من النصوص.

١٤- إجماعهم على أن أول واجب على المكلف الشهادتان بناء على فهمهم من النصوص.

١٥- إجماعهم على أن مفهوم التوحيد هو إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

١٦- إجماعهم على أن معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله بناء على فهمهم من النصوص.

١٧- إجماعهم على أن الدعاء عبادة لا يجوز صرفها إلى غير الله بناء على فهمهم من النصوص.

١٨- إجماعهم على جواز الاستعاذة بالصفة بناء على فهمهم من النصوص.

١٩- إجماعهم على أن دعاء الصفة لا يجوز بناء على فهمهم من النصوص.

٢٠- إجماعهم على أن الأصل في باب العبادات الحظر والتوقيف بناء على فهمهم من النصوص.

٢١- إجماعهم على أن من دعا غير الله، أو استعان، أو استغاث بغيره فيما لا يقدر عليه إلا هو جل وعلا، فقد وقع في الشرك الأكبر بناء على فهمهم من النصوص.

٢٢- إجماعهم في الجملة على أن الحلف لا يجوز إلا باسم من أسماء الله، أو بصفة من صفاته بناء على فهمهم من النصوص.

٢٣- إجماعهم على أن النذر للقبور، والأشجار، والأحجار من الشرك بناء على فهمهم من النصوص.

٢٤- إجماعهم على تحريم التطير بمرئي، أو مسموع، أو معلوم، وأنه شرك أصغر إذا اعتقد سببيته للبلاء. وأما إذا اعتقد أنه فاعل بذاته فإنه شرك أكبر بناء على فهمهم من النصوص.

٢٥- إجماعهم على تحريم سب الدهر بناء على فهمهم من النصوص.

٢٦- إجماعهم على تحريم قول «لو» إذا كان من باب التسخط على القدر النازل، أو كان من باب تمني المعصية بناء على فهمهم من النصوص.

٢٧- إجماعهم على تحريم الرياء بناء على فهمهم من النصوص.

٢٨- إجماعهم على أن دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، واتخاذهم وسائط في كشف الملمات وإغاثة اللهفات شرك أكبر بناء على فهمهم من النصوص.

٢٩- إجماعهم على أن السحر المشتمل على عبادة الشياطين بدعائهم والذبح لهم والاستغاثة بهم من الشرك الأكبر بناء على فهمهم من النصوص.

٣٠- إجماعهم على أن السحر له حقيقة فمنه ما يقتل، ومنه ما يمرض بناء على فهمهم من النصوص.

٣١- إجماعهم على أن التبرك ذاتا، ومكانا، وزمانا مبناه على التوقيف بناء على فهمهم من النصوص.

٣٢- إجماعهم على أن التوسل مبني على التوقيف بناء على فهمهم من النصوص.

٣٣- إجماعهم على مشروعية التبرك الحسي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناء على فهمهم من النصوص.

٣٤- إجماعهم على ترك التبرك الحسي بغير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصالحين بناء على فهمهم من النصوص.

٣٥- إجماعهم على أن بركة المساجد الثلاثة، وبركة المسلم معنوية لازمة، لا ذاتية منتقلة بناء على فهمهم من النصوص.

٣٦- إجماعهم على أن الطواف بالقبور بدعة منكرة بناء على فهمهم من النصوص.

٣٧- إجماعهم على مشروعية التوسل بأسماء الله، وصفاته، وبإيمانه، وبعمله الصالح، وبذكر حاله، وبدعاء رجل صالح بناء على فهمهم من النصوص.

٣٨- إجماعهم على ترك التوسل الممنوع بناء على فهمهم من النصوص.

٣٩- إجماعهم على أن التوسل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعنى طلب الدعاء منه قد انتهى بوفاته بناء على فهمهم من النصوص.

٤٠- إجماعهم على تحريم التمائم الشركية بناء على فهمهم من النصوص.

٤١- إجماعهم على تحريم الإتيان للكهنة، والسحرة، والمنجمين، والمشعوذين، والعرافين بناء على فهمهم من النصوص.

٤٢- إجماعهم على تحريم قول ما شاء الله وشئت بناء على فهمهم من النصوص.

٤٣- إجماعهم على تحريم التعبد لغير اسم الله بناء على فهمهم من النصوص.

٤٤- إجماعهم على إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تحريف، ولا تعطيل بناء على فهمهم من النصوص.

٤٥- إجماعهم على قبول خبر الواحد الصحيح في العقيدة بناء على فهمهم من النصوص.

٤٦- إجماعهم على أن لا تعارض بين النقل الصحيح، والعقل السليم بناء على فهمهم من النصوص.

٤٧- إجماعهم على أن باب الأسماء والصفات توقيفي بناء على فهمهم من النصوص.

٤٨- إجماعهم على أن الصفات معلومة من جهة معانيها، ومجهولة من جهة كيفياتها (الاستواء معلوم، والكيف مجهول) بناء على فهمهم من النصوص.

٤٩- إجماعهم على أن الأسماء أعلام وهي مترادفة من هذه الجهة، وأوصاف وهي ميباينة من هذه الجهة بناء على فهمهم من النصوص.

٥٠- إجماعهم على أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات بناء على فهمهم من النصوص.

٥١- إجماعهم على أن الله تعالى له العلو المطلق في الذات، والقهر، والقدر بناء على فهمهم من النصوص.

٥٢- إجماعهم على إثبات الصفات الفعلية مثل الاستواء على العرش، والنزول، والمجيء وغيرها بناء على فهمهم من النصوص.

٥٣- إجماعهم على إثبات الصفات الخبرية مثل الوجه، واليدين، والعينين وغيرها بناء على فهمهم من النصوص.

٥٤- إجماعهم على الإيمان بنعيم القبر، وعذابه، وسؤاله بناء على فهمهم من النصوص.

٥٥- إجماعهم على إثبات البعث، والنشور، والجزاء، والحساب بناء على فهمهم من النصوص.

٥٦- إجماعهم على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، لا تفنيان أبدا ولا تبيدان بناء على فهمهم من النصوص.

٥٧- إجماعهم على إثبات الشفاعة المثبتة بناء على فهمهم من النصوص.

٥٨- إجماعهم على بطلان الشفاعة المنفية بناء على فهمهم من النصوص.

٥٩- إجماعهم على أن رؤية الله يوم القيامة حق بناء على فهمهم من النصوص.

٦٠- إجماعهم على أن الله تعالى لا يرى في الدنيا بعيني اليقظة، وإنما اختلفوا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل رآه ليلة الإسراء على قولين والصحيح لم يره بناء على فهمهم من النصوص.

٦١- إجماعهم على أن من اعتقد أن هدي غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل من هديه فإنه يكفر بناء على فهمهم من النصوص.

٦٢- إجماعهم على أن من اعتقد أن أحدا يسعه الخروج من شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يكفر بناء على فهمهم من النصوص.

٦٣- إجماعهم على من أن استهزأ بشيء مما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يكفر بناء على فهمهم من النصوص.

٦٤- إجماعهم على منع الإقسام على الله إذا كان من باب تحجر الواسع بناء على فهمهم من النصوص.

٦٥- إجماعهم على منع الغلو في سائر أبواب الشريعة اعتقادا وعملا بناء على فهمهم من النصوص.

٦٦- إجماعهم على منع الاستشفاع بالله تعالى على أحد من خلقه بناء على فهمهم من النصوص.

٦٧- إجماعهم على أن قول الرسول مقدم على قول كل أحد بناء على فهمهم من النصوص.

٦٨- إجماعهم على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناء على فهمهم من النصوص.

٦٩- إجماعهم على أن من أنكر علم الله السابق للأشياء فإنه يكفر بناء على فهمهم من النصوص.

٧٠- إجماعهم على أن من قصر علم الله على الكليات فقط ونفى علمه للجزئيات فإنه يكفر بناء على فهمهم من النصوص.

٧١- إجماعهم على أن من ادعى النبوة فإنه كافر بناء على فهمهم من النصوص.

٧٢- إجماعهم على أن من ادعى أن أحدا من الأولياء أفضل من احد

من الأنبياء، أو أن مقام الولاية أعلى وأشرف من مقام النبوة فإنه يكفر بناء على فهمهم من النصوص.

٧٣- إجماعهم على وجوب طاعة ولي الأمر في غير معصية الله بناء على فهمهم من النصوص.

٧٤- إجماعهم على تحريم الخروج عليهم بناء على فهمهم من النصوص.

٧٥- إجماعهم على أنه لا يقطع أحد بالجنة أو النار إلا من شهد له النص بناء على فهمهم من النصوص.

٧٦- إجماعهم على تحريم بناء المساجد على القبور، أو دفن الأموات في المسجد بناء على فهمهم من النصوص.

٧٧- إجماعهم على بدعية تقبيل القبور، أو المقام ونحوها بناء على فهمهم من النصوص.

٧٨- إجماعهم على عدم جواز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة بناء على فهمهم من النصوص.

٧٩- إجماعهم على أن من كفر الصحابة أو واحداً منهم فهو كافر بناء على فهمهم من النصوص.

٨٠- إجماعهم على تحريم الغلو في القبور بناء على فهمهم من النصوص.

❁❁❁

المطلب الثاني

حجيتها عند المذاهب الأربعة

وفيه أربع مسائل:

المسألة الأولى: حجتها عند الأحناف.

المسألة الثانية: حجيتها عند المالكية.

المسألة الثالثة: حجيتها عند الشافعية.

المسألة الرابعة: حجيتها عند الحنابلة.

المسألة الأولى:

حجتها عند الأحناف

وفيه سبعة فروع:

الفرع الأول: تأصيل الأحناف القاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة في بيان مجمل النصوص.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة في صرف الأمر من الوجوب إلى الندب.

الفرع الخامس: استدلالهم بالقاعدة في الرد على المخالف.

الفرع السادس: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع السابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

الافتتاحية:

قال محمد الحسن: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن، والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صفة الرب عَزَّوَجَلَّ من غير تفسير، ولا وصف، ولا تشبيه فمن فسر اليوم شيئا من ذلك، فقد خرج مما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة، ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة؛ لأنه وصفه بصفة لا شيء»[(١)]. قلت: قد قرر قاعدة حجية فهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة في العقيدة وحذر عن مخالفتها.

قال زين الدين ابن نجيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وقد قدم المصنف أنه سنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]. أي إذا أردت قراءة القرآن فأطلق المسبب على السبب، وإنما لم يكن واجبًا لظاهر الأمر؛ لأن السلف أجمعوا على سنيته كما نقله المصنف في الكافي ولم يعين سند الإجماع الذي هو الصارف للأمر عن ظاهره»[(٢)]. قلت: هذا النص صريح جدا أن الأحناف يعتمدون حجية فهم السلف الصالح.

وقال الكاساني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذا كبر السن حتى يباح للشيخ الفاني أن يفطر في شهر رمضان؛ لأنه عاجز عن الصوم وعليه الفدية عند عامة العلماء، وقال

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للآلكائي ٣/ ٤٨٠ برقم: ٧٤٠.

(٢) المرجع السابق ١/ ٣٢٨.

مالك: لا فدية عليه، وجه قوله أن الله تعالى أوجب الفدية على المطيق للصوم بقوله: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٤]. وهو لا يطيق الصوم فلا يلزمه الفدية، وما قاله مالك خلاف إجماع السلف؛ فإن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجبوا الفدية على الشيخ الفاني فكان ذلك إجماعا منهم»[(١)]. قلت: رد على مالك محتجا عليه بفهم السلف للآية؛ لأن فهم السلف حجة عندهم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١]. «ولا يقال: الآية مجملة؛ لأنه لا يدرى هل أريد به حال الذبح، أو حال الطبخ، أو حال الأكل؛ لأنا نقول: أجمع السلف على أن المراد بها حال الذبح فتكون مفسرة فتم الاحتجاج بها»[(٢)]. قلت: هذا الكلام نص في حجية فهم السلف.

وقال الشيخ إبراهيم بن محمد الحلبي الحنفي بعد أن ذكر إنكار ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على من كانوا يجلسون في المسجد ويذكرون الله جماعة: «فهذا يقال لكل من أتى في العبادات بصفة لم تكن في زمن الصحابة، كالجهر بالذكر قدام الجنازة، ونحوها، ومن ثم حكم العلماء على ذلك

(١) بدائع الصنائع ٢/ ٩٧.

(٢) المرجع السابق ٨/ ١٩٢.

بكونها بدعة مكروهة، مع أنه في ذاته عبادة، فلو كان وصف العبادة في الفعل المبتدع يقتضي كونها بدعة حسنة لم يوجد في العبادة ما هو بدعة مكروهة، وقد وجد البدعة المكروهة فيها إجماعا، ولم يوجد عبادة خالصة هي بدعة حسنة إجماعا، فعلم أن كل بدعة في العبادات الخالصة، فهي مكروهة، وإلا لما فاتت أهل الصدر الأول، والقرون التي شهد الصادق المصدوق بخيريتها، ولأنها لا بد أن تدافع سنة، وكل بدعة دافعت سنة فهي سيئة».

الفرع الأول: تأصيل الأحناف القاعدة.

١- قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عليك بالأثر، وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة»[(١)].

٢- قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا لم يكن في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نظرت في أقاويل أصحابه، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم...»[(٢)].

٣- وقال زين الدين ابن نجيم الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الحاوي: وعن أبي سلمة الفقيه أنه قال: هذه عشر مسائل وجدت عليها مشائخ السلف من أهل الهداية والجماعة من آمن بها كان منهم، ومن لم يؤمن بها فهو صاحب هوى وبدعة ثم عد هذه العشر...»[(٣)].

٤- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسئل أبو بكر القاضي عن الرجل هل يعلم أنه على

---

(١) ذكره ابن قدامة في ذم التأويل ص٣٣.

(٢) الانتقاء ص١٤٣.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٨/ ٢٠٥.

مذهب أهل السنة والجماعة، فقال: إذا رجع علمه إلى كتاب الله، وإلى ما قاله السلف الصالح فهو على مذهب أهل السنة والجماعة»[(١)].

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة:

١- وقال الشيخ إبراهيم بن محمد الحلبي الحنفي بعد أن ذكر إنكار ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على من كانوا يجلسون في المسجد ويذكرون الله جماعة: «فهذا يقال لكل من أتى في العبادات بصفة لم تكن في زمن الصحابة،كالجهر بالذكر قدام الجنازة، ونحوها، ومن ثم حكم العلماء على ذلك بكونها بدعة مكروهة، مع أنه في ذاته عبادة، فلو كان وصف العبادة في الفعل المبتدع يقتضي كونها بدعة حسنة لم يوجد في العبادة ما هو بدعة مكروهة، وقد وجد البدعة المكروهة فيها إجماعا، ولم يوجد عبادة خالصة هي بدعة حسنة إجماعا، فعلم أن كل بدعة في العبادات الخالصة، فهي مكروهة، وإلا لما فاتت أهل الصدر الأول، والقرون التي شهد الصادق المصدوق بخيريتها، ولأنها لا بد أن تدافع سنة، وكل بدعة دافعت سنة فهي سيئة»[(٢)].

٢- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في دعاء القنوت: «... وأما دعاؤه فليس فيه دعاء مؤقت كما ذكر الكرخي في كتاب الصلاة؛ لأنه روي عن الصحابة أدعية مختلفة في حال القنوت... وقال بعض مشائخنا: المراد من قوله: ليس فيه دعاء مؤقت ما سوى اللهم إنا نستعينك؛ لأن الصحابة اتفقوا عليه فالأولى أن نقرأه»[(٣)].

---

(١) المرجع السابق ٨/ ٢٠٧.

(٢) الرهص والوقص لمستحل الرقص ص١٤٠.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٤٥.

٣- وقال أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحاوي الحنفي: «قال ابن الحاج في «المدخل» في الجزء الثاني: أن من البدع القبيحة ما تحمل أمام الجنازة من الخبز والخرفان ويسمون ذلك عشاء القبر فإذا وصلوا إليه ذبحوا ذلك بعد الدفن وفرقوه مع الخبز. وذكر مثله المناوي في شرح الأربعين في حديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد قال: ويسمون ذلك بالكفارة فإنه بدعة مذمومة»[(١)].

٤- وقال السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ««وإذا أذنت لهم المرأة جاز» لحصول المقصود وهو مكروه؛ لأن أذان النساء من المحدثات لم يكن في السلف وكل محدثة بدعة...»[(٢)].

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على بيان مجمل النصوص:

١- قال العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ثم لو تعارض الروايتان عن عمرو بن حزم بقيت روايتان عن أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهي في الصحيح وبها عمل الخلفاء الراشدون»[(٣)].

٢- وقال زين الدين ابن نجيم الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضا: «... واختلف في تفسير الوسط، فقيل: هي الدلو المستعمل في كل بلد، وقيل: المعتبر في كل بلد دلوها؛ لأن السلف لما أطلقوا انصرف إلى المعتاد»[(٤)].

---

(١) حاشية على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح ١/ ٤٠١.

(٢) المبسوط ١/ ٢٥١. وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ١٥٠.

(٣) عمدة القاري ١٢/ ٤٢٢.

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ١/ ١٢٤.

٣- وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]. «ولا يقال: الآية مجملة؛ لأنه لا يدرى هل أريد به حال الذبح، أو حال الطبخ، أو حال الأكل؛ لأنا نقول: أجمع السلف على أن المراد بها حال الذبح فتكون مفسرة فتم الاحتجاج بها»[(١)]. قلت: هذا الكلام نص في حجية فهم السلف.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على صرف الأمر من الوجوب إلى الندب.

١- وقال زين الدين ابن نجيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وقد قدم المصنف أنه سنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]. أي إذا أردت قراءة القرآن فأطلق المسبب على السبب، وإنما لم يكن واجبا لظاهر الأمر؛ لأن السلف أجمعوا على سنيته كما نقله المصنف في الكافي ولم يعين سند الإجماع الذي هو الصارف للأمر عن ظاهره»[(٢)]. قلت: هذا النص صريح جدا أن الأحناف يعتمدون حجية فهم السلف الصالح.

٢- وقال السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...وبظاهر الآية قال عطاء الاستعاذة تجب عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وهو مخالف لإجماع السلف فقد كانوا مجمعين على أنها سنة»[(٣)].

---

(١) المرجع السابق ٨/ ١٩٢.

(٢) المرجع السابق ١/ ٣٢٨.

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٢.

الفرع الخامس: استدلالهم بالقاعدة على الرد على المخالف:

١- قال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذا كبر السن حتى يباح للشيخ الفاني أن يفطر في شهر رمضان؛ لأنه عاجز عن الصوم وعليه الفدية عند عامة العلماء، وقال مالك: لا فدية عليه، وجه قوله أن الله تعالى أوجب الفدية على المطيق للصوم بقوله ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٤]. وهو لا يطيق الصوم فلا يلزمه الفدية، وما قاله مالك خلاف إجماع السلف؛ فإن أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجبوا الفدية على الشيخ الفاني فكان ذلك إجماعا منهم»[(١)].

قلت: الإمام مالك استدل بظاهر الآية والأحناف ردوا عليه بفهم السلف.

٢- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والثانية: عمرة القضاء في العام المقبل وهي قضاء عن الحديبية هذا مذهب أبي حنيفة، وذهب مالك إلى أنها مستأنفة، لا قضاء عنها، وتسمية الصحابة والجميع إياها بعمرة القضاء ظاهر في خلافه»[(٢)].

الفرع السادس: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية:

١- قال محمد الحسن: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن، والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صفة الرب عَزَّوَجَلَّ من غير تفسير، ولا وصف، ولا تشبيه

(١) بدائع الصنائع ٢/ ٩٧.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٨٢.

فمن فسر اليوم شيئا من ذلك، فقد خرج مما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة، ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة؛ لأنه وصفه بصفة لا شيء»[(١)]. قلت: قد قرر قاعدة حجية فهم السلف الصالح وحذر من مخالفتها.

٢- وقال الحافظ الحجة أبو نصر عبدالله بن سعيد الوائلي السجزي في كتاب «الإبانة» الذي ألفه في السنة: «أئمتنا كسفيان الثوري، ومالك، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، والفضيل، وابن المبارك، وأحمد، وإسحاق،، متفقون على أن الله سبحانه بذاته فوق العرش، وعلمه بكل مكان، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا، وأنه يغضب ويرضى ويتكلم بما شاء»[(٢)].

٣- وقال زين الدين ابن نجيم الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخامس: مسألة الاستثناء في الإيمان فاعلم أن عبارتهم قد اختلفت في هذه المسألة، فذهب طائفة من الحنفية إلى تكفير من قال أنا مؤمن إن شاء الله ولم يقيدوه بأن يكون شاكا في إيمانه ومنهم الاتفاق... فالحاصل أنه لا فائدة في هذا الشرط وهو قول الطائفة الثانية أن لا يكون شاكا في إيمانه؛ إذ لا مسلم يشك فيه، وأما التكفير بمطلق الاستثناء، فقد علمت غلطه، وأقبح من ذلك من منع مناكحتهم وليس هو إلا محض تعصب نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للآلكائي ٣/ ٤٨٠ برقم: ٧٤٠.
(٢) العلو للعلي الغفار ٢/ ١٣٢١.

أعمالنا، خصوصا فقد نقل الإمام السبكي في رسالة ألفها في هذه المسألة أن القول بدخول الاستثناء في الإيمان هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم....»[(١)].

الفرع السابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية:

١- قال السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ثم قلنا: وما علينا لو أمرنا بنزح بعض الدلاء، ولا نخالف السلف...»[(٢)].

٢- وقال السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا ماتت الفأرة في البئر ينزح منها عشرون دلوا، وثلاثون بعد إخراج الفأرة فعشرون واجب، وثلاثون أحوط وقد بينا هذا فيما مضى. وأصحاب الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يطعنون في هذا، ويقولون: دلو يميز ماء النجس من الطاهر.. وهذا طعن في السلف، وقد بينا أن طهارة البئر بنزح بعض الدلاء قول السلف من الصحابة والتابعين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ»[(٣)].

٣- وقال زين الدين ابن نجيم الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «كالتسمية» أي كما أن التسمية سنة في الابتداء مطلقا أعني سواء كان الوضوء عن نوم، أو غيره ولفظها المنقول عن السلف كما في «النهاية»، أو عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في «الخبازية» بسم الله العظيم، والحمد لله على دين الإسلام»[(٤)].

٤- وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما عند رأس كل سورة في الصلاة فلا

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٢/ ٥٠.

(٢) المبسوط ١/ ١٠٢ وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ٧٥.

(٣) المرجع السابق ١/ ١٦٣.

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ١/ ١٩.

يأتي بالتسمية عند أبي حنيفة، وأبي يوسف، وقال أبو محمد يأتي بها احتياطا كما في أول الفاتحة. والصحيح قولهما؛ لأن احتمال كونها من السورة منقطع بإجماع السلف»[(١)].

٥- وقال الزيلعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فهم حديث إن بلالا يؤذن بليل الحديث: «... الثالث قال صاحب الإمام قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن بلالا ينادي بليل» لم يكن في سائر العام إنما كان ذلك في رمضان، قلنا: هذا لم يكن أذانا، وإنما كان تذكيرا وتسحيرا كالعادة الفاشية بينهم في رمضان، وإنكار السلف على من أذن بليل دليل على أنه لم يجز قبل الوقت وهو من أقوى الحجج»[(٢)].

٦- وقال السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ««وإذا أذنت لهم المرأة جاز» لحصول المقصود وهو مكروه؛ لأن أذان النساء من المحدثات لم يكن في السلف وكل محدثة بدعة...»[(٣)].

٧- وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها: رفع اليدين عند تكبيرة الافتتاح... وعن أبي حميد الساعدي أنه كان في عشرة رهط من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لهم: ألا أحدثكم عن صلاة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: هات، فقال: رأيته إذا كبر عند فاتحة الكتاب رفع يديه وعلى هذا إجماع السلف»[(٤)].

---

(١) بدائع الصنائع ١/ ٢٠٤.

(٢) تبيين الحقائق ١/ ٩٢.

(٣) المبسوط ١/ ٢٥١. وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ١٥٠.

(٤) بدائع الصنائع ١/ ١٩٩.

٨- وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضـًا: «... وروي أنه كان يسرع النهوض في الشفع، ولا يزيد على التشهد؛ لأن الزيادة على التشهد مخالفة للإجماع؛ فإن الطحاوي قال: من زاد على هذا فقد خالف الإجماع وهو أعلم الناس بمذاهب السلف»(١).

٩- وقال زين الدين بن نجيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: والصلاة على النبي قول عامة السلف والخاصة...»(٢).

١٠- وقال علاء الدين الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال بعضهم: لا يخرج ما لم يوجد التسليمتين جميعا وهو خلاف إجماع السلف»(٣).

١١- وفي الفتاوى الهندية: «ولو صلى التراويح مقتديا بمن يصلي مكتوبة، أو وترا، أو نافلة الأصح أنه لا يصح الاقتداء به؛ لأنه مكروه مخالف لعمل السلف»(٤).

١٢- وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها: أن يصلي كل ترويحة إمام واحد وعليه عمل الحرمين وعمل السلف، ولا يصلي الترويحة الواحدة إمامان؛ لأنه خلاف عمل السلف»(٥).

١٣- وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الاستراحة بعد خمس تسليمات

---

(١) المرجع السابق ١/ ١١٣.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ١/ ٣٢١.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ١٩٥.

(٤) الفتاوى الهندية ١/ ١١٧. وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ٢٨٨.

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ٢٨٩.

فهل يستحب؟ قال بعضهم: نعم، وقال بعضهم: لا يستحب وهو الصحيح؛ لأنه خلاف عمل السلف»[(١)].

١٤- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد نقلناه في سنة الفجر في موضع من رواية الحسن وهكذا صححه خسام الدين، ثم قال: والصحيح أنه لا يستحب في التراويح لمخالفته في التوارث وعمل السلف»[(٢)].

١٥- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذكره تعالى للتبرك أي للتبرك باسمه تعالى في افتتاح الكلام بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١]. لأن جميع الأشياء له؛ إذ هو الغني على الإطلاق؛ لأن السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فسروه بما ذكر»[(٣)].

١٦- وقال الزيلعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إذا عمي الرهن فهو بما فيه» معناه على ما قالوا إذا اشتبهت قيمة الرهن بعد ما هلك بأن قال كل واحد منهما: لا أدري كم كان قيمته؟ فيكون مضمونا بما فيه من الدين، وإجماع الصحابة والتابعين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على أن الرهن مضمون مع اختلافهم في كيفية الضمان... وهذ اختلاف السلف على ثلاثة أقوال، وإحداث قول رابع خروج عن الإجماع فلا يجوز»[(٤)].

---

(١) بدائع الصنائع ١/ ٢٩٠.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٦٨.

(٣) المرجع السابق ٥/ ٩٨.

(٤) تبيين الحقائق ٦/ ٦٤.

١٧- وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصل وأما المزارعة، فقد اختلف فيها قال أبو حنيفة عليه الرحمة: إنها غير مشروعة، وبه أخذ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال أبو يوسف ومحمد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: أنها مشروعة. وجه قولهما ما روي أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفع نخل خيبر معاملة وأرضها مزارعة وأدنى درجات فعله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الجواز، وكذا هي شريعة متوارثة لتعامل السلف والخلف»[(١)].

١٨- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال السلف: ينظر إن كانت أثمانا رائجة، أو سلعا للتجارة تجب الزكاة في قيمتها، وإن لم تكن للتجارة فلا زكاة فيها؛ لأن ما فيها من الفضة مستهلك لغلبة النحاس عليها فكانت كالمستوقة وفي «البدائع» وقول السلف أصح»[(٢)].

١٩- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقضاء بالظن وذلك في المسائل الاجتهادية التي اختلف فيها الفقهاء، أو التي لا رواية فيها عن السلف...»[(٣)].

❁❁❁

(١) بدائع الصنائع ٦/ ٦٧٥.

(٢) المرجع السابق ٢٢٤٥.

(٣) المرجع السابق ٦/ ٢٧٧.

المسألة الثانية

حجيتها عند المالكية

وفيه ثمانية فروع:

الفرع الأول: تأصيل القاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: تقديمهم القاعدة على الآثار في بعض المسائل.

الفرع الرابع: تقديمهم القاعدة على القياس.

الفرع الخامس: استدلالهم بالقاعدة في بيان المراد من نصوص الكتاب والسنة.

الفرع السادس: جعلهم القاعدة دليلا على المنسوخ.

الفرع السابع: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الثامن: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

الافتتاحية:

قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم يفعلون ذلك ويكره إلا لمن جاء من سفر،أو أراده».

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتسليم للسنن لا تعارض برأي، ولا تدافع بقياس، وما تأوله السلف تأولناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا، ونتبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج من جماعتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله».

وقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عبدالبر أَيْضًا: أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الَّذِينَ حُمِلَ عَنْهُمْ التَّأْوِيلَ قَالُوا فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] هُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَا خَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ مَنْ يَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ.

وقال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم به الأولون وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب وأقوم في العلم والعمل».

قال الإمام القصاب الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن كان السلف صحابيا فتأويله مقبول متبع؛ لأنه شاهد الوحي والتنزيل، وعرف التفسير والتأويل، فأما إذا لم يكن السلف صحابيا نظرنا في تأويله، فإن تابعه عليه الأئمة المشهورون

من نقلة الحديث والسنة، ووافقه الثقات الأثبات تابعناه وقبلناه ووافقناه فإنه -وإن لم يكن إجماعا حقيقيا- إلا أن فيه مشبهة الإجماع؛ إذ هو سبيل المؤمنين وتوافق المتقين الذين لا يجتمعون على الضلالة؛ ولأن الأئمة لو لم يعلموا أن ذلك عن الرسول والصحابة لم يتابعوه عليه...»[(١)].

وقال أبو بكر بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد رحمة الله عليهما، قال: «وأما قوله أنه فوق عرشه المجيد بذاته، فإن معنى فوق وعلا عند جميع العرب واحد وفي كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصديق ذلك ثم ساق الآيات في إثبات العلو وحديث الجارية، إلى أن قال: وقد تأتي (في) في لغة العرب بمعنى فوق، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥] يريد فوقها وعليها، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١] يريد عليها، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦] الآيات. قال أهل التأويل العالمون بلغة العرب: يريد فوقها وهو قول مالك مما فهمه عن جماعة ممن أدرك من التابعين مما فهموه عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مما فهموه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله في السماء بمعنى فوقها وعليها.

❁❁❁

(١) بيان تلبيس الجهمية ٦/ ٤٠١ نقلا عن الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاما لذوي البدع والفضول للكرجي.

الفرع الأول: تأصيل المالكية قاعدة فهم السلف الصالح:

١- وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا»[(١)]. قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اتبع غير سبيل المؤمنين كقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] وسبيل المؤمنين طريقهم في الفهم والعلم والعمل.

٢- وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتسليم للسنن لا تعارض برأي، ولا تدافع بقياس، وما تأوله السلف تأولناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا، ونتبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج من جماعتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله»[(٢)].

٣- وقال المالك الصغير ابن أبي زيد القيرواني في تقرير عقيدة السلف الصالح: «واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم وترك المراء والجدال في الدين وترك كل ما أحدثه المحدثون»[(٣)].

٤- وقال القاضي عبدالوهاب المالكي في شرح الرسالة: «وهذا لقوله:

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠٠.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٥٥.

(٣) الثمر الداني ص٢٥.

«كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[١] «وإياكم ومحدثات الأمور»[٢] ولأنا قدمنا وجوب الاقتداء بالخلفاء الراشدين وخيار الأمة، وإخباره بانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وذلك المحدث لا يأمرون به فليس من المعروف، واتباع المعروف واجب وهذا الذي قاله هو المروي عنهم: «لست بمبتدع ولكن متبع»[٣] قاله عمر بن عبدالعزيز وغيره»[٤].

٥- وقال شارح الرسالة أحمد بن سالم النفراوي في شرح الجملة المذكورة: «ولما كان كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف قال: «ويجب على المكلف ترك فعل كل ما أحدثه المحدثون» من الابتداعات المخالفة لما كان عليه السلف الصالح لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٥]».

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ««**إياكم ومحدثات الأمور**»[٦] وما خالف ذلك فبدعة وضلالة؛ فلا تجوز العمل به»[٧].

٦- والإمام أبو القاسم ابن جزي حيث قال: «فالخير كله في التمسك

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) شرح الرسالة للقاضي عبدالوهاب ص٤٢٨.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) الفواكه الدواني ١/ ١٠٩.

بالكتاب والسنة، والاقتداء بالسلف الصالح،وتجنب كل محدث وبدعة، وقد كان المتقدمون يذمون البدع على الإطلاق وقال المتأخرون: إنها خمسة أقسام»[١].

٧- وقال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وأيضا فإن العمل مخلص للأدلة من شوائب المحامل المقدرة الموهنة؛ لأن المجتهد متى نظر في دليل على مسألة احتاج إلى البحث عن أمور كثيرة لا يستقيم إعمال الدليل دونها، والنظر في أعمال المتقدمين قاطع لاحتمالاتها حتما ومعين لناسخها من منسوخها، ومبين لمجملها، إلى غير ذلك، فهو عون في سلوك سبيل الاجتهاد عظيم؛ ولهذا اعتمده مالك بن أنس ومن قال بقوله وقد تقدم منه أمثلة. وأيضا فإن ظواهر الأدلة إذا اعتبرت من غير اعتماد على الأولين فيها مؤدية إلى التعارض والاختلاف وهو مشاهد معنى؛ ولأن تعارض الظواهر كثير مع القطع بأن الشريعة لا اختلاف فيها ولذلك لا تجد فرقة من فرق الضلالة من المختلفين في الأحكام الفرعية، ولا الأصولية يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة وقد مر من ذلك أمثلة»[٢].

٨- وقال: «لو كان دليلا عليه لم يعزب عن فهم الصحابة والتابعين، ثم يفهمه هؤلاء فعمل الأولين كيف كان مصادم لمقتضى هذا المفهوم ومعارض له ولو كان ترك العمل، فما عمل به المتأخرون من هذا القسم

---

(١) القوانين الفقهية ص١٧.

(٢) الموافقات ٣/ ٢٨٨.

مخالف لإجماع الأولين، وكل من خالف الإجماع فهو مخطئ وأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تجتمع على ضلالة، فما كانوا عليه من فعل أو ترك فهو السنة والأمر المعتبر وهو الهدى وليس ثم إلا صواب أو خطأ؛ فكل من خالف السلف الأولين فهو على خطأ وهذا كاف...»[(١)].

٩- وقال: «فلهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم به الأولون وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب وأقوم في العلم والعمل»[(٢)].

١٠- وقال: «واستدلال كل من اخترع بدعة أو استحسن محدثة لم تكن في السلف الصالح، بأن السلف اخترعوا أشياء لم تكن في زمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ككتب المصحف، وتصنيف الكتب، وتدوين الدواوين وتضمين الصناع، وسائر ما ذكر الأصوليون في أصل المصالح المرسلة، فخلطوا وغلطوا واتبعوا ما تشابه من الشريعة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وهو كله خطأ على الدين، واتباع لسبيل الملحدين؛ فإن هؤلاء الذين أدركوا هذه المدارك، وعبروا على هذه المسالك؛ إما أن يكونوا قد أدركوا من فهم الشريعة ما لم يفهمه الأولون، أو حادوا عن فهمها وهذا الأخير هو الصواب؛ إذ المتقدمون من السلف الصالح هم كانوا على الصراط المستقيم، ولم يفهموا من الأدلة المذكورة وما أشبهها إلا ما كانوا عليه، وهذه المحدثات لم تكن

---

(١) الموافقات ٣/ ٧٢.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٧٧.

فيهم، ولا عملوا بها فدل على أن تلك الأدلة لم تتضمن هذه المعاني المخترعة بحال، وصار عملهم بخلاف ذلك دليلا إجماعيا على أن هؤلاء في استدلالاتهم وعملهم مخطئون ومخالفون للسنة».

١١- وقال: فيقال: لمن استدل بأمثال ذلك: هل وجد هذا المعنى الذي استنبط في عمل الأولين أو لم يوجد؟ فإن زعم أنه لم يوجد -ولا بد من ذلك-؛ فيقال له: أفكانوا غافلين عما تنبهت له، أم جاهلين به، أم لا؟ ولا يسعه أن يقول بهذا؛ لأنه فتح للباب الذي هو فضيحة على نفسه، وخرق للإجماع، وإن قال: إنهم كانوا عارفين بمآخذا لأدلة، كما كانوا عارفين بمآخذ غيرها، قيل له: فما حال بينهم وبين العمل بمقتضاها حتى خالفوا إلى غيرها؟ ما ذاك إلا لأنهم اجتمعوا فيها على الخطأ دونك أيها المتقول، والبرهان الشرعي والعادي دال على عكس القضية فكل ما جاء مخالفا لما عليه السلف الصالح، فهو الضلال بعينه...»[(١)].

١٢- وقال الإمام القصاب الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن كان السلف صحابيا فتأويله مقبول متبع؛ لأنه شاهد الوحي والتنزيل، وعرف التفسير والتأويل، فأما إذا لم يكن السلف صحابيا نظرنا في تأويله، فإن تابعه عليه الأئمة المشهورون من نقلة الحديث والسنة، ووافقه الثقات الأثبات تابعناه وقبلناه ووافقناه فإنه -وإن لم يكن إجماعا حقيقيا- إلا أن فيه مشبهة الإجماع؛ إذ هو سبيل المؤمنين وتوافق المتقين الذين لا يجتمعون على الضلالة؛ ولأن

(١) الموافقات. ٣/ ٢٨٤.

الأئمة لو لم يعلموا أن ذلك عن الرسول والصحابة لم يتابعوه عليه...»[(١)].

١٣- وقال محدث الأندلس محمد بن الوضاح: «فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين، فقد قال بعض من مضى: كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكرا عند من مضى، ومحبب إليه بما يبغضه إليه،ومتقرب إليه بما يبعده منه، وكل بدعة عليه زينة وبهجة»[(٢)].

١٤- وقال ابن رشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعلوم من مذهب مالك إنكار هذه المحدثات كلها»[(٣)].

١٥- وقال شهاب الدين القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الأصحاب فيما رأيت متفقون على إنكار البدع، نص على ذلك ابن أبي زيد وغيره...»[(٤)].

١٦- وقال ابن بطال المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال أبو عبيد: البدع والأهواء كلها نوع واحد في الضلال كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[(٥)]».

١٧- وأنكر الإمام القرطبي على المتكلمين تكلفهم المخالف للسلف فقال: «ثم إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعا من المحال لا يرتضيها

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٦/ ٤٠١ نقلا عن الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاما لذوي البدع والفضول للكرجي.

(٢) الحوادث والبدع ص١٤٨.

(٣) البيان والتحصيل ١٧/ ١٢١.

(٤) الفروق ٤١٥٧.

(٥) شرح صحيح البخاري كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج ٨/ ٥٨٨.

البله، ولا الأطفال، لما بحثوا في تحيز الجواهر، والأكوان، والأحوال، ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلف الصالح، ولم يوجد عنهم فيه بحث واضح، وهو كيفية تعلق صفات الله تعالى، وتقديرها، واتخاذها في نفسها، وأنها هي الذات، أو غيرها: إن الكلام هل هو متحد، أو منقسم؟، وإذا كان منقسما فهل ينقسم بالأنواع، أو بالأوصاف؟ وكيف تعلق بالمأمور؟ ثم إذا انعدم المأمور فهل يبقى ذلك التعلق؟ وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلا هو عين الأمر لعمرو بالزكاة؟ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمرها الشرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن سلك طريقهم عن الخوض فيها لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته؛ فإن العقول لها حد تقف عنده وهو العجز عن التكييف»[(١)].

١٨- وقال الإمام ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه من نظر إلى إسلام أبي بكر وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وعبدالرحمن، وسائر المهاجرين، والأنصار وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجا علم أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يعرفه واحدا منهم إلا بتصديق النبيين بأعلام النبوة ودلائل الرسالة، لا من قبل الحركة، ولا من باب الكل والبعض، ولا من باب كان ويكون، ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبا، وفي الجسم ونفيه، والتشبيه ونفيه لازما، ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب، ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديسهم، ولا أطنب في مدحهم وتعظيمهم، ولو كان ذلك من عملهم

(١) المفهم ٦/ ٦٩٠.

مشهورا،أو من أخلاقهم معروفا لاستفاض عنهم، ولشهروا به كما شهروا بالقرآن والروايات»[(١)].

١٩- وقَالَ أَبُو عُمَرَ: مَا جَاءَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَقْلِ الثِّقَاتِ أَوْ جَاءَ عَنْ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهُوَ عِلْمٌ يُدَانُ بِهِ؛ وَمَا أُحْدِثَ بَعْدَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ فِيمَا جَاءَ عَنْهُمْ فَهُوَ بِدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ».

٢٠- وقال خليل بن إسحاق: «وما حده الشرع وقفنا عنده، وما أطلقه ولم يخصه بسبب أطلقناه، وما تركه السلف تركناه»[(٢)].

٢١- وقال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ونبه به أيضا على أصل آخر، وهو اتصال عمل الخلفاء بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتقوى النفس به، أو يأخذ أحاديثه فيترجح على غيره، فلم نجد ههنا في هذا الباب لأبي بكر كلاما فأردفه كلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووجد في الزكاة كلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فأردف كلام النبي بهما»[(٣)]. وهذا النص من أوضح النصوص على حجية فهم السلف للنصوص.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة:

١- وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «من ابتدع بدعة في الإسلام يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة لأن الله قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

(١) التمهيد لابن عبدالبر ٧/ ١٥٢.

(٢) التوضيح ٢/ ٤.

(٣) القبس مع موسوعة شروح الموطأ ٢/ ١٤٦.

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا»[(١)]. الشاهد قوله: فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا؛ لمخالفته فهم السلف.

٢- وأخرج الهروي عن عبدالرحمن بن مهدي قال: «دخلت على مالك وعنده رجل يسأله، فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد؟ لعن الله عمرو بن عبيد فإنه ابتدع هذه البدعة من الكلام،ولو كان الكلام علما لتكلم به الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع»[(٢)] أي أن أهل الكلام خالفوا فهم السلف الصالح، وابتدعوا بدعة الكلام.

٣- وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أهل بلدنا يكرهون الجدال، والكلام، والبحث، والنظر إلا فيما تحته عمل، وأما ما سبيله الإيمان به واعتقاده والتسليم له فلا يرون فيه جدالا ولا مناظرة»[(٣)]. هذا فهم السلف ومنهجهم فنعم الفهم ونعم المنهج.

٤- وقال أبو طالب المكي: «كان مالك أبعد الناس من مذاهب المتكلمين، وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين»[(٤)].

---

(١) الاعتصام١/ ٦٢.

(٢) أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله ٥/ ٧٠.

(٣) الاستذكار لابن عبدالبر ٨/ ١١٨.

(٤) ترتيب المدارك ٢/ ٣٩.

٥- وقال الإمام أبو عمر بن عبدالبر: «أجمع أهل الفقه والآثار في جميع الأمصار: أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والفقه فيه، ويتفاضلون فيه من الاتفاق، والميز، والفهم»[(١)].

٦- وقال أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهل الأهواء عند مالك، وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعريا كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها»[(٢)].

الفرع الثالث: تقديمهم القاعدة على الآثار في بعض المسائل:

١- قال ابن رشد الحفيد في مسألة كراهة الدعاء قبل القراءة: «ومن أدلة ذلك تقديم العمل على الآثار الواردة في ذلك»[(٣)].

الفرع الرابع: تقديمهم القاعدة على القياس:

١- قال الحطاب في مسألة البناء في الرعاف: «واختار مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ البناء على اتباع السلف، وإن خالف ذلك القياس. وهذا على أصله أن العمل أقوى من القياس؛ لأن عمل السلف المتصل لا يكون أصله إلا عن توقيف»[(٤)].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٤٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٤٢.

(٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١/ ١٢٣. قلت: المقصود بيان القاعدة وإلا فالاستفتاح سنة ثابتة في السنة من وجوه متعددة.

(٤) مواهب الجليل ٢/ ١٤٩ ط/ دار العالم.

الفرع الخامس: استدلالهم بالقاعدة على بيان المراد من نصوص الكتاب والسنة:

١- قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عبدالبر أَيْضًا: أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الَّذِينَ حُمِلَ عَنْهُمْ التَّأْوِيلُ قَالُوا فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] هُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَا خَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ مَنْ يَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ وَقَالَ أَبُو عُمَرَ أَيْضًا: أَهْلُ السُّنَّةِ مُجْمِعُونَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ كُلِّهَا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِيمَانِ بِهَا وَحَمْلِهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ لَا عَلَى الْمَجَازِ إِلَّا إِنَّهُمْ لَا يُكَيِّفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحُدُّونَ فِيهِ صِفَةً مَحْصُورَةً. وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدَعِ الجهمية وَالْمُعْتَزِلَةُ كُلُّهَا وَالْخَوَارِجُ: فَكُلُّهُمْ يُنْكِرُونَهَا وَلَا يَحْمِلُونَ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِهَا مُشَبِّهٌ وَهُمْ عِنْدَ مَنْ أَقَرَّ بِهَا نَافُونَ لِلْمَعْبُودِ وَالْحَقُّ فِيمَا قَالَهُ الْقَائِلُونَ: بِمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ أَئِمَّةُ الْجَمَاعَةِ»[(١)]. هَذَا كَلَامُ ابْنِ عبدالبر إِمَامِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ.

٢- وقال الحافظ الإمام أبو عمر أحمد بن محمد بن عبدالله الأندلسي الطلمنكي المالكي في كتاب «الوصول إلى معرفة الأصول»: «أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾

(١) التمهيد ٧/ ١٦٩.

[الحديد: ٤] ونحو ذلك من القرآن أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء»[(١)].

الفرع السادس: جعلهم القاعدة دليلا على المنسوخ:

١- قال الحافظ ابن عبدالبر: «فأعلم الناظر في موطئه أن عمل الخلفاء الراشدين بترك الوضوء مما مست النار دليل على أنه منسوخ وأن الآثار الواردة في ذلك ناسخة للآثار الموجبة له وقد جاء هذا المعنى عن مالك»[(٢)].

الفرع السابع: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية:

١- قال يحيى بن إبراهيم الطليطلي في كتاب سير الفقهاء -وهو كتاب جليل غزير العلم- حدثني عبدالملك بن حبيب عن عبدالله بن المغيرة عن الثوري عن الأعمش عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون قول الرجل يا خيبة الدهر، وكانوا يقولون الله هو الدهر، وكانوا يكرهون قول الرجل رغم أنفي لله، وإنما يرغم أنف الكافر، وكانوا يكرهون قول الرجل لا والذي خاتمه على فمي، وإنما يختم على فم الكافر، وكانوا يكرهون قول الرجل والله حيث كان أو أن الله بكل مكان، قال أصبغ وهو مستو على عرشه وبكل مكان علمه وإحاطته، وأصبغ من أجل أصحاب مالك وأفقههم[(٣)].

٢- وقال في «المبسوط»: «لا بأس لمن قدم من سفر، أو خرج إلى سفر

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص٧٦.

(٢) الاستذكار ١/ ١٧٥.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص٧٦.

أن يقف على قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيصلي عليه، ويدعو له، ولأبي بكر، وعمر، فقيل له: إن ناسا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر، ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة، أو في الأيام المرة، أو المرتين أو أكثر عند القبر، فيسلمون ويدعون ساعة، فقال: لم يبلغني هذا عن احد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم يفعلون ذلك ويكره إلا لمن جاء من سفر، أو أراده»[(١)].

٣- وروى الأثرم في «السنة» وأبو عبدالله بن بطة في «الإبانة» وأبو عمرو الطلمنكي وغيرهم بإسناد صحيح عن عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون - وهو أحد «أئمة المدينة الثلاثة» الذين هم مالك بن أنس وابن الماجشون وابن أبي ذئب - وقد سئل عما جحدت به الجهمية: «أما بعد: فقد فهمت ما سألت فيما تتابعت الجهمية ومن خلفها في صفة «الرب العظيم» الذي فاقت عظمته الوصف والتدبر وكلت الألسن عن تفسير صفته وانحصرت العقول دون معرفة قدرته وردت عظمته العقول فلم تجد مساغا فرجعت خاسئة وهي حسيرة. وإنما أمروا بالنظر والتفكر فيما خلق بالتقدير وإنما يقال «كيف» لمن لم يكن مرة ثم كان. فأما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو. وكيف يعرف قدر من لم

(١) نقله القاضي عياض في «الشفا» ٢/ ٨٨ وابن الحاج في «المدخل» ١٦٣ وابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم».

يبدأ ومن لا يموت ولا يبلى؟ وكيف يكون لصفة شيء منه حد أو منتهى - يعرفه عارف أو يحد قدره واصف؟ - على أنه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شيء أبين منه... فقد - والله - عز المسلمون؛ الذين يعرفون المعروف وبهم يعرف؛ وينكرون المنكر وبإنكارهم ينكر؛ يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا في كتابه وما بلغهم مثله عن نبيه فما مرض من ذكر هذا وتسميته قلب مسلم ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن. وما ذكر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سماه من صفة ربه فهو بمنزلة ما سمي وما وصف الرب تعالى من نفسه. والراسخون في العلم - الواقفون حيث انتهى علمهم الواصفون لربهم بما وصف من نفسه التاركون لما ترك من ذكرها - لا ينكرون صفة ما سمي منها جحدا ولا يتكلفون وصفه بما لم يسم تعمقا؛ لأن الحق ترك ما ترك وتسمية ما سمى ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا وهب الله لنا ولكم حكما وألحقنا بالصالحين[(١)].

٤- وقال أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي زمنين الإمام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي صنفه في «أصول السنة» قال فيه: «باب الإيمان بالعرش». قال: «ومن قول أهل السنة أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) الإبانة لابن بطة ٣/ ٧٩.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ [الحديد: ٤]، فسبحان من بعد وقرب بعلمه فسمع النجوى. وذكر حديث «أبي رزين العقيلي؛ قلت يا رسول الله أين ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء» قال محمد: العماء السحاب الكثيف المطبق - فيما ذكره الخليل - وذكر آثارا أخر. ثم قال: «باب الإيمان بالكرسي قال محمد بن عبدالله: ومن قول أهل السنة أن الكرسي بين يدي العرش وأنه موضع القدمين. ثم ذكر حديث أنس الذي فيه التجلي يوم الجمعة في الآخرة وفيه: فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه ثم يحف الكرسي على منابر من ذهب مكللة بالجواهر؛ ثم يجيء النبيون فيجلسون عليها». وذكر ما ذكره: يحيى بن سالم صاحب التفسير المشهور: حدثني العلاء بن هلال عن عمار الدهني؛ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: إن الكرسي الذي وسع السموات والأرض لموضع القدمين؛ ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه».

وذكر من حديث أسد بن موسى؛ ثنا حماد بن سلمة عن زر عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء خمسمائة عام وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام وبين الكرسي والماء خمسمائة عام والعرش فوق الماء والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه. ثم قال في باب الإيمان بالحجب قال: ومن قول أهل السنة إن الله بائن من خلقه يحتجب عنهم بالحجب فتعالى الله عما يقول

الظالمون علوا كبيرا ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: ٥] وذكر آثارا في الحجب. ثم قال في باب الإيمان بالنزول قال: ومن قول أهل السنة أن الله ينزل إلى سماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حدا وذكر الحديث من طريق مالك وغيره. إلى أن قال: وأخبرني وهب عن ابن وضاح عن الزهري عن ابن عباد. قال: ومن أدركت من المشايخ مالك وسفيان وفضيل بن عياض وعيسى بن المبارك ووكيع: كانوا يقولون: إن النزول حق قال ابن وضاح: وسألت يوسف بن عدي عن النزول قال: نعم أومن به ولا أحد فيه حدا وسألت عنه ابن معين فقال: نعم أقر به ولا أحد فيه حدا.

قال محمد: وهذا الحديث يبين أن الله عَزَّوَجَلَّ على العرش في السماء دون الأرض وهو أيضا بين في كتاب الله وفي غير حديث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك: ٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ [فاطر: ١٠]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۝٥٥﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ [النساء: ١٥٨].

وذكر من طريق مالك: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجارية: «**أين الله؟**» قالت في السماء. قال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله. قال: «**فأعتقها**».

قال: والأحاديث مثل هذا كثيرة جدا فسبحان من علمه بما في السماء كعلمه بما في الأرض لا إله إلا هو العلي العظيم، وقال قبل ذلك في الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه «قال: واعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما والعجز عما لم يدع إليه إيمانا وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه على لسان نبيه. وقد قال - وهو أصدق القائلين - ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨]. وقال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩]. وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨]، وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، وقال:

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: ٣]، ومثل هذا في القرآن كثير.

فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه وله وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه ويسمع ويرى ويتكلم هو الأول لا شيء قبله والآخر الباقي إلى غير نهاية ولا شيء بعده والظاهر العالي فوق كل شيء والباطن بطن علمه بخلقه فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾ [البقرة: ٢٩] قيوم حي لا تأخذه سنة ولا نوم.

وذكر: «أحاديث الصفات» ثم قال: فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها نبيه وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١] لم تره العيون فتحده كيف هو؟ ولكن رأته القلوب في حقائق الإيمان[1]. اهـ

(١) انظر الحموية الكبرى ص٢٥.

٥- وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] هذه مسألة قد بينا فيها كلام العلماء في «كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» وذكر فيها أربعة عشر قولا إلى أن قال: وقد كان السلف الأول رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أن الله استوى على عرشه حقيقة، وخص عرشه بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته كما قال مالك الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الاستواء معلوم -يعني في اللغة-، والكيف مجهول، والسؤال عن ذلك بدعة»[(١)].

٦- وقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عبدالبر: «روَيْنَا عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَس وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَسُفْيَانَ بْنِ عيينة والأوزاعي وَمَعْمَرِ بْنِ رَاشِدٍ فِي «أَحَادِيثَ الصِّفَاتِ» أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ قَالُوا: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ».

وقَالَ فِي «شَرْحِ الْمُوَطَّأِ» لَمَّا تَكَلَّمَ عَلَى حَدِيثِ النُّزُولِ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ ثابِتُ النَّقْلِ صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ الْإِسْنَادِ وَلَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ الْحَدِيثِ فِي صِحَّتِهِ وَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ طُرُقٍ - سِوَى هَذِهِ - مِنْ أَخْبَارِ الْعُدُولِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى مِنْ فَوْقِ

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢١٩.

سَبْعِ سَمَوَاتٍ كَمَا قَالَتْ الْجَمَاعَةُ وَهُوَ مِنْ حُجَّتِهِمْ عَلَى «الْمُعْتَزِلَةِ» فِي قَوْلِهِمْ: إنَّ اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ مَكَانٍ بِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ. قَالَ: وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَ أَهْلُ الْحَقِّ قَوْلُ اللهِ - وَذَكَرَ بَعْضَ الْآيَاتِ - إلَى أَنْ قال: وهذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة، وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل (اسْتَوَى) استولى، فلا معنى له لأنه غير ظاهر في اللغة ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله تعالى لا يغالبه أحد وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله تعالى على الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبادات؛ وجل الله أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة مفهوم. وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه. قال أبو عبيدة في قوله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] قال علا؛ قال وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره استوى أي استقر واحتج بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٤﴾ [القصص: ١٤] انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد. قال ابن عبدالبر: الاستواء الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه فقال: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا

وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى؛ لأن النجم لا يستولي؛ وقد ذكر النضر بن شميل، وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة. قال حدثني الخليل وحسبك بالخليل، قال أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم ما رأيت فإذا هو على سطح، فسلمنا فرد علينا السلام وقال: «استووا» فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال فقال لنا أعرابي إلى جانبه إنه أمركم أن ترفعوا، فقال الخليل هو من قول الله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١]، فصعدنا إليه. قال وأما من نزع منهم بحديث يرويه عبدالله بن داود الواسطي عن إبراهيم ابن عبدالصمد عن عبدالوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في قوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]. قال استولى على جميع بريته فلا يخلو منه مكان، فالجواب إن هذا حديث منكر على ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا ونقلته مجهولة وضعفاء، فأما عبدالله بن داود الواسطي وعبدالوهاب بن مجاهد فضعيفان وإبراهيم بن عبدالصمد مجهول لا يعرف، وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث لو عقلوا وأنصفوا. أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي

صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧]، فدل على أن موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يقول إلهي في السماء وفرعون يظنه كاذبا. وقال الشاعر:

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت وفيه يقول في وصف الملائكة:

وساجدهم لا يرفع الدهر رأسه يعظم ربا فوقه ويمجد

قال فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٨٤]، قيل لهم: لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس في الأرض دون السماء بذاته فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض. وكذا قال أهل العلم بالتفسير، وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش فالاختلاف في ذلك ساقط، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر وأما قوله في الآية الأخرى (وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) فالإجماع والاتفاق قد بين أن المراد أنه معبود من أهل الأرض، فتدبر هذا فإنه قاطع.

ومن الحجة أيضا في أنه سبحانه وتعالى على العرش فوق السماوات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة رفعوا وجوههم إلى السماء ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى

السماء يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى. وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته لأنه اضطراري لم يخالفهم فيه أحد ولا أنكره عليهم مسلم، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمة التي أراد مولاها عتقها إن كانت مؤمنة فاختبرها رسول الله بأن قال لها: «**أين الله؟**» فأشارت إلى السماء، ثم قال لها «**من أنا؟**»، قالت أنت رسول الله، قال: «**اعتقها فإنها مؤمنة**» فاكتفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها برفع رأسها إلى السماء، واستغنى بذلك عما سواه...»[(١)].

٧- وقال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال أهل السنة في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] إن الاستواء من الله على عرشه على الحقيقة، لا على المجاز، فقد قال قوم من المعتزلة والجهمية: لا يجوز أن يسمى الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الأسماء على الحقيقة ويسمى بها المخلوق، فنفوا عن الله الحقائق من أسمائه وأثبتوها لخلقه، فإذا سئلوا ما حملهم على هذا الزيغ قالوا: الاجتماع على التسمية يوجب التشبيه قلنا: هذا خروج عن اللغة التي خوطبنا بها؛ لأن المعقول في اللغة أن الاشتباه في اللغة لا يحصل بالتسمية، وإنما تشبيه الأشياء بأنفسها أو بهيئات فيها، كالبياض بالبياض والسواد بالسواد، والطويل بالطويل والقصير بالقصير ولو كانت الأسماء توجب اشتباها لاشتبهت الأشياء كلها لشمولها اسم الشيء لها وعموم تسمية الأشياء به، فنسألهم أتقولون: إن الله موجود؟ فإن قالوا: نعم، قيل لهم: يلزمكم على دعواكم أن

(١) التمهيد ٧/ ١٣٤.

يكون مشبها للموجودين، وإن قالوا: موجود ولا يوجب وجوده الاشتباه بينه وبين الموجودات، قلنا: فكذلك هو حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم ولا يلزم من ذلك اشتباهه بمن اتصف بهذه الصفات»[(١)].

٨- وقال الإمام أبو بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد من المشهورين بالفقه والسنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قال في شرحه للرسالة ومعنى فوق وعلا واحد بين جميع العرب في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [طه: ٥]. وقال تعالى في وصف خوف الملائكة ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠ ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ ﴾ [فاطر: ١٠]، ونحو ذلك كثير. وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأعجمية أين الله؟ فأشارت إلى السماء. ووصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه عرج به من الأرض إلى السماء ثم من سماء إلى سماء إلى سدرة المنتهى ثم إلى ما فوقها حتى لقد قال سمعت صريف الأقلام ولما فرضت الصلوات جعل كلما هبط من مكانه تلقاه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بعض السماوات وأمره بسؤال التخفيف عن أمته، فرجع صاعدا مرتفعا إلى الله سبحانه وتعالى يسأله حتى انتهت إلى خمس صلوات».

٩- قول الإمام أبي القاسم عبدالله بن خلف المقري الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) العلو للعلي الغفار ٢/ ١٣١٦.

قال في الجزء الأول من كتاب «الاهتداء لأهل الحق والاقتداء» من تصنيفه من شرح المخلص للشيخ أبي الحسن القابسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن مالك عن ابن شهاب عن أبي عبدالله الأغر. وعن أبي سلمة ابن عبدالرحمن عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له**» في هذا الحديث دليل على أنه تعالى في السماء على العرش فوق سبع سموات من غير مماسة ولا تكييف كما قال أهل العلم. ودليل قولهم أيضا من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ [السجدة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج: ٤]، وقوله تعالى لعيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج: ٣]، والعروج هو الصعود وقال مالك بن أنس: الله عَزَّوَجَلَّ في السماء وعلمه في كل مكان لا

يخلو من علمه مكان، يريد والله أعلم بقوله في السماء على السماء كما قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١]. وكما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦]. أي من على السماء يعني على العرش، وكما قال تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾ [التوبة: ٢]. أي على الأرض، وقيل لمالك الرحمن على العرش استوى كيف استوى؟ قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لقائله استواؤه معقول وكيفيته مجهولة وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء، قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦]. أي علا، قال وتقول العرب استويت فوق الدابة وفي البيت وكل ما قدمت دليل واضح في إبطال قول من قال بالمجاز في الاستواء وإن استوى بمعنى استولى لأن الاستيلاء في اللغة «المغالبة» وأنه لا يغالبه أحد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا سبحانه وتعالى إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله تعالى على الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع ذلك ما يوجب له التسليم ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبادات، وجل الله تعالى أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة وهو العلو والارتفاع والتمكن.

ومن الحجة أيضا في أن الله سبحانه وتعالى على العرش فوق السماوات السبع أن الموجودين أجمعين إذا كربهم أمر رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون الله ربهم وقوله للأمة التي أراد مولاها أن يعتقها أين الله، فأشارت إلى السماء ثم قال لها من أنا، قالت أنت رسول الله، قال أعتقها فإنها مؤمنة، فاكتفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها برفع رأسها إلى السماء، ودل على ما قدمناه أنه على العرش؛ العرش فوق السماوات السبع، ودليل قولنا أيضا قول أمية بن أبي الصلت في وصف الملائكة.وساجدهم لا يرفع الدهر رأسه يعظم ربا فوقه ويمجد.

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ... ومن هو فوق العرش فرد موحد

مليك على عرش السماء مهيمن ... لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر: ٣٦]، فدل على أن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يقول إلهي في السماء وفرعون يظنه كاذبا، فإن احتج أحد علينا فيما قدمناه وقال لو كان كذلك لأشبه المخلوقات لأن ما أحاطت به الأمكنة واحتوته فهو مخلوق فشيء لا يلزم ولا معنى له لأنه تعالى ليس كمثله شيء من خلقه ولا يقاس بشيء من بريته ولا يدرك بقياس ولا يقاس بالناس، كان قبل الأمكنة ثم يكون بعدها لا إله إلا هو خالق كل شيء لا شريك له، وقد اتفق المسلمون وكل ذي لب أنه لا

يعقل كائن إلا في مكان ما، وما ليس في مكان فهو عدم. وقد صح في العقول وثبت بالدلائل أنه كان في الأزل لا في مكان وليس بمعدوم؛ فكيف يقاس على شيء من خلقه أو يجري بينهم وبينه تمثيل أو تشبيه، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

فإن قال: قائل إذا وصفنا ربنا أنه كان في الأزل لا في مكان ثم خلق الأماكن فصار في مكان، ففي ذلك إقرار منا فيه بالتغيير والانتقال إذا زال عن صفته في الأزل وصار في مكان دون مكان، قيل له وكذلك زعمت أنت أنه كان لا في مكان ثم صار في كل مكان فنقل صفته من الكون لا في مكان إلى صفة هي الكون في كل مكان فقد تغير عندك معبود وانتقل من لا مكان إلى كل مكان، فإن قال إنه كان في الأزل في كل مكان لما هو الآن فقد أوجب الأماكن والأشياء معه في أزليته. وهذا فاسد.

فإن قال: فهل يجوز عندك أن ينتقل من لا مكان في الأزل إلى مكان قيل له، أما الانتقال وتغير الحال فلا سبيل إلى إطلاق ذلك عليه، لأن كونه في الأزل لا يوجب مكانا، وكذلك نقلته لا توجب مكانا، وليس في ذلك كالخلق لأن كونه يوجب مكانا من الخلق ونقلته توجب مكانا ويصير منتقلا من مكان إلى مكان والله تعالى ليس كذلك، ولكنا نقول استوى من لا مكان إلى مكان، ولا نقول انتقل، وإن كان المعنى في ذلك واحدا، كما نقول له عرش ولا نقول له سرير، ونقول هو الحكيم ولا نقول هو العاقل، ونقول خليل إبراهيم ولا نقول صديق إبراهيم، وإن كان المعنى في ذلك واحدا لأنا

لا نسميه ولا نصفه ولا نطلق عليه إلا ما سمي به نفسه على ما تقدم، ولا ندفع ما وصف به نفسه لأنه دفع للقرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، وليس مجيئه حركة ولا زوالا ولا ابتدالا، لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائي جسما أو جوهرا فلما ثبت أنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، لم يجب أن يكون مجيئه حركة ولا نقلا، ولو اعتبرت ذلك بقولهم: جاءت فلانا قيامته وجاءه الموت وجاءه المرض وشبه ذلك مما هو وجود نازل به لا مجيء لبان لك وبالله العصمة والتوفيق.

فإن قال: إنه لا يكون مستويا على مكان إلا مقرونا بالكيف، قيل له قد يكون الاستواء واجبا والتكييف مرتفعا، وليس رفع التكييف يوجب رفع الاستواء، ولو لزم هذا لزم التكييف في الأزل، ولا يكون كائنا في مكان ولا مقرونا بالتكييف.

فإن قال: إنه كان ولا مكان وهو غير مقرون بالتكييف، وقد عقلنا وأدركنا بحواسنا أن لنا أرواحا في أبداننا ولا نعلم كيفية ذلك، وليس جهلنا بكيفية الأرواح يوجب أن ليس لنا أرواح، وكذلك ليس جهلنا بكيفيته على عرشه يوجب أن ليس على عرشه، وقد روي عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا تبارك وتعالى قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء.

قال أبو القاسم: العماء ممدود وهو السحاب، والعمى مقصور الظلمة، وقد روي الحديث بالمد والقصر؛ فمن رواه بالمد فمعناه عنده كان في عماء

سحاب ما تحته وما فوقه هواء، والهاء راجعة على العماء، ومن رواه بالقصر فمعناه عنده كان في عمى عن خلقه، لأنه من عمي عن شيء فقد أظلم عنه، قال سنيد بسنده عن مجاهد قال: إن بين العرش وبين الملائكة لسبعين حجابا من نور وحجابا من ظلمة وروى أيضا سنيد بسنده عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام؛ وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام والعرش على الماء والله سبحانه وتعالى على العرش ويعلم أعمالكم وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضا: أنه فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم. قال أبو القاسم يريد فوق العرش؛ لأن العرش آخر المخلوقات ليس فوقه مخلوق، فالله تعالى أعلى المخلوقات دون تكييف ولا مماسة، ولا أعلم في هذا الباب حديثا مرفوعا إلا حديث عبدالله بن عميرة عن الأحنف عن العباس بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر إلى سحابة فقال: «ما تسمون هذه؟ قالوا السحاب قال والمزن؛ قالوا والمزن، قال والعنان قالوا نعم، قال كم ترون بينكم وبين السماء قالوا لا يدري، قال بينكم وبينه إما واحد أو اثنان أو ثلاث وسبعون سنة والسماء فوقها كذلك بينهما مثل ذلك حتى عد سبع سموات، ثم فوق السماء السابعة بحر أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ثم الله تعالى فوق ذلك». هذا حديث حسن صحيح أخرجه أبو داود.

١٠- قول أبي بكر بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد رحمة الله عليهما، قال: «وأما قوله أنه فوق عرشه المجيد بذاته، فإن معنى فوق وعلا عند جميع العرب واحد وفي كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصديق ذلك ثم ساق الآيات في إثبات العلو وحديث الجارية، إلى أن قال: وقد تأتي (في) في لغة العرب بمعنى فوق، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]. يريد فوقها وعليها، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١]. يريد عليها، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ٦٠] الآيات. قال أهل التأويل العالمون بلغة العرب: يريد فوقها وهو قول مالك مما فهمه عن جماعة ممن أدرك من التابعين مما فهموه عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مما فهموه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله في السماء بمعنى فوقها وعليها فلذلك قال الشيخ أبو محمد إنه فوق عرشه المجيد بذاته، ثم بين أن علوه على عرشه إنما هو بذاته لأنه بائن عن جميع خلقه بلا كيف وهو في كل مكان من الأمكنة المخلوقة بعلمه لا بذاته إذ لا تحويه الأماكن لأنه أعظم منها، وقد كان ولا مكان ولم يحل بصفاته عما كان، إذ لا تجري عليه الأحوال؛ لكن علوه في استوائه على عرشه هو عندنا بخلاف ما كان قبل أن يستوي على العرش لأنه قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وثم أبدا لا يكون إلا لاستئناف فعل يصير بينه وبين ما قبله فسحة،

إلى أن قال: وقوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فإنما معناه عند أهل السنة على غير الاستيلاء والقهر والغلبة والملك الذي ظنته المعتزلة ومن قال بقولهم إنه بمعنى الاستيلاء، وبعضهم يقول إنه على المجاز دون الحقيقة، قال ويبين سوء تأويلهم في استوائه على عرشه على غير ما تأولوه من الاستيلاء وغيره ما قد علمه أهل العقول أنه لم يزل مستوليا على جميع مخلوقاته بعد اختراعه لها، وكان العرش وغيره في ذلك سواء، فلا معنى لتأويلهم بإفراد العرش بالاستواء الذي هو في تأويلهم الفاسد استيلاء وملك وقهر وغلبة[(١)].

قال وكذلك بين أيضا أنه على الحقيقة بقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢] فلما رأى المنصفون أفراد ذكره بالاستواء على عرشه بعد خلق سمواته وأرضه وتخصيصه بصفة الاستواء، علموا أن الاستواء هنا غير الاستيلاء ونحوه فأقروا بصفة الاستواء على عرشه وأنه على الحقيقة لا على المجاز، لأنه الصادق في قيله، ووقفوا عن تكييف ذلك وتمثيله، إذ ليس كمثله شيء من الأشياء، وقد تقدم قول القاضي عبدالوهاب إمام المالكية بالعراق أن الاستواء استواء الذات على العرش وأنه قول أبي الطيب الأشعري حكاه عنه عبدالوهاب نصا، وأنه قول الأشعري بنفسه صرح به في بعض كتبه، وأنه قول الخطابي وغيره من الفقهاء والمحدثين، ذكر ذلك كله الإمام أبو بكر الحضرمي في رسالته التي سماها

(١) نقله عنه ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» ١/ ١١٣.

بالإيماء إلى مسألة الاستواء، فمن أراد الوقوف عليها فليقرأها[١].

١١- رد الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على فهم المتكلمين لحديث معاذ «**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم**» المخالف لفهم السلف الصالح بقوله: «وهذا الذي أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذا هو الدعوة قبل القتال، التي كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصي بها أمراءه، وقد اختلف في حكمها على ما يأتي في باب الجهاد. وعلى هذا فلا يكون في حديث معاذ حجة لمن تمسك به من المتكلمين على أن أول واجب على كل مكلف معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان بل هو حجة لمن يقول: إن أول الواجبات التلفظ بكمتي الشهادة مصدقا بها»[٢] ومن المعلوم أن الذي يقول: إن أول الواجبات التلفظ بكلمة الشهادة هم السلف قال الإمام ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد: الشهادتان»[٣].

١٢- وقال ابن رشد الحفيد: «وأما الأشعرية، فإنهم رأوا التصديق بوجود الله تعالى لا يكون إلا بالعقل، ولكن سلكوا في ذلك طرقا ليست هي الطرق الشرعية التي نبه الله عليها، ودعا الناس إلى الإيمان بها من قبلها، وذلك أن طريقتهم المشهورة انبنت على بيان أن العالم حادث، وانبنى عندهم حدوث العالم على القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ، وأن

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ١/ ١٨١-١٨٢.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٥.

الجزء الذي لا يتجزأ محدث، والأجسام محدثة بحدوثه، وطريقتهم التي سلكوا في بيان حدوث الجزء التي لا يتجزأ وهو الذي يسمونه الجوهر الفرد طريقة معتاصة تذهب على كثير من أهل الرياضة في صناعة الجدل فضلا عن الجمهور، ومع ذلك فهي طريقة غير برهانية، ولا مفضية بيقين إلى وجود الباري»[(١)]. أي أنهم خالفوا السلف في فهمهم ومنهجهم.

١٣- وسئل فقيه تازي ومفتيها الفقيه أبو عبدالله محمد بن مؤمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ويقولون من لم يعلم اثني عشر بابا من التوحيد فهو كافر...» قال: فالجواب: «... وأما قولهم: إن من لم يعلم اثني عشر بابا من التوحيد فهو كافر، فقد خالفوا في ذلك أئمة الهدى: مالكا، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبا يوسف، نقل الغزالي - وهو شيخ الهدى- قال: اختلف في الاشتغال بعلم الكلام، فقيل: فرض كفاية، وقيل: يحمله من قام به، وقيل: فرض عين، وقيل: حرام وأن التقليد يجزئ وإلى هذا ذهب الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وسفيان، وجميع أهل الحديث من السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ... ثم نقل الآثار الواردة عنهم في ذلك، ثم قال: قال الغزالي: والصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم لعلمهم بما يتولد منه من الشر، ولو كان الاشتغال بهذا العلم واجبا وهو من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعلم طريقته، ويثني على أربابه كما علم سائر أمور الديانات، بل نهاهم عن الكلام في القدر

(١) الكشف عن منهج الأدلة ص٤٣.

وقال: إذا ذكر القدر فأمسكوا وعلى هذا استمر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم، وهم الأساتذة والقدوة، ونحن الأتباع والتلامذة، فهؤلاء فقهاء الأمصار متفقون على أن التقليد يجزئ، والدليل على أن التقليد يجزئ من طريق الأثر والنظر ما روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله**» فكان يكتفي منهم بكلمة التوحيد وإن كانوا من البدو الأجلاف الذين لا يعرفون النظر، ولو كان لا يجتزئ التقليد ولا بد من المعرفة، لما أقرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك.

وأجمع المتقدمون على قبول كلمة الشهادة من غير زيادة عليها، ويلزم من يقول: إنه لا بد من المعرفة: أن النصراني إذا قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم مات من حينه قبل أن تتمكن منه معرفة أنه مات كافرا، ولا يرثه المسلمون، وإنما يرثه النصارى. وقد انعقد الإجماع على أنه مات مؤمنا، وميراثه للمسلمين.

ويلزم على القول بوجوب المعرفة من جهة النظر الدور المحال؛ لأن معرفة الإيجاب متوقفة على معرفة الموجب، ومعرفة الموجب متوقفة على معرفة النظر المتوقف على إيجابه»[(١)].

الفرع الثامن: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

١- قال أبو بكر الطرطوشي: «وقال علماؤنا المالكية: التصدي للعزاء بدعة ومكروه...»[(٢)].

---

(١) المعيار المعرب ٢/ ٤٥٦.

(٢) المرجع السابق ص١٧٠.

٢- وقال الفاكهاني في المولد: «... ولا ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة في الدين المتمسكون بآثار المتقدمين...ولا فعله الصحابة، ولا التابعون، ولا العلماء المتقدمون... إذ لم يفعله احد من متقدمي أهل الطاعة الذين هم فقهاء الإسلام، وعلماء الأنام وسرج الأزمنة وزين الأمكنة...»[(١)].

٣- في «المواهب الجليل» «واختلف في علة كراهية الماء المستعمل، أو المنع منه على أقوال:... وقيل: إنه لم ينقل عن السلف جمع ذلك واستعماله»[(٢)].

٤- وقال بعض المالكية في كراهة الماء المستعمل في الطهارة المسنونة والمستحبة: «عللت كراهة الاستعمال بعلل ست... سادسها: لعدم عمل السلف»[(٣)].

٥- وقال أبو الوليد ابن رشد: «... وقد كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلون بأسيافهم وفيها الدم ولا يبالون بذلك ولو كانوا يغسلون أسيافهم في غزواتهم لصلواتهم في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعده، لنقل ذلك وعرف».

٦- وقال ابن العربي: «والعمل مستقر على ترك الوضوء»[(٤)]. يعني بالعمل ترك السلف؛ لأن فهمهم حجة.

---

(١) المورد في الكلام على عمل المولد كما في الحاوي للسيوطي ص١٩٠-١٩٢.

(٢) المواهب الجليل ١/ ٦٧.

(٣) حاشية الصاوي ١/ ٦

(٤) عارضة الأحوذي ١/ ١١١.

٧- وقال القرافي: «فرع إن عجز عن تدليك بعض جسده قال صاحب الطراز: قال سحنون: يعد له خرقة، وقال ابن القصار: يسقط كما يسقط فرض القراءة عن الأخرس؛ لأنه لم ينقل عن أحد من السلف اتخاذ خرقة ونحوها فلو كان واجبا لشاع من فعلهم»[(١)].

٨- وقال القرافي: «قال صاحب البيان: قال مالك: ليس على المرأة أن تقوم قبل الفجر لتنظر طهرها وليس ذلك من عمل الناس، ولم يكن في ذلك الزمان مصابيح. قال: والقياس ذلك لكن العمل أسقطه»[(٢)]. قلت: مراده بالعمل ترك السلف لأن فهمهم حجة.

٩- وقال الشيخ عليش: «وليس عليها أي على الحائض، لا وجوبا ولا ندبا نظر علامة طهرها قبل طلوع الفجر؛ لإدراك العشاءين والصوم، بل يكره؛ لأنه ليس من عمل السلف»[(٣)].

١٠- وقال بعض المالكية في الأذان: «وهو الأذان مثنى من التثنية؛ لأنه عمل السلف بالمدينة، لا مربع التكبير».

١١- وفي «الثمر الداني» «... وعلى هذا مضى عمل السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يثابرون على الاشتغال بالذكر بعد صلاة الصبح إلى آخر وقتها»[(٤)].

١٢- وقال الحطاب رَحِمَهُ اللَّهُ في صلاة النافلة: «فرع إذا صلى التحية ثم

(١) الذخيرة ١/ ٢١٠.

(٢) الذخيرة ١/ ٣٨٢.

(٣) منح الجليل ١/ ١٧٣.

(٤) الثمر الداني ص١٢٠.

خرج لحاجة، ثم رجع بالقرب فهل يكرر التحية: ذكر ابن ناجي في شرح المدونة في كتاب القذف نظائر هل تكرر أم لا؟ منها: هذه ثم قال: وهذا كله بخلاف السلام فإني لم أر فيه خلافا هل يسلم على من لقي ولو لم يحل بينهما إلا شجرة على هذا مضى السلف»[(١)].

١٣- وقال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التنفل على الدابة من حيث الجملة متفق عليه، وإنما الخلاف في الماشي فمنعه مالك وأبو حنيفة، وجوزه الشافعي. حجتنا عمل السلف»[(٢)].

١٤- وقال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكره الدعاء والخطب والقصص ليلة الختم؛ لترك السلف إياه».

١٥- وقال: «والصلاة في رمضان أفضل من مذاكرة العلم؛ لأنه عمل السلف»[(٣)].

١٦- وقال في «الثمر الداني»: قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرج يوم الفطر والأضحى رافعا صوته بالتكبير واستمر على هذا عمل السلف بعده»[(٤)].

١٧- وقال الباجي فقال: «... وأنهم حققوا الخبر بذلك وأثبتوه باتصال

---

(١) مواهب الجليل ٢/ ٣٧٤.

(٢) الذخيرة ٢/ ١٢٠ ط/ دار الغرب.

(٣) الذخيرة ٢/ ٤٠٨.

(٤) الثمر الداني ص٢٥١.

العمل إلى وقت إخبارهم به، ثم أكد ذلك مالك أن قال: وتلك السنة التي لا اختلاف فيها عنده وأفعال الصلوات المتكرر نقلها بالمدينة نقل المتواتر إذا اتصل العمل بها الخ»[(١)]. قلت: مراده بالعمل الترك.

١٨- وقال الشيخ صالح بن عبد السميع في العيدين: «... وقد نص في المختصر على استحباب البعدية يعني أن حكم كون الخطبة بعد الصلاة لما في الصحيح أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يبدأ بالصلاة قبل الخطبة وعلى هذا جرى عمل الخلفاء الراشدين بعده»[(٢)].

١٩- وقال عليش: «ويكره التبكير خشية الرياء ولمخالفة عمل السلف من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء بعده وسائر الصحابة والتابعين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ»[(٣)].

٢٠- وقال ابن الحاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... فإذا وصل إلى الموضع الذي يخطب عليه أقبل بوجهه على الناس وجلس من غير سلام من المؤذنين وإن كان قد ورد فيه حديث لكن الذي استقر عليه عمل السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تركه إذ ذاك. وبعضهم يسلم ويزيد فيه بدعة وهو أن يشير بيده إلى الناس»[(٤)].

٢١- وقال ابن الحاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد استفتي الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقيل له: هذه القراءة التي يقرؤها بعض الجهال على الجنائز بدمشق بالتمطيط الفاحش والتغني الزائد... فأجاب بما لفظه: هذا منكر ظاهر مذموم فاحش

---

(١) شرح التنقيح ١/ ١٩٨.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٤٩.

(٣) منح الجليل ١/ ٤٣٧.

(٤) المدخل ٢/ ٢٦٧.

وهو حرام بإجماع العلماء وقد نقل الإجماع فيه الماوردي وغير واحد مع أن الصلاة على الميت في المسجد تمنع في مذهب مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: من صلى على الميت في المسجد فلا شيء له أخرجه أبو داوود في سننه. وهذا الحديث الذي أخرجه أبو داوود يقويه عمل السلف المتصل، بل لو انفرد العمل لكان كافيا في منعه في المسجد والله الموفق»[(١)].

٢٢- وقال ابن الحاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا حجة لمن يقول: إن مذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخطيب إذا ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا بأس أن يصلي عليه السامع يرفع صوته بذلك؛ لأن رفع الصوت هو أن يسمع المرء نفسه ومن يليه على ما يعهد من عمل السلف في جهرهم بمواضع»[(٢)].

٢٣- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وقد قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس العمل على فعل عبدالله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حين سمع رجلين يتكلمان في حال الخطبة فحصبهما أن اصمتا، قال: لأن حصبهما بمنزلة قوله لهما: اسكتا فإذا كان عمل السلف على هذا الذي ذكره، فالمبادرة إلى اتباعهم أفضل وأعلى كما تقدم؛ فإنهم على الهدى المستقيم»[(٣)].

٢٤- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد سئل مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عما يقرأ المسبوق بركعة في الجمعة، فقال: يقرأ مثل ما قرأ إمامه بسورة الجمعة، فقيل له: أقراءة سورة الجمعة في صلاة الجمعة سنة، فقال: لا أدري ما هي سنة ولكن من أدركنا

---

(١) المدخل ٢/ ٢٢٠.

(٢) المرجع السلبق ٢/ ٢٦٨.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٢٦٩.

كان يقرأ بها في الركعة الأولى من الجمعة انتهى وإن كان قد ورد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ في الركعة الأولى من صلاة الجمعة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية: ١] لكن الذي واظب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، واستقر عليه عمل السلف الماضين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين ما تقدم ذكره. وإذا كان كذلك فالمواظبة على ترك قراءة سورة الجمعة في الركعة الأولى منها مما لا ينبغي»[(١)].

٢٥- وقال ابن الحاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد عد بعض العلماء ترك التبكير يوم الجمعة من البدع الحادثة، وذلك محمول إلى اختلاف المذهبين: فمذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن التبكير من غدوة النهار إليها أفضل، ومذهب مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن معناه التهجير ودليله عمل السلف الماضين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين»[(٢)].

٢٦- وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صيام الست من شوال: «ما رأيت أحدا من أهل الفقه والعلم يصومها، ولم يبلغنا ذلك عن أحد من السلف...».

٢٧- وقال ابن الحاج في غسل الميت: «وليحذر من هذه البدعة الأخرى التي يفعلها أكثرهم وهو: أن الغاسل إذا بدأ في غسله أخذ يذكر لكل عضو يغسله ذكرا من الأذكار وقد تقدم أن ذكر الله حسن سرا وعلنا لكن في المواضع المأمور به فيها وهذا المحمل محمل تفكر واعتبار وخشية فليشتغل

---

(١) المدخل ٢/ ٢٧٥.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٧٨.

به عن غيره من العادات ذكرا كان أو غيره وهو عمل السلف الماضين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيره بدعة»[(١)].

٢٨- وقال خليل ابن إسحاق: «... والكراهة لمالك في رواية أشهب، واحتج على ذلك بأن عمل السلف اتصل على ترك ذلك، ذكر ذلك صاحب «البيان» وغيره، وصاحب «الرسالة»، فقال: وأرخص بعض العلماء في القراءة بسورة يس عند رأسه، ولم يكن ذلك عند مالك أمرا معمولا به. انتهى وهذا هو الظاهر، وفي حمل ابن حبيب نظر؛ إذ ليس لنا أن نرتب الأسباب والمسببات، وما حده الشرع وقفنا عنده، وما أطلقه ولم يخصه بسبب أطلقناه، وما تركه السلف تركناه، وإن كان أصله مشهودا له بالمشروعية كهذه القراءة، وللشرع حكمة في الفعل والترك، وتخصيص بعض الأحوال بالترك، كالنهي عن القراءة في الركوع، وطلبها في القيام، فتمسك بهذه القاعدة الجليلة؛ فإنه دستور للمتمسك بالسنة، وقاعدة مالك»[(٢)].

٢٩- وقال الدردير عند قول خليل: «وكره قراءة عند موته كتجمير الدار وبعده وعلى قبره» «لأنه ليس من عمل السلف»[(٣)].

٣٠- وقال الشيخ عليش عند قول خليل: «وكره قراءة عند موته كتجمير الدار وبعده وعلى قبره» «لأنها ليست من عمل السلف الصالح، ولمنافاتها

---

(١) المرجع السابق ٢/ ٢٣٩.

(٢) التوضيح شرح مختصر ابن الحاجب ٢/ ٤. وانظر حاشية الصاوي

(٣) الشرح الكبير للدردير ١/ ٤٢٢ وانظر حاشية الخرشي ٢/ ١٢٦.

للمقصود من التدبر في حال الميت كما تقدم في التوضيح مذهب مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كراهة القراءة على القبر ونقلها سيدي ابن أبي حمزة قائلا: لأنا مكلفون بالتفكر فيما قيل لهم، وما ذا لقوا ونحن مكلفون بالتدبر في القرآن فآل الأمر إلى إسقاط أحد العملين انتهى وهذا صريح في الكراهة مطلقا»[(١)].

٣١- وقال عليش: «... وأما ما يفعل الآن من وضع الثياب الملونة، والحلي، والنقود والجواهر فوق النعش، فهو أمر منكر؛ لعدم عمل السلف ذلك، ولمنافاته لحال الموت، ولقصد الرياء والمباهاة والتفاخر»[(٢)].

٣٢- وقال بعض المالكية في كتاب الجنائز: «وكره قيام لها أي للجنازة إذا مروا بها على جالس؛ لأنه ليس من عمل السلف».

٣٣- وقال الشيخ صالح بن عبد السميع: «... وإنما كان الإفراد أفضل لما في «الصحيحين» أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفرد أي في حجة الوداع واتصل عمل الخلفاء أي فقد أفرد الصديق في السنة الثانية، وعمر بعد عشر سنين، وعثمان اثني عشر سنة»[(٣)].

٣٤- وقال القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والطواف بالبيت صلاة إلا أن الله تعالى أباح فيها الكلام، ولا ينشد الشعر لشدة منا فاته، ولا يستحب القراءة؛ لأنها ليست من عمل السلف»[(٤)].

---

(١) منح الجليل ١ ٥٠٩.

(٢) المرجع السالبق/ ٤٩٨.

(٣) الثمر الداني ص٣٨٣.

(٤) الذخيرة ٣/ ٢٤٤.

٣٥- وقال ابن الحاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام الساقط حال الجماع: «قال ابن رشد: وسئل مالك فأنكره قال ابن رشد: وإنما أنكر مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنه لم يكن من عمل السلف»[(١)].

٣٦- وقال الصاوي في قسم الغنائم: «والشأن الذي عليه عمل السلف القسم ببلدهم؛ لأنه أسر للغانمين وأغيظ للكافرين»[(٢)].

٣٧- وقال الحطاب «... وأما إذا حماه في سنة من السنين ولم يفهم أن ذلك حكم مستمر، فالظاهر أنه لا يلزم استمراره ولو ثبت ذلك لاستمرار عمل الخلفاء بعده على حمى ذلك الموضع وقد تقدم أن الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حمى الزبدة»[(٣)].

٣٨- وقال بعض المالكية: «... أو يستلما من شخص مالا في شيء معين بينهما وضمن كل الآخر فيما يخصه فيجوز، أو يقترض شيئا من طعام أو عين أو عرض ويضمن كل صاحبه فيما عليه فيجوز للعمل أي عمل السلف الصالح بذلك وما عملوا إلا لفهم الجواز من السنة»[(٤)]. كالمسلم يقتل الكافر ضرب مائة أي مائة سوط وحبس عاما وعلى هذا مضى عمل السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

---

(١) المدخل ٢/ ١٨٧.

(٢) حاشية الصاوي ٤/ ٢٤٤.

(٣) مواهب الجليل ٧/ ٦١٣.

(٤) حاشية الصاوي ٧/ ٤٥٦.

٣٩- وقال الشيخ عليش في كتاب الديات: «...وفي ذهاب جمالهما، بعد الحكومة، أو إتلاف عين الأعور دية كاملة عند مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للسنة بضم السين وتشديد النون فقد قضى بها فيها عمر، وعثمان، وعلي، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقال به ابن المسيب، وسليمان بن يسار، وقال ابن شهاب بذلك مضت السنة، فلا يلتفت لقول ابن عبد السلام: ظاهر السنة مع المخالف لما في كتاب عمرو بن حزم في العين نصف الدية لعمومه عين صحيح العينين، وعين الأعور؛ إذ عمل الخلفاء دل على تخصيص الحديث بعين صحيح العينين وناهيك بقول ابن شهاب بذلك مضت السنة»[(١)].

٤٠- وقال القرافي: «... وكذلك إن كان القاتلون متأولين، أو كلا الصنفين متأول؛ لأنه عمل السلف في قتال البغاة»[(٢)].

٤١- وقال ابن الحاج في المولد: «وليحذر من عوائد أهل الوقت وممن يفعل العوائد الرديئة وهذه المفاسد مركبة على فعل المولد إذا عمل في السماع، فإن خلا منه وعمل طعاما فقط ونوى به المولد ودعا إليه الإخوان وسلم من كل ما تقدم ذكره فهو بدعة بنفس نيته فقط؛ إذ إن ذلك زيادة في الدين وليس من عمل السلف الماضين. واتباع السلف أولى بل أوجب من أن يزيد نية مخالفة لما كانوا عليه؛ لأنهم أشد الناس اتباعا لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيما له ولسنته ولهم قدم السبق في المبادرة إلى

(١) منح الجليل ٩/ ١١٢.
(٢) الذخيرة ١٢/ ٢٠٤.

ذلك ولم ينقل عن أحد منهم أنه نوى المولد ونحن لهم تبع فيسعنا ما وسعهم وقد علم أن اتباعهم في المصادر والموارد كما قال الشيخ الإمام أبو طالب المكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه»[(١)].

٤٢- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم انظر رحمنا الله وإياك إلى مخالفة السنة ما أشنعها ألا ترى أنهم لما ابتدعوا فعل المولد على ما تقدم تشوفت نفوس النساء لفعل ذلك وقد تقدم ما في مولد الرجال من البدع ومخالفة السلف الماضين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين»[(٢)].

❁❁❁

(١) المدخل ٢/ ١٠.

(٢) المرجع السابق.

المسألة الثالثة

حجيتها عند الشافعية

وفيه ستة فروع:

الفرع الأول: تأصيل الشافعية القاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على طهورية الماء وعدمه.

الفرع الخامس: جعلهم القاعدة ميزانا لصحة المذهب.

الفرع السادس: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

الافتتاحية:

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... فعلموا ما أراد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاما وخاصا، وعزما وإرشادا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وما جهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وآراؤهم أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا وهكذا نقول ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله».

وقال ابن سريج بعد أن ذكر عقيدة السلف: «ونفسر ما فسره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتابعون والأئمة المرضيون من السلف المعروفين بالدين والأمانة ونجمع على ما أجمعوا عليه ونمسك عن ما أمسكوا عنه ونسلم الخبر الظاهر والآية الظاهرة تنزيلها لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة والمجسمة والمشبهة والكرامية والمكيفة. بل نقبلها بلا تأويل ونؤمن بها بلا تمثيل، ونقول الإيمان بها واجب والقول بها سنة، وابتغاء تأويلها بدعة».

قول الإمام أبي القاسم الطبري اللالكائي أحد أئمة أصحاب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه «في السنة» وهو من أجلّ الكتب، سياق ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. وأن الله عَزَّوَجَلَّ على عرشه في السماء، ثم ذكر قول من هذا قوله من الصحابة والتابعين والأئمة. قال هو

قول عمر وعبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأحمد بن حنبل؛ وعد جماعة يطول ذكرهم، ثم ساق الآثار في ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وعائشة وابن عباس وأبي هريرة وعبدالله بن عمر وغيرهم.

قول الإمام محي السنة الحسين بن مسعود البغوي قدس الله روحه. قال في تفسيره الذي هو شجى في حلوق الجهمية والمعطلة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال الكلبي ومقاتل استقر، وقال أبو عبيدة صعد، قال وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء. قال وأما أهل السنة فيقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل أن يؤمن بذلك، ويكل العلم فيه إلى الله تعالى، ثم حكى قول مالك الاستواء غير مجهول. وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾. «قال ابن عباس، وأكثر مفسري السلف ارتفع إلى السماء»[(١)].

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الكلام في الصفات: فأما ما روي منها في السنن الصحاح فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات؛ ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله، وإذا كان معلوما إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: يد وسمع وبصر؛ فإنما هو إثبات صفات أثبتها الله

(١) المرجع السابق ١/ ٥٩.

لنفسه، ولا نقول: إن معنى اليد القدرة، ولا إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح وأدوات للفعل، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها؛ لأن التوقيف ورد بها ووجب نفي التشبيه عنها...»[(١)].

وقال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنْ أحببت يا عبدالله الإنصاف؛ فقفْ مع نصوص القرآن والسنة، ثمَّ انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات، وما حكَوه من مذاهب السلف، فإمَّا أنْ تنطق بعلمٍ، وإمَّا أنْ تسكت بعلم».

الفرع الأول: تأصيل الشافعية القاعدة:

١- قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... فعلموا ما أراد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاما وخاصا، وعزما وإرشادا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وما جهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وآراؤهم أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا وهكذا نقول ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله»[(٢)].

٢- وقال الإمام حجة الإسلام أبي أحمد ابن الحسين الشافعي

---

(١) العلو للعلي الغفار ٢/ ١٣٣٥.

(٢) سبق توثيقه.

المعروف بابن الحداد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قال: «ونقتدي في ذلك بعلماء السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ونسكت عما سكتوا عنه ونتأول ما تأولوا، وهم القدوة في هذا الباب، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب»[(١)].

٣- وقال أبو المظفر السمعاني: «قد دللنا -فيما سبق- بالكتاب الناطق من الله عَزَّوَجَلَّ، ومن قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن أقوال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنا أمرنا بالاتباع... ونهينا عن الابتداع وزجرنا عنه. وشعار أهل السنة: اتباعهم السلف الصالح، وتركهم كل ما هو مبتدع محدث وهل زاغ من زاغ وهلك من هلك وألحد من ألحد إلا بالرجوع إلى الخواطر والمعقولات واتباع الآراء في قديم الدهر وحديثه؟ وهل نجا من نجا إلا باتباع سنن المرسلين...»[(٢)].

٤- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في شرح حديث عوف بن مالك: قال الشيخ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «ما أنا عليه وأصحابي» الذي كان عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ما مضى عليه أئمة الدين المشهورون في الآفاق قال عمر بن عبدالعزيز: «سن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولاة الأمر...ألخ»[(٣)].

٥- وقال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنْ أحببت يا عبدالله الإنصاف؛ فقفْ

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٣١.

(٢) سبق توثيقه.

(٣) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ١/ ١٢٠.

مع نصوص القرآن والسنة، ثمَّ انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات، وما حكَوه من مذاهب السلف، فإمَّا أنْ تنطق بعلمٍ، وإمَّا أنْ تسكت بعلم» ١٥٥.

٦- وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ منكرا على فهم أهل الكلام: «فليت شعري متى نقل عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم قالوا لمن جاءهم مسلما: الدليل على أن العالم حادث: أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث حادث»(١).

٧- وقال الرافعي في تقديرات الحيض: «والثالث: أنه إن وافق ذلك مذهب واحد من السلف صرنا إليه وإلا فلا؛ لأنه تبين لنا بذلك أن ما وجدناه قد وجد قبل هذا لكنه لم يبلغ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ»(٢).

٨- وقال أبو المعالي الجويني: «وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهدا في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الآية والظواهر مسوغا ومحتوما لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة»(٣).

٩- وقال الإمام البيهقي: «وفي حديث عبدالله بن عمرو «إلا واحدة ما أنا

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص٨٩.

(٢) الشرح الكبير للرافعي ٢/ ٤١٥.

(٣) العقيدة النظامية ص٣٣ تحققي الكوثري.

عليه وأصحابي» وإنما اجتمع أصحابه على مسائل الأصول؛ فإنه لم يرو عن واحد منهم خلاف ما أشرنا إليه في هذا الكتاب. فأما مسائل الفروع فما ليس فيه نص كتاب، ولا نص سنة فقد اجتمعوا على بعض، واختلفوا في بعض، فما اجتمعوا عليه ليس لأحد مخالفتهم فيه، وما اختلفوا فيه فصاحب الشرع هو الذي سوغ لهم هذا النوع من الاختلاف؛ حيث أمرهم بالاستنباط وبالاجتهاد مع علمه بأن ذلك يختلف، وجعل للمصيب منهم أجرين، وللمخطئ منهم أجرا واحدا وذلك على ما يحتمل من الاجتهاد ورفع عنه ما أخطأ»[(١)].

١٠- وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مناقشة مسألة إهداء ثواب القراء للموتى: «إنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته، ولا حثهم عليها، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولو كان خيرا لسبقونا إليه. وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء»[(٢)]. قلت: منهج الإمام ابن كثير في تفسيره: تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال السلف...ألخ

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة:

١- وقال الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني: «أنكر السلف

(١) الاعتقاد ص٢٣٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠١.

الكلام في الجواهر والأعراض، وقالوا: لم يكن على هدي الصحابة والتابعين رضي الله عن الصحابة ورحم الله التابعين، ولا يخلو أن يكونوا سكتوا عن ذلك وهم عالمون به فيسعنا السكوت عما سكتوا عنه، أو يكونوا سكتوا عنه وهم غير عالمين به فيسعنا أن لا نعلم ما لم يعلموه، والحديث الذي ذكرناه يقتضي أن ما تكلم به الآخرون من ذلك ولم يتكلم فيه الأولون يكون مردودا»[(١)].

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية:

١- قال أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كيف شاء»[(٢)].

٢- قول الإمام أبي عمرو عثمان بن أبي الحسن بن الحسين السهروردي الفقيه المحدث من أئمة أصحاب الشافعي من أقران البيهقي وأبي عثمان الصابوني وطبقتهما له كتاب في أصول الدين قال في أوله: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام على الأديان، وزين أهله بزينة الإيمان، وجعل السنة عصمة أهل الهداية، ومجانبتها إمارة أهل الغواية، وأعز أهلها بالاستقامة ووصل عزهم بالقيامة. وصلى الله على محمد وسلم وعلى آله أجمعين. وبعد فإن

(١) الحجة في بيان المحجة ١/ ١١٠.

(٢) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ص٩٤.

الله تعالى لما جعل الإسلام ركن الهدى، والسنة سبب النجاة من الردى ولم يجعل من ابتغى غير الإسلام دينا هاديا ولا من انتحل غير الإسلام نحلة ناجيا، جمعت أصول السنة الناجي أهلها التي لا يسع الجاهل نكرها، ولا العالم جهلها، ومن سلك غيرها من المسالك فهو في أودية البدع هالك إلى أن قال: ودعاني إلى جمع هذا المختصر في اعتقاد السنة على مذهب الشافعي وأصحاب الحديث إذ هم أمراء العلم وأئمة الإسلام قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**تكون البدع في آخر الزمان محنة فإذا كان كذلك فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على نبيه محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» ثم ساق الكلام في الصفات إلى أن قال: فصل: ومن صفاته تبارك وتعالى فوقيته واستواؤه على عرشه بذاته كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا كيف، ودليله قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله في قصة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ۝٥٥﴾ [آل عمران: ٥٥]، وساق آيات العلو ثم قال: وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا في أن الله سبحانه مستو على عرشه، وعرشه فوق سبع سمواته، ثم ذكر كلام عبدالله بن المبارك: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على عرشه بائن من خلقه وساق قول ابن خزيمة: من لم يقر بأن الله تعالى فوق عرشه قد استوى فوق سبع سمواته فهو كافر، بإسناده من كتاب معرفة علوم الحديث، ومن كتاب تاريخ نيسابور للحاكم، ثم قال: وإمامنا في الأصول والفروع أبو عبدالله محمد بن

إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى احتج في كتابه المبسوط على المخالف في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفارة، وأن الرقبة الكافرة لا يصح التكفير بها بخبر معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأنه أراد أن يعتق الجارية السوداء عن الكفارة وسأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعرف أنها مؤمنة أم لا، فقال لها: أين ربك؟ فأشارت إلى السماء إذ كانت أعجمية: فقال لها: من أنا فأشارت إليه وإلى السماء، تعني إنك رسول الله الذي في السماء، فقال أعتقها فإنها مؤمنة، فحكم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسلامها وإيمانها لما أقرت بأن ربها في السماء، وعرفت ربها بصفة العلو والفوقية، هذا لفظه»[(١)].

٣- وقال الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني: «الكلام في صفات الله عَزَّوَجَلَّ ما جاء منها في كتاب الله، أو روي بالأسانيد الصحيحة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمذهب السلف رحمة الله عليهم أجمعين إثباتها، وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وذهب قوم من المثبتين إلى البحث عن التكييف. والطريقة المحمودة هي الطريقة المتوسطة بين الأمرين، وهذا لأن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، وإثبات الذات إثبات وجود، لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات، وإنما أثبتناها؛ لأن التوقيف ورد بها وعلى هذا مضى السلف وقال مكحول، والزهري: أمروا هذه الأحاديث كما جاءت...»[(٢)].

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص٥٤

(٢) المرجع السابق ١/ ١٨٩-١٩٠

٤- وقال محمود بن سورة التميمي النيسابوري: «لا أصلي خلف من ينكر الصفات ولا خلف من يقول بقول أهل الفساد ولا خلف من لم يثبت القرآن في المصحف ولا يثبت النبوة قبل الماء والطين إلى يوم الدين، ولا يقر بأن الله تعالى فوق عرشه بائن من خلقه. قال أبو جعفر وسمعته يقول للشيخ أبي المظفر السمعاني بنيسابور إن أردت أن يكون لك درجة الأئمة في الدنيا والآخرة فعليك بمذهب السلف الصالح وإياك أن تداهن في ثلاث مسائل: مسألة القرآن، ومسألة النبوة، ومسألة استواء الرحمن على العرش باستدلال النص من القرآن والسنة المأثورة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حكاه الحافظ أبو منصور عبدالله بن محمد بن الوليد في كتاب إثبات العلو له. قلت: ونظير هذه المسائل الثلاث ما حكاه أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي قال سمعت أحمد بن أميرجه القلانسي خادم شيخ الإسلام الأنصاري يقول حضرت مع شيخ الإسلام على الوزير أبي على الحسن بن علي الطوسي نظام الملك وكان أصحابه كلفوه بالخروج إليه، ذلك بعد المحنة ورجوعه من بلخ، فلما دخل عليه أكرمه وبجله وكان في العسكر أئمة من الفريقين فاتفقوا جميعا على أن يسألوه عن مسألة بين يدي الوزير يعنتونه بها فإن أجاب بما يجيب بهراة سقط من عين الوزير، وإن لم يجب سقط من عين أصحابه وأهل مذهبه، فلما دخل واستقر به المجلس انتدب له رجل من الجماعة فقال: يأذن الشيخ الإمام في أن أسأل مسألة، فقال: سل، فقال لم تلعن أبا الحسن الأشعري؟ فسكت، وأطرق الوزير لما علم من جوابه

فلما كان بعد ساعة قال له الوزير أجبه، فقال لا ألعن الأشعري وإنما ألعن من لم يعتقد أن الله في السماء، وأن القرآن في المصحف وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليوم نبي ثم قام وانصرف، فلم يكن أحد أن يتكلم بكلمة من هيبته وصولته وصلابته، فقال الوزير للسائل ومن معه: هذا أردتم كنا نسمع أنه يذكر هذا بهراة فأجهدتم حتى سمعناه بآذاننا، وما عسى أن أفعل به. ثم بعث خلفه خلعا وصلة فلم يقبلها وخرج من فوره إلى هراة. وهذا القول في النبوة بناء على أصل الجهمية وأفراخهم أن الروح عرض من أعراض البدن كالحياة، وصفات الحي مشروطة بها، فإذا زالت بالموت تبعتها صفاته فزالت بزوالها، ونجا متأخروهم من هذا الإلزام وفروا إلى القول بحياة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في قبورهم، فجعلوا لهم معادا يختص بهم قبل المعاد الأكبر إذ لم يمكنهم التصريح بأنهم لم يذوقوا الموت»[(١)].

٥- وقال إمام الشافعية في وقته أبي العباس بن سريج رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «حرام على العقول أن تمثل الله سبحانه وتعالى، وعلى الأوهام أن تحده، وعلى الظنون أن تقع. وعلى الضمائر أن تعمق وعلى النفوس أن تفكر وعلى الأفكار أن تحيط. وعلى الألباب أن تصف، إلا ما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد صح وتقرر واتضح عند جميع أهل الديانة والسنة والجماعة من السلف الماضين. والصحابة والتابعين من الأئمة المهتدين الراشدين المشهورين إلى زماننا هذا أن جميع

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥٨.

الآية الواردة عن الله تعالى في ذاته وصفاته والأخبار الصادقة الصادرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الله وفي صفاته التي صححها أهل النقل. وقبلها النقاد الأثبات، يجب على المرء المسلم المؤمن الموفق الإيمان بكل واحد منه كما ورد. وتسليم أمره إلى الله سبحانه وتعالى كما أمر. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، ونظائرها مما نطق به القرآن كالفوقية والنفس واليدين والسمع والبصر والكلام والعين والنظر والإرادة، والرضى والغضب، والمحبة والكراهة والعناية والقرب والبعد والسخط والاستحياء، والدنو كقاب قوسين أو أدنى، وصعود الكلام الطيب إليه، وعروج الملائكة والروح إليه ونزول القرآن منه، وندائه الأنبياء عليهم الصلاة السلام، وقوله للملائكة وقبضه وبسطه وعلمه ووحدانيته وقدرته ومشيئته وصمدانيته وفردانيته، وأوليته وآخريته. وظاهريته وباطنيته وحياته وبقائه وأزليته وأبديته ونوره وتجليه، والوجه. وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيده. ونحو قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٨٤]، وسماعه من

غيره وسماع غيره منه وغير ذلك من صفاته المتعلقة به المذكورة في الكتاب المنزل على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وجميع ما لفظ به المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من صفاته كغرسه جنته الفردوس بيده وشجرة طوبى بيده، وخط التوراة بيده والضحك والتعجب ووضعه القدم على النار فتقول قط قط. وذكر الأصابع والنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا، وليلة الجمعة وليلة النصف من شعبان وليلة القدر. وكغيرته وفرحه بتوبة العبد، واحتجابه بالنور وبرداء الكبرياء، وأنه ليس بأعور، وأنه يعرض عما يكره ولا ينظر إليه، وأن كلتا يديه يمين، واختيار آدم قبضة اليمنى، وحديث القبضة وله كل يوم كذا وكذا نظرة في اللوح المحفوظ، وأنه يوم القيامة يحثو ثلاث حثيات من جهنم فيدخلهم الجنة، ولما خلق آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مسح ظهره بيمينه فقبض قبضة فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي أصحاب اليمين، وقبض قبضة أخرى وقال هذه للنار ولا أبالي أصحاب الشمال، ثم ردهم في صلب آدم، وحديث القبضة التي يخرج بها من النار قوما لم يعملوا خيرا قط عادوا حمما فيلقون في نهر من الجنة يقال له نهر الحياة. وحديث خلق آدم على صورته، وقوله لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن. وإثبات الكلام بالحرف والصوت وباللغات وبالكلمات وبالسور.

وكلامه تعالى لجبريل والملائكة ولملك الأرحام وللرحم ولملك الموت ولرضوان ولمالك وله كل يوم كذا وكذا نظرة في اللوح المحفوظ، وأنه يوم القيامة يحثو ثلاث حثيات من جهنم فيدخلهم الجنة، ولما خلق آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مسح ظهره بيمينه فقبض قبضة فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي

أصحاب اليمين، وقبض قبضة أخرى وقال هذه للنار ولا أبالي أصحاب الشمال، ثم ردهم في صلب آدم، وحديث القبضة التي يخرج بها من النار قوما لم يعملوا خيرا قط عادوا حمما فيلقون في نهر من الجنة يقال له نهر الحياة. وحديث خلق آدم على صورته، وقوله لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن. وإثبات الكلام بالحرف والصوت وباللغات وبالكلمات وبالسور.

وكلامه تعالى لجبريل والملائكة ولملك الأرحام وللرحم ولملك الموت ولرضوان ولمالك ولآدم ولموسى ولمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللشهداء وللمؤمنين عند الحساب وفي الجنة ونزول القرآن إلى سماء الدنيا وكون القرآن في المصاحف وما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن، وقوله الله أشد أذنا لقارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته، وأن الله سبحانه يحب العطاس ويكره التثاؤب، وفرغ الله من الرزق والأجل: وحديث ذبح الموت، ومباهات الله تعالى، وصعود الأقوال والأعمال والأرواح إليه.

وحديث معراج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببدنه وبيان نفسه ونظره إلى الجنة والنار وبلوغه إلى العرش إلى أن لم يكن بينه وبين الله إلا حجاب العزة وعرض الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وعرض أعمال الأمة عليه، وغير هذا مما صح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأخبار المتشابهة الواردة في صفات الله سبحانه ما بلغنا وما لم يبلغنا مما صح عنه، اعتقادنا فيه وفي الآي المتشابهة في القرآن أن نقبلها ولا نردها، ولا نتأولها بتأويل المخالفين، ولا

نحملها على تشبيه المشبهين، ولا نزيد عليها ولا ننقص منها، ولا نفسرها ولا نكيفها، ولا نترجم عن صفاته بلغة غير العربية ولا نشير إليها بخواطر القلوب ولا بحركات الجوارح بل نطلق ما أطلقه الله عَزَّوَجَلَّ، ونفسر ما فسره النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه والتابعون والأئمة المرضيون من السلف المعروفين بالدين والأمانة ونجمع على ما أجمعوا عليه ونمسك عما أمسكوا عنه ونسلم الخبر الظاهر والآية الظاهرة تنزيلها لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة والمجسمة والمشبهة والكرامية والمكيفة. بل نقبلها بلا تأويل ونؤمن بها بلا تمثيل، ونقول الإيمان بها واجب والقول بها سنة، وابتغاء تأويلها بدعة. آخر كلام أبي العباس بن سريج الذي حكاه أبو القاسم سعد بن علي الزنجاني في أجوبته ثم ذكر باقي المسائل وأجوبتها[(١)].

٦- قول الإمام محي السنة الحسين بن مسعود البغوي قدس الله روحه قال في تفسيره الذي هو شجى في حلوق الجهمية والمعطلة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال الكلبي ومقاتل استقر، وقال أبو عبيدة صعد، قال وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء. قال وأما أهل السنة فيقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل أن يؤمن بذلك، ويكل العلم فيه إلى الله تعالى، ثم حكى قول مالك الاستواء غير

(١) ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٠١.

مجهول[١]. ومراد السلف بقولهم بلا كيف هو نفي التأويل، فإنه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل، فإنهم هم الذين يثبتون كيفية تخالف الحقيقة فيقعون في ثلاثة محاذير: نفي الحقيقة، وإثبات التكييف بالتأويل، وتعطيل الرب سبحانه عن صفته التي أثبتها لنفسه، وأما أهل الإثبات فليس أحد منهم يكيف ما أثبته الله تعالى لنفسه، ويقول كيفية كذا وكذا حتى يكون قول السلف بلا كيف ردا عليه، وإنما ردوا على أهل التأويل الذي يتضمن التحريف والتعطيل، تحريف اللفظ وتعطيل معناه[٢].

٧- وقال في قوله تعالى: «﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال ابن عباس، وأكثر مفسري السلف ارتفع إلى السماء»[٣].

٨- وقال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفق علماء السلف من أهل السنة على النهي عن الجدال والخصومات في الصفات، وعلى الزجر عن الخوض في علم الكلام وتعلمه»[٤].

٩- وقال الإمام إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي صاحب «كتاب الترغيب والترهيب» و«كتاب الحجة في بيان المحجه» وكان إماما للشافعية في وقته رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى وجمع له أبو موسى المديني مناقب

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٥.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٢٢.

(٣) المرجع السابق ١/ ٥٩.

(٤) شرح السنة للبغوي ١/ ٢١٦.

لجلالته. قال في كتاب الحجة باب «في بيان استواء الله سبحانه وتعالى على عرشه قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. وقال في آية أخرى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١].

قال أهل السنة «الله فوق السماوات لا يعلوه خلق من خلقه». ومن الدليل على ذلك أن الخلق يشيرون إلى السماء بأصابعهم ويدعونه ويرفعون إليه رؤوسهم وأبصارهم. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٨﴾ [الأنعام: ١٨]. وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦]، والدليل على ذلك من النصوص التي فيها نزول الرحمن.

(فصل): في بيان أن العرش فوق السماوات وأن الله سبحانه فوق العرش، ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه الذي في البخاري «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي غلبت غضبي» وبسط الاستدلال على ذلك بالسنة ثم قال: قال علماء السنة «إن الله عَزَّوَجَلَّ على عرشه بائن من خلقه» وقالت المعتزلة «هو بذاته في كل مكان» وقالت الأشعرية «الاستواء عائد إلى العرش». قال ولو كان كما قالوا كانت القراءة برفع العرش، فلما كانت بخفض العرش دل على أنه عائد إلى الله سبحانه وتعالى، قال: وقال بعضهم استوى بمعنى استولى.

قال الشاعر:

قد استوى بشر على العرق من غير سيف ودم مهراق

والاستيلاء لا يوصف به إلا من قدر على الشيء بعد العجز عنه والله تعالى لم يزل قادرا على الأشياء ومستوليا عليها، ألا ترى أنه لا يوصف بشر بالاستيلاء على العراق إلا وهو عاجز عنه قبل ذلك.

ثم حكى أبو القاسم عن ذي النون المصري أنه قيل له: «ما أراد الله سبحانه بخلق العرش؟ قال أراد أن لا يتوه قلوب العارفين». قال وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾» [المجادلة: ٧]. قال هو على عرشه وعلمه في كل مكان ثم ساق الاحتجاج بالآثار إلى أن قال: «وزعم هؤلاء أن معنى الرحمن على العرش استوى، أي ملكه، وأنه لا اختصاص له بالعرش أكثر مما له بالأمكنة، وهذا إلغاء لتخصيص العرش وتشريفه».

وقال أهل السنة: «خلق الله تعالى السماوات وكان عرشه مخلوقا قبل خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش بعد خلق السماوات والأرض، على ما ورد به النص، وليس معناه المماسة، بل هو مستو على عرشه بلا كيف كما أخبر عن نفسه».

قال وزعم هؤلاء أنه لا يجوز الإشارة إلى الله سبحانه بالرؤوس والأصابع إلى فوق فإن ذلك يوجب التحديد، وقد أجمع المسلمون أن الله

سبحانه العلي الأعلى، ونطق بذلك القرآن، فزعم هؤلاء أن ذلك بمعنى علو الغلبة لا علو الذات، وعند المسلمين أن لله عَزَّوَجَلَّ علو الغلبة، والعلو من سائر وجوه العلو، لأن العلو صفة مدح فنثبت أن لله تعالى علو الذات وعلو الصفات وعلو القهر والغلبة، وفي منعهم الإشارة إلى الله سبحانه من جهة الفوق خلاف منهم لسائر الملل، لأن جماهير المسلمين وسائر الملل قد وقع منهم الإجماع على الإشارة إلى الله سبحانه من جهة الفوق في الدعاء والسؤال، واتفاقهم بأجمعهم على ذلك حجة، ولم يستجز أحد الإشارة إليه من جهة الأسفل ولا من سائر الجهات سوى جهة الفوق، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وأخبر تعالى عن فرعون أنه قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] فكأن فرعون قد فهم من موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه يثبت إلها فوق السماء حتى رام بصرحه أن يطلع إليه، واتهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالكذب في ذلك، والجهمية لا تعلم أن الله فوقها بوجود ذاته، فهم أعجز فهما من فرعون بل وأضل. وقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سأل الجارية التي

أراد مولاها عتقها أين الله؟ قالت في السماء وأشارت برأسها إلى السماء، وقال: من أنا؟ فقالت أنت رسول الله، فقال أعتقها فإنها مؤمنة، فحكم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيمانها حين قالت إن الله في السماء، وحكم الجهمي بكفر من يقول ذلك. هذا كله كلام أبي القاسم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى»[(١)].

١٠- وقال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن النيسابوري الصابوني في رسالته في السنة: «ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله فوق سبع سمواته على عرشه كما نطق به كتابه»[(٢)]

١١- وقال: «علماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا أن الله على عرشه وعرشه فوق سمواته»[(٣)].

١٢- وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. «فللناس في هذا المقام مقالات كثير ة جدا ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديما، وحديثا»[(٤)].

---

(١) الحجة في بيان المجة ٢/ ١١٨.

(٢) رسالة في اعتقاد أهل السنة ص١٧٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تفسيربن كثير ٣/ ٤٢٦.

١٣- وقال في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠] «الأولى في هذه الآية، وما شاكلها، أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى الله، ويعتقد أن الله منزه عن سمات الحدث، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة»(١).

١٤- وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما الكلام في الصفات: فأما ما روي منها في السنن الصحاح فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات؛ ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله، وإذا كان معلوما إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: يد وسمع وبصر؛ فإنما هو إثبات صفات أثبتها الله لنفسه، ولا نقول: إن معنى اليد القدرة، ولا إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح وأدوات للفعل، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها؛ لأن التوقيف ورد بها ووجب نفي التشبيه عنها...»(٢).

١٥- وقال أبو سليمان الخطابي في رسالته المشهورة في «الغنية عن الكلام وأهله» قال: «فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية

---

(١) معالم التنزيل ١/ ١٨٤.

(٢) العلو للعلي الغفار ٢/ ١٣٣٥.

والتشبيه عنها وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه. والأصل في هذا: أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله. فإذا كان معلوما أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف. فإذا قلنا يد وسمع وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه؛ ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة ولا معنى السمع والبصر العلم؛ ولا نقول إنها جوارح ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها؛ ووجب نفي التشبيه عنها لأن الله ليس كمثله شيء؛ وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات» هذا كله كلام الخطابي.وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ في رسالة له أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك[١].

١٦- وقال العز بن جماعة: «عد بعض العلماء من البدع الانحناء للقبر المقدس عند التسليم، قال: يظن من لا علم له أنه من شعار التعظيم، وأقبح منه تقبيل الأرض للقبر، لم يفعله السلف الصالح، والخير كله في اتباعهم رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم...»[٢].

(١) نقله عنه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية.

(٢) هداية السالك ٣/ ١٣٩٠-١٣٩١.

١٧- وقال الإمام الذهبي مستدلا بفهم سفيان بن سعيد الثوري: «وقد روى الليث بن يحيى البخاري عن مؤمل بن إسماعيل، عن سفيان الثوري قال: «من قال القرآن مخلوق فهو كافر»» ثم قال: «وقد بث هذا الإمام الذي لا نظير له في عصره شيئا كثيرا من أحاديث الصفات، ومذهبه فيها الإقرار والإمرار، والكف عن تأويلها رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[(١)].

وقال تعليقا على أثر الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالا، وأمر به فأخرج»: «هذا ثابت عن مالك، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة: أن كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها، وأن الاستواء معلوم كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به، لا نعمق، ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفيا، ولا إثباتا، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقينا مع ذلك أن الله لا مثل له، لا في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله سبحانه وتعالى»[(٢)].

١٨- وقال شيخ الإسلام موفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد المقدسي الذي اتفقت الطوائف على قبوله وتعظيمه وإمامته. خلا جهمي أو معطل، قال في كتاب «إثبات صفة العلو»: أما بعد: فإن الله تعالى وصف نفسه

---

(١) العلو للعلي الغفار ٢/ ٩٤٨.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٩٥٤.

بالعلو في السماء، ووصفه بذلك رسوله خاتم الأنبياء عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء والأئمة من الفقهاء، وتواترت الأخبار في ذلك على وجه حصل به اليقين، وجمع الله عَزَّوَجَلَّ عليه قلوب المسلمين وجعله مغروزا في طبائع الخلق أجمعين فتراهم عند نزول الكرب يلحظون السماء بأعينهم، ويرفعون عندها للدعاء أيديهم وينتظرون مجيء الفرج من ربهم سبحانه وينطقون بذلك بألسنتهم لا ينكر ذلك إلا مبتدع غال في بدعته أو مفتون بتقليده واتباعه على ضلالته وقال في عقيدته ومن السنة قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**لله أفرح بتوبة عبده**» وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعجب ربك «إلى أن قال» فهذا وما أشبهه مما صح سنده وعدلت رواته نؤمن به ولا نرده ولا نجحده ولا نعتقد فيه تشبيها بصفات المخلوقين، ولا سمات المحدثين، بل نؤمن بلفظه ونترك التعرض لمعناه، قراءته تفسيره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦]، وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ربنا الله الذي في السماء**» وقوله للجارية: أين الله قالت في السماء قال اعتقها إنها مؤمنة رواه مالك بن أنس وغيره من الأئمة، وروى أبو داود في سننه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن بين سماء إلى سماء مسيرة كذا وكذا» وذكر الحديث «إلى أن قال» وفوق ذلك العرش والله تعالى فوق ذلك نؤمن بذلك ونتلقاه بالقبول من غير رد ولا تعطيل، ولا تشبيه ولا تأويل، ولا نتعرض له بكيف.

ولما سئل مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقيل له يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. كيف استوى؟ فقال الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم أمر بالرجل فأخرج»[(١)].

١٩- قول إمام الشافعية في وقته بل هو الشافعي الثاني أبي أحمد الاسفراييني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: كان من كبار أئمة السنة المثبتين للصفات قال: مذهبي ومذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى وجميع علماء الأمصار أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، وأن جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ سمعه من الله عَزَّوَجَلَّ وحمله إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسمعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وسمعه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن كل حرف منه كالباء والتاء كلام الله عَزَّوَجَلَّ ليس بمخلوق، ذكره في كتابه في أصول الفقه، ذكره عنه شيخ الإسلام في الأجوبة المصرية. قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان الشيخ أبو حامد يصرح بمخالفة القاضي أبي بكر بن الطيب في مسألة القرآن[(٢)].

٢٠- قول إمام الشافعية في وقته سعد بن علي الزنجاني صرح بالفوقية بالذات فقال: وهو فوق عرشه بوجود ذاته، هذا لفظه، وهو إمام في السنة له قصيدة فيها معروفة أولها: تمسك بحبل الله واتبع الأثر ودع عنك رأيا لا يلايمه خبر.

---

(١) نقله عنه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١١٦.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١١٦.

٢١- وقال في شرح هذه القصيدة: والصواب عند أهل الحق أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وكان عرشه على الماء مخلوقا قبل خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش بعد خلق السماوات والأرض على ما ورد به النص ونطق به القرآن وليس معنى استوائه أنه ملكه واستولى عليه، لأنه كان مستوليا عليه قبل ذلك وهو أحدثه لأنه مالك جميع الخلائق ومستول عليها. وليس معنى الاستواء أيضا أنه ماس العرش أو اعتمد عليه أو طابقه، فإن كل ذلك ممتنع في وصفه جل ذكره، ولكنه مستو بذاته على عرشه بلا كيف كما أخبر عن نفسه.

وقد أجمع المسلمون على أن الله هو العلي الأعلى، ونطق بذلك القرآن بقوله تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، وأن لله علو الغلبة والعلو الأعلى من سائر وجوه العلو، لأن العلو صفة مدح عند كل عاقل، فثبت بذلك أن لله علو الذات وعلو الصفات وعلو القهر والغلبة، وجماهير المسلمين وسائر الملل قد وقع منهم الإجماع على الإشارة إلى الله جل ثناؤه من جهة الفوق في الدعاء والسؤال، فاتفاقهم بأجمعهم على الإشارة إلى الله سبحانه من جهة الفوق حجة؛ ولم يستجز أحد الإشارة إليه من جهة الأسفل ولا من سائر الجهات سوى جهة الفوق، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وأخبر عن فرعون أنه قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧]. وكان فرعون قد فهم عن موسى أنه يثبت إلها فوق السماء حتى رام بصرحه أن يطلع إليه، واتهم موسى بالكذب في ذلك. ومخالفنا ليس يعلم أن الله فوقه بوجود ذاته، فهو أعجز فهما من فرعون.

وقد صح عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سأل الجارية التي أراد مولاها عتقها: «أين الله؟ قالت في السماء، وأشارت برأسها. وقال من أنا؟ قالت أنت رسول الله، فقال أعتقها فإنها مؤمنة»، فحكم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيمانها حين قالت: إن الله في السماء. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾ وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥]، وذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بين كل سماء إلى سماء وما بين السماء السابعة وبين العرش ثم قال (الله فوق ذلك) وله أجوبة سئل عنها في السنة فأجاب عنها بأجوبة أئمة السنة وصدرها بجواب إمام وقته أبي العباس بن سريج».

٢٢- ونقل الحافظ كلاما نفيسا لأبي المظفر السمعاني، فقال: «واستدل أبو المظفر بن السمعاني بآيات الباب وأحاديثه على فساد طريقة المتكلمين في تقسيم الأشياء إلى جسم، وجوهر، وعرض، قالوا: فالجسم ما

اجتمع من الافتراق، والجوهر ما حمل العرض، والعرض ما لا يقوم بنفسه، وجعلوا الروح من الأعراض، ردوا الأخبار في خلق الروح قبل الجسد والعقل قبل الخلق، واعتمدوا على حدسهم وما أدى إليه نظرهم، ثم يعرضون عليه النصوص فما وافقه قبلوه، وما خالفه ردوه، ثم ساق هذه الآيات ونظائرها من الأمر بالتبليغ، قال: ومما أمر بتبليغه التوحيد،بل هو أصل ما أمر به، فلم يترك شيئا من أمور الدين أصوله وقواعده وشرائعه إلا بلغه، ثم لم يدع إلى الاستدلال بما تمسكوا به من الجوهر والعرض، ولا يوجد عنه ولا عن أحد من أصحابه حرف واحد فما فوقه فعرف بذلك أنهم ذهبوا خلاف مذهبهم وسلكوا غير سبيلهم بطرق محدث مخترع لم يكن عليه رسول الله، ولا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويلزم من سلوكهم العود على السلف بالطعن والقدح، ونسبتهم إلى قلة المعرفة واشتباه الطرق، فالحذر من الاشتغال بكلامهم والاكتراث بمقالاتهم؛ فإنها سريعة التهافت كثيرة التناقض....»[(١)].

٢٣- وقال الإمام البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «... قال أبو سليمان الخطابي: هذا الحديث وما أشبهه من الأحاديث في الصفات كان مذهب السلف فيها: الإيمان بها، وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها» وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. والقول في جميع ذلك عند علماء السلف هو ما قلنا» ثم قال وقد زل بعض شيوخ

(١) فتح الباري ١٣/ ٥٠٧.

الحديث... ألخ ورد عليه ثم قال: فلو جرى هذا الشيخ على طريقة السلف الصالح ولم يدخل نفسه فيما لا يعنيه لم يكن يخرج بهذا القول إلى مثل هذا الخطأ الفاحش»[(١)].

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على طهورية الماء وعدمه:

١- قال محمد الشربيني الخطيب في طهارة الماء المستعمل في فرض الطهارة: «أما كونه طاهرا فلأن السلف الصالح كانوا لا يتحرزون عما تطاير عليهم منه وفي «الصحيحين» أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد جابرا في مرضه فتوضأ وصب عليه من وضوئه». وقال: «وأما دليل إنه غير مطهر لغيره فلأن السلف الصالح كانوا مع قلة مياههم لم يجمعوا المستعمل للإستعمال ثانيا[(٢)]، بل انتقلوا إلى التيمم، ولم يجمعوه للشرب؛ لأنه مستقذر»[(٣)].

الفرع الخامس: جعلهم القاعدة ميزانا لصحة المذهب:

١- وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «بلغنا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخرج في العيدين إلى المصلى بالمدينة، وكذلك من كان بعده وعامة أهل البلدان إلا أهل مكة فإنه لم يبلغنا أن أحدا من السلف صلى بهم عيدا إلا في مسجدهم»[(٤)].

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٢٧٧.

(٢) هذا غير مسلم، بل الماء المستعمل طهور على القول الراجح.

(٣) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للشربيني ١/ ٣٢. وانظر بغية المحتاج في شرح المنهاج ١/ ٣٢٩.

(٤) الأم للشافعي ١/ ٢٢٤.

٢- وقال الرافعي في تقديرات الحيض: «والثالث: أنه إن وافق ذلك مذهب واحد من السلف صرنا إليه وإلا فلا؛ لأنه تبين لنا بذلك أن ما وجدناه قد وجد قبل هذا لكنه لم يبلغ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[(١)].

٣- وقال الرافعي في الجنائز: «ولا يوضع تحت رأسه مخدة، ولا يفرش تحته فراش حكى العراقيون كراهة ذلك عن نص الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه لم ينقل عن أحد من السلف...»[(٢)].

٤- وفي «الأشباه والنظائر»: «ومسألة التفضيل بين الطواف والعمرة مختلف فيها، وألف فيها المحب الطبري كتابا قال فيه: ذهب قوم من أهل عصرنا إلى تفضيل العمرة ورأوا أن الاشتغال بها أفضل من الطواف وذلك خطأ ظاهر، وأدل دليل على خطئه مخالفة السلف الصالح؛ فإنه لم ينقل تكرار العمرة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا عن الصحابة والتابعين...»[(٣)].

٥- وقال في «الأشباه والنظائر» مناقشة من قال في خيار المجلس: إن الإفتراق بالكلام: «وأما الإنفصال من قولهم: إن معهود الافتراق إنما هو بالكلام دون الأبدان، فمن وجهين: أحدهما: أن هذا تأويل مستحدث يدفعه إجماع من سلف؛ لأن كل من تقدم من السلف حمله على التفرق بالأبدان...»[(٤)].

---

(١) الشرح الكبير للرافعي ٢/ ٤١٥.

(٢) الشرح الكبير للرافعي ٥/ ٢١٥.

(٣) الأشباه والنظائر ص٦٤٤.

(٤) الشرح الكبير للرافعي ٥/ ٢٤.

الفرع السادس: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية:

١- قال النووي: «قال القاضي: التجليل سنة وهو عند العلماء مختص بالإبل، وهو مما اشتهر من عمل السلف قال: وممن رآه مالك، والشافعي، وأبو ثور وإسحاق»[(١)].

٢- وقال الماوردي: «وأما المعفو عن يسيره من النجاسات الدم فدم البراغيث؛ لإجماع السلف عليه...»[(٢)].

٣- وقال الماوردي: «ويكره تلحين الأذان؛ لأنه يخرج بالتلحين عن حد الإفهام، ولأن السلف تجافوه....»[(٣)].

٤- وقال الفقيه ابن حجر الهيتمي في سنية الركعتين بين المعرب والعشاء: «الركعتان بين المغرب والعشاء سنة، فقد صرح الماوردي والروياني بندب صلاة الأوابين قالا: وتسمى صلاة الغفلة لحديث بذلك وأكملها عشرون لخبر أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصليها عشرين ويقول: هذه صلاة الأوابين فمن صلاها غفر له، وكان السلف الصالح يصلونها...»[(٤)].

٥- وقال في «الأشباه والنظائر»: «... ويندب أن يتبع بصرها البرق؛ لأن السلف الصالح كانوا يكرهون الإشارة إلى الرعد والبرق، ويقولون عند

---

(١) شرح النووي ٤/ ٤٥٣.

(٢) الحاوي الكبير ١/ ٢٩٥.

(٣) الحاوي الكبير ٢/ ٥٨.

(٤) الفتاوى الفقهية ١/ ١٤٤.

ذلك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له سبوح قدوس، قال الماوردي: فيختار الاقتداء بهم في ذلك...»[(١)].

٦- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويستحب ترك التبسط في الطعام المباح؛ لأنه ليس من أخلاق السلف...»[(٢)].

٧- وقال في كتابة المكاتب في أنه لابد في ذمته: «فلا يصح بالحال ولو كان المكاتب مبعضا؛ لأن الكتابة عقد خالف القياس في وضعه فاعتبر فيه سنن السلف، والمأثور عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فمن بعدهم قولا وفعلا إنما هو التأجيل ولم يعقدها أحد منهم حالة ولو جاز لم يتفقوا على تركه مع اختلاف الأغراض خصوصا وفيه تعجيل عتقه»[(٣)].

❁❁❁

(١) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع الشربيني ١/ ١٩٥.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٥٨٧.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٦٥٢.

المسألة الرابعة

حجيتها عند الحنابلة

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: تأصيل الحنابلة للقاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة في تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

الافتتاحية:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه، أو أثر من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقرب ذلك بما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عن أصحابه، فهم شاهدوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشاهدوا تنزيله وما قصه في القرآن وما عني به، وما أراد أخاص هو أو عام. فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أحد من أصحابه فهذا تأويل أهل البدع»[(١)].

وقال الإمام أحمد: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة ضلالة وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ أَوْ الْحَدِيثَ وَتَأَوَّلَهُ عَلَى غَيْرِ التَّفْسِيرِ الْمَعْرُوفِ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى اللهِ مُلْحِدٌ فِي آيَاتِ اللهِ مُحَرِّفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَهَذَا فَتْحٌ لِبَابِ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ وَهُوَ مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك، بل كان مبتدعا

---

(١) الإيمان لابن تيمية ص٣٧٣.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ١٧٦.

(٣) «مجموع الفتاوى» ١٣/ ٢٤٣.

وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤه فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن خالف قولهم وقرأ القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا».

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين؛ فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مراده ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ منتقدا لتأويلات أهل البدع لصفة الاستواء: «... إن هذا التفسير لكلام الله بالرأي المجرد الذي لم يذهب إليه صاحب ولا تابع، ولا قاله إمام من أئمة المسلمين، ولا أحد من أهل التفسير الذين يحكون أقوال السلف، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» وإن إحداث القول في تفسير كتاب الله الذي كان السلف والأئمة على خلافه يستلزم أحد أمرين: إما أن يكون خطأ في نفسه، أو تكون أقوال السلف المخالفة له خطأ، ولا يشك عاقل أنه أولى بالغلط والخطأ من قول السلف».

بل أصل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، ودعا إلى ما دعا إليه علماء الإسلام

من الأخذ بفهم السلف والسير عليه، فقال في مسألة الظهار كما في «زاد المعاد» (وهذا عين فهم السلف في الآية).

وقال ابن عبدالهادي: «وهذا التأويل الذي تأول عليه المعترض هذه الآية تأويل باطل قطعا، ولو كان حقا لسبقونا إليه علما، وعملا، وإرشادا، أو نصيحة، ولا يجوز إحداث تأويل في آية، أو سنة لم يكن على عهد السلف لا عرفوه ولا بينوه للأمة؛ فإن هذا يتضمن أنهم جهلوا الحق في هذا أو ضلوا عنه، واهتدى إليه هذا المعترض المتأخر».

الفرع الأول: تأصيل الحنابلة للقاعدة.

١- قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه، أو أثر من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقرب ذلك بما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عن أصحابه، فهم شاهدوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشاهدوا تنزيله وما قصه في القرآن وما عني به، وما أراد أخاص هو أو عام. فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أحد من أصحابه فهذا تأويل أهل البدع»[(١)].

٢- وقال الإمام أحمد: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة ضلالة وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء»[(٢)].

---

(١) الإيمان لابن تيمية ص٣٧٣.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ١٧٦.

٣- وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد ثبت وجوب اتباع السلف رحمة الله عليهم بالكتاب، والسنة، والإجماع. والعبرة دلت عليه؛ فإن السلف لا يخلو من أن يكونوا مصيبين، أو مخطئين، فإن كانوا مصيبين وجب اتباعهم؛ لأن اتباع الصواب واجب، وركوب الخطأ في الاعتقاد حرام، ولأنهم إذا كانوا مصيبين كانوا على الصراط المستقيم، ومخالفهم متبع لسبيل الشيطان الهادي إلى صراط الجحيم، وقد أمر الله تعالى باتباع سبيله وصراطه، ونهى عن اتباع ما سواه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وإن زعم زاعم أنهم مخطئون كان قادحا في حق الإسلام؛ لأنه إن جاز أن يخطئوا في هذا جاز خطؤهم في غيره من الإسلام كله، وينبغي أن لا تنقل الأخبار التي نقلوها، ولا تثبت معجزات النبي التي رووها فتبطل الرواية، وتزول الشريعة، ولا يجوز لمسلم أن يقول هذا ولا يعتقده»[(١)].

٤- وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ أَوْ الْحَدِيثَ وَتَأَوَّلَهُ عَلَى غَيْرِ التَّفْسِيرِ الْمَعْرُوفِ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى اللهِ مُلْحِدٌ فِي آيَاتِ اللهِ مُحَرِّفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَهَذَا فَتْحٌ لِبَابِ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ وَهُوَ مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ»[(٢)].

٥- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَمَّا إنْ أَرَادَ بِإِجْرَائِهِ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِي هُوَ الظَّاهِرُ

(١) ذم التأويل ص٣٣.

(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٤٣

فِي عُرْفِ سَلَفِ الْأُمَّةِ لَا يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلَا يُلْحِدُ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَلَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ بِمَا يُخَالِفُ تَفْسِيرَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ؛ بَلْ يَجْرِي ذَلِكَ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ النُّصُوصُ وَتَطَابَقَ عَلَيْهِ دَلَائِلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ فَهَذَا مُصِيبٌ فِي ذَلِكَ وَهُوَ الْحَقُّ. وَهَذِهِ جُمْلَةٌ لَا يَسَعُ هَذَا الْمَوْضِعُ تَفْصِيلَهَا»[(١)] وَاللهُ أَعْلَم.

٦- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك، بل كان مبتدعا وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤه فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن خالف قولهم وقرأ القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا»[(٢)].

٧- وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين؛ فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مراده ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس»[(٣)].

---

(١) المرجع السابق ١٣/ ٣٨٠.

(٢) مقدمة التفسير ص٣٨.

(٣) مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٠٠.

٨- وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ منتقدا لتأويلات أهل البدع لصفة الاستواء: «... إن هذا التفسير لكلام الله بالرأي المجرد الذي لم يذهب إليه صاحب ولا تابع، ولا قاله إمام من أئمة المسلمين، ولا أحد من أهل التفسير الذين يحكون أقوال السلف، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» وإن إحداث القول في تفسير كتاب الله الذي كان السلف والأئمة على خلافه يستلزم أحد أمرين: إما أن يكون خطأ في نفسه، أو تكون أقوال السلف المخالفة له خطأ، ولا يشك عاقل أنه أولى بالغلط والخطأ من قول السلف»[(١)].

٩- بل أصل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ودعا إلى ما دعا إليه علماء الإسلام من الأخذ بفهم السلف والسير عليه، فقال في مسألة الظهار كما في «زاد المعاد» (وهذا عين فهم السلف في الآية)[(٢)].

١٠- وقال ابن عبدالهادي: «وهذا التأويل الذي تأول عليه المعترض هذه الآية تأويل باطل قطعا، ولو كان حقا لسبقونا إليه علما، وعملا، وإرشادا، أو نصيحة، ولا يجوز إحداث تأويل في آية، أو سنة لم يكن على عهد السلف لا عرفوه ولا بينوه للأمة؛ فإن هذا يتضمن أنهم جهلوا الحق في هذا أو ضلوا عنه، واهتدى إليه هذا المعترض المتأخر»[(٣)].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص٣٥٣.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٥/ ٣٣٢.

(٣) الصارم المنكي في الرد على السبكي ص٤٢٧.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة:

١- قال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فائدة: قال أبو المعالي في «النهاية» يكره أن يقول قبيل الأذان: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]. وقال في «الفصول»: لا يوصل الأذان بذكر قبله خلاف ما عليه أكثر العوام اليوم، وليس موطن قرآن ولم يحفظ عن السلف فهو محدث انتهى»[(١)].

٢- وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا لا يشرع النداء للجنازة؛ لأن ذلك لم يفعله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أصحابه»[(٢)].

٣- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك أيضا لا يشرع أن ينادى للتراويح بشيء في المنصوص عنه كرهه سعيد بن جبير، وأبو قلابة، وكذلك قال كثير من أصحابنا. وقال القاضي، والآمدي، وغيرهما ينادى لها كذلك؛ لأنها عبادة محضة، أو ذات ركوع وسجود تسن لها الجماعة ويسن لها النداء، والأول أصح حيث لم ينقل ذلك عن السلف الصالح»[(٣)].

٤- وقال المرداوي بعد ما ذكر الأقوال في المذهب في قراءة القرآن على القبر: «وعنه القراءة على القبر بدعة؛ لأنه ليس من فعله عليه أفضل الصلاة والسلام، ولا فعل أصحابه»[(٤)].

---

(١) المرجع السابق ١/ ٢٩٢.

(٢) شرح العمدة ١/ ١٠٠.

(٣) المرجع السابق ١/ ١٠١.

(٤) المرجع السابق ٢/ ٢٩١.

٥- وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونقل الجماعة عن أحمد كراهة قراءة القرآن على القبور وهو قول جمهور السلف، وعليها قدماء أصحابه ولم يقل أحد من العلماء المعتبرين إن القراءة عند القبر أفضل، ولا رخص في اتخاذه عيدا كاعتياد القراءة عنده في وقت معلوم، أو الذكر، أو الصيام»[(١)].

الفرع الثالث استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية:

١- قال أبو عبدالله في الرد على المرجئة: «... أما ما ذكرت من قول: إنما الإيمان قول، هذا قول أهل الإرجاء، قول محدث، لم يكن عليه سلفنا، ومن نقتدي به...»[(٢)].

٢- وقال الخلال: وأخبرني علي بن عيسى أن حنبلا حدثهم قال سألت أبا عبدالله عن الأحاديث التي تروى أن الله سبحانه ينزل إلى سماء الدنيا وأن الله يرى وأن الله يضع قدمه، وما أشبه هذه الأحاديث فقال أبو عبدالله نؤمن بها ونصدق بها ولا نرد منها شيئا، ونعلم أن ما جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق إذا كانت أسانيد صحاح، ولا نرد على الله قوله ولا يوصف بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

٣- وقال في كتاب الرد على الجهمية الذي رواه عنه الخلال من طريق ابنه عبدالله قال «باب بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله تعالى على

---

(١) الاختيارت الفقهية ١/ ٤٤٧.

(٢) السنة للخلال ٤/ ٢٠.

العرش وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] قلنا لهم ما أنكرتم أن يكون الله تعالى على العرش، وقد قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ فقالوا هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش وفي السماوات والأرض وفي كل مكان وتلا: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ٣]. قال أحمد فقلنا قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شيء، أجسامكم وأجوافكم والحشوش والأماكن القذرة ليست فيها من عظمة الرب شيء وقد أخبرنا الله سبحانه أنه في السماء فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦]. ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ [فاطر: ١٠]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: ٥٥]. ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝١٥٨﴾ [النساء: ١٥٨]. قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]. ذكر هذا الكتاب كله أبو بكر الخلال في كتاب السنة الذي جمع فيه نصوص أحمد وكلامه[(١)].

٤- وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصل في ذكر قول الإمام أحمد بن حنبل

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٢٤.

وأصحابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قال الخلال في كتاب السنة حدثنا يوسف بن موسى قال أخبرنا عبدالله بن أحمد قال: قيل لأبي: ربنا تبارك وتعالى فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وقدرته وعلمه بكل مكان، قال: نعم لا يخلو شيء من علمه. قال الخلال: وأخبرني عبدالملك بن عبدالحميد الميموني قال: سألت أبا عبدالله أحمد عمن قال إن الله تعالى ليس على العرش، فقال: كلامهم كله يدور على الكفر»[(١)].

٥- وروى الطبري الشافعي في كتاب السنة له بإسناده عن حنبل قال: قيل لأبي عبدالله: ما معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]. وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] قال: علمه محيط بالكل وربنا على العرش بلا حد ولا صفة وسع كرسيه السماوات والأرض. وقال أبو طالب سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال: «إن الله معنا» وتلا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. قال يأخذون بآخر الآية ويدعون أولها، هلا قرأت عليه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالعلم معهم، وقال في قوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

٦- وقال المروزي: قلت لأبي عبدالله إن رجلا قال: أقول كما قال الله

(١) المرجع السابق ص١٢٣.

تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أقول هذا ولا أجاوزه إلى غيره فقال أبو عبدالله هذا كلام الجهمية؛ فقلت له فكيف نقول: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾. قال: علمه في كل مكان وعلمه معهم قال أول الآية يدل على أنه علمه. وقال في موضع آخر: وأن الله عَزَّوَجَلَّ على عرشه فوق السماء السابعة يعلم ما تحت الأرض السفلى وأنه غير مماس لشيء من خلقه هو تبارك وتعالى بائن من خلقه وخلقه بائنون منه.

وقال في كتاب الرد على الجهمية الذي رواه عنه الخلال من طريق ابنه عبدالله قال: «باب بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله تعالى على العرش وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] قلنا لهم ما أنكرتم أن يكون الله تعالى على العرش، وقد قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فقالوا هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش وفي السماوات والأرض وفي كل مكان وتلا: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ٣]. قال أحمد فقلنا قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شيء، أجسامكم وأجوافكم والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب شيء وقد أخبرنا الله سبحانه أنه في السماء فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ

شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥]. ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٨].

قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

ذكر هذا الكتاب كله أبو بكر الخلال في كتاب السنة الذي جمع فيه نصوص أحمد وكلامه، وعلى منواله جمع البيهقي في كتابه الذي سماه جامع النصوص من كلام الشافعي، وهما كتابان جليلان لا يستغني عنهما عالم.

٧- وخطبة كتاب أحمد بن حنبل: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل عليهم الصلاة والسلام بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله تعالى أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه؛ فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تعالى تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مخالفة الكتاب. يقولون على الله تعالى وفي الله تعالى وفي كتاب الله تعالى بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون الجهال بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين.

ثم قال: باب بيان ما ضلت فيه الجهمية الزنادقة من متشابه القرآن، ثم

تكلم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦].

قال: قالت الزنادقة فما بال جلودهم التي عصت قد احترقت وأبدلهم الله جلودا غيرها، فلا نرى أن الله عَزَّوَجَلَّ يعذب جلودا بلا ذنب حين يقول جلودا غيرها؛ فشكوا في القرآن وزعموا أنه متناقض، فقلنا: إن قول الله عَزَّوَجَلَّ: بدلناهم جلودا غيرها، ليس يعني جلودا أخرى غير جلودهم، وإنما يعني بتبديلها تجديدها، لأن جلودهم إذا نضجت جددها الله، ثم تكلم على آيات من مشكل القرآن، ثم قال:

وإن مما أنكرت الجهمية الضلال أن الله عَزَّوَجَلَّ على العرش استوى، وقد قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٥٩]. ثم ساق أدلة القرآن ثم قال: ووجدنا كل شيء أسفل مذموما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: ٢٩]. ثم قال: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: ٣]. يقول هو إله من في السماوات وإله من في الأرض وهو على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش، لا يخلو من

علمه مكان، ولا يكون علم الله تعالى في مكان دون مكان. وذلك من قوله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال الامام أحمد: ومن الاعتبار في ذلك لو أن رجلا كان في يده قدح من قوارير وفيه شيء كان نظر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]. قد أحاط بجميع ما خلق، وقد علم كيف هو وما هو، من غير أن يكون في شيء مما خلق، قال وخصلة أخرى لو أن رجلا بنى دارا بجميع مرافقها ثم أغلق بابها كان لا يخفى عليه كم بيت في داره؛ وكم سعة كل بيت، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار. فالله سبحانه قد أحاط بجميع ما خلق، وقد علم كيف هو وما هو، وله المثل الأعلى وليس هو في شيء مما خلق.

قال الإمام: ومما تأولت الجهمية من قول الله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]. فقالوا إن الله معنا وفينا، فقلنا لهم: لم قطعتم الخبر من أوله؟ إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]. يعني علمه فيهم أينما كانوا ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾، ففتح الخبر بعلمه وختمه بعلمه.

وقال الإمام أحمد: وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله سبحانه وتعالى حين زعم أنه في كل مكان ولا يكون في مكان دون مكان، فقل له: أليس كان الله ولا شيء؟ فيقول نعم. فقل له فحين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجا عن نفسه فإنه يصير إلى أحد ثلاثة أقاويل: إن زعم أن الله تعالى خلق الخلق في نفسه كفر حين زعم أن الجن والإنس والشياطين وإبليس في نفسه. وإن قال خلقهم خارجا من نفسه ثم دخل فيهم كفر أيضا حين زعم أنه دخل في كل مكان وحشّ وقذر، وإن قال خلقهم خارجا من نفسه ثم لم يدخل فيهم رجع عن قوله كله أجمع، وهو قول أهل السنة.

وقال أحمد: بيان ما ذكر في القرآن ـ وهو معكم ـ على وجوه. قوله تعالى لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]. يقول في الدفع عنكما وقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]. يعني في الدفع عنا، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٦] يعني في النصرة لهم على عدوهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩] يعني في النصرة لكم على عدوكم. وقال سبحانه: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ

مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النساء: ١٠٨]. يعني يقول بعلمه فيهم وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٢] يقول بالعون على فرعون، فلما ظهرت الحجة على الجهمي بما ادعى على الله سبحانه أنه مع خلقه؛ قال هو في كل شيء غير مماس لشيء وما مباينا له، فقلنا له فإذا كان غير مباين للشيء أهو مماس له، قال لا، قلنا فكيف يكون في كل شيء غير مماس لشيء ولا مباينا لشيء، فلم يحسن الجواب، فقال: بلا كيف ليخدع الجهال بهذه الكلمة ويموه عليهم، ثم قلنا لهم إذا كان يوم القيامة أليس إنما تكون الجنة والنار والعرش والهوى فقال بلى، فقلنا وأين يكون ربنا؟ قال يكون في كل شيء كما كان حيث كانت الدنيا قلنا ففي مذهبكم أن ما كان من الله تعالى على العرش فهو على العرش وما كان من الله تعالى في الجنة فهو في الجنة، وما كان من الله تعالى في النار فهو في النار، وما كان منه في الهوى فهو في الهوى، فعند ذلك تبين للناس كذبهم على الله.

وقال أحمد: وقلنا للجهمية حين زعمتم أن الله تعالى في كل مكان، قلنا أخبرونا عن قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. كان في الجبل بزعمكم، فلو كان فيه كما تزعمون لم يكن تجلى له، بل كان سبحانه على العرش، فتجلى الشيء لم يكن فيه ورأى الجبل شيئا لم يكن رآه قط قبل ذلك.

وقال أحمد: وقلنا للجهمية الله نور، فقالوا هو نور كله، فقلنا لهم: قال

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر: ٦٩]. فقد أخبر جل ثناؤه أن له نورا وقلنا لهم أخبرونا حين زعمتم أن الله سبحانه في كل مكان وهو نور فلم لم يضيء البيت المظلم بلا سراج، وما بال السراج إذا دخل البيت المظلم يضيء، فعند ذلك تبين للناس كذبهم على الله تعالى.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان جهم وشيعته كذلك دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث فضلوا وأضلوا بكلامهم كثيرا، وكان فيما بلغنا عن الجهم عدو الله أنه كان من أهل خراسان؛ وكان صاحب خصومات وشر وكلام، وكان أكثر كلامه في الله تعالى، فلقي أناسا من الكفار يقال لهم السمنية، فعرفوا الجهم فقالوا له نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك، فكانوا مما كلموا به جهما قالوا ألست تزعم أن لك إلها، قال الجهم نعم، قالوا له فهل رأيت عينك إلهك، قال لا، قالوا فهل شممت له رائحة قال لا، قالوا فهل وجدت له حسا، قال لا، قالوا فهل وجدت له مجلسا، قال لا، قالوا فهل يدريك أنه إله، قال فتحير الجهم ولم يدر أربعين يوما.

ثم إنه استدرك حجة من جنس حجة زنادقة النصارى لعنهم الله، وذلك أن زنادقة النصارى لعنهم الله زعموا أن الروح التي في عيسى بن مريم روح الله من ذات الله، فإذا أراد أن يحدث أمرا دخل في بعض خلقه فتكلم على لسانه فيأمر بما يشاء وينهي عما يشاء، وهو روح غائب عن الأبصار،

فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، فقال للسمني: ألست تزعم أن فيك روحا؟ قال نعم، قال فهل رأيت روحك، قال لا، قال فهل سمعت كلامه، قال لا، قال فهل وجدت له مجلسا أو حسا، قال لا، قال فكذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع له صوت ولا يشم له رائحة وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان، ووجدت ثلاث آيات في القرآن من المتشابه قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: ٣]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فبنى أصل كلامه على هؤلاء الآيات، وتأول القرآن على غير تأويله، وكذب بأحاديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وزعم أن من وصف الله تعالى بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدث عنه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان كافرا أو كان من المشبهة، فأضل بشرا كثيرا، وتبعه على قوله رجال من أصحاب عمرو بن عبيد وأصحاب فلان، ووضع دين الجهمية فإذا سألهم الناس عن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ما تفسيره يقولون ليس كمثله شيء من الأشياء هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش لا يخلو منه مكان، ولا هو في مكان دون مكان، ولا يتكلم ولا يكلم، ولا ينظر إليه أحد؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا يوصف ولا يعرف بصفة، ولا يعقل، ولا له غاية ولا منتهى، ولا يدرك بعقل، وهو وجه كله، وهو علم كله، وهو سمع كله، وهو بصر كله،

وهو نور كله وهو قدرة كله، لا يوصف بوصفين مختلفين، وليس بمعلوم ولا معقول، وكل ما خطر بقلبك أنه شيء تعرفه فهو على خلافه، فقلنا لهم فمن تعبدون، قالوا: نعبد من يدبر أمر هذا الخلق؛ قلنا: فالذي يدبر أمر هذا الخلق مجهول لا يعرف بصفته، قالوا نعم، قلنا قد عرف المسلمون أنكم لا تثبتون شيئا إنما تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون.

ثم قلنا لهم هذا الذي يدبر هو الذي كلم موسى، قالوا لم يتكلم ولا يتكلم، لأن الكلام لا يكون إلا بجارحة، والجوارح منفية عن الله سبحانه وتعالى فإذا سمع الجاهل قولهم ظن أنهم من أشد الناس تعظيما لله سبحانه ويعلم أن كلامهم إنما يعود إلى ضلالة وكفر... وقال الخلال في كتاب السنة: أخبرني عبيد الله بن حنبل أخبرني أبي حنبل بن إسحاق قال: قال عمي يعني أحمد بن حنبل نحن نؤمن أن الله تعالى على العرش استوى كيف شاء وكما يشاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصفون أو يحدها أحد وصفات الله له ومنه، وهو كما وصف نفسه لا تدركه الأبصار بحد ولا غاية وهو يدرك الأبصار، وهو عالم الغيب والشهادة وعلام الغيوب.

٨- قال الخلال: وأخبرني علي بن عيسى أن حنبلا حدثهم قال سألت أبا عبدالله عن الأحاديث التي تروى أن الله سبحانه ينزل إلى سماء الدنيا وأن الله يرى وأن الله يضع قدمه، وما أشبه هذه الأحاديث فقال أبو عبدالله نؤمن بها ونصدق بها ولا نرد منها شيئا، ونعلم أن ما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق إذا كانت أسانيد صحاح، ولا نرد على الله قوله ولا يوصف بأكثر مما

وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

٩- وقال حنبل في موضع آخر عن أحمد ليس كمثله شيء في ذاته كما وصف نفسه قد أجمل الله الصفة فحد لنفسه صفة ليس يشبهه شيء وصفاته غير محدودة ولا معلومة إلا بما وصف به نفسه قال: فهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير ولا يبلغ الواصفون صفته، ولا نتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه ولا نتعدى ذلك ولا يبلغ صفته الواصفون، نؤمن بالقرآن كله: محكمه ومتشابهه ولا نزيل عنه صفة من صفاته بشناعة شنعت، وما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوة بعبده يوم القيامة ووضعه كنفه عليه، فهذا كله يدل على أن الله سبحانه وتعالى يرى في الآخرة، والتحديد في هذا كله بدعة والتسليم فيه بغير صفة ولا حد إلا ما وصف به نفسه، سميع بصير لم يزل متكلما عالما غفورا، عالم الغيب والشهادة علام الغيوب، فهذه صفات وصف بها نفسه لا تدفع ولا ترد، وهو على العرش بلا حد كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ كيف شاء المشيئة إليه والاستطاعة إليه، ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء وهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير لا نتعدى القرآن والحديث، تعالى الله عما يقول الجهمية والمشبهة. قلت له، والمشبه ما يقول؟ قال من قال بصر كبصري ويد كيدي وقدم كقدمي، فقد شبه الله سبحانه بخلقه، وكلام أحمد في هذا كثير فإنه امتحن بالجهمية، وجميع المتقدمين من أصحابه على مثل منهاجه في ذلك، وإن كان بعض المتأخرين منهم من يدخل في نوع من

البدعة التي أنكرها الإمام أحمد، ولكن الرعيل الأول من أصحابه كلهم وجميع أئمة الحديث قولهم قوله»[(١)].

١٠- وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى فِي كِتَابِ «إبْطَالِ التَّأْوِيلِ» «لَا يَجُوزُ رَدُّ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَلَا التَّشَاغُلُ بِتَأْوِيلِهَا وَالْوَاجِبُ حَمْلُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا وَأَنَّهَا صِفَاتُ اللهِ لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ سَائِرِ الْمَوْصُوفِينَ بِهَا مِنْ الْخَلْقِ؛ وَلَا يَعْتَقِدُ التَّشْبِيهَ فِيهَا؛ لَكِنْ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد وَسَائِرِ الْأَئِمَّةِ. وَذَكَرَ بَعْضَ كَلَامِ الزُّهْرِيِّ وَمَكْحُولٍ وَمَالِكٍ وَالثَّوْرِيِّ والأوزاعي وَاللَّيْثِ وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَسُفْيَانَ بْنِ عيينة والفضيل بْنِ عِيَاضٍ وَوَكِيعٍ وَعبدالرحمن بْنِ مَهْدِيٍّ وَالْأُسُودِ بْنِ سَالِمٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ راهويه وَأَبِي عُبَيْدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطبري وَغَيْرِهِمْ فِي هَذَا الْبَابِ. وَفِي حِكَايَةِ أَلْفَاظِهِمْ طُولٌ. إلَى أَنْ قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَى إبْطَالِ التَّأْوِيلِ: أَنَّ الصَّحَابَةَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ التَّابِعِينَ حَمَلُوهَا عَلَى ظَاهِرِهَا؛ وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِتَأْوِيلِهَا وَلَا صَرَفُوهَا عَنْ ظَاهِرِهَا؛ فَلَوْ كَانَ التَّأْوِيلُ سَائِغًا لَكَانُوا أَسْبَقَ إلَيْهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ إزَالَةِ التَّشْبِيهِ وَرَفْعِ الشُّبْهَةِ»[(٢)].

١١- وقال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنا أقطع أن الصحابة ماتوا ولم يعرفوا الجوهر، ولا الأعراض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر، وعمر، فبئس ما رأيت»[(٣)].

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٣٢.

(٢) إبطال التأويل ١/ ٤٣.

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٨٥.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية:

١- قال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها: يكره أن يكتب على الخاتم ذكر الله قرآن، أو غيره على الصحيح من المذهب وعليه أكثر الأصحاب. وعنه: لا يكره دخول الخلاء بذلك فلا كراهة هنا قال في «الفروع»: ولم أجد في الكراهة دليلا إلا قوله لدخول الخلاء به، والكراهة تفتقر إلى دليل، والأصل عدمه قلت: وهو الصواب، وقد ورد عن كثير من السلف كتابة ذكر الله على خواتيمهم. ذكره ابن رجب في كتابه»[(١)].

٢- وقال الحجاوي: «قال الشيخ: ما علمت أحدا من العلماء كره السواك في المسجد، والآثار تدل على أن السلف كانوا يستاكون في المسجد...»[(٢)].

٣- وقال المرداوي: «فوائد: أعجب الإمام أحمد حمل التراب لأجل التيمم، وعند الشيخ تقي الدين وغيره: لا يحمله قال في الفروع: وهو أظهر، قلت: وهو الصواب؛ إذ لم ينقل عن الصحابة وغيرهم من السلف فعل ذلك مع كثرة أسفارهم»[(٣)].

٤- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويتخرج أن لا يجزئ الأذان القاعد لغير عذر كأحد الوجهين في الخطبة، وأولى؛ إذ لم ينقل عن أحد من السلف الأذان قاعدا لغير عذر وخطب بعضهم قاعدا لغير عذر»[(٤)].

---

(١) الإنصاف ٢/ ١٠٥.

(٢) الإقناع في فقه الإمام أحمد ١/ ٣٣٤.

(٣) الإنصاف ١/ ٢٠٧.

(٤) الإختيارات الفقهية ١/ ٤٠٦.

٥- وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصلاة الرغائب بدعة محدثة لم يصلها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أحد من السلف»(١).

٦- وقال المرداوي: «... وقيل: لا تصح إلى المقبرة، والحش والحمام وعنه لا يصلي إلى قبر، أو حش، أو حمام، أو طريق... لكراهة السلف الصلاة في مسجد في قبلته حش...»(٢).

٧- وقال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان لم تصح صلاته... وعنه: يكره وتصح إذا صح سنده لصلاة الصحابة بعضهم خلف بعض واختاره ابن الجوزي، والشيخ تقي الدين، وقال: هي أنص الروايتين، وقال: وقول أئمة السلف وغيرهم: مصحف عثمان أحد الحروف السبعة وقدمه في الفائق، وابن تميم»(٣).

٨- وقال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تنبيه: ظاهر كلام المصنف: أن صلاة المضطجع لا تصح، وهو الصحيح من المذهب... قال الشيخ تقي الدين: جوزه طائفة قليلة ونقل ابن هانئ يصح فيكون على النصف من صلاة القاعد، واختاره بعض الأصحاب. قال الشيخ تقي الدين: وهو قول شاذ لا يعرف له أصل من السلف»(٤).

٩- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي تبين لي أن سجود

---

(١) الاختيارات الفقهية ١/ ٤٢٨.

(٢) الإنصاف ١/ ٣٤٨.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٤٣.

(٤) المرجع السابق ٢/ ١٣٤.

التلاوة واجب مطلقا في الصلاة وغيرها وهي رواية عن أحمد ومذهب طائفة من العلماء، ولا يشرع فيه تحريم، ولا تحليل هذا هو السنة المعروفة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليها عامة السلف وعلى هذا فليس هو صلاة، فلا يشترط له شروط الصلاة، بل يجوز على غير طهارة، واختارها البخاري، لكن السجود بشروط الصلاة أفضل ولا ينبغي أن يخل بذلك إلا لعذر، فالسجود بلا طهارة خير من الإخلال به»[(١)].

١٠- وقال المرداوي بعد ما ذكر الأقوال في المذهب في قراءة القرآن على القبر: «وعنه القراءة على القبر بدعة؛ لأنه ليس من فعله عليه أفضل الصلاة والسلام، ولا فعل أصحابه»[(٢)]. وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونقل الجماعة عن أحمد كراهة قراءة القرآن على القبور وهو قول جمهور السلف، وعليها قدماء أصحابه ولم يقل أحد من العلماء المعتبرين إن القراءة عند القبر أفضل، ولا رخص في اتخاذه عيدا كاعتياد القراءة عنده في وقت معلوم، أو الذكر، أو الصيام»[(٣)].

١١- وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «واتخاذ المصاحف عند القبر بدعة ولو للقراءة ولو نفع الميت لفعله السلف»[(٤)].

١٢- وقال المرداوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فوائد: إحداها: لا بأس أن يعتمر في

(١) الإختيارت الفقهية ١/ ٤٢٤.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٩١.

(٣) الاختيارت الفقهية ١/ ٤٤٧.

(٤) المرجع السابق.

السنة مرارا، والصحيح من المذهب كراهية الإكثار منها والموالاة بينها قال المصنف باتفاق السلف واختاره هو، وغيره، وقدمه في الفروع»[(١)].

١٣- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ويدل على هذا ما ذكره الأزرقي في «أخبار مكة» أن ابن عباس أرسل إلى ابن الزبير: لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب، واجعل الستور عليها حتى يطوف الناس من ورائها، ويصلون إليها ففعل ذلك ابن الزبير، وهذا من ابن عباس، وابن الزبير دليل على أن الكعبة التي يطاف بها ويصلى إليها لا بد أن تكون شيئا منصوبا شاخصا، وأن العرصة ليست قبلة، ولم ينقل عن أحد من السلف خلاف في ذلك»[(٢)].

١٤- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: وإن أخطأ الناس، فوقفوا في غير يوم عرفة أجزأهم سواء كان وقوفهم يوم الثامن، أو العاشر...نص عليهما. وقال الشيخ تقي الدين: وهل هو يوم عرفة باطنا فيه خلاف في مذهب أحمد... فعلم أنه يوم عرفة ظاهرا وباطنا يوضحه أنه لو كان هنا خطأ وصواب لا يستحب الوقوف مرتين وهو بدعة لم يفعله السلف فعلم أنه لا خطأ. ومن اعتبر كون الرائي من مكة دون مسافة القصر، أو بمكان لا تختلف فيه المطالع، فقول لم يقله أحد من السلف في الحج»[(٣)].

---

(١) الإنصاف ٤/ ٤٢.

(٢) الاختيارت الفقهية ١/ ٤١٢.

(٣) الإنصاف ٤/ ٤٩.

١٥- وقال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ويثبت القرض في الذمة حالا وإن أجله هذا المذهب نص عليه في رواية يوسف بن موسى وأخيه الحسين وعليه الأصحاب وقطع به أكثرهم. واختار الشيخ تقي الدين صحة تأجيله، ولزومه إلى أجله سواء كان قرضا، أو غيره، وذكره وجها. قلت: وهو الصواب وهو مذهب مالك والليث، وذكره البخاري في «صحيحه» عن بعض السلف»[(١)].

١٦- وقال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويحتمل صحة شرط عدم النفقة... واختار فيما إذا شرط أن لا مهر فساد العقد، وأنه قول أكثر السلف»[(٢)].

١٧- ونقل عن القرطبي، فقال: «وقال القرطبي في تفسيره على قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: ٢٢٩]. اتفق أئمة الفتوى على لزوم إيقاع الثلاث وهو قول جمهور السلف. وشذ طاوس، وبعض أهل الظاهر فذهبوا إلى أن الطلاق الثلاث في كلمة واحدة يقع واحدة»[(٣)].

١٨- وقال منصور البهوتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويسن لمن ترك خيرا وهو المال

---

(١) الإنصاف ٥/ ١٠٠.

(٢) المرجع السابق ٨/ ١٢٣.

(٣) الإنصاف ٨/ ٢٣٥.

الكثير عرفا أن يوصي بالخمس روي عن أبي بكر، وعلي وهو ظاهر قول السلف»[(١)].

١٩- وقال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كانوا يهابون الفتيا ويتشددون فيها ويتدافعونها»[(٢)].

٢٠- وقال الحجاوي في القضاء: «والأولى أن لا يجيب إذا طلب ويكره له طلبه، وكذلك الإمارة، وطريقة السلف الامتناع...»[(٣)].

٢١- وقال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها: يكره لبس ما فيه شهرة، أو خلاف زي بلدة من الناس على الصحيح من المذهب، وقيل: يحرم ونصه لا، وقال الشيخ تقي الدين: يحرم شهرة وهو ما قصد به الارتفاع وإظهار التواضع؛ لكراهة السلف لذلك...»[(٤)].

❁❁❁

(١) الروض المربع ١/ ٣٠٣.

(٢) الإنصاف ١١/ ١٣٩.

(٣) الإقناع في فقه الإمام مالك ٤/ ٢٤٦.

(٤) الإنصاف ١/ ٣٣٣.

المطلب الثالث

حجيتها عند سائر العلماء

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: حجيتها عند الفقهاء المجتهدين، وأئمة أهل الكلام المثبتين، وأئمة الصوفية.

المسألة الثانية: حجيتها عند علماء الحديث.

المسألة الأولى

حجيتها عند الفقهاء المجتهدين، وأئمة أهل الكلام المثبتين، وأئمة الصوفية

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: تأصيلهم للقاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

الافتتاحية:

قال شريك القاضي أحد الكبار عن عباد بن العوام قال: «قدم علينا شريك بن عبدالله نحو من خمسين سنة: فقلنا له: يا أبا عبدالله إن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث: «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا» و«إن أهل الجنة يرون ربهم» فحدثني شريك بنحو من عشرة أحاديث في هذا، ثم قال: أما نحن، فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين عن الصحابة، فهم عمن أخذوا».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنهم أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فإنهم -ورب الكعبة- على الصراط المستقيم».

الإمام ابن جرير الطبري، قال الذهبي في تقرير مذهب محمد بن جرير الطبري: تفسير بن جرير الطبري مشحون بأقوال السلف على الإثبات، فنقل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، عن الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع، ونقل في تفسير ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في المواضع كلها أي: علا وارتفع، وقد روى قول مجاهد، ثم قال: ليس في فرق الإسلام من ينكر هذا، لا من يقر أن الله فوق العرش، ولا من ينكره من الجهمية وغيرهم»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قول الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

(١) تفسير بن جرير الطبري ١٥/ ١٠٠ ط بولاق.

الإمام في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ واللغة والنحو والقرآن، قال في كتاب صريح السنة:

«وحسب امرىء أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى، فمن تجاوز إلى غير ذلك فقد خاب وخسر، وقال في تفسيره الكبير في قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال علا وارتفع، وقال في قوله تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩] عن الربيع بن أنس أنه يعني ارتفع. وقال في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال يجلسه معه على العرش[1] وقال في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧] يقول وإني لأظن موسى كاذبا فيما يقول ويدعي أن له ربا في السماء أرسله إلينا.

وقال أبو الحسن الأشعري في فهم السلف: «وبهذا الأصل صار الدين لا يمكن أن يؤخذ بحكم العوائد والمحاكاة وما تعلمه من الجاهلين، وإنما يؤخذ حقا تعلما عن أهل العلم الحقيقيين الذين يستمدون فهومهم عن

(١) والصواب: أن المقام المحمود هي الشفاعة الكبرى.

عناصر الدين الأولية التي هي الكتاب والسنة على مقتضى فهوم الأولين من علماء الإسلام الذين إذا تكلموا على العقائد بينوها وبينوا مأخذها وأدلتها وشرحوا ما أذن لهم شرحه وتوقفوا فيما لا مجال للعمل منه أو ردوه إلى ما وضح معناه».

الفرع الأول: تأصيلهم للقاعدة:

١- قال شريك القاضي أحد الكبار عن عباد بن العوام قال: «قدم علينا شريك بن عبدالله نحو من خمسين سنة: فقلنا له: يا أبا عبدالله إن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث: «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا» و«إن أهل الجنة يرون ربهم» فحدثني شريك بنحو من عشرة أحاديث في هذا، ثم قال: أما نحن، فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين عن الصحابة، فهم عمن أخذوا»[(١)].

٢- وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنهم أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فإنهم -ورب الكعبة- على الصراط المستقيم»[(٢)].

٣- وقال عمر ابن عبدالعزيز: «قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان

---

(١) أخرجه الدارقطني في كتاب الصفات ص٤٢ وعبدالله بن أحمد في السنة ١/ ٢٤٣ وابن بطة في الإبانة ص١٩٧ وابن منده في التوحيد ٣/ ٣٠٦ والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ٩٤٧ وسنده صحيح.

(٢) ذكره ابن قدامة في ذم التأويل ١/ ٣٢.

فيها أحرى، فلئن قلتم: حدث بعدهم، فما أحدثه إلا من خالف هديهم، ورغب عن سنتهم، ولقد وصفوا منه ما يشفي، وتكلموا منه ما يكفي، فما فوقهم محسر، وما دونهم مقصر، لقد قصر عنهم قوم فجفوا، وتجاوز آخرون فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[(١)].

٤- وقال الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام لما سأله أبو إسحاق: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم. وقد كان أهل الشام في غفلة من هذه البدعة حتى قذفها إليهم بعض أهل العراق ممن دخل في تلك البدعة (القول بخلق القرآن) بعد ما ردها عليهم فقهاؤهم وعلماؤهم فأشربها قلوب طوائف من أهل الشام، واستحلتها ألسنتهم، وأصابهم ما أصاب غيرهم من الاختلاف فيه، ولو كان هذا خيرا ما خصصتم به دون أسلافكم؛ فإنه لم يدخر عنهم خير خبئ لكم دونهم لفضل عندكم، وهم أصحاب نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين اختارهم، وبعثه فيهم ووصفهم بما وصفهم به قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩][(٢)].

---

(١) أورده ابن الجوزي في مناقب عمر بن عبدالعزيز ص٨٣.

(٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٢/ ١٧٤.

٥- وقال: «عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول»[(١)].

٦- وقال الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي: «أصحاب الحديث أولى الناس بالاتباع فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع وذم التكلف والاختراع فمن اقتصر على هذه الآثار كان من المتبعين وكان أولاهم بهذا الاسم وأحقهم بهذا الوسم وأخصهم بهذا الرسم أصحاب الحديث لاختصاصهم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعهم لقوله وطول ملازمتهم له وتحملهم علمه وحفظهم أنفاسه وأفعاله فأخذوا الإسلام عنه مباشرة وشرائعه مشاهدة وأحكامه معاينة من غير واسطة ولا سفير بينهم وبينه واصلة فجاولوها عيانا وحفظوا عنه شفاها وتلقفوه من فيه رطبا وتلقنوه من لسانه عذبا واعتقدوا جميع ذلك حقا وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينا فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشافهة لم يشبه لبس ولا شبهة ثم نقله العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل ثم الكافة عن الكافة والصافة عن الصافة والجماعة عن الجماعة أخذ كف بكف وتمسك خلف بسلف كالحروف يتلو بعضها بعضا ويتسق اخراها على أولاها رصفا ونظما»[(٢)].

٧- وقال أبو الحسن الأشعري في فهم السلف: «وبهذا الأصل صار

---

(١) أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث ص٧.

(٢) شرح اصول أهل السنة ١/ ٢٣.

الدين لا يمكن أن يؤخذ بحكم العوائد والمحاكاة وما تعلمه من الجاهلين، وإنما يؤخذ حقا تعلما عن أهل العلم الحقيقيين الذين يستمدون فهومهم عن عناصر الدين الأولية التي هي الكتاب والسنة على مقتضى فهوم الأولين من علماء الإسلام الذين إذا تكلموا على العقائد بينوها وبينوا مأخذها وأدلتها وشرحوا ما أذن لهم شرحه وتوقفوا فيما لا مجال للعمل منه أو ردوه إلى ما وضح معناه»[(١)].

٨- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنهم أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فإنهم -ورب الكعبة- على الصراط المستقيم»[(٢)].

٩- وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين»[(٣)].

١٠- وقال مطرف بن عبدالله بن الشخير لرجل قال: لا تحدثونا إلا بالقرآن، قال له مطرف: «إنا والله ما نريد بالقرآن بدلا ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا»[(٤)].

---

(١) المقالات ٢/ ٢٧.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٤٦.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٧١.

(٤) أخرجه البيهقي في «المدخل» ص ٣٣١، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٩١.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة.

١- قال شريح، والشعبي، والضحاك، والقاسم، وسالم، ومعمر، وابن جريج، ومسروق بعدم مشروعية التنفل قبل صلاة العيد، وبعدها قال ابن قدامة بعد ما ذكر هؤلاء الأئمة: «قال الزهري: لم أسمع أحدا من علمائنا يذكر أن أحدا من سلف هذه الأمة كان يصلي قبل تلك الصلاة، ولا بعدها يعني صلاة العيد، وقال: ما صلى قبل العيد بدري، ونهى عنه أبو مسعود البدري. وروي أن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى قوما يتنفلون قبل العيد، فقال: ما كان هذا يفعل على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»[(١)].

٢- وقالوا بعدم مشروعية استلام الركنين الشاميين استدلالا بإجماع السلف قال القاضي عياض: «هو إجماع أئمة الأمصار والفقهاء...»[(٢)].

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية:

١- روى البيهقي بإسناد صحيح إلى الأوزاعي قال: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى جل ذكره فوق عرشه ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته. قال شيخ الإسلام: وإنما قال الأوزاعي ذلك بعد ظهور جهم المنكر لكون الله سبحانه فوق عرشه، والنافي لصفاته، ليعرف الناس أن مذهب السلف كان بخلاف قوله، قال أبو عمر بن عبدالبر في التمهيد وعلماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا في تأويل قوله تعالى:

---

(١) المغني ٣/ ٢٨٠

(٢) المجموع شرح المهذب ٨/ ٨٠.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] هو على العرش وعلمه في كل مكان وما خالفهم أحد في ذلك يحتج به[(١)].

٢- الإمام ابن جرير الطبري، قال الذهبي في تقرير مذهب محمد بن جرير الطبري: تفسير بن جرير الطبري مشحون بأقوال السلف على الإثبات، فنقل في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] عن الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع، ونقل في تفسير ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴿٥٤﴾﴾ في المواضع كلها أي: علا وارتفع، وقد روى قول مجاهد، ثم قال: ليس في فرق الإسلام من ينكر هذا، لا من يقر أن الله فوق العرش، ولا من ينكره من الجهمية وغيرهم»[(٢)].

٣- وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قول الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الإمام في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ واللغة والنحو والقرآن، قال في كتاب صريح السنة:

«وحسب امرىء أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى، فمن تجاوز إلى غير ذلك فقد خاب وخسر، وقال في تفسيره الكبير في قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ٣/ ١٢ ط مكتبة ابن تيمية.

(٢) تفسير بن جرير الطبري ١٥/ ١٠٠ ط بولاق.

ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال علا وارتفع، وقال في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٩] عن الربيع بن أنس أنه يعني ارتفع. وقال في قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال يجلسه معه على العرش[1] وقال في قوله عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧] يقول وإني لأظن موسى كاذبا فيما يقول ويدعي أن له ربا في السماء أرسله إلينا.

٤- وقال في كتاب «التبصير في معالم الدين»: «القول فيما أدركه بيان وعلمه خبر من الصفات وذلك نحو أخباره أنه سميع بصير، وأن له يدين بقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأن له وجها بقوله تعالى: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأن له قدما لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **«حتى يضع رب العزة فيها قدمه»** وأنه يضحك لقوله **«لقي الله وهو يضحك**

(١) والصواب: أن المقام المحمود هي الشفاعة الكبرى.

إليه» وأنه يهبط إلى سماء الدنيا بخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وأن له أصبعا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن**» فإن هذه المعاني التي وضعت ونظائرها ما وصف الله به نفسه ورسوله مما لا يثبت حقيقة علمه بالذكر والرؤية لا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهائها إليه ـ ذكر هذا الكلام عنه أبو يعلى في كتاب إبطال التأويل.

٥- وقال الخطيب: كان ابن جرير أحد العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره وكان عارفا بالقرآن بصيرا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن عالما بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين في الأحكام والحلال والحرام.

٦- قال أبو حامد الاسفراييني: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرا. وقال ابن خزيمة: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، وقال الخطيب: سمعت علي بن عبدالله اللغوي يحكي أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة.

قلت: وكان له مذهب مستقل له أصحاب، عده أبو الفرج المعافا بن زكريا، ومن أراد معرفة أقوال الصحابة والتابعين في هذا الباب فليطالع ما قاله عنهم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:

١٤٣]. وقوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ ﴾ [الشورى: ٥]، وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ليتبين له أي الفريقين أولى بالله ورسوله الجهمية المعطلة أو أهل السنة والإثبات، والله المستعان [(١)].

٧- وقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَشْعَرِيُّ الْمُتَكَلِّمُ صَاحِبُ الطَّرِيقَةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَيْهِ فِي الْكَلَامِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي «اخْتِلَافِ الْمُصَلِّينَ وَمَقَالَاتِ الْإِسْلَامِيِّينَ» وَذَكَرَ فِرَقَ الرَّوَافِضِ وَالْخَوَارِجِ وَالْمُرْجِئَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ. ثُمَّ قَالَ «مَقَالَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ جُمْلَةً. قَوْلُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ: الْإِقْرَارُ بِاَللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِمَا جَاءَ عَنْ اللهِ تَعَالَى؛ وَمَا رَوَاهُ الثِّقَاتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرُدُّونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ وَأَنَّ اللهَ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ ﴾ [طه: ٥]. وَأَنَّ لَهُ يَدَيْنِ بِلَا كَيْفٍ كَمَا قَالَ: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾ [ص: ٧٥] وَكَمَا قَالَ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٢١.

﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]، وَأَنَّ لَهُ عَيْنَيْنِ بِلَا كَيْفٍ كَمَا قَالَ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٤]، وَأَنَّ لَهُ وَجْهًا كَمَا قَالَ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]. وَأَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ تَعَالَى لَا يُقَالُ: إِنَّهَا غَيْرُ اللهِ كَمَا قَالَتْ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ. وَأَقَرُّوا أَنَّ لِلَّهِ عِلْمًا كَمَا قَالَ: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦]، وَكَمَا قَالَ: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ [فصلت: ٤٧]. وَأَثْبَتُوا لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَلَمْ يَنْفُوا ذَلِكَ عَنْ اللهِ كَمَا نَفَتْهُ الْمُعْتَزِلَةُ وَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الْقُوَّةَ كَمَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]. وَذَكَرَ مَذْهَبَهُمْ فِي الْقَدَرِ. إِلَى أَنْ قَالَ: وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَالْكَلَامُ فِي اللَّفْظِ وَالْوَقْفِ مَنْ قَالَ بِاللَّفْظِ وَبِالْوَقْفِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ عِنْدَهُمْ لَا يُقَالُ اللَّفْظُ بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ وَلَا يُقَالُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَيُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ يُرَى بِالْأَبْصَارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا يُرَى الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا يَرَاهُ الْكَافِرُونَ؛ لِأَنَّهُمْ عَنْ اللهِ مَحْجُوبُونَ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، وَذَكَرَ قَوْلَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْحَوْضِ وَالشَّفَاعَةِ وَأَشْيَاءَ. إِلَى أَنْ قَالَ: وَيُقِرُّونَ بِأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَلَا يَقُولُونَ مَخْلُوقٌ وَلَا يَشْهَدُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ بِالنَّارِ. إِلَى أَنْ قَالَ: وَيُنْكِرُونَ الْجَدَلَ وَالْمِرَاءَ فِي الدِّينِ

وَالْخُصُومَةَ وَالْمُنَاظَرَةَ فِيمَا يَتَنَاظَرُ فِيهِ أَهْلُ الْجَدَلِ وَيَتَنَازَعُونَ فِيهِ مِنْ دِينِهِمْ وَيُسَلِّمُونَ الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةَ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الثِّقَاتُ عَدْلٌ عَنْ عَدْلٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقُولُونَ كَيْفَ وَلَا لِمَ؟ لِأَنَّ ذَلِكَ بِدْعَةٌ عِنْدَهُمْ. إِلَى أَنْ قَالَ: وَيُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. وَأَنَّ اللهَ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦] إِلَى أَنْ قَالَ: وَيَرَوْنَ مُجَانَبَةَ كُلِّ دَاعٍ إِلَى بِدْعَةٍ وَالتَّشَاغُلَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَكِتَابَةَ الْآثَارِ وَالنَّظَرَ فِي الْآثَارِ؛ وَالنَّظَرَ فِي الْفِقْهِ مَعَ الِاسْتِكَانَةِ وَالتَّوَاضُعِ؛ وَحُسْنِ الْخُلُقِ مَعَ بَذْلِ الْمَعْرُوفِ؛ وَكَفَّ الْأَذَى وَتَرْكَ الْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالشِّكَايَةِ وَتَفَقُّدَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ. قَالَ: فَهَذِهِ جُمْلَةُ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ وَيَسْتَسْلِمُونَ إِلَيْهِ وَيَرَوْنَهُ وَبِكُلِّ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَوْلِهِمْ نَقُولُ وَإِلَيْهِ نَذْهَبُ؛ وَمَا تَوْفِيقُنَا إِلَّا بِاللهِ وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ [(١)].

٨- قال الحميدي: «... وما نطق به القرآن والحديث مثل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]. وما أشبه هذا

(١) مقالات الإسلاميين ١/ ٢٩٠.

من القرآن، والحديث، لا نزيد فيه، ولا نفسره، نقف على ما وقف عليه القرآن والسنة»[(١)] قوله: ولا نفسره أي تفسير الجهمية كما قال محمد بن الحسن الشيباني، وليس فيه متمسك لأهل التفويض.

٩- وقال محمد بن عبدالرحمن الأدرمي لرجل تكلم ببدعة ودعا الناس: «هل علمها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، أو لم يعلموها؟ قال: لم يعلموها. قال: فشيء لم يعلمه هؤلاء علمته أنت؟ قال الرجل: فإني أقول: قد علموها. قال: أوسعهم أن لا يتكلموا به، ولا يدعوا الناس إليه، أم لم يسعهم؟ قال: بلى وسعهم. قال: فشيء وسع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلفاءه لا يسعك أنت؟ فانقطع الرجل. قال الخليفة: - وكان حاضرا ـ لا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم»[(٢)].

١٠- وقال علي بن المديني: «... ونحو هذه الأحاديث مما ذكرناه ومما لم نذكره في هذه الأحاديث مما صح وحفظ فإنه يسلم له وإن لم يعلم تفسيره، فلا يتكلم فيه، ولا يجادل فيه، ولا يتكلم فيه ما لم يبلغ لنا منه، ولا نفسر الأحاديث إلا على ما جاءت ولا نردها...»[(٣)].

١١- وروي أيضا رَحِمَهُ اللَّهُ لما سئل ما قول أهل الجماعة؟ قال: «يؤمنون بالرؤية والكلام وأن الله فوق السموات على العرش استوى؛ فسئل عن قوله:

---

(١) أصول السنة المطبوعة في آخر السنن الحميدي ٢/ ٥٤٦-٥٤٨.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٠/ ٧٥ والذهبي في سير أعلام النبلاء ١١/ ٣١٣.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ١٨٥.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] فقال: اقرأ ما قبلها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(١)].

١٢- وروى عبدالله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له: بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ولا نقول كما تقول الجهمية إنه ههنا في الأرض - وهكذا قال الإمام أحمد وغيره.

١٣- وروي بإسناد صحيح عن سليمان بن حرب الإمام سمعت حماد بن زيد وذكر هؤلاء الجهمية. فقال: إنما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء شيء[(٢)]. لأنهم لا يثبتون الصفات ومنها العلو ويحرفون النصوص الدالة على الإثبات.

١٤- وروى ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية» عن سعيد بن عامر الضبعي - إمام أهل البصرة علما ودينا من شيوخ الإمام أحمد - أنه ذكر عنده الجهمية فقال: أشر قولا من اليهود والنصارى وقد أجمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين على أن الله على العرش وهم قالوا: ليس على شيء[(٣)].

١٥- قول الإمام أبي محمد عبدالله بن سعيد بن كلاب إمام الطائفة

---

(١) انظر الحموية الكبرى ص ٣٦.

(٢) الحموية الكبرى ص٣٧.

(٣) المرجع السابق.

الكلابية، كان من أعظم أهل الإثبات للصفات والفوقية وعلو الله على عرشه، ومنكرا لقول الجهمية، وهو أول من عرف عنه إنكار قيام الأفعال الاختيارية بذات الرب تعالى وأن القرآن معنى قائم بالذات، وهو أربعة معان، ونصر طريقته أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري وخالفه في بعض الأشياء، ولكنه على طريقته في إثبات الصفات والفوقية وعلو الله على عرشه، كما سيأتي حكاية كلامه بألفاظه.

قال ابن كلاب في بعض كتبه، وأخرج من الأثر والنظر من قال إن الله سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه، حكاه عنه شيخ الإسلام في عامة كتبه الكلامية. وحكى عنه أبو الحسن الأشعري أنه كان يقول إن الله مستو على عرشه كما قال، وإنه فوق كل شيء؛ هذا لفظ حكاية الأشعري عنه، وحكى عنه أبو بكر بن فورك فيما جمعه من مقالاته في كتاب المجرد، وأخرج من النظر والخبر قول من قال لا هو في العالم ولا خارجه، فنفاه نفيا مستويا، لأنه لو قيل له صفه بالعدم ما قدر أن يقول أكثر من هذا، ورد أخبار الله نصا. وقال في ذلك ما لا يجوز في نص ولا معقول، وزعم أن هذا هو التوحيد الخالص والنفي الخالص عندهم هو الإثبات الخالص، وهم عند أنفسهم قياسيون.

قال وإن قالوا هذا إفصاح منكم بخلو الأماكن منه وانفراد العرش به. قيل إن كنتم تعنون خلو الأماكن من تدبيره وأنه غير عالم بها فلا، وإن كنتم تريدون خلوه من استوائه عليها كما استوى على العرش فنحن لا نحتشم أن نقول استوى على العرش ونحتشم أن نقول استوى على الأرض واستوى

على الجدار وفي صدر البيت. قال ابن كلاب يقال لهم أهو فوق ما خلق؟ فإن قالوا نعم، قيل لهم ما تعنون بقولكم فوق ما خلق؟ فإن قالوا بالقدرة والعزة، قيل لهم ليس هذا سؤالنا، وإن قالوا المسألة خطأ، قيل لهم أفليس هو فوق؟ فإن قالوا نعم ليس هو فوق، قيل لهم وليس هو تحت، فإن قالوا لا فوق ولا تحت أعدموه، لأن ما كان لا تحت ولا فوق عدم، وإن قالوا هو تحت وهو فوق، قيل لهم فيلزم أن يكون تحت وفوق.

ثم بسط الكلام في استحالة نفي المباينة والمماسة عنه بالعقل، وأن ذلك يلحقه بالعدم المحض. ثم قال ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو صفوة الله من خلقه وخيرته من بريته أعلمهم بالأين، واستصوب قول القائل أنه في السماء وشهد له بالإيمان عند ذلك، وجهم بن صفوان وأصحابه لا يجيزون الأين بزعمهم ويحيلون القول به، قال ولو كان خطأ لكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحق بالإنكار له وكان ينبغي أن يقول لها لا تقولي ذلك فتوهمي أنه محدود، وأنه في مكان دون مكان، ولكن قولي إنه في كل مكان، لأنه هو الصواب دون ما قلت، كلا فلقد أجازه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع علمه بما فيه، وأنه من الإيمان، بل الأمر الذي يجب به الإيمان لقائله ومن أجله شهد لها بالإيمان حين قالته، وكيف يكون الحق في خلاف ذلك والكتاب ناطق بذلك وشاهد له، ولو لم يشهد لصحة مذهب الجماعة في هذا خاصة إلا ما ذكرناه من هذه الأمور لكان فيه ما يكفي، كيف وقد غرس في نيته الفطرة ومعارف الآدميين من ذلك ما لا شيء أبين منه ولا أوكد، لأنك لا تسأل أحدا من الناس، عربيا

ولا عجميا، ولا مؤمنا ولا كافرا، فتقول أين ربك إلا قال في السماء، أفصح أو أومأ بيده أو أشار بيده أو أشار بطرفه إن كان لا يفصح، ولا يشير إلى غير ذلك من أرض ولا سهل ولا جبل، ولا رأينا أحدا إذا عنّ له دعاء إلا رافعا يديه إلى السماء، ولا وجدنا أحدا غير الجهمية يسأل عن ربه فيقول في كل مكان كما يقولون، وهم يدعون أنهم أفضل الناس كلهم فتاهت العقول وسقطت الأخبار واهتدى جهم وخمسون رجلا معه: نعوذ بالله من مضلات الفتن. هذا آخر كلامه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: ولما رجع الأشعري من مذهب المعتزلة سلك طريق ابن كلاب، ومال في أهل السنة والحديث وانتسب إلى الإمام أحمد كما قد ذكر ذلك في كتبه كلها كالإبانة والموجز والمقالات وغيرها، وكان القدماء من أصحاب أحمد، كأبي بكر بن عبدالعزيز وأبي الحسين التميمي وأمثالهما يذكرونه في كتبهم على طريق الموافق للسنة في الجملة، ويذكرون رده على المعتزلة، وأبدى تناقضهم ثم ذكر ما بين الأشعري وقدماء أصحابه وبين الحنابلة من التآلف لا سيما بين القاضي أبي بكر بن الباقلاني وبين أبي الفضل بن التميمي حتى كان ابن الباقلاني يكتب في أجوبته في المسائل كتبه محمد بن الطيب الحنبلي ويكتب أيضا الأشعري. يقال وعلى العقيدة التي صنفها أبو الفضل التميمي اعتمد البيهقي في الكتاب الذي صنفه في مناقب أحمد لما ذكر عقيدة أحمد قال:

وأما ابن حامد وابن بطة وغيرهما فإنهم مخالفون لأصل قول ابن كلاب

قال والأشعري وأئمة أصحابه كابن الحسن الطبري أبي عبدالله بن المجاهد والقاضي أبي بكر متفقون على إثبات الصفات الخبرية التي ذكرت في القرآن كالاستواء والوجه واليدين وإبطال تأويلها.

وليس للأشعري في ذلك قولان أصلا، ولم يذكر أحد عن الأشعري في ذلك قولين: ولكن لأتباعه قولان في ذلك؛ ولأبي المعالي الجويني في تأويلها قولان أولهما في الإرشاد، ورجع عن التأويل في رسالته النظامية وحرمه، ونقل إجماع السلف على تحريمه، وأنه ليس بواجب ولا جائز[(١)].

١٦- قول متكلم السنة إمام الصوفية في وقته أبي العباس أحمد بن محمد المظفري المختار الرازي صاحب كتاب «فرع الصفات في تقريع نفاة الصفات» وهو على صغر حجمه كتاب جليل غزير العلم، قال فيه بعد حكاية مذاهب الناس: وقالت الحنابلة وأصحاب الظواهر والسلف من أهل الحديث: إن الله على العرش ثم قال: أما حجة المثبتين فمن حيث الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والمعقول، ثم ذكر حجج القرآن والسنة ثم حكى كلام الصحابة إلى أن قال: ثم إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اختلفوا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل رأى ربه ليلة المعراج أم لا؛ واختلافهم في الرؤية تلك الليلة اتفاق منهم على أن الله على العرش، لأن المخالفين لا يفرقون بين الأرض والسماء بالنسبة إلى ذاته، وهم فرقوا حيث اختلفوا في أحدهما دون الآخر[(٢)].

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٨١.

(٢) المرجع السابق ص١٩٦.

١٧- وقال أبو نعيم الأصبهاني صاحب «الحلية» في عقيدة له قال في أولها: «طريقتنا طريقة المتبعين الكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ قال فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العرش واستواء الله يقولون بها؛ ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه: لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم وهو مستو على عرشه في سمائه دون أرضه وخلقه»[(١)].

١٨- وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه «محجة الواثقين ومدرجة الوامقين» تأليفه: وأجمعوا أن الله فوق سمواته عال على عرشه مستو عليه لا مستول عليه كما تقول الجهمية إنه بكل مكان؛ خلافا لما نزل في كتابه: «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك: ١٦]. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥] له العرش المستوي عليه والكرسي الذي وسع السموات والأرض وهو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وكرسيه

(١) المرجع السابق ص٨٣.

جسم والأرضون السبع والسموات السبع عند الكرسي كحلقة في أرض فلاة؛ وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية؛ بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه؛ كما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه -تعالى وتقدس- يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفا صفا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، وزاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحدين ويعذب من يشاء. كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: ١٢٩].

١٩- وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني - شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده - قال: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة وموعظة من الحكمة؛ وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر بلا كيف وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين قال فيها: «وإن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل والاستواء معقول والكيف فيه مجهول. وأنه عَزَّوَجَلَّ مستو على عرشه بائن من خلقه والخلق منه بائنون؛ بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنه الفرد البائن من الخلق الواحد الغني عن الخلق. وإن الله عَزَّوَجَلَّ سميع بصير عليم خبير يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء: «فيقول: هل من داع

فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر» ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل. فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال وسائر الصفوة من العارفين على هذا»[(١)] اهـ.

٢٠- وقال الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال في «كتاب السنة» ثنا أبو بكر الأثرم ثنا إبراهيم بن الحارث يعني العبادي حدثنا الليث بن يحيى قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث - قال أبو بكر هو صاحب الفضيل - قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو؟ لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]. فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه. وكل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع؛ كما يشاء أن ينزل وكما يشاء أن يباهي وكما يشاء أن يضحك وكما يشاء أن يطلع. ونقل هذا عن الفضيل جماعة منهم البخاري في «أفعال العباد». فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف؟. فإذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه. فقل: بل أومن برب يفعل ما يشاء»[(٢)].

٢١- قول شيخ الصوفية والمحدثين أبي نعيم صاحب كتاب «حلية

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٧٤.

(٢) المرجع السابق ص١٧٠.

الأولياء» قال في عقيدته «وإن الله سميع بصير عليم خبير يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء فيقول هل من داع فأستجيب له؛ هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه حتى يطلع الفجر، ونزول الرب تعالى إلى سماء الدنيا بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال، وسائر الصفوة العارفين على هذا، ثم قال وإن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، فالاستواء معقول والكيف مجهول، وأنه سبحانه بائن من خلقه وخلقه بائنون منه، بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة، لأنه البائن الفرد من الخلق والواحد الغني عن الخلق. وقال أيضا: طريقنا طريق السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة. وساق ذكر اعتقادهم ثم قال: ومما اعتقدوه أن الله في سمائه دون أرضه وساق بقيته»[(١)].

٢٢- وقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عبدالله مُحَمَّدُ بْنُ خَفِيفٍ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ «اعْتِقَادُ التَّوْحِيدِ بِإِثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» قَالَ فِي آخِرِ خُطْبَتِهِ: فَاتَّفَقَتْ أَقْوَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي تَوْحِيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَقَضَائِهِ قَوْلًا وَاحِدًا وَشَرْعًا ظَاهِرًا وَهُمْ الَّذِينَ نَقَلُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَحَدِيثَ «لَعَنَ اللهُ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا» قَالَ: فَكَانَتْ كَلِمَةُ الصَّحَابَةِ عَلَى الِاتِّفَاقِ مِنْ غَيْرِ

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٧٧.

اخْتِلَافٍ - وَهُمْ الَّذِينَ أُمِرْنَا بِالْأَخْذِ عَنْهُمْ إذْ لَمْ يَخْتَلِفُوا بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى فِي أَحْكَامِ التَّوْحِيدِ وَأُصُولِ الدِّينِ مِنْ «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» كَمَا اخْتَلَفُوا فِي الْفُرُوعِ وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافٌ لَنُقِلَ إلَيْنَا؛ كَمَا نُقِلَ سَائِرُ الِاخْتِلَافِ- فَاسْتَقَرَّ صِحَّةُ ذَلِكَ عِنْدَ خَاصَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ؛ حَتَّى أَدَّوْا ذَلِكَ إلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ فَاسْتَقَرَّ صِحَّةُ ذَلِكَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْمَعْرُوفِينَ؛ حَتَّى نَقَلُوا ذَلِكَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ؛ لِأَنَّ الِاخْتِلَافَ كَانَ عِنْدَهُمْ فِي الْأَصْلِ كُفْرٌ وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ. ثُمَّ إنِّي قَائِلٌ -وَبِاَللهِ أَقُولُ- إنَّهُ لَمَّا اخْتَلَفُوا فِي أَحْكَامِ التَّوْحِيدِ وَذِكْرِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَى خِلَافِ مَنْهَجِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَخَاضُوا فِي ذَلِكَ مَنْ لَمْ يُعْرَفُوا بِعِلْمِ الْآثَارِ وَلَمْ يَعْقِلُوا قَوْلَهُمْ بِذِكْرِ الْأَخْبَارِ وَصَارَ مِعْوَلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِ هَوَى حُسْنِ النَّفْسِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِهِ عَلَى مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ وَالتَّعَلُّقِ مِنْهُمْ بِآيَاتٍ لَمْ يُسْعِدْهُمْ فِيهَا مَا وَافَقَ النُّفُوسَ فَتَأَوَّلُوا عَلَى مَا وَافَقَ هَوَاهُمْ وَصَحَّحُوا بِذَلِكَ مَذْهَبَهُمْ: احْتَجْت إلَى الْكَشْفِ عَنْ صِفَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَمَأْخَذِ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْهَاجِ الْأَوَّلِينَ؛ خَوْفًا مِنْ الْوُقُوعِ فِي جُمْلَةِ أَقَاوِيلِهِمْ الَّتِي حَذَّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ وَمَنَعَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ حَتَّى حَذَّرَهُمْ. ثُمَّ ذَكَرَ: أَبُو عَبْدِاللهِ خُرُوجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْقَدَرِ وَغَضَبَهُ وَحَدِيثَ «**لَا أَلفين أَحَدَكُمْ**» وَحَدِيثَ «**سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**» فَإِنَّ النَّاجِيَةَ مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ؛ ثُمَّ قَالَ: فَلَزِمَ الْأُمَّةَ قَاطِبَةً مَعْرِفَةُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَلَمْ يَكُنْ الْوُصُولُ إلَيْهِ إلَّا مِنْ جِهَةِ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ؛ الْمَعْرُوفِينَ بِنَقْلِ الْأَخْبَارِ مِمَّنْ لَا يَقْبَلُ الْمَذَاهِبَ الْمُحْدَثَةَ. فَيَتَّصِلُ ذَلِكَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ مِمَّنْ عُرِفُوا بِالْعَدَالَةِ وَالْأَمَانَةِ الْحَافِظِينَ عَلَى الْأُمَّةِ مَا لَهُمْ

وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ إثْبَاتِ السُّنَّةِ. إلَى أَنْ قَالَ: فَأَوَّلُ مَا نَبْتَدِئُ بِهِ مَا أَوْرَدْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْ أَجْلِهَا ذَكَرَ «أَسْمَاءَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ» فِي كِتَابِهِ وَمَا بَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ «صِفَاتِهِ» فِي سُنَّتِهِ وَمَا وَصَفَ بِهِ عَزَّوَجَلَّ مِمَّا سَنَذْكُرُ قَوْلَ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ لَنَا فِي ذَلِكَ أَنْ نَرُدَّهُ إلَى أَحْكَامِ عُقُولِنَا بِطَلَبِ الْكَيْفِيَّةِ بِذَلِكَ وَمِمَّا قَدْ أُمِرْنَا بِالِاسْتِسْلَامِ لَهُ - إلَى أَنْ قَالَ: - ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعَرَّفَ إلَيْنَا بَعْدَ إثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْإِقْرَارِ بِالْأُلُوهِيَّةِ: أَنْ ذَكَرَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بَعْدَ التَّحْقِيقِ بِمَا بَدَأَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَكَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ فَقَبِلُوا مِنْهُ كَقَبُولِهِمْ لِأَوَائِلِ التَّوْحِيدِ مِنْ ظَاهِرِ قَوْلِهِ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ. إلَى أَنْ قَالَ بِإِثْبَاتِ نَفْسِهِ بِالتَّفْصِيلِ مِنْ الْمُجْمَلِ. فَقَالَ: لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١]. وَقَالَ تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨]. وَلِصِحَّةِ ذَلِكَ وَاسْتِقْرَارِ مَا جَاءَ بِهِ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦]. وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤]. وَأَكَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِحَّةَ إثْبَاتِ ذَلِكَ فِي سُنَّتِهِ فَقَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْته فِي نَفْسِي» وَقَالَ: «كَتَبَ كِتَابًا بِيَدِهِ عَلَى نَفْسِهِ: إنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي» وَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ» وَقَالَ فِي مُحَاجَّةِ آدَمَ لِمُوسَى: «أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاك اللهُ وَاصْطَنَعَك لِنَفْسِهِ» فَقَدْ صَرَّحَ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ: أَنَّهُ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ نَفْسًا وَأَثْبَتَ لَهُ الرَّسُولُ ذَلِكَ فَعَلَى مَنْ صَدَّقَ اللهَ وَرَسُولَهُ اعْتِقَادُ مَا أَخْبَرَ بِهِ

عَنْ نَفْسِهِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مَبْنِيًّا عَلَى ظَاهِرِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. ثُمَّ قَالَ: «فَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ قَبُولُ كُلِّ مَا وَرَدَ عَنْهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِنَقْلِ الْعَدْلِ عَنْ الْعَدْلِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ مِمَّا قَضَى اللهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ وَوَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَرَدَتْ السُّنَّةُ بِصِحَّةِ ذَلِكَ أَنْ قَالَ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]. ثُمَّ قَالَ عَقِيبَ ذَلِكَ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ وَبِذَلِكَ دَعَاهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي مُوسَى: «حِجَابُهُ النُّورِ -أَوْ النَّارِ- لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» وَقَالَ: سُبُحَاتُ وَجْهِهِ جَلَالُهُ وَنُورُهُ نَقَلَهُ عَنْ الْخَلِيلِ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَقَالَ: قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: نُورُ السَّمَوَاتِ نُورُ وَجْهِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَمِمَّا وَرَدَ بِهِ النَّصُّ أَنَّهُ حَيٌّ وَذَكَرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَالْحَدِيثُ: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِك أَسْتَغِيثُ**». قَالَ: وَمِمَّا تَعَرَّفَ اللهُ إلَى عِبَادِهِ أَنْ وَصَفَ نَفْسَهُ أَنَّ لَهُ وَجْهًا مَوْصُوفًا بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ وَجْهًا - وَذَكَرَ الْآيَاتِ. ثُمَّ

ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي مُوسَى الْمُتَقَدِّمَ فَقَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ أَوْصَافِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ مُوَافِقٌ لِظَاهِرِ الْكِتَابِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وَأَنَّ لَهُ «وَجْهًا» مَوْصُوفًا بِالْأَنْوَارِ وَأَنَّ لَهُ «بَصَرًا» كَمَا عَلَّمَنَا فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. ثُمَّ ذَكَرَ الْأَحَادِيثَ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ وَفِي إِثْبَاتِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَعَرَّفَ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ قَالَ: لَهُ يَدَانِ قَدْ بَسَطَهُمَا بِالرَّحْمَةِ وَذَكَرَ الْأَحَادِيثَ فِي ذَلِكَ ثُمَّ ذَكَرَ شِعْرَ أُمَيَّةَ بْنَ أَبِي الصَّلْتِ. ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ: «يُلْقَى فِي النَّارِ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رِجْلَهُ» وَهِيَ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى يَضَعُ عَلَيْهَا قَدَمَهُ. ثُمَّ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ الْبَطِينُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْكُرْسِيَّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ وَأَنَّ الْعَرْشَ لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللهُ وَذَكَرَ قَوْلَ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ نَفْسِهِ وَقَوْلَ السدي وَقَوْلَ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ وَاضِعَ رِجْلَيْهِ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: «فَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ قَدْ رُوِيَتْ عَنْ هَؤُلَاءِ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُوَافَقَةً لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُتَدَاوَلَةً فِي الْأَقْوَالِ وَمَحْفُوظَةً فِي الصَّدْرِ وَلَا يُنْكِرُ خَلَفٌ عَنِ السَّلَفِ وَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنْ نُظَرَائِهِمْ نَقَلَتْهَا الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ مُدَوَّنَةٌ فِي كُتُبِهِمْ إِلَى أَنْ حَدَثَ فِي آخِرِ الْأُمَّةِ مَنْ قَلَّلَ اللهُ عَدَدَهُمْ مِمَّنْ حَذَّرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُكَالَمَتِهِمْ وَأُمِرْنَا أَنْ لَا نَعُودَ مَرْضَاهُمْ وَلَا نُشَيِّعَ جَنَائِزَهُمْ فَقَصَدَ هَؤُلَاءِ إِلَى هَذِهِ الرِّوَايَاتِ فَضَرَبُوهَا بِالتَّشْبِيهِ وَعَمَدُوا إِلَى الْأَخْبَارِ فَعَمِلُوا فِي دَفْعِهَا إِلَى أَحْكَامِ الْمَقَايِيسِ وَكُفْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَنْكَرُوا عَلَى الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ؛ وَرَدُّوا عَلَى الْأَئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ فَضَّلُوا وَأَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ. ثُمَّ ذَكَرَ: الْمَأْثُورَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَوَابَهُ

لنجدة الحروري؛ ثُمَّ حَدِيثَ «الصُّورَةِ» وَذَكَرَ أَنَّهُ صَنَّفَ فِيهِ كِتَابًا مُفْرَدًا وَاخْتِلَافَ النَّاسِ فِي تَأْوِيلِهِ.

ثُمَّ قَالَ: «وَسَنَذْكُرُ أُصُولَ السُّنَّةِ وَمَا وَرَدَ مِنْ الِاخْتِلَافِ فِيمَا نَعْتَقِدُهُ مِمَّا خَالَفْنَا فِيهِ أَهْلَ الزَّيْغِ وَمَا وَافَقْنَا فِيهِ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ مِنْ الْمُثْبِتَةِ - إنْ شَاءَ اللهُ -. ثُمَّ ذَكَرَ الْخِلَافَ فِي الْإِمَامَةِ وَاحْتَجَّ عَلَيْهَا وَذَكَرَ اتِّفَاقَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى تَقْدِيمِ «الصِّدِّيقِ» وَأَنَّهُ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ. ثُمَّ قَالَ: وَكَانَ الِاخْتِلَافُ فِي «خَلْقِ الْأَفْعَالِ» هَلْ هِيَ مُقَدَّرَةٌ أَمْ لَا؟ قَالَ: وَقَوْلُنَا فِيهَا أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مُقَدَّرَةٌ مَعْلُومَةٌ وَذَكَرَ إثْبَاتَ الْقَدَرِ. ثُمَّ ذَكَرَ الْخِلَافَ فِي أَهْلِ «الْكَبَائِرِ» وَمَسْأَلَةَ «الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ» وَقَالَ: قَوْلُنَا فِيهَا إنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَمْرُهُمْ إلَى اللهِ إنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُمْ. وَقَالَ: أَصْلُ «الْإِيمَانِ» مَوْهِبَةٌ يَتَوَلَّدُ مِنْهَا أَفْعَالُ الْعِبَادِ فَيَكُونُ أَصْلَ التَّصْدِيقِ وَالْإِقْرَارِ وَالْأَعْمَالِ وَذَكَرَ الْخِلَافَ فِي زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ. وَقَالَ: قَوْلُنَا إنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ. قَالَ: ثُمَّ كَانَ الِاخْتِلَافُ فِي الْقُرْآنِ مَخْلُوقًا وَغَيْرُ مَخْلُوقٍ فَقَوْلُنَا وَقَوْلُ أَئِمَّتِنَا إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ غَيْرَ مَخْلُوقٍ وَإِنَّهُ صِفَةُ اللهِ مِنْهُ بَدَأَ قَوْلًا وَإِلَيْهِ يَعُودُ حُكْمًا. ثُمَّ ذَكَرَ الْخِلَافَ فِي الرُّؤْيَةِ وَقَالَ: قَوْلُنَا وَقَوْلُ أَئِمَّتِنَا فِيمَا نَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ يُرَى فِي الْقِيَامَةِ وَذَكَرَ الْحُجَّةَ. ثُمَّ قَالَ: اعْلَمْ رَحِمَك اللهُ أَنِّي ذَكَرْت أَحْكَامَ الِاخْتِلَافِ عَلَى مَا وَرَدَ مِنْ تَرْتِيبِ الْمُحَدِّثِينَ فِي كُلِّ الْأَزْمِنَةِ وَقَدْ بَدَأْت أَنْ أَذْكُرَ أَحْكَامَ الْجُمَلِ مِنْ الْعُقُودِ. فَنَقُولُ: وَنَعْتَقِدُ: أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ عَرْشٌ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتِهِ بِكُلِّ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. قَالَ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا

﴿تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]. وَلَا نَقُولُ إِنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا هُوَ فِي السَّمَاءِ عَلَى عَرْشِهِ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَجْرِي عَلَى عِبَادِهِ ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: «وَنَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَإِنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ لِلْبَقَاءِ؛ لَا لِلْفَنَاءِ. إِلَى أَنْ قَالَ: وَنَعْتَقِدُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَجَ بِنَفْسِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. إِلَى أَنْ قَالَ: «وَنَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ قَبَضَ قَبْضَتَيْنِ» فَقَالَ: «هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ». وَنَعْتَقِدُ أَنَّ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «حَوْضًا» وَنَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَذَكَرَ «الصِّرَاطَ» وَ«الْمِيزَانَ» وَ«الْمَوْتَ» وَأَنَّ الْمَقْتُولَ قُتِلَ بِأَجَلِهِ وَاسْتَوْفَى رِزْقَهُ. إِلَى أَنْ قَالَ: وَمِمَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ؛ فَيَبْسُطُ يَدَهُ فَيَقُولُ: «أَلَا هَلْ مِنْ سَائِلٍ» الْحَدِيثَ وَلَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ وَعَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي ذَلِكَ. قَالَ: وَنَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا. وَاتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَأَنَّ الْخُلَّةَ غَيْرُ الْفَقْرِ؛ لَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْبِدَعِ. وَنَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرُّؤْيَةِ. وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. وَنَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى اخْتُصَّ بِمِفْتَاحِ خَمْسٍ مِنْ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾ [لقمان: ٣٤]. وَنَعْتَقِدُ الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ: ثَلَاثًا لِلْمُسَافِرِ وَيَوْمًا وَلَيْلَةً لِلْمُقِيمِ وَنَعْتَقِدُ الصَّبْرَ عَلَى السُّلْطَانِ مِنْ قُرَيْشٍ؛ مَا كَانَ مِنْ جَوْرٍ أَوْ عَدْلٍ. مَا أَقَامَ الصَّلَاةَ مِنْ الْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ. وَالْجِهَادُ مَعَهُمْ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَالصَّلَاةُ فِي الْجَمَاعَةِ حَيْثُ يُنَادَى لَهَا وَاجِبٌ؛ إِذَا لَمْ يَكُنْ عُذْرٌ أَوْ مَانِعٌ وَالتَّرَاوِيحُ سُنَّةٌ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ عَمْدًا فَهُوَ كَافِرٌ وَالشَّهَادَةُ

وَالْبَرَاءَةُ بِدْعَةٌ وَالصَّلَاةُ عَلَى مَنْ مَاتَ مَنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ سُنَّةٌ؛ وَلَا نُنَزِّلُ أَحَدًا جَنَّةً وَلَا نَارًا حَتَّى يَكُونَ اللهُ يُنَزِّلُهُمْ؛ وَالْمِرَاءُ وَالْجِدَالُ فِي الدِّينِ بِدْعَةٌ. وَنَعْتَقِدُ أَنَّ مَا شَجَرَ بَيْنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ وَنَتَرَحَّمُ عَلَى عَائِشَةَ ونترضى عَنْهَا؛ وَالْقَوْلُ فِي اللَّفْظِ وَالْمَلْفُوظِ؛ وَكَذَلِكَ فِي الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى بِدْعَةٌ؛ وَالْقَوْلُ فِي الْإِيمَانِ مَخْلُوقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ بِدْعَةٌ. وَاعْلَمْ أَنِّي ذَكَرْت اعْتِقَادَ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى ظَاهِرِ مَا وَرَدَ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مُجْمَلًا مِنْ غَيْرِ اسْتِقْصَاءٍ؛ إذْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ مِنْ مَشَايِخِنَا الْمَعْرُوفِينَ مَنْ أَهْلِ الْإِبَانَةِ وَالدِّيَانَةِ إلَّا أَنِّي أَحْبَبْت أَنْ أَذْكُرَ «عُقُودَ أَصْحَابِنَا الْمُتَصَوِّفَةِ» فِيمَا أَحْدَثَتْهُ طَائِفَةٌ نُسِبُوا إلَيْهِمْ مَا قَدْ تخرصوا مِنْ الْقَوْلِ بِمَا نَزَّهَ اللهَ تَعَالَى الْمَذْهَبُ وَأَهْلُهُ مِنْ ذَلِكَ. إلَى أَنْ قَالَ: وَقَرَأْت لِمُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطبري فِي كِتَابٍ سَمَّاهُ «التَّبْصِيرَ» كَتَبَ بِذَلِكَ إلَى أَهْلِ طبرستان فِي اخْتِلَافٍ عِنْدَهُمْ؛ وَسَأَلُوهُ أَنْ يُصَنِّفَ لَهُمْ مَا يَعْتَقِدُهُ وَيَذْهَبُ إلَيْهِ؛ فَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ اخْتِلَافَ الْقَائِلِينَ بِرُؤْيَةِ اللهِ تَعَالَى؛ فَذَكَرَ عَنْ طَائِفَةٍ إثْبَاتَ الرُّؤْيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَنَسَبَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ إلَى «الصُّوفِيَّةِ» قَاطِبَةً لَمْ يَخُصَّ طَائِفَةً. فَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ عَلَى جَهَالَةٍ مِنْهُ بِأَقْوَالِ الْمُخْلَصِينَ مِنْهُمْ؛ وَكَانَ مَنْ نُسِبَ إلَيْهِ ذَلِكَ الْقَوْلُ - بَعْدَ أَنْ ادَّعَى عَلَى الطَّائِفَةِ - ابْنِ أُخْتِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ؛ وَاَللهُ أَعْلَمُ بِمَحِلِّهِ عِنْدَ الْمُخْلَصِينَ؛ فَكَيْفَ بِابْنِ أُخْتِهِ. وَلَيْسَ إذَا أَحْدَثَ الزَّائِغُ فِي نِحْلَتِهِ قَوْلًا نُسِبَ إلَى الْجُمْلَةِ؛ كَذَلِكَ فِي الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ لَيْسَ مَنْ أَحْدَثَ قَوْلًا فِي الْفِقْهِ؛ وَلَيْسَ فِيهِ حَدِيثٌ يُنَاسِبُ ذَلِكَ؛ يُنْسَبُ ذَلِكَ إلَى جُمْلَةِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ. وَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ «الصُّوفِيَّةِ» وَعُلُومَهُمْ تَخْتَلِفُ فَيُطْلِقُونَ أَلْفَاظَهُمْ عَلَى مَوْضُوعَاتٍ لَهُمْ وَمَرْمُوزَاتٍ

وَإِشَارَاتٍ تَجْرِي فِيمَا بَيْنَهُمْ فَمَنْ لَمْ يُدَاخِلْهُمْ عَلَى التَّحْقِيقِ وَنَازَلَ مَا هُمْ عَلَيْهِ رَجَعَ عَنْهُمْ وَهُوَ خَاسِئٌ وَحَسِيرٌ. ثُمَّ ذَكَرَ إطْلَاقَهُمْ لَفْظَ «الرُّؤْيَةِ» بِالتَّقْيِيدِ. فَقَالَ: كَثِيرًا مَا يَقُولُونَ رَأَيْت اللهَ يَقُولُ. وَذَكَرَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَوْلُهُ لَمَّا سُئِلَ: هَلْ رَأَيْت اللهَ حِينَ عَبَدْته؟ قَالَ رَأَيْت اللهَ ثُمَّ عَبَدْته. فَقَالَ السَّائِلُ كَيْفَ رَأَيْته؟ فَقَالَ: لَمْ تَرَهُ الْأَبْصَارُ بِتَحْدِيدِ الْأَعْيَانِ؛ وَلَكِنْ رُؤْيَةُ الْقُلُوبِ بِتَحْقِيقِ الْإِيقَانِ ثُمَّ قَالَ: «وَإِنَّهُ تَعَالَى يُرَى فِي الْآخِرَةِ كَمَا أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ وَذَكَرَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هَذَا قَوْلُنَا وَقَوْلُ أَئِمَّتِنَا دُونَ الْجُهَّالِ مِنْ أَهْلِ الْغَبَاوَةِ فِينَا... وَنَعْتَقِدُ أَنَّ الْقِرَاءَةَ «الْمُلَحَّنَةَ» بِدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ. وَأَنَّ «الْقَصَائِدَ» بِدْعَةٌ. وَمَجْرَاهَا عَلَى قِسْمَيْنِ: فَالْحَسَنُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ ذَكَرَ آلَاءِ اللهِ وَنَعْمَائِهِ وَإِظْهَارِ نَعْتِ الصَّالِحِينَ وَصِفَةِ الْمُتَّقِينَ فَذَلِكَ جَائِزٌ وَتَرْكُهُ وَالِاشْتِغَالُ بِذِكْرِ اللهِ وَالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ أَوْلَى بِهِ وَمَا جَرَى عَلَى وَصْفِ الْمَرْئِيَّاتِ وَنَعْتِ الْمَخْلُوقَاتِ فَاسْتِمَاعُ ذَلِكَ عَلَى اللهِ كُفْرٌ وَاسْتِمَاعُ الْغِنَاءِ والربعيات عَلَى اللهِ كُفْرٌ وَالرَّقْصُ بِالْإِيقَاعِ وَنَعْتُ الرَّقَّاصِينَ عَلَى أَحْكَامِ الدِّينِ فِسْقٌ وَعَلَى أَحْكَامِ التَّوَاجُدِ وَالْغِنَاءِ لَهْوٌ وَلَعِبٌ. وَحَرَامٌ عَلَى كُلِّ مَنْ يَسْمَعُ الْقَصَائِدَ والربعيات الْمُلَحَّنَةَ - الْجَائِي بَيْنَ أَهْلِ الْأَطْبَاعِ - عَلَى أَحْكَامِ الذِّكْرِ إلَّا لِمَنْ تَقَدَّمَ لَهُ الْعِلْمُ بِأَحْكَامِ التَّوْحِيدِ وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يُضَافُ إلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ؛ وَمَا لَا يَلِيقُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ مِمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ فَيَكُونُ اسْتِمَاعُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٨]. وَكُلُّ مَنْ جَهِلَ ذَلِكَ وَقَصَدَ اسْتِمَاعَهُ عَلَى اللهِ عَلَى غَيْرِ تَفْصِيلِهِ فَهُوَ كُفْرٌ لَا مَحَالَةَ فَكُلُّ مَنْ جَمَعَ الْقَوْلَ وَأَصْغَى بِالْإِضَافَةِ إلَى اللهِ فَغَيْرُ جَائِزٍ إلَّا لِمَنْ عُرِفَ بِمَا وَصَفْت مِنْ ذَكَرَ

اللهِ وَنَعْمَائِهِ وَمَا هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ عَزَّوَجَلَّ مِمَّا لَيْسَ لِلْمَخْلُوقِينَ فِيهِ نَعْتٌ وَلَا وَصْفٌ؛ بَلْ تَرْكُ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَحْوَطُ وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا بِدْعَةٌ وَالْفِتْنَةُ فِيهَا غَيْرُ مَأْمُونَةٍ عَلَى اسْتِمَاعِ الْغِنَاءِ. وَ«الربعيات» بِدْعَةٌ وَذَلِكَ مِمَّا أَنْكَرَهُ المطلبي وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَيَزِيدُ بْنُ هَارُونَ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقُ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ أَوْلَى مِنْ الِاقْتِدَاءِ بِمَنْ لَا يُعْرَفُونَ فِي الدِّينِ وَلَا لَهُمْ قَدَمٌ عِنْدَ الْمُخْلَصِينَ. وَبَلَغَنِي أَنَّهُ قِيلَ لِبِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ: إنَّ أَصْحَابَك قَدْ أَحْدَثُوا شَيْئًا يُقَالُ لَهُ الْقَصَائِدُ. قَالَ مِثْلُ أيش؟ قَالَ مِثْلُ قَوْلِهِ: اصْبِرِي يَا نَفْسُ حَتَّى تَسْكُنِي دَارَ الْجَلِيلِ فَقَالَ: حَسَنٌ وَأَيْنَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ذَلِكَ؟ قَالَ قُلْت بِبَغْدَادَ فَقَالَ كَذَبُوا - وَاَللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ غَيْرُهُ - لَا يَسْكُنُ بِبَغْدَادَ مَنْ يَسْتَمِعُ ذَلِكَ. قَالَ أَبُو عبدالله: وَمِمَّا نَقُولُ - وَهُوَ قَوْلُ أَئِمَّتِنَا - إنَّ الْفَقِيرَ إذَا احْتَاجَ وَصَبَرَ وَلَمْ يَتَكَفَّفْ إلَى وَقْتٍ يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ كَانَ أَعْلَى فَمَنْ عَجَزَ عَنْ الصَّبْرِ كَانَ السُّؤَالُ أَوْلَى بِهِ عَلَى قَوْلِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ**» الْحَدِيثَ وَنَقُولُ: إنَّ تَرْكَ الْمَكَاسِبِ غَيْرُ جَائِزٍ إلَّا بِشَرَائِطَ مَوْسُومَةٍ مِنْ التَّعَفُّفِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ؛ وَمَنْ جَعَلَ السُّؤَالَ حِرْفَةً - وَهُوَ صَحِيحٌ - فَهُوَ مَذْمُومٌ فِي الْحَقِيقَةِ خَارِجٌ. وَنَقُولُ: إنَّ الْمُسْتَمِعَ إلَى «الْغِنَاءِ وَالْمَلَاهِي» فَإِنَّ ذَلِكَ كَمَا قَالَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ «الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ» وَإِنْ لَمْ يُكَفِّرْ فَهُوَ فِسْقٌ لَا مَحَالَةَ. وَالَّذِي نَخْتَارُ: قَوْلَ أَئِمَّتِنَا: إنَّ تَرْكَ الْمِرَاءِ فِي الدِّينِ وَالْكَلَامِ فِي الْإِيمَانِ مَخْلُوقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَاسِطٌ يُؤَدِّي وَأَنَّ الْمُرْسَلَ إلَيْهِمْ أَفْضَلُ: فَهُوَ كَافِرٌ بِاَللَّهِ وَمَنْ قَالَ بِإِسْقَاطِ الْوَسَائِطِ عَلَى الْجُمْلَةِ فَقَدْ كَفَرَا[1]. اهـ

(١) انظر الحموية الكبرى ص٤٠ وما قبله.

٢٣- قول الإمام يحيى بن عمار السجزي شيخ أبي إسماعيل الأنصاري إمام الصوفية في وقته قال في رسالته في السنة بعد كلام: بل نقول هو بذاته على العرش وعلمه محيط بكل شيء وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]. فقال في أول رسالته: فالإجماع منعقد بين العقلاء على كون الكلام حرفًا وصوتًا فلما نبغ ابن كلاب وأضرابه وحاولوا الرد على المعتزلة من طريق مجرد العقل وهم لا يخبرون أصول السنة ولا ما كان السلف عليه، ولا يحتجون بالأخبار الواردة في ذلك زعمًا منهم أنها أخبار آحاد وهي لا توجب علما وألزمتهم المعتزلة أن الاتفاق حاصل على أن الكلام حرف وصوت ويدخله التعاقب والتأليف وذلك لا يوجد في الشاهد إلا بحركة وسكون ولا بد له من أن يكون ذا أجزاء وأبعاض وما كان بهذه المثابة لا يجوز أن يكون من صفات ذات الله لأن ذات الله سبحانه لا توصف بالاجتماع والافتراق والكل والبعض والحركة والسكون وحكم الصفة الذاتية حكم الذات.

٢٤- وَمِنْ مُتَأَخِّرِيهِمْ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عبدالقادر بْنُ أَبِي صَالِحٍ الجيلاني «قَالَ فِي كِتَابِ الغنية»: أَمَّا مَعْرِفَةُ الصَّانِعِ بِالْآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ عَلَى وَجْهِ الِاخْتِصَارِ فَهُوَ أَنْ يَعْرِفَ وَيَتَيَقَّنَ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ. إلَى أَنْ قَالَ: وَهُوَ بِجِهَةِ الْعُلُوِّ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ مُحْتَوٍ عَلَى الْمُلْكِ مُحِيطٌ عِلْمُهُ بِالْأَشْيَاءِ {قَالَ

تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر: ١٠]. قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة: ٥]. وَلَا يَجُوزُ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ بَلْ يُقَالُ إِنَّهُ فِي السَّمَاءِ عَلَى الْعَرْشِ كَمَا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [طه: ٥]. وَذَكَرَ آيَاتٍ وَأَحَادِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ: وَيَنْبَغِي إِطْلَاقُ صِفَةِ الِاسْتِوَاءِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَأَنَّهُ اسْتِوَاءُ الذَّاتِ عَلَى الْعَرْشِ قَالَ: وَكَوْنُهُ عَلَى الْعَرْشِ: مَذْكُورٌ فِي كُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ بِلَا كَيْفٍ وَذَكَرَ كَلَامًا طَوِيلًا لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمَوْضِعُ وَذَكَرَ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ نَحْوَ هَذَا[(١)].

٢٥- وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قول الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين الشيخ عبدالقادر الجيلاني قدس الله روحه قال في كتابه «تحفة المتقين وسبيل العارفين» في باب «اختلاف المذاهب في صفات الله عَزَّوَجَلَّ» وفي ذكر اختلاف الناس في الوقف عند قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧]. قال إسحاق في العلم - إلى أن قال - والله تعالى بذاته على العرش علمه محيط بكل مكان، والوقف عند أهل الحق على قوله «إلا الله» وقد روي ذلك عن فاطمة بنت

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٧٥.

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على العرش، ويعلم ما في السماوات والأرض - إلى أن قال - ووقف جماعة من منكري استواء الرب عَزَّوَجَلَّ على قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. وابتدأوا بقوله: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ [يونس: ٦٨] يريدون بذلك نفي الاستواء الذي وصف به نفسه. وهذا خطأ منهم لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته. وقال في كتابه الغنية: أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار، فهو أن تعرف وتتيقن أن الله واحد أحد، إلى أن قال، وهو بجهة العلو مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال إنه في السماء على العرش استوى، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وساق آيات وأحاديث ثم قال وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش، ثم قال وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف، هذا نص كلامه في الغنية [(١)].

٢٦- قول الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني شيخ الصوفية في

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٧٥.

أواخر المائة الرابعة قال في رسالته: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين قال فيها: وإن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل والاستواء معقول والكيف مجهول وأنه عَزَّوَجَلَّ بائن من خلقه، والخلق بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة، لأنه الفرد البائن من الخلق الواحد الغني عن الخلق، وأن الله سميع بصير عليم خبير يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء فيقول: هل من داع فأستجيب له، هل من تائب فأتوب عليه حتى يطلع الفجر، ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال[(١)].

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية:

١- وقالوا بعدم مشروعية الأذان والإقامة للعيدين، استدلالا بإجماع الصحابة قال الترمذي: «والعمل عليه عند أهل العلم من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وغيرهم»[(٢)].

٢- وقالوا بعدم مشروعية الجمع بين الجلد والرجم في حد الثيب استدلالا بفهم السلف لأحاديث الباب قال البغوي: «... وذهب الأكثرون

(١) سبق توثيقه.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٤١٢.

إلى أنه لا جلد على المحصن مع الرجم يروى ذلك عن... وهو قول أكثر التابعين، وعامة الفقهاء وإليه ذهب سفيان الثوري، وابن المبارك... وأصحاب الرأي وذهبوا إلى أن الجلد منسوخ فيمن وجب عليه الرجم؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجم ماعزا والغامدية، واليهوديين، ولم يجلد واحدا منهم وقال لأنيس الأسلمي: «فإن اعترفت فارجمها» ولم يأمره بجلدها وهذا آخر الأمرين؛ لأن أبا هريرة رواه وهو متأخر الإسلام فيكون ناسخا لما سبق من الجمع بين الجلد والرجم»[(١)].

٣- وكان سفيان الثوري، وابن المبارك، وإسحاق لا يرون الجهر بالبسملة استدلالا بحديث عبدالله بن مغفل عن أبيه قال: «سمعني أبي وأنا في الصلاة أقول بسم الله الرحمن الرحيم، فقال لي: أي بني محدث إياك والحدث قال: ولم أر أحدا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أبغض إليه الحدث في الإسلام يعني منه قال: وقد صليت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع أبي بكر، ومع عمر، ومع عثمان فلم أسمع أحدا منهم يقولها فلا تقلها...»[(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) شرح السنة للبغوي ١٠/ ٢٧٦.

(٢) جامع الترمذي ٢/ ١٢ برقم: ٢٤٤.

المسألة الثانية:

حجيتها عند علماء الحديث

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: تأصيلهم القاعدة.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة.

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية.

الافتتاحية:

وقال الخلال في كتاب السنة: أخبرنا أبو بكر المروزي حدثنا محمد بن الصباح النيسابوري حدثنا سليمان بن داود الخفاف قال: قال إسحاق بن راهويه قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شيء أسفل الأرض السابعة وفي قعور البحار ورؤوس الجبال وبطون الأودية وفي كل موضع، كما يعلم ما في السماوات السبع وما دون العرش أحاط بكل شيء علما، ولا تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه، لا يعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره.

بنى الإمام البخاري صحيحه على الاستدلال بالكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة ومن هنا يصدر أكثر أبواب صحيحه بأقوال السلف، ثم يذكر النصوص من الآيات وهذا واضح لمن تأمل صحيحه. قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قول إمام أهل الإسلام محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى».

قال في كتاب التوحيد من صحيحه «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم» قال أبو العالية: «استوى إلى السماء ارتفع «فسواهن» خلقهن، وقال مجاهد «استوى» علا على العرش، ثم ساق البخاري حديث زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أنها كانت تفتخر على نساء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات، وذكر تراجم أبواب هذا الكتاب الذي ترجمه كتاب التوحيد

والرد على الجهمية ردا على أقوال الجهمية التي خالفوا بها الأمة».

وقال الإمام ابن أبي حاتم: «فأما أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصرته، وإمامة دينه، وإظهار حقه فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلاما وقدوة، فحفظوا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بلغهم عن الله، وما سن، وشرع، وحكم، وقضى، وندب، وأمر، ونهى وحظر، وأدب، ووعوه وأتقنوه ففقهوا في دين الله...الخ».

وقال الإمام أبو عيسى الترمذي عقب روايته لحديث فيه ذكر صفة اليمين للرحمن جل وعلا قال: «وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث، وما يشبه هذا من الروايات في الصفات، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا قالوا: قد ثبتت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم، ولا يقال: كيف؟ هكذا روي عن مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وعبدالله بن المبارك أنهم قالوا: في هذه الصفات: أمروها بلا كيف، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

وأما الجهمية، فأنكرت هذه الروايات، وقالوا: هذا تشبيه. وقد ذكر الله تعالى في غير موضع من كتابه: اليد، والسمع، والبصر فتأولت الجهمية هذه الآيات، ففسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وقالوا: معنى اليد هاهنا القوة. وقال إسحاق بن إبراهيم: إنما التشبيه إذا قال: يد كيد، أو مثل يد، أو سمع كسمع، أو مثل سمع فهذا التشبيه. وأما

إذا قال: كما قال الله تعالى: يد، وسمع، وبصر، ولا يقول: كيف، ولا يقول: مثل سمع، ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيها وهو كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

قول الحافظ أبي بكر الآجري إمام عصره في الحديث والفقه قال في كتابه الشريف «باب التحذير من مذهب الحلولية» الذي يذهب اليه أهل العلم: أن الله على عرشه فوق سمواته، وعلمه محيط بكل شيء، قد أحاط بجميع ما خلق في السماوات العلا وبجميع ما خلق في سبع أرضين، ترفع إليه أعمال العباد، فإن قال قائل فما معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] قيل له علمه معهم، والله عَزَّوَجَلَّ على عرشه وعلمه محيط بهم، كذا فسره أهل العلم، والآية تدل أولها وآخرها على أنه العلم، وهو على عرشه، هذا قول المسلمين.

قال الحافظ أبو جعفر محمد بن عثمان بن محمد بن أبي شيبة العبسي محدث الكوفة في وقته -وقد تكلم فيه- ألف كتابا في العرش، فقال: (ذكروا أن الجهمية يقولون: ليس بين الله وبين خلقه حجاب، وأنكروا العرش، وأن يكون الله فوقه، وقالوا: إنه في كل مكان، ففسرت العلماء ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني علمه، ثم تواترت الأخبار أن الله تعالى خلق العرش فاستوى عليه فهو فوق العرش متخلصا من خلقه بائنا منهم».

الفرع الأول: تأصيلهم القاعدة.

١- وقال الإمام ابن أبي حاتم: «فأما أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصرته، وإمامة دينه، وإظهار حقه فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلاما وقدوة، فحفظوا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بلغهم عن الله، وما سن، وشرع، وحكم، وقضى، وندب، وأمر، ونهى وحظر، وأدب، ووعوه وأتقنوه ففقهوا في دين الله...ألخ»[(١)].

٢- وقال الحافظ أبو القاسم الطبري وجدت في كتاب أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي مما سمع منه يقول: «مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتابعين من بعدهم، والتمسك بمذاهب أهل الأثر مثل: الشافعي، وأحمد، وإسحاق وأبو عبيد رَحِمَهُمُ اللَّهُ ولزوم الكتاب والسنة، ونعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ على عرشه بائن من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[(٢)] [الشورى: ١١].

٣- بنى الإمام البخاري صحيحه على الاستدلال بالكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة ومن هنا يصدر أكثر أبواب صحيحه بأقوال السلف، ثم يذكر النصوص من الآيات وهذا واضح لمن تأمل صحيحه. قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: قول إمام أهل الإسلام محمد

---

(١) الجرح والتعديل ٧/ ٧-٩.

(٢) العلو للعلي الغفار ٢/ ١١٦٢.

بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

قال في كتاب التوحيد من صحيحه «باب قول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ۝٧﴾ [هود: ٧] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التوبة: ١٢٩]. قال أبو العالية: استوى إلى السماء ارتفع «فسواهن» خلقهن، وقال مجاهد «استوى» علا على العرش، ثم ساق البخاري حديث زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها كانت تفتخر على نساء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات، وذكر تراجم أبواب هذا الكتاب الذي ترجمه كتاب التوحيد والرد على الجهمية ردا على أقوال الجهمية التي خالفوا بها الأمة»[(١)].

٤- وقال الإمام الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... فتأولت الجهمية هذه الآيات، ففسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وقالوا: معنى اليد هاهنا القوة. وقال إسحاق بن إبراهيم: إنما التشبيه إذا قال: يد كيد، أو مثل يد، أو سمع كسمع، أو مثل سمع فهذا التشبيه. وأما إذا قال: كما قال الله تعالى: يد، وسمع، وبصر، ولا يقول: كيف، ولا يقول: مثل سمع، ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيها وهو كما قال الله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾»[(٢)] [الشورى: ١١].

---

(١) انظر صحيح البخاري ٤/ ١٧٣٤.

(٢) جامع الترمذي ٣/ ٥٠-٥١.

الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة:

١- وقال شيخنا السلفي: «ووجدت في بعض كتب أبي حاتم محمد بن ادريس ابن المنذر الحنظلي الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مما سمع منه يقول مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم بإحسان وترك النظر في موضع بعدهم والتمسك بمذهب أهل الأثر مثل أبي عبدالله أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم وأبي عبيد القاسم بن سلام والشافعي ولزوم الكتاب والسنة والذب عن الائمة المتبعة لآثار السلف واختيار ما اختاره أهل السنة من الائمة في الأمصار مثل مالك بن أنس في المدينة والاوزاعي بالشام والليث بن سعد بمصر وسفيان الثوري وحماد بن زيد بالعراق من الحوادث مما لا يوجد فيه رواية عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين وترك رأي الملبسين المموهين المزخرفين الممخرقين الكذابين وترك النظر في كتب الكرابيس ومجانبة من يناضل عنه من أصحابه وشاجر دينه مثل داود الأصبهاني وأشكاله ومتبعيه والقرآن كلام الله وعلمه وأسماؤه وصفاته وأمره ونهيه ليس بمخلوق بجهة من الجهات والاتباع للأثر عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن الصحابة والتابعين بعدهم بإحسان وترك كلام المتكلمين وترك مجالستهم وهجرانهم وترك مجالسة من وضع الكتب بالرأي بلا آثار»[(١)].

٢- قول عاصم بن علي أحد شيوخ النبل شيخ البخاري وغيره أحد

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٨٠.

الأئمة الحفاظ الثقات حدث عن شعبة، وابن أبي ذئب، والليث رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، قال الخطيب وجه المعتصم من يحرز مجلسه في جامع الرصافة، وكان عاصم يجلس على سطح الرحبة ويجلس الناس في الرحبة وما يليها فعظم الجمع مرة جدا حتى قال أربع عشرة مرة حدثنا الليث بن سعد والناس لا يسمعون لكثرتهم فحزر المجلس فكان عشرين ومائة ألف رجل، قال يحيى بن معين فيه: هو سيد المسلمين، قال عاصم ناظرت جهميا فتبين من كلامه أنه اعتقد أن ليس في السماء رب، قال شيخ الإسلام: كان الجهمية يدورون على ذلك ولم يكونوا يصرحون به لوفور السلف والأئمة وكثرة أهل السنة فلما بعد العهد وانقرض الأئمة صرح أتباعهم بما كان أولئك يشيرون إليه ويدورون حوله، قال وهكذا ظهرت البدع كلما طال الأمر وبعد العهد اشتد أمرها وتغلظت، قال وأول بدعة ظهرت في الإسلام بدعة القدر والإرجاء، ثم بدعة التشيع إلى أن انتهى الأمر إلى الاتحاد والحلول وأمثالهما[(١)].

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية.

١- وقال الخلال في كتاب السنة: أخبرنا أبو بكر المروزي حدثنا محمد بن الصباح النيسابوري حدثنا سليمان بن داود الخفاف قال: قال إسحاق بن راهويه قال الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شيء أسفل الأرض السابعة وفي قعور البحار ورؤوس الجبال وبطون الأودية وفي كل موضع، كما يعلم ما في السماوات

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٦١.

السبع وما دون العرش أحاط بكل شيء علما، ولا تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه، لا يعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره»[(١)].

٢- وقال إمام أهل المشرق نظير أحمد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: قال حرب بن إسماعيل الكرماني صاحب أحمد، قلت لإسحاق بن راهويه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] كيف تقول فيه؟ قال حيث ما كنت فهو أقرب اليك من حبل الوريد وهو بائن من خلقه، ثم قال وأعلى كل شيء من ذلك وأثبته قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

٣- وقال السراج: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: دخلت يوما على طاهر بن عبدالله وعنده منصور بن طلحة، فقال لي منصور: يا أبا يعقوب تقول إن الله ينزل كل ليلة؛ قلت له ونؤمن به، إذ أنت لا تؤمن أن الله في السماء لا تحتاج أن تسألني، فقال طاهر: ألم أنهك عن هذا الشيخ[(٢)].

٤- وقال الإمام أبو عيسى الترمذي عقب روايته لحديث فيه ذكر صفة اليمين للرحمن جل وعلا قال: «وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث، وما يشبه هذا من الروايات في الصفات، ونزول الرب تبارك

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٤٠.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٤٣.

وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا قالوا: قد ثبتت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم، ولا يقال: كيف؟ هكذا روى عن مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وعبدالله بن المبارك أنهم قالوا: في هذه الصفات: أمروها بلا كيف، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة. وأما الجهمية، فأنكرت هذه الروايات، وقالوا: هذا تشبيه. وقد ذكر الله تعالى في غير موضع من كتابه: اليد، والسمع، والبصر فتأولت الجهمية هذه الآيات، ففسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وقالوا: معنى اليد هاهنا القوة. وقال إسحاق بن إبراهيم: إنما التشبيه إذا قال: يد كيد، أو مثل يد، أو سمع كسمع، أو مثل سمع فهذا التشبيه. وأما إذا قال: كما قال الله تعالى: يد، وسمع، وبصر، ولا يقول: كيف، ولا يقول: مثل سمع، ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيها وهو كما قال الله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُمۡ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾»[1] [الشورى: ١١].

٥- قول الحافظ أبي بكر الآجري إمام عصره في الحديث والفقه قال في كتابه الشريف «باب التحذير من مذهب الحلولية» الذي يذهب اليه أهل العلم: أن الله على عرشه فوق سمواته، وعلمه محيط بكل شيء، قد أحاط بجميع ما خلق في السماوات العلا وبجميع ما خلق في سبع أرضين، ترفع إليه أعمال العباد، فإن قال قائل فما معنى قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) جامع الترمذي ٣/ ٥٠-٥١.

﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] قيل له علمه معهم، والله عَزَّوَجَلَّ على عرشه وعلمه محيط بهم، كذا فسره أهل العلم، والآية تدل أولها وآخرها على أنه العلم، وهو على عرشه، هذا قول المسلمين»[(١)].

٦- وقال الحافظ أبو جعفر محمد بن عثمان بن محمد بن أبي شيبة العبسي محدث الكوفة في وقته -وقد تكلم فيه- ألف كتابا في العرش، فقال: «ذكروا أن الجهمية يقولون: ليس بين الله وبين خلقه حجاب، وأنكروا العرش، وأن يكون الله فوقه، وقالوا: إنه في كل مكان، ففسرت العلماء ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني علمه، ثم تواترت الأخبار أن الله تعالى خلق العرش فاستوى عليه فهو فوق العرش متخلصا من خلقه بائنا منهم»[(٢)].

٧- وقال إمام الأئمة: «... فإن كان علماء الآثار الذين يصفون الله بما وصف به نفسه وبما جاء على لسان نبيه مشبهة على ما يزعم الجهمية المعطلة فكل أهل القبلة إذا قرؤا كتاب الله فآمنوا به بإقرار باللسان وتصديق بالقلب وسموا الله بهذه الأسامي التي خبر الله بها أنها له أسامي وسموا هؤلاء المخلوقين بهذه الأسامي التي سماهم الله بها هم مشبهة.

فعود مقالتهم هذه توجب أن على أهل التوحيد الكفر بالقرآن وترك

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص٣٠٨.

(٢) كتاب العرش لمحمد بن عثمان ص٥٠.

الإيمان به وتكذيب القرآن بالقلوب والإنكار بالألسن فاقذر بهذا من مذهب وأقبح بهذه الوجوه عندهم لعائن الله وعلى من ينكر جميع ما وصف الله به نفسه في محكم تنزيله وجميع ما ثبت عن نبينا المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنقل أهل العدالة موصولاً إليه في صفات الخالق جل وعلا».

وقال إمام الأئمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو بكر فاسمعوا يا ذوي الحجا ما نقول في هذا الباب ونذكر بهت الجهمية وزورهم وكذبهم على علماء أهل الآثار ورميهم خيار الخلق بعد الأنبياء بما الله قد نزههم عنه وبرأهم منه بتزوير الجهمية على علمائنا أنهم مشبهة فاسمعوا ما أقول وأبين من مذاهب علمائنا تعلموا وتستيقنوا بتوفيق خالقنا أن هؤلاء المعطلة يبهتون العلماء ويرمونهم بما الله نزههم عنه.

نحن نقول لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى وما في السموات العلى وما بينهما من صغير وكبير لا يخفى على خالقنا خافية في السموات السبع والأرضين السبع ولا مما بينهم ولا فوقهم ولا أسفل منهن لا يغيب عن بصره من ذلك شيء يرى ما في جوف البحار ولججها كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه.

وقال إمام الأئمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتدبروا يا أولي الالباب ما نقوله في هذا الباب في ذكر اليدين كنحو قولنا في ذكر الوجه والعينين تستيقنوا بهداية الله إياكم وشرحه جل وعلا صدوركم للايمان بما قصه الله جل وعلا في محكم تنزيله ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفات خالقنا عَزَّ وَجَلَّ وتعلموا بتوفيق الله

إياكم أن الحق والصواب والعدل في هذا الجنس مذهبنا مذهب أهل الآثار ومتبعي السنن وتقفوا على جهل من يسميهم مشبهة إذ الجهيمة المعطلة جاهلون بالتشبيه».

نحن نقول لله جل وعلا يدان كما أعلمنا الخالق البارئ في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونقول كلتا يدي ربنا عَزَّ وَجَلَّ يمين على ما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونقول إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقبض الأرض جميعًا بإحدى يديه ويطوى السماء بيده الأخرى وكلتا يديه يمين لا شمال فيهما ونقول من كان من بني آدم سليم الأعضاء والأركان مستوى التركيب لا نقص في يديه أقوى بني آدم وأشدهم بطشًا له يدان. عاجز عن أن يقبض على قدر أقل من شعرة واحدة من جزء من أجزاء كثيرة على أرض واحدة من سبع أرضين... نقول لله يدان مبسوطتان ينفق كيف يشاء بهما خلق الله آدم وبيده كتب التوراة لموسى ويداه قديمتان لم تزالا باقيتين وأيدي المخلوقين مخلوقة محدثة غير قديمة فانية غير باقية بالية تصير ميتة ثم رميما ثم ينشئه الله خلقا آخر ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. فأي تشبيه يلزم أصحابنا أيها العقلاء إذا أثبتوا للخالق ما أثبته الخالق لنفسه وأثبته له نبيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقول هؤلاء المعطلة يوجب أن كل من يقرأ كتاب الله ويؤمن به إقرارًا باللسان وتصديقًا بالقلب فهو مشبه لأن الله ما وصف نفسه في محكم تنزيله

بزعم هذه الفرقة. ومن وصف يد خالقه فهو يشبه الخالق بالمخلوق فيجب على عود مقالتهم أن يكفر بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم لعائن الله إذ هم كفار منكرون لجميع ما وصف الله به نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مقرين بشيء منه ولا مصدقين بشيء منه»[(١)].

٨- وقال أبو عبدالله الحاكم في علوم الحديث له وفي كتاب تاريخ نيسابور سمعت محمد بن صالح بن هانيء يقول: سمعت إمام الأئمة أبا بكر بن خزيمة يقول: من لم يقر بأن الله على عرشه استوى فوق سبع سمواته وأنه بائن من خلقه فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه وألقي على مزبلة لئلا يتأذى بريحه أهل القبلة وأهل الذمة، توفي الإمام ابن خزيمة سنة اثني عشر وثلاثمائة، ذكره الشيخ أبو إسحق الشيرازي في طبقات الفقهاء، أخذ الفقه عن المزني، قال المزني: ابن خزيمة هو أعلم بالحديث مني ولم يكن في وقته مثله في العلم بالحديث والفقه جميعا وقال في كتابه: فمن ينكر رؤية الله تعالى في الآخرة فهو عند المؤمنين شر من اليهود والنصارى والمجوس وليسوا بمؤمنين عند جميع المؤمنين[(٢)].

٩- قول قتيبة بن سعيد الإمام الحافظ أحد أئمة الإسلام وحفاظ الحديث من شيوخ الأئمة الذين تجملوا بالحديث عنه. قال أبو العباس

---

(١) كتاب التوحيد لابن خزيمة

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم ١/ ١٢٥.

السراج: سمعت قتيبة بن سعيد يقول: هذا قول الأئمة في الإسلام والسنة والجماعة، نعرف ربنا سبحانه بأنه في السماء السابعة على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال موسى بن هارون حدثنا قتيبة بن سعيد قال نعرف ربنا في السماء السابعة على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ (١).

١٠- قول إمام أهل الحديث علي بن المديني شيخ البخاري بل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال البخاري علي بن المديني سيد المسلمين قيل له ما قول الجماعة في الاعتقاد، قال يثبتون الكلام والرؤية ويقولون إن الله تعالى على العرش استوى فقيل له ما تقول في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧]، فقال اقرءوا أول الآية، يعني بالعلم: لأن أول الآية ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [المجادلة: ٧]. قال البخاري في كتاب خلق الأفعال. وقال ابن المديني: القرآن كلام الله غير مخلوق من قال إنه مخلوق فهو كافر لا يصلى خلفه، قال البخاري ما استصغرت نفسي بين يدي أحد إلا بين يدي علي بن المديني (٢).

١١- قول الإمام حافظ أهل المشرق وشيخ الأئمة عثمان بن سعيد

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٤٤.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للآلكائي ١/ ٣١٣.

الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال فيه أبو الفضل الفرات: ما رأيت مثل عثمان بن سعيد، ولا رأى عثمان مثل نفسه، أخذ الأدب عن ابن الأعرابي، والفقه عن البويطي، والحديث عن يحيى بن معين وعلي بن المديني، وأثنى عليه أهل العلم، صاحب كتاب «الرد على الجهمية» والنقض على بشر المريسي، وقال في كتابه النقض على بشر، وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله تعالى فوق عرشه فوق سمواته لا ينزل قبل يوم القيامة إلى الأرض، ولم يشكوا أنه ينزل يوم القيامة ليفصل بين عباده ويحاسبهم ويثيبهم وتشقق السماوات يومئذ لنزوله وتنزل الملائكة تنزيلا ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، كما قال الله به ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما لم يشك المسلمون أن الله لا ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة لشيء من أمور الدنيا علموا يقينا أن ما يأتي الناس من العقوبات إنما هو أمره وعذابه، فقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: ٢٦] إنما هو أمره وعذابه[1].

١٢- قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد من صحيحه: (باب قول الله عَزَّوَجَلَّ وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم) قال أبو العالية: استوى إلى السماء ارتفع «فسواهن» خلقهن، وقال مجاهد «استوى» علا على العرش، ثم ساق البخاري حديث زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها كانت تفتخر على نساء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتقول:

(١) النقض على بشر المريسي.

زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات، وذكر تراجم أبواب هذا الكتاب الذي ترجمه كتاب التوحيد والرد على الجهمية ردا على أقوال الجهمية التي خالفوا بها الأمة، فمن تراجم أبواب هذا الكتاب «باب قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾» [الإسراء: ١١٠]، ومن أبوابه أيضا «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾» [الذاريات: ٥٨]. وذكر أحاديث ثم قال: «باب قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦]. ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ [فصلت: ٤٧]. ثم ساق أحاديث مستدلا بها على إثبات صفة العلم ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾» [الحشر: ٢٣] ثم ساق حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن الله تعالى هو السلام، ثم ساق حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول الله أنا الملك ثم قال «باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾» [إبراهيم: ٤] قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]، وذكر أحاديث في ذلك ثم قال «باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴿٧٣﴾﴾» [الأنعام: ٧٣]. ثم ذكر حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض إلى آخره، ثم قال «باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾» [النساء: ١٣٤]. ثم ساق أحاديث منها حديث أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «أن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، ثم قال: «باب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴿٦٥﴾﴾» [الأنعام: ٦٥].

ثم ساق أحاديث في إثبات القدرة ثم قال «باب مقلب القلوب» وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حلفه لا ومقلب القلوب «ثم قال» باب إن لله مائة اسم إلا واحدا «ثم قال» باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها ومقصوده بذلك أنها غير مخلوقة فإنه لا يستعاذ بمخلوق ولا يسأل به، ثم قال «باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله تعالى» ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

ثم ساق أحاديث ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ

﴿ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨]. ثم ذكر حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعوذ بوجهك» ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٤] ثم ذكر حديث الدجال إن ربكم ليس بأعور ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤] ثم قال «باب قول الله ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥].

ثم ذكر أحاديث في إثبات اليدين، ثم قال «باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا شخص أغير من الله» ثم قال «باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩]، فسمى الله نفسه شيئا ثم قال «باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴿٧﴾﴾ [هود: ٧] ثم ذكر بعض أحاديث الفوقية، ثم قررها بترجمة أخرى فقال " باب قول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]. ثم ساق في ذلك أحاديث في إثبات صفة الفوقية، ثم قال «باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣] ثم ذكر الأحاديث الدالة على إثبات الرؤية في الآخرة، ثم قال «باب ما جاء في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]. ثم ذكر أحاديث في إثبات صفة الرحمة، ثم قال «باب قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

﴿أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

ثم ساق في هذا الباب حديث الخبر الذي فيه أن الله يمسك السماوات على إصبع. الحديث، ثم قال «باب ما جاء في تخليق السماوات والأرض وغيرهما من الخلائق» وهو فعل الرب عَزَّوَجَلَّ وأمره، فالرب بصفاته وفعله وأمره وكلامه هو الخالق المكون، غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون، وهذه الترجمة من أدل شيء على دقة علمه ورسوخه في معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته.

وهذه الترجمة فصل في مسألة الفعل والمفعول، وقيام أفعال الرب عَزَّوَجَلَّ به وأنها غير مخلوقة، وأن المخلوق هو المنفصل عنه الكائن بفعله وأمره وتكوينه ففصل النزاع بهذه الترجمة أحسن فصل وأبينه وأوضحه، إذ فرق بين الفعل والمفعول، وما يقوم بالرب سبحانه وما لا يقوم به، وبين أن أفعاله تعالى كصفاته داخلة في مسمى اسمه ليست منفصلة خارجة مكونة بل بها يقع التكوين، فجزاه الله سبحانه عن الإسلام والسنة، بل جزاهما عنه أفضل الجزاء، وهذا الذي ذكره في هذه الترجمة هو قول أهل السنة، وهو المأثور عن سلف الأمة، وصرح به في كتاب «خلق أفعال العباد» وجعله قول العلماء مطلقا، ولم يذكر فيه نزاعا إلا عن الجهمية، وذكره البغوي إجماعا من أهل السنة.

وصرح البخاري في هذه الترجمة بأن كلام الله تعالى غير مخلوق، وأن أفعاله وصفاته غير مخلوقة، ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا

لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١] ثم ساق أحاديث في القدر وإثباته، ثم قال «باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢].

ثم ساق أحاديث في إثبات تكلم الرب جل جلاله ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ومقصوده إثبات صفة الكلام والفرق بينها وبين صفة الخلق، ثم قال «باب في المشيئة والإرادة» ثم ساق آيات وأحاديث في ذلك ثم قال «باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سبأ: ٢٣] قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولم يقولوا ماذا خلق ربكم، ثم ذكر حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فينادي بصوت، وحديث عبدالله بن أنيس وعلقمة «فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان، ومقصوده أن هذا النداء يستحيل أن يكون مخلوقا، فإن المخلوق لا يقول أنا الملك أنا الديان» فالمنادي بذلك هو الله عَزَّوَجَلَّ القائل أنا الملك أنا الديان، ثم قال «باب كلام الرب تعالى مع جبرائيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونداء الله تعالى الملائكة» ثم ذكر

حديث إذا أحب الله عبدا نادى جبرائيل، ثم قال «باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾» [النساء: ١٦٦] ثم ساق أحاديث في نزول القرآن من السماء مما يدل على أصلين فوقية الرب تعالى وتكلمه بالقرآن، ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ ﴿١٥﴾﴾» [الفتح: ١٥] ثم ذكر أحاديث في تكلم الرب تعالى ثم قال «باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم» ثم ساق حديث الشفاعة، وحديث ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه وحديث يدنو المؤمن من ربه، ثم قال «باب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤] ثم ذكر أحاديث في تكليم الله لموسى، ثم قال «باب كلام الرب تعالى مع أهل الجنة» ثم ذكر حديثين في ذلك، ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾» [البقرة: ٢٢]، وذكر آيات في ذلك وذكر حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في ذلك أي الذنب أعظم؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك، وغرضه بهذا التبويب الرد على القدرية والجبرية فأضاف الجعل إليهم فهو كسبهم وفعلهم، ولهذا قال في هذا الباب نفسه: «وما ذكر في خلق أفعال العباد وأكسابهم لقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢] فأثبت خلق أفعال العباد وأنها أفعالهم وأكسابهم فتضمنت ترجمته مخالفته للقدرية والجبرية، ثم قال «باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾»

[فصلت: ٢٢] وقصد بهذا أن يبين أن الصوت والحركة التي يؤدى بها الكلام كسب العبد وفعله وعمله؛ ثم ذكر أبوابا في إثبات خلق أفعال العباد، ثم ختم الكتاب بإثبات الميزان.

أشار البخاري إلى هذا الإجماع قال الجرجاني قال سمعت أبا محمد عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن البخاري بالشاش يقول سمعت أبا عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري يقول: لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم أهل الحجاز ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر لقيتهم كرات قرنا بعد قرن ثم قرنا بعد قرن أدركتهم وهم متوافرون منذ أكثر من ست وأربعين سنة أهل الشام ومصر والجزيرة مرتين والبصرة أربع مرات في سنين ذوي عدد بالحجاز ستة أعوام ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدثي أهل خراسان منهم المكي بن إبراهيم ويحيى بن يحيى وعلي بن الحسن بن شقيق وقتيبة بن سعيد وشهاب بن معمر وبالشام محمد بن يوسف الفريابي وأبا مسهر عبدالأعلى بن مسهر وأبا المغيرة عبدالقدوس بن الحجاج وأبا اليمان الحكم بن نافع ومن بعدهم عدة كثيرة وبمصر يحيى بن كثير وأبا صالح كاتب الليث بن سعد وسعيد بن أبي مريم وأصبغ بن الفرح ونعيم بن حماد وبمكة عبدالله بن يزيد المقري والحميدي وسليمان بن حرب قاضي مكة وأحمد بن محمد الأزرقي.

وبالمدينة إسماعيل بن أبي أويس ومطرف بن عبدالله وعبدالله بن نافع الزبيري وأحمد بن أبي بكر أبا مصعب الزهري وإبراهيم بن حمزة الزبيري

وإبراهيم بن المنذر الحزامي. وبالبصرة أبا عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني وأبا الوليد هشام بن عبدالملك والحجاج بن المنهال وعلي بن عبدالله بن جعفر المديني.

وبالكوفة أبا نعيم الفضل بن دكين وعبيد الله بن موسى وأحمد بن يونس وقبيصة بن عقبة وابن نمير وعبدالله وعثمان ابنا أبي شيبة وببغداد أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبا معمر وأبا خيثمة وأبا عبيد القاسم بن سلام ومن أهل الجزيرة عمرو بن خالد الحراني وبواسط عمرو بن عون وعاصم بن علي بن عاصم وبمرو صدقة بن الفضل وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي واكتفينا بتسمية هؤلاء كي يكون مختصرا وأن لا يطول ذلك فما رأيت واحدا منهم يختلف في هذه الأشياء أن الدين قول وعمل وذلك لقول الله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال أبو عبدالله محمد بن إسماعيل قال ابن عيينة فبين الله الخلق من الأمر لقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وأن الخير والشر بقدر لقوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١-٢]، ولقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، ولقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، ولم يكونوا يكفرون أحدا من أهل القبلة بالذنب

لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، وما رأيت فيهم أحدا يتناول أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قالت عائشة: أمروا أن يستغفروا لهم وذلك قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾ [الحشر: ١٠]، وكانوا ينهون عن البدع ما لم يكن عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لقوله: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾ [النور: ٥٤]، ويحثون على ما كان عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأتباعه لقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وأن لا ننازع الأمر أهله لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مسلم إخلاص العلم لله وطاعة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ثم أكد في قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: ٥٩] وأن لا يرى السيف على أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ»[(١)].

١٣- وقال أبو عبدالله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**» قال: يعني أهل الحديث.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٩٤-١٩٦.

١٤- وقال أبو زرعة «المعطلة النافية الذين ينكرون صفات الله عَزَّوَجَلَّ التي وصف بها نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويكذبون بالأخبار الصحاح التي جاءت عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الصفات ويتأولونها بآرائهم المنكوسة على موافقة ما اعتقدوا من الضلالة، وينسبون رواتها إلى التشبيه، فمن نسب الواصفين ربهم تبارك وتعالى بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من غير تمثيل ولا تشبيه إلى التشبيه فهو معطل ناف، ويستدل عليهم بنسبتهم إياهم إلى التشبيه أنهم معطلة نافية، كذلك كان أهل العلم يقولون، منهم عبدالله بن المبارك، ووكيع بن الجراح»[(١)].

١٥- وقال أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم وأبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الرازيين وجماعة من السلف ممن نقل عنهم رَحِمَهُمُٱللَّهُ أخبرنا محمد بن المظفر المقري قال حدثنا الحسين بن محمد بن حبش المقري قال حدثنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم قال سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك فقالا أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازا وعراقا وشاما ويمنا فكان من مذهبهم الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته والقدر خيره وشره من الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ١/ ٢١٢.

وخير هذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وهم الخلفاء الراشدون المهديون وأن العشرة الذين سماهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشهد لهم بالجنة على ما شهد به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقوله الحق والترحم على جميع أصحاب محمد والكف عما شجر بينهم وأن الله عَزَّوَجَلَّ على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا كيف أحاط بكل شيء علما ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأنه تبارك وتعال يرى في الآخرة يراه أهل الجنة بأبصارهم ويسمعون كلامه كيف شاء وكما شاء والجنة حق والنار حق وهما مخلوقان لا يفنيان أبدا والجنة ثواب لأوليائه والنار عقاب لأهل معصيته إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ والصراط حق والميزان حق له كفتان توزن فيه أعمال العباد حسنها وسيئها حق والحوض المكرم به نبينا حق والشفاعة حق والبعث من بعد الموت حق وأهل الكبائر في مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ ولا نكفر أهل القبلة بذنوبهم ونكل أسرارهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ونقيم فرض الجهاد والحج مع أئمة المسلمين في كل دهر وزمان ولا نرى الخروج على الأئمة ولا القتال في الفتنة ونسمع ونطيع لمن ولاه الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا ولا ننزع يدا من طاعة نتتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة فإن الجهاد ماض مذ بعث الله عَزَّوَجَلَّ نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى قيام الساعة مع أولي الأمر من أئمة المسلمين لا يبطله شيء والحج كذلك ودفع الصدقات من

السوائم إلى أولي الأمر من أئمة المسلمين والناس مؤمنون في أحكامهم ومواريثهم ولا ندري ما هم عند الله عَزَّوَجَلَّ فمن قال إنه مؤمن حقا فهو مبتدع ومن قال هو مؤمن عند الله فهو من الكاذبين ومن قال هو مؤمن بالله حقا فهو مصيب والمرجئة والمبتدعة ضلال والقدرية المبتدعة ضلال فمن أنكر منهم أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعلم ما لم يكن قبل أن يكون فهو كافر وأن الجهمية كفار وأن الرافضة رفضوا الإسلام والخوارج مراق ومن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم كفرا ينقل عن الملة ومن شك في كفره ممن يفهم فهو كافر ومن شك في كلام الله عَزَّوَجَلَّ فوقف شاكا فيه يقول لا أدري مخلوق أو غير مخلوق فهو جهمي ومن وقف في القرآن جاهلا علم وبدع ولم يكفر ومن قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي أو القرآن بلفظي مخلوق فهو جهمي قال أبو محمد وسمعت أبي يقول وعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل السنة حشوية يريدون إبطال الآثار وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء.

١٦- قال أبو محمد وسمعت أبي وأبا زرعة يأمران بهجران أهل الزيغ والبدع يغلظان في ذلك أشد التغليظ وينكران وضع الكتب برأي في غير آثار وينهيان عن مجالسة أهل الكلام والنظر في كتب المتكلمين ويقولان لا يفلح

صاحب كلام أبدا قال أبومحمد وبه أقول أنا وقال أبو علي بن حبيش المقري وبه أقول قال شيخنا ابن المظفر وبه أقول وقال شيخنا يعني المصنف وبه أقول، وقال الطريثيتي وبه أقول[(١)].

١٧- وقال الإمام ابن أبي حاتم: «فأما أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصرته، وإمامة دينه، وإظهار حقه فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلاما وقدوة، فحفظوا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بلغهم عن الله، وما سن، وشرع، وحكم، وقضى، وندب، وأمر، ونهى وحظر، وأدب، ووعوه وأتقنوه ففقهوا في دين الله...ألخ»[(٢)].

١٨- وقال شيخنا السلفي: «ووجدت في بعض كتب أبي حاتم محمد بن إدريس ابن المنذر الحنظلي الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ مما سمع منه يقول مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم بإحسان وترك النظر في موضع بدعهم والتمسك بمذهب أهل الأثر مثل أبي عبدالله أحمد بن حنبل واسحاق بن إبراهيم وأبي عبيد القاسم بن سلام والشافعي ولزوم الكتاب والسنة والذب عن الأئمة المتبعة لآثار السلف واختيار ما اختاره أهل السنة من الأئمة في الأمصار مثل مالك بن أنس في المدينة والأوزاعي بالشام والليث بن سعد بمصر وسفيان الثوري وحماد بن

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ٣١٨.

(٢) الجرح والتعديل ٧/ ٧-٩.

زياد بالعراق من الحوادث مما لا يوجد فيه رواية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين وترك رأي الملبسين المموهين المزخرفين الممخرقين الكذابين وترك النظر في كتب الكرابيس ومجانبة من يناضل عنه من أصحابه وشاجر دينه مثل داود الأصبهاني وأشكاله ومتبعيه والقرآن كلام الله وعلمه واسماؤه وصفاته وأمره ونهيه ليس بمخلوق بجهة من الجهات والاتباع للأثر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن الصحابة والتابعين بعدهم بإحسان وترك كلام المتكلمين وترك مجالستهم وهجرانهم وترك مجالسة من وضعا لكتب بالرأي بلا آثار.

واختيارنا أن الإيمان قول وعمل إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان مثل الصلاة والزكاة لمن كان له مال والحج لمن استطاع إليه سبيلا وصوم شهر رمضان وجميع فرائض الله التي فرض على عباده العمل به من الإيمان والإيمان يزيد وينقص ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض المكرم به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونؤمن بالمساءلة في القبر وبالكرام الكاتبين وبالشفاعة المخصوص بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونترحم على جميع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا نسب أحدا منهم لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]، والصواب نعتقد ونزعم أن الله على عرشه بائن من خلقه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ولا نرى الخروج على الأئمة ولا نقاتل في الفتنة ونسمع ونطيع لمن ولى الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا.

ونرى الصلاة والحج والجهاد مع الأئمة ودفع صدقات المواشي إليهم ونؤمن بما جاءت به الآثار الصحيحة بأنه يخرج قوم من النار من الموحدين بالشفاعة ونقول إنا مؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ وكره سفيان الثوري أن يقول أنا مؤمن حقا عند الله ومستكمل الإيمان وكذلك قول الأوزاعي أيضا وعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الجهمية أن يسموا أهل السنة مشبهة ونابتة وعلامة القدرية أن يسموا أهل السنة مجبرة وعلامة الزنادقة أن يسموا أهل الأثر حشوية ويريدون إبطال الآثار عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفقنا الله وكل مؤمن لما يحب ويرضى من القول والعمل وصلى الله على محمد وآله وسلم اعتقاد سهل بن عبدالله التستري[(١)].

١٩- قول نعيم بن حماد الخزاعي أحد شيوخ النبل شيخ البخاري رَحِمَهُمَاٱللَّهُ قال في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤] معناه لا يخفى عليه خافية بعلمه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] أراد أن لا يخفى عليه خافية.

قال البخاري: سمعته يقول من شبه الله تعالى بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله تعالى به نفسه ولا رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تشبيها[(٢)].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ٣١٨.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٩٤.

٢٠- قول سعيد بن عامر الضبعي إمام أهل البصرة على رأس المائتين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى. روى ابن أبي حاتم عنه في كتاب السنة أنه ذكر عنده الجهمية فقال «هم شر قولا من اليهود والنصارى» وقد أجمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله على العرش، وقالوا هم ليس على العرش شيء [(١)].

٢١- قول عباد بن العوام أحد أئمة الحديث بواسط، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قال كلمت بشر المريسي وأصحابه فرأيت آخر كلامهم يقولون ليس في السماء شيء، أرى والله أن لا يناكحوا ولا يوارثوا [(٢)].

٢٢- قول عبدالله بن مسلمة القعنبي شيخ البخاري ومسلم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ قال بيان بن أحمد: كنا عند القعنبي فسمع رجلا من الجهمية يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] استولى، فقال القعنبي «من لا يوقن أن الرحمن على العرش استوى كما تقرر في قلوب العامة فهو جهمي» قال البخاري محمد بن إسماعيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتاب خلق أفعال العباد عن يزيد بن هارون مثله سواء وقد تقدم [(٣)].

٢٣- قول علي بن عاصم شيخ الإمام أحمد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ صح عنه أنه قال «ما الذين قالوا أن لله سبحانه ولدا أكفر من الذين قالوا أن الله سبحانه لم يتكلم» وقال احذروا من المريسي وأصحابه فإن كلامهم الزندقة، وأنا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٦/ ٢٦١.

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة ١/ ١٧٠ برقم: ١٩٩ والخلال في السنة ٥/ ١١٣ برقم: ١٧٥٣.

(٣) أورده الذهبي في العلو ص١٥١. والعرش ١/ ١٢٤.

كلمت أستاذهم فلم يثبت أن في السماء إلها، حكاه عنه غير واحد ممن صنف في السنة [١].

٢٤- قول وهب بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى صح عنه أنه قال: إياكم ورأي جهم فإنهم يحاولون أن ليس في السماء شيء وما هو إلا من وحي إبليس وما هو إلا الكفر، حكاه محمد بن عثمان الحافظ في رسالته في السنة، وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتاب خلق الأفعال: وقال وهب بن جرير الجهمية الزنادقة إنما يريدون أن ليس على العرش استوى [٢].

٢٥- قول الإمام عبدالعزيز بن يحيى الكناني صاحب الشافعي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ له كتاب في الرد على الجهمية قال فيه «باب قول الجهمي في قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ زعمت الجهمية أن معنى استوى (استولى) من قول العرب استوى قاطن على مصر يريدون استولى عليها، قال فيقال له هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه فإذا قال لا، قيل له فمن زعم ذلك فهو كافر فيقال له يلزمك أن تقول إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل السماوات والأرض ثم استوى عليه بعد خلقهن، فيلزمك أن تقول، المدة التي كان العرش قبل خلق السماوات والأرض ليس الله تعالى بمستول عليه فيها، ثم ذكر كلاما طويلا في تقرير العلو والاحتجاج عليه [٣].

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٦٥.

(٢) التحفة المدنية ١/ ٧٨.

(٣) الرد على الجهمية نقله عنه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٣٦.

٢٦- ذكر قول جرير بن عبدالحميد شيخ إسحاق بن راهويه وغيره من الأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ قال: كلام الجهمية أوله عسل وآخره سم، وإنما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء إله، رواه ابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية[(١)].

٢٧- ذكر قول عبدالله بن الزبير الحميدي أحد شيوخ النبل شيخ البخاري إمام أهل الحديث والفقه في وقته، وهو أول رجل افتتح به البخاري صحيحه قال وما نطق به القرآن والحديث مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧] وما أشبه هذا من القرآن والحديث لا نزيد فيه ولا نفسره ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة ونقول: الرحمن على العرش استوى، ومن زعم غير هذا فهو مبطل جهمي، وليس مقصود السلف بأن من أنكر لفظ القرآن يكون جهميا مبتدعا فإنه يكون كافرا زنديقا، وإنما مقصودهم من أنكر معناه وحقيقته[(٢)].

٢٨- وذكر الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني في سننه: «باب ما أنكرت الجهمية، فساق حديث الرؤية، وحديث أبي رزين، وحديث جابر «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب

(١) أورده الذهبي في العلو ص١١٠ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذم التأويل ١/ ٢٤.

عَزَّوَجَلَّ أشرف عليهم من فوقهم» وحديث يطوي الله السموات بيمينه، وحديث الأوعال، وحديث: «إن الله يضحك إلى ثلاثة» نحو ذلك من الصفات، وفعل نحوا من ذلك في تفسيره كغيره من علماء الحديث»[(١)].

٢٩- قول الإمام أبي عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني إمام أهل الحديث والفقه والتصوف في وقته، قال في رسالته المشهورة في السنة: وأن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، ثم ساق بإسناده عن ابن المبارك أنه قال: نعرف ربنا تبارك وتعالى بأنه فوق سبع سمواته على عرشه بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية إنه ههنا في الأرض ثم قال: حدثنا أبو عبدالله الحافظ عن محمد بن صالح عن ابن خزيمة قال من لم يقر بأن الله على عرشه فوق سبع سمواته فهو كافر بربه حلال الدم يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وألقي على بعض المزابل حتى لا يتأذى به المسلمون ولا المعاهدون بنتن رائحة جيفته، وكان ماله فيئا ولا يرثه أحد من المسلمين، إذ المسلم لا يرث الكافر، ولا الكافر يرث المسلم[(٢)].

الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية:

١- وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب من لم يتوضأ من لحم الشاة، والسويق» ثم استدل بفهم السلف، فقال: «وأكل أبو بكر وعمر، وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فلم يتوضؤوا»[(٣)].

---

(١) العلو للعلي الغفار ٢/ ١١٩٦.

(٢) إثبات صفة العلو ص١٢٧.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ١/ ٣٧٢.

٢- قال إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب ذكر وجوب الوضوء من المذي وهو من الجنس الذي قد أعلمت أن الله يوجب الحكم في كتابه بشرط و يوجبه على لسان نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغير ذلك الشرط إذ الله عَزَّوَجَلَّ لم يذكر في آية الوضوء المذي و النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أوجب الوضوء من المذي و اتفق علماء الأمصار قديما و حديثا على إيجاب الوضوء من المذي»[(١)].

٣- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أبو بكر: ولم يختلف علماؤنا والحجازيون والمصريون والشافعي وأهل الأثر أن القبلة واللمس باليد إذا لم يكن بين اليد و بين بدن المرأة إذا لمسها حجاب ولا سترة من ثوب ولا غيره أن ذلك يوجب الوضوء غير أن مالك بن أنس كان يقول: إذا كانت القبلة واللمس باليد ليس بقبلة شهوة فإن ذلك لا يوجب الوضوء.

قال أبو بكر هذه اللفظة ويصدقه أو يكذبه الفرج من الجنس الذي أعلمت في كتاب الإيمان أن التصديق قد يكون ببعض الجوارح لا كما ادعى من موه على بعض الناس أن التصديق لا يكون في لغة العرب إلا بالقلب قد بينت هذه المسألة بتمامها في كتاب الإيمان»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب ذكر خبر روي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرخصة في البول مستقبل القبلة بعد نهي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه مجملا غير مفسر قد يحسب من لم يتبحر العلم أن البول مستقبل القبلة جائز لكل بائل و في أي

---

(١) صحيح ابن خزيمة ١/ ١٤.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٠

موضع كان و يتوهم من لا يفهم العلم و لا يميز بين المفسر والمجمل أن فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا ناسخ لنهيه عن البول مستقبل القبلة»[(١)]. قلت: بين إمام الأئمة ضرورة الرجوع إلى فهم السلف، وخطورة عدم الرجوع إليهم.

٤- وقال الإمام أبو حاتم محمد بن حبان: «ذكر الإباحة للرجال والنساء أن يتوضؤوا من إناء واحد» ثم استدل بفهم الصحابة فقال: «أخبرنا أبو خليفة قال: حدثنا القعنبي عن مالك عن نافع أن ابن عمر كان يقول: إن الرجال والنساء كانوا يتوضؤون في زمن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميعا»[(٢)].

٥- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ مبينا ضرورة الرجوع إلى فهم السلف وخطورة مخالفة الخلف: «وهذه اللفظة: (ومسح بناصيته وفوق العمامة) قد توهم من لم يحكم صناعة العلم أن المسح على العمامة دون الناصية غير جائز ويجعل خبر عمرو بن أمية مجملا وخبر مغيرة الذي ذكرناه مفسرا له أن مسح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العمامة كان ذلك مع الناصية فوق المسح على الناصية دون العمامة إذ الناصية من الرأس وليس بحمد الله ومنه كذلك بل مسح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رأسه في وضوئه ومسح على عمامته دون الناصية ومسح على ناصيته وعمامته ثلاث مرار في ثلاثة مواضع مختلفة فكل سنة يستعمل من غير أن يكون استعمال أحدهما حتما واستعمال الآخر مكروها»[(٣)].

❁ ❁ ❁

(١) المرجع السابق ١/ ٣٤.

(٢) صحيح ابن حبان ٤/ ٧١ برقم: ١٢٦٥.

(٣) المرجع السابق ٤/ ١٧٦.

الفصل الثاني

الأدلة العقلية على حجية القاعدة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ميزات السلف.

المبحث الثاني: خصائص السلف.

المبحث الثالث: قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

مدخل:

مدخل: إنَّه عند اختلاف فهم السلف مع فهم من بعدهم، فلا يخلو الحال من أحد أمرين: إمَّا أن يكون الحقُّ مع القوم الذين اصطفاهم الله لصحبة خير خلقه وصفوة رسله، وإمَّا أن يكون الحقُّ مع قومٍ إنَّما أخذوا علومهم من المنطق اليوناني والقواعد الفلسفية المناقضة للمعقول والمنقول، فأيُّ الفريقين أحقُّ بمعرفة وفهم ما أنزل الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك «فإنَّ أصل وقوع أهل الضلال في مثل هذا التحريف، هو الإعراض عن فهم كتاب الله سبحانه وتعالى كما فهمه الصحابة والتابعون، ومعارضة ما دلَّ عليه بما يُناقضه، وهذا من أعظم المحادة لله ولرسوله، لكن على وجه النفاق والخداع».

أنَّ الكثير من علماء الكلام وكبارهم، قد اعترفوا بخطأ ما هم عليه من الفهم وطرائق الاستدلال، وندموا على ما تعلَّموه ممَّا هو مخالفٌ لفهم السلف، وأنَّهم لم يكن معهم إلا الوهم، والخيالات الفاسدة، المُفضية لعذاب الشك والحيرة وعدم اليقين وأقوالهم في هذا التراجع والاعتراف كثيرةٌ ومعلومة وأمَّا أهلُ السنة والحديث، فما يُعلم عن أحدٍ من عُلمائهم أنَّه رجع عن اعتقاده، بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك، وإنْ امتُحنوا بأنواع المحن، وفُتنوا بأنواع الفتن.

أنَّ لاستنباط الأحكام من النصوص الشرعية ركنين أساسيين كما قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحدهما علم لسان العرب، وثانيهما علم أسرار الشريعة

ومقاصدها، أمَّا الركن الأول، فقد كان وصفًا غريزيًا في الصحابة والتابعين والعرب الخلص؛ فلم يكونوا في حاجةٍ لقواعدَ تضبطه لهم، كما أنَّهم كسبوا الاتصاف بالركن الثاني من طول صحبتهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعرفتهم الأسباب التي تَرتَّب عليها التشريع، حيث كان ينزل القرآنُ، وتَرِدُ السنة نجومًا بحسب الوقائع، مع صفاء الخاطر؛ فأدركوا المصالح، وعرفوا المقاصد التي راعاها الشارع في التشريع؛ ولذلك فلم يكن بهم حاجةٌ إلى النظر في الإسناد وأحوال الرواة، وعلل الحديث، والجرح والتعديل، ولا النظر في قواعد الأصول؛ بل قد غنوا عن ذلك كله، فليس في حقهم إلا أمران: أحدهما: قال الله كذا وقال رسوله كذا، والثاني: معناه كذا وكذا، وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظى الأمة بهما.

❁❁❁

المبحث الأول

ميزات الصحابة وهي

١- شهادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بالجنة.

٢- الصحابة نالوا رضى الله عَزَّوَجَلَّ.

٣- أمر الله نبيه بالبلاغ، فبلغ رسالة ربه فتلقاها الصحابة.

٤- أن الله قد حض على تدبر القرآن في مواضع كثيرة فتدبرها الصحابة حق التدبر.

٥- أن الله قد ذم من لم يكن حظه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى.

المبحث الثاني
خصائص الصحابة منها

١- سلامة مصادرهم في التلقي، فقد تلقوا الدين بتجرد تام، وإيمان كامل، وتسليم مطلق يصور لنا الإمام اللالكائي، فقال: «فأخذوا الإسلام عنه مباشرة، وشرائعه مشاهدة وأحكامه معاينة من غير واسطة ولا سفير بينهم وبينه وصلة، فجاولوها عيانا، وحفظوا عنه شفاها، وتلقوه من فيه رطبا، وتلقنوه من لسانه عذبا، واعتقدوا جميع ذلك حقا، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينا، فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشافهة لم يشبه لبس ولا شبه، ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة، والصافة عن الصافة والجماعة عن الجماعة أخذ كف بكف وتمسك خلف بسلف...»[(١)].

٢- عناية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسلامة فهمهم: يعلمهم ويوجههم، ويكرر لهم الكلام حتى يفهموا ويحثهم على تعلم العلم وتعليمه، ويأمرهم بالتأسي به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعاؤه لهم بالعلم والفهم، ويحرص أن لا يؤثر على فهمهم شيء من الكتب المحرفة، ويصحح لهم المعاني والمفاهيم، ويخبرهم بما كان وما يكون، وينهاهم عن الجدال في القرآن وضرب بعضه ببعض.

٣- سلامة منهجهم في فهم النصوص، والسؤال عما أشكل عليهم، وحرصهم على ذلك.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٢٢-٢٣.

٤- سلامة فطرهم إذ لم تتلوث بأي شائبة من العقائد والوساوس والأفكار الدخيلة.

٥- أنهم كانوا أحرص الناس على العمل بما سمعوه، ولا يمكن العمل إلا عن فهم وعلم ودراية.

٦- أنهم شاهدوا الوحي والتنزيل وهذا أورثهم مزيد فهم لا يشاركهم فيه غيرهم وقد نقله عنهم تلاميذهم من التابعين، ثم أتباعهم.

٧- معرفتهم لأسباب النزول؛ لأن الجهل بأسباب النزول مُوقِعٌ في الشّبَه والإشكالات، ومُورِدٌ للنصوص الظاهرة مَورِدَ الإجمال حتى يقع الاختلاف.

وإنما يقع ذلك؛ لأن معرفة أسباب النزول بمنزلة مقتضيات الأحوال التي يُفْهَمُ بها الخطاب، وإذا فات نقل بعض القرائن الدّالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيءٍ منه.

ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكلٍ في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بدّ، ومعنى معرفة السبب هو معنى مقتضى الحال إن ممّا يدلّ على ما سبق من الكلام: ما رواه أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أُتِيَ برجلٍ من المهاجرين الأولين وقد شرب الخمر فأمر به عمر أن يُجلد، فقال: لِمَ تجلدني؟! بيني وبينك كتاب الله، قال: وفي أيّ كتاب الله تجد أن لا أجلدك؟.

قال: فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ

﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣]، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا؛ شهدت مع رسول الله: بدراً، وأحداً، والخندق، والمشاهد.

فقال عمر: ألا تَرُودّن عليه؟ فقال ابن عباس: هؤلاء الآيات نزلت عذراً للماضين، وحجّة على الباقين، عذراً للماضين؛ لأنهم لَقُوا الله قبل إن حرّم الله عليهم الخمر، وحجة على الباقين؛ لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠] حتى بلغ الآية الأخرى». فانظر كيف خفي على هذا البدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حكم هذه الآية لمّا لم يكن يعلم سبب نزولها؟ وكيف لم تكن مشكَلة عند من علم سبب نزولها؟ فنزلها منزلتها، وبيّن معناها.

٨- أنهم عرفوا أحوال من نزل فيهم القرآن:

يقول الشاطبي في بيان أهمية معرفة الأحوال في التفسير: «ومن ذلك: معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، وإن لم يكن ثَمّ سبب خاص، لا بدّ لمن أراد الخوض في علم القرآن منه، وإلا وقع في الشّبه والإشكالات التي يتعذّر الخروج منها إلا بهذه المعرفة».

أ - ومن الأمثلة التي تدلّ على أهمية معرفة أحوالهم في التفسير: ما رواه البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: ١٩٨] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كانت عُكاظٌ ومجنّةٌ وذو المجاز

أسواقًا في الجاهلية، فتأثّموا أن يَتّجِروا في المواسم، فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مواسم الحج».

ب- ومثله ما رواه البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كانت قريش ومن دَانَ دينها يقفون المزدلفة، وكانوا يسمّون الحَمْسُ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتي عرفات، ثُمّ يقفَ بها، ثُمّ يُفِيضَ منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩].

جـ- ومثله ما رواه البخاري عن ابن المنكدر، قال: «سمعت جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانت اليهود تقول: «إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٢٣].

٩- أنهم أهل اللسان الذي نزل به القرآن:

لما كان القرآن نزل بلغتهم، فإنهم أعرف به من غيرهم، وهم في مرتبة الفصاحة العربية، فلم تتغيّر ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا في الفصاحة، ولذا فَهُم أعرف من غيرهم في فهم الكتاب والسنة، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان صحّ اعتماده من هذه الجهة. كما أن ما نقل عنهم من كلام أو تفسير فإنه حجّة في اللغة، وفيه بيان لصحّة الإطلاق في لغة العرب، قال ابن حجر: «استشكل ابن التين قوله: (ناساً من الجن) من حيث إن الناس ضدّ الجنّ. وأجيب بأنه على قول من قال: إنه من نَاسَ: إذا تحرك، أو

ذُكر للتقابل، حيث قال: (ناس من الناس)، (وناساً من الجن) ويا ليت شعري، على من يعترض؟!».

١٠- حسن فهمهم: إن من نَظَرَ في أقوال الصحابة في التفسير متدبراً لهذه الأقوال، ومتفهماً لمراميها، وعلاقتها بتفسير الآية، فإنه سيتبيّن له ما آتاهم الله من حسن البيان عن معاني القرآن، من غير تكلّفٍ في البيان، ولا تعمّق في تجنيس الكلام، بل تراهم يُلْقون الألفاظ بداهة على المعنى، فتصيب منه المراد.

وكان مما عزّز لهم حسن الفهم: ما سبق ذكره من الأسباب التي دعت إلى الرجوع إلى تفسيرهم من: مشاهدة التنزيل، ومعرفة أحوال من نزل فيهم القرآن، وكونهم أصحاب اللسان الذي نزل به القرآن، مع ما لهم من معرفة بأحوال صاحب الشريعة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مما كان يعينهم على فهم المراد وحسن الاستنباط، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الحاكم أبو عبدالله، في التفسير من كتاب المستدرك: ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل، عند الشيخين حديث مسند».

وقال في موضع آخر من كتابه: (هو عندنا في حكم المرفوع). وهذا وإن كان فيه نظرٌ، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد الله عَزَّوَجَلَّ من كتابه؛ فعليهم نزل، وهم أول من خوطب به من الأمة، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علماً وعملاً، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة، فلا يُعدَلُ عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل.

إن هذه المزيّة تُوجِبُ على دارسِ التفسير أن يرجع إلى أقوالهم، وأن يَفْهَم تفسيراتِهم، ليَعْتَمِد عليها في التفسير، ويبنيَ عليها مسائل الآيات وفوائدها. غير إن كثيراً ممن يَدْرُسُ التفسير أو يُدَرّسُه لا يهتم بإيراد أقوال الصحابة، وكثيراً ما تراه يكتفي بأن ينسب التفسير إلى المتأخرين من المفسرين كالزجاج والزمخشري وابن عطية والقرطبي وأبي حيان وابن كثير... وغيرهم. إن في هذا المسلك ما يقطعُ على طالب العلم شرف الوصول إلى علوم هؤلاء الصحابة وأفهامهم، بل قد يجعله ينظر إلى أقوالهم نظر المقلّلِ من شأنها، ويرى أن تفسيراتهم سطحيّة، لا عمق فيها، ولا تقرير!!.

وهذا خطأ مَحْضٌ، ومجانبة الصواب، وإنما كان سبيل أهل العلم الراسخين فيه أنهم (يتكثّرون بموافقة الصحابة)، وانظر كم الفرق بين أن يُقال: هذا قول ابن عباس في الآية، أو يقال: هذا قول الزجاج أو ابن عطية أوغيرهم في الآية. فانظر إلى ما ستميل إليه نفسك؟، وأي قول سيطمئن له قلبك؟.

١١- سلامة قصدهم:لم يقع بين الصحابة خلافٌ يُؤَثّر في علمهم، بحيث يوجّه آراءهم العلمية إلى ما يعتقدونه، وإن كان مخالفـًا للحق، بل كان شأن الخلاف بينهم إظهار الحق، لا الانتصار للنفس أو المذهب الذي ذُهِبَ إليه. ولقد ظهر خلاف أمرهم في الخلاف فيمن بعدهم من أصحاب العقائد الباطلة؛ كالخوارج، والمرجئة، والجهمية، والمعتزلة، وغيرهم، فظهر في أقوالهم مجانبةُ الحق، وكثر الخلاف بسبب كثرة الآراء الباطلة، مما جعل القرآنَ عُرضةً للتحريف والتأويل، إذ كلّ يصرفه إلى مذهب، وهذا ما

سلم منه جيل الصحابة، فلم يتلوّث بمثل هذه الخلافات. ولهذا جاء تفسيرهم بعيداً عن إشكالات التأويل، وصرف اللفظ القرآني إلى ما يناسب المذهب، أو غيرها من الانحرافات في التفسير.

❁❁❁

المبحث الثالث
القاعدة الشرعية

ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وغير خاف أن من استقل بفهمه للكتاب والسنة عن القوم الذين نزل فيهم القرآن، وعرفوا مواضع أقوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخبروا حياته، وأسباب النزول، وكانوا أعلم بالعربية وأهلها، وأطهر قلوبا من الهوى، وأكبر عقولا فإنه لاشك سيقع في الغلط. وهذا يدل عليه النقل والعقل والواقع معا؛ فإن البدع ما ظهرت في الأمة إلا في الساعة التي استقل فيها الناس عن فهم الصحابة وأتباعهم بإحسان، كبدعة القدر، والخوارج، والتشيع، والإرجاء، وطرائق المتكلمين البدعية من معتزلة، وأشعرية، وماتريدية.

❁❁❁

الباب الثاني

أثر القاعدة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أثرها على التفسير.

الفصل الثاني: أثرها على العقيدة.

الفصل الثالث: أثرها على السنة والبدعة.

الفصل الأول

أثرها على الاتجاهات المنحرفة في التفسير

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: أثرها على تفسير الخوارج.

المبحث الثاني: أثرها على تفسير الشيعة.

المبحث الثالث: أثرها على تفسير المعتزلة.

المبحث الرابع: أثرها على تفسير الأشاعرة.

المبحث الخامس: أثرها على تفسير الصوفية

المبحث السادس: أثرها على تفسير أصحاب التفسير العلمي.

المبحث السابع: أثرها على مدعي التجديد.

الاتجاهات المنحرفة في التفسير

قسم العلماء الأخطاء إلى ثلاثة أصناف:

الأول: الخطأ في الهدف والقصد والباعث، وهو أخطر أنواع الخطأ وأشدها.

الثاني: الخطأ في المنهج: أصحاب هذا الخطأ تجاوزوا الخطأ الجذري السابق الذكر، فلم يكن مقصدهم وباعثهم خبيثا وإنما كان سليما نقيا لكنهم وقعوا في خطأ منهجي في نظرهم وتدبرهم للقرآن، فلم يراعوا قواعد التفسير، ولم يحصلوا العلوم الضرورية للمفسر، كما لم تتوفر فيهم صفات المفسرين.

الثالث: الخطأ في بعض الجزئيات الفرعية: وهؤلاء سلموا من الخطأين السابقين، فمقصدهم سليم، وباعثهم صواباً، ومنهجهم في التعامل مع القرآن سليم أيضا، فكانت تفسيراتهم لكتاب الله صحيحة صائبة في مجملها، والخطأ الذي وقع فيه هؤلاء، خطأ في بعض الجزئيات الفرعية، أو في عرضهم لبعض الأفكار، أو تعبيرهم عن بعض المعاني أو في الخروج ببعض النتائج، وهذا خطأ عرضي غير مقصود وهو ملازم للبشر.

من الأخطاء المؤدية إلى الانحرافات في التفسير:

١- عدم الاعتماد على فهم السلف الصالح.

٢- عدم اتباع أحسن طرق التفسير: وهي تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة الصحيحة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم باللغة، وأخيراً إعمال الرأي.

٣- عدم اعتماد الأحاديث الصحيحة في التفسير، وقبول أحاديث موضوعة أو ضعيفة، وتفسير الآيات بها.

٤- التساهل في رواية الإسرائيليات، أو الروايات غير الثابتة المتعلقة بأحداث القصص القرآني، وسير الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام.

٥- عدم البقاء مع القراءات العشر الصحيحة: وقبول قراءات غير صحيحة. وترجيح بعضهم من غير القراءات العشر.

٦- الاستطراد والخروج عن التفسير إلى غيره: حيث كان المفسر يتوسع في بحث بعض الموضوعات والمسائل والقضايا ليس لها صلة مباشرة بالتفسير.

٧- الانشغال بمعارك فكرية ومناقشات مختلفة: حيث كانوا يحولون التفسير إلى ساحة معركة تتصارع عليها مختلف الآراء والأفكار، وتتقاتل عليها مختلف المذاهب والفرق، وخاصة المسائل المتعلقة بالعقيدة والإيمان، وكم تقاتلت الفرق المختلفة أثناء تفسير الآيات، من معتزلة، وخوارج، وشيعة، وأشاعرة، وغيرهم، حيث إنهم فسروا القرآن بمقرراتهم الفكرية السابقة فوقعوا في خطأ الدليل والمدلول معا أخطأوا في الدليل والمدلول هذه بعض أسباب الانحراف في التفسير بالرأي.

أما مظاهر هذا الانحراف فهي ما يلي:

١- أن يكون المعنى الذي يريده المفسر صوابا غير أن لفظ القرآن لا يدل عليه ولا يراد منه. وحتى يجعل المفسر معناه قرآنيا يحمل عليه اللفظ القرآني ومع ذلك لا ينفي المعنى القرآني الظاهر الذي دل عليه اللفظ القرآني حقيقة.

٢- أن يكون المعنى الذي يريده المفسر صحيحا لكن ظاهر النص لا يحتمله.

٣- أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ في نفسه، واللفظ القرآني لا يدل عليه، ولكن لا ينفي الظاهر فيحمل المفسر اللفظ القرآني عليه.

٤- أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ في نفسه، واللفظ القرآني لا يدل عليه، ومع ذلك ينفي المراد من ظاهر اللفظ القرآني فيحمل اللفظ القرآني عليه، ويسلب لفظ القرآن ما يراد به ويدل عليه، ويحمله على ذلك الخطأ تعمدًا، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير أهل البدع والمذاهب الباطلة من الغلاة والمتعصبين.

٥- أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذي ذكره المفسر لغة، ولكنه غير مراد، وذلك كاللفظ الذي يطلق في اللغة على معنيين أو أكثر، ويفهم كل معنى في سياق بعينه. فيأتي المفسر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المراد، وذلك كلفظ أمة فإنه يطلق على معان متعددة، ولا يمكن الوصول إلى المعنى المراد إلا بالسياق الذي ورد فيه هذا اللفظ، حيث إن السياق مهم جداً للوصول إلى المعنى المراد.

٦- أن يكون اللفظ موضوعا لمعنى بعينه، ولكنه غير مراد في الآية، وإنما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينة السياق، فيخطئ المفسر في تعيين المعنى المراد، لأنه اكتفى بظاهر اللغة، فيفسر اللفظ على معناه الوضعي.

نماذج من اتجاهات التفسير بالرأي المذموم:

لما ظهرت المذاهب الدينية تأثر التفسير بها إلى حد كبير، ذلك أن القرآن الكريم كان هو المرجع الأول الذي يقصد إليه أصحاب المذاهب المختلفة من المسلمين ليأخذ كل منهم ما يشهد لمذهبه ولو بطريق إخضاع النص القرآني له، وقسره على موافقة رأيه وهواه، وتأويل ما يصادمه من ذلك تأويلا لا ينافي مذهبه ولا يعارض عقيدته.

❁❁❁

المبحث الأول

أثرها على تفسير الخوارج

نشأت هذه الفرقة بعد حادثة التحكيم، ثم دب الخلاف بينهم فتفرقوا أحزابا، كل حزب يفارق الآخر في المبدأ والعقيدة ولكن يجمع الكل على مبدأين هما:

١- تكفير، علي ومعاوية، والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضي بالتحكيم.

٢-وجوب الخروج على السلطان الجائر.

٣- وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج وهو التكفير بارتكاب الكبائر.

نماذج من تفسيرهم المنحرف:

المثال الأول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

فهم السلف للآية:

قال أبو جعفر: وهذا نعت من الله تبارك وتعالى للمنافقين، بقوله جل ثناؤه: ومن الناس من يعجبك يا محمد ظاهرُ قوله وعلانيته، ويستشهد الله على ما في قلبه، وهو ألدُّ الخصام، جَدِلٌ بالباطل [(١)].

فهم الخوارج للآية:

قالوا: أنزل الله هذه الآية في شأن علي.

---

(١) تفسير الطبري ٤/ ٢٢٩.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠].

فهم السلف للآية:

أن الآية لا تدل على كفر علي ومعاوية ومن معهما من الصحابة الذين حكموا الحكمين: قال ابن عباس للخوارج: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله، فأنا أقرأ عليكم ما قد رد حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم في أرنب ونحوها من الصيد، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥]. فنشدتكم الله أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم؟، وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرجال، وفي المرأة وزوجها قال الله: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥]، فجعل الله حكم الرجال سنة مأمونة أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم...»[(١)].

---

(١) السنن الكبرى للنسائي ٧/ ٤٨٠ برقم: ٨٥٢٢ جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٦٢-٩٦٤ والمصنف لعبدالرزاق ١٠/ ١٥٧ برقم: ١٨٦٧٨ والمعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢٥٧-٢٥٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٣١١ والمستدرك للحاكم ٢/ ١٥٠ والحلية لأبي نعيم ١/ ٣١٨-٣٢٠ وأخرج بعضه الإمام أحمد ١/ ٣٤٢ وإسناده على شرط مسلم.

فهم الخوارج للآية: استدلوا بها على تكفير الصحابة، فقالوا في علي: إنه حكم الرجال في أمر الله وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] وما للرجال وما للحكم المؤمنين[(١)].

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ٢٠].

فهم السلف للآية: أن الآية لا تدل على عدم خروج من دخل النار من الموحدين بشفاعة الشافعين:

قال جابر بن عبدالله للذي بدأ فيه نزعة الخوارج: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعت بمقام محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني الذي يبعثه الله فيه؟ قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج. قال: ثم نعت وصف الصراط، ومرور الناس عليه، قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك قال: غير أنه قد زعم أن قوما يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: - يعني- فيخرجون كأنهم عيدان السماسم، قال: فيدخلون نهرا من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس، فرجعنا، قلنا: ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فرجعنا فلا والله ما خرج منا غير رجل واحد[(٢)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٦/ ١١٦٥ والاعتصام للشاطبي ١/ ١٩٤.

فهم الخوارج للآية:

استدلوا بهذه الآية على خلود مرتكب الكبيرة في النار: قال يزيد الفقير: كنت قد شغفني رأى من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج، ثم نخرج على الناس، قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبدالله يحدث القوم، جالس إلى سارية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فإذا هو قد ذكر الجهنميين، قال: فقلت له: يا صاحب رسول الله ما هذا الذي تحدثون؟ والله يقول: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة: ٢٠] فما هذا الذي تقولون؟»[(١)].

❁❁❁

(١) المرجع السابق.

المبحث الثاني
أثرها على تفسير الشيعة

نماذج لانحراف مذهبهم في التفسير:

المثال الأول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فهم السلف لهذه الآية:

إن الله سبحانه أمر نبيه أن يقول هذا للمشركين لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دين آبائك، وقد نقل ابن كثير وغيره عن بعض السلف أن هذا هو سبب نزولها(١). والمعنى: قل يا محمد لمشركي قومك، أتأمرونني بعبادة غير الله أيها الجاهلون بالله ولا تصلح العبادة لشيء سواه سبحانه. ولما كان الأمر بعبادة غير الله لا يصدر إلا من غبي جاهل ناداهم بالوصف المقتضي ذلك فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤]. ثم بين سبحانه أنه قد أوحى إلى نبيه وإلى الرسل من قبله: لئن أشركت بالله ليبطلن عملك. وهذا في بيان خطر الشرك وشناعته، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف بمن عداه؟ ثم قال سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٦] لا تعبد ما أمرك به المشركون بل اعبد الله وحده دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان(٢).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٦٧ والبغوي ٤/ ٢٨٤.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٤.

فهم الشيعة الإمامية لهذه الآية:

نصوص التوحيد جعلوها في ولاية الأئمة:

بناء عليه أنهم غيروا الأمر فاعتبروا الآية متعلقة بعلي. وفسروها بما يلي: «يعني إن أشركت في الولاية غيره» هذا لفظ الكليني في «الكافي»، وفي لفظ آخر: «لئن أمرت بولاية أحد مع ولاية علي من بعدك ليحبطن عملك» (هذا لفظ القمي في تفسيره). وقد ساق صاحب البرهان في تفسير القرآن أربع روايات لهم في تفسير الآية السابقة بالمعنى المذكور(١).

وقد جاء في سبب نزولها عندهم: «... إن الله عَزَّوَجَلَّ حيث أوحى إلى نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يقيم عليًا للناس علمًا اندس إليه معاذ بن جبل فقال: أشرك في ولايته الأول والثاني (يعنون أبا بكر وعمر) حتى يسكن الناس إلى قولك ويصدقوك، فلما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: ٦٧] شكا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى جبرائيل فقال: «إن الناس يكذبوني ولا يقبلون مني، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾» [الزمر: ٦٥](٢).

---

(١) البرهان ٤/ ٨٣. انظر أصول الكافي أصح كتاب عندهم في الرواية ١/ ٤٢٧ برقم: ٧٦ وتفسير القمي عمدة تفاسيرهم ٢/ ٢٥١ وتفسير الصافي ٤/ ٣٢٨.

(٢) البرهان ٤/ ٨٣.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ [غافر: ١٢].

فهم السلف لهذه الآية:

ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعي الله في الدنيا وحده دون غيره كفرتم به وتركتم توحيده ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ﴾ غيره من الأصنام أو غيرها ﴿تُؤۡمِنُواْۚ﴾ بالإشراك به وتجيبوا الداعي إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء، فهي مع ما قبله خبر عن جزاء المشركين في الآخرة، وأن مصيرهم إلى النار لا يخرجون منها، وأنهم يطلبون الرجعة إلى الدنيا ولا يجابون بسبب إشراكهم بالله في عبادته(١).

فهم الشيعة الإمامية لهذه الآية:

الشيعة تروي عن أئمتها في تأويل الآية غير ما فهمه السلف الصالح منها. تقول: «عن أبي جعفر في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ﴾ بأن لعلي ولاية ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ﴾ من ليست له ولاية ﴿تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾»(٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٤/ ٤٨، تفسير البغوي: ٤/ ٩٣-٩٤، تفسير ابن كثير: ٤/ ٧٩-٨٠، فتح القدير: ٤/ ٤٨٤، تفسير القاسمي: ١٤/ ٢٢٧، ابن سعدي/ تيسير الكريم الرحمن ٦/ ٥١٢ وغيرها.

(٢) البرقي/ كنز جامع الفوايد ص٢٧٧، بحار الأنوار: ٢٣/ ٣٦٤، وانظر: تفسير القمي: ٢/ ٢٥٦، أصول الكافي: ١/ ٤٢١، البرهان ٤/ ٩٣-٩٤، تفسير الصافي: ٤/ ٣٣٧.

ومعلوم أن هذا التأويل من جنس تأويلات الباطنية، إذ لا دلالة عليه من لفظ الآية ولا سياقها مطلقًا، ولذلك فإن صاحب مجمع البيان أعرض عن تأويلات طائفته وفسر الآية بمقتضى ظاهرها، وما قاله السلف في تفسيرها[١] لكن مثل هذه الأصوات المعتدلة سرعان ما تموت في جو التقية الخانق.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

فهم السلف الصالح لهذه الآية:

الآيات لتقرير وحدانية الله، قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره للمشركين به من قُريش: أعبادة ما تعبدون من أوثانكم التي لا تضرّ ولا تنفع خير، أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠] يعني مطرا، وقد يجوز أن يكون مريدا به العيون التي فجَّرها في الأرض؛ لأن كل ذلك من خلقه (فَأَنْبَتْنَا بِهِ) يعني بالماء الذي أنزل من السماء (حَدَائِقَ) وهي جمع حديقة، والحديقة: البستان عليه حائط محوّط، وإن لم يكن عليه حائط لم يكن حديقة. وقوله: «ذَاتَ بَهْجَةٍ» يقول: ذات منظر حسن. وقيل ذات بهجة بالتوحيد. وقد قيل حدائق، كما قال: «وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»،

(١) انظر: مجمع البيان: ٥/ ١٨٦.

وقد بيَّنت ذلك فيما مضى.وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[١].

فهم الشيعة الإمامية لهذه الآية:

تمضي رواياتهم على ذلك المنهج الضال، والتأويل الفاسد، ففي قوله سبحانه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١]. قال أبو عبدالله -كما يفترون-: «أي إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد»[٢].

إن هذه الروايات وأمثالها هي التربة الصالحة لنشوء الاتجاهات الغالية التي تؤله عليًا، والتي لا تزال تظهر في هذه الطائفة بين آونة وأخرى.

❁❁❁

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٤٨٤.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٣٩١، كنز جامع الفوايد: ص٢٠٧.

المبحث الثالث

أثرها على تفسير المعتزلة

نماذج من مخالفتهم فهم السلف في تفاسيرهم:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١].

فهم السلف للآية:

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري: «قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا لكل من نبأناه من قبلك عدوّا من مشركي قومه، فلم تخصص بذلك من بينهم. يقول: فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا.وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[(١)].

فهم المعتزلة للآية:

يقولون: إن جعل بمعنى «بين»، لا بمعنى «خلق»، ويستدلون على ذلك بقول الشاعر:

جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا ... على ثبت من أمرهم حين يمموا

فالمعتزلة فسروا النظر الى الله بالنظر الى رحمة الله؛ لكي يتخلصوا من مخالفة قاعدة عقلية فلسفية تقول: إن الله ليس بجسم، وفسروا كلمة جعل

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٢٦٤.

بالتبيين، لكي لا تفسد قاعدة العدل وقاعدة الاختيار وأن المجرمين هم الذين يخلقون أفعالهم [(١)].

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٨].

فهم السلف للآية:

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: أنّ الراسخين في العلم يقولون: آمنا بما تشابه من آي كتاب الله، وأنه والمحكم من آيه من تنزيل ربنا ووحيه. ويقولون أيضًا: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا»، يعني أنهم يقولون رغبةً منهم إلى ربهم في أن يصرف عنهم ما ابتلى به الذين زاغت قلوبهم من اتباع متشابه آي القرآن، ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله الذي لا يعلمه غيرُ الله: يا ربنا، لا تجعلنا مثل هؤلاء الذين زاغت قلوبهم عن الحق فصدوا عن سبيلك «لا تزغ قلوبنا»، لا تملها فتصرفها عن هُدَاك بعد إذ هديتنا له، فوفقتنا للإيمان بمحكم كتابك ومتشابهه «وهب لنا» يا ربنا «من لدنك رحمة»، يعني: من عندك رحمة، يعني بذلك: هب لنا من عندك توفيقًا وثباتًا للذي نحن عليه من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه «إنك أنتَ الوهاب»، يعني: إنك أنت المعطي عبادك التوفيقَ والسدادَ للثبات على دينك، وتصديق كتابك ورسلك. ثم ذكر الأحاديث [(٢)].

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٣م٢٨٢.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢١١.

فهم المعتزلة للآية:

نجد الزمخشري يؤيد مذهب الاعتزال في حرية الإرادة وخلق الأفعال، عندما يفسر هذه الآية، فقال: «لا تزغ قلوبنا لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا بعد إذ هديتنا وأرشدتنا لدينك أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا، من لدنك رحمة من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة وقرىء (لا تزغ قلوبنا) بالتاء والياء ورفع القلوب»[(١)].

المثال الثالث: قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء: ١٦٥].

فهم السلف للآية:

قال أبو جعفر: «يعني جل ثناؤه بذلك: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، ومن ذكر من الرسل «رسلا»، فنصب «الرسل» على القطع من أسماء الأنبياء الذين ذكر أسماءهم «مبشرين»، يقول: أرسلتهم رسلا إلى خلقي وعبادي، مبشرين بثوابي من أطاعني واتبع أمري وصدَّق رسلي، ومنذرين عقابي من عصاني وخالف أمري وكذب رسلي «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»، يقول: أرسلت رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين، لئلا يحتجّ من كفر بي وعبد الأنداد من دوني، أو ضل عن سبيلي بأن يقول إن أردتُ عقابه: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه: ١٣٤].

---

(١) الكشاف ١/ ٣٦٧.

فقطع حجة كلّ مبطل ألحدَ في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذارًا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

فهم المعتزلة للآية:

يؤيد الزمخشري الحسن والقبح العقليين عندما يفسر هذه الآية، فقال: الأوجه أن ينتصب على المدح ويجوز انتصابه على التكرير.

فإن قلت كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التى النظر فيها موصل إلى المعرفة والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة ولا عرف أنهم رسل الله الا بالنظر فيها قلت الرسل منبهون عن الغفلة وباعثون على النظر كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد مع تبليغ ما حملوه من تفضيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميما لإلزام الحجة لئلا يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له»[(١)].

المثال الرابع: قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

فهم السلف لهذه الآية:

قال أبو جعفر -بعد ما نقل أقوال السلف-: «وأولى الأقوال في ذلك

(١) تفسير الكشاف ١/ ٦٢٤.

بالصواب، قول من قال: معناه: ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا، فجزاؤه إن جزاه جهنم خالدًا فيها، ولكنه يعفو ويتفضَّل على أهل الإيمان به وبرسوله، فلا يجازيهم بالخلود فيها، ولكنه عز ذكره إما أن يعفو بفضله فلا يدخله النار، وإما أن يدخله إيّاها ثم يخرجه منها بفضل رحمته، لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

فهم المعتزلة لهذه الآية:

والزمخشري يؤيد رأي المعتزلة في أصحاب الكبائر عندما يفسر هذه الآية فقال: «والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ثم ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة في قتل الخطأ لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ فيه حسم للأطماع وأي حسم ولكن لا حياة لمن تنادي.

فإن قلت هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر قلت ما أبين الدليل وهو تناول قوله: ومن يقاتل أي قاتل كان من مسلم أو كافر تائب أو غير تائب الا أن التائب أخرجه الدليل فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله»[(١)].

(١) الكشاف ١/ ٥٨٤.

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

فهم السلف لهذه الآية:

قال الإمام أبو جعفر الطبري: «وفي قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ وجهان من التأويل: أحدهما: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ والآخر: قوّة الله فوق قوّتهم في نصرة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنهم إنما بايعوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نُصرته على العدو». قلت: الوجه الأول هو الموافق لفهم السلف:

قال أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون؟ قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله ربنا عَزَّوَجَلَّ وبسنة نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون ولما خالف قوله مخالفون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ودفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيع الزائغين وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم وكبير مفهم.

وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاءوا به من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا نرد من ذلك شيئا وأن الله عَزَّوَجَلَّ إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق وأن الجنة والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء بل هو رفيع الدرجات عن العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد، وأن له سبحانه وجها بلا كيف كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧].

وأن له سبحانه يدين بلا كيف كما قال سبحانه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥]، وكما قال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

فهم المعتزلة لهذه الآية:

فالمعتزلة يؤولون ما يتعلق بصفات الله تعالى بما يناسب رأيهم، فكل ما في القرآن يعرضونه على العقل، فما قبله أقروه، وما خالفه حسب رأيهم يؤولونه حتى يتوافق مع ما عندهم من القواعد العقلية، كتأويل اليد بالقدرة. قال الزمخشري: لما قال: (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) أكده تأكيداً على طريق التخييل فقال: (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النساء: ٨٠]. والمراد: بيعة الرضوان فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. قال جابر بن عبدالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت، وعلى أن لا نفرّ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم. وقرىء: (إنما يبايعون لله) أي: لأجل الله ولوجهه، وقرىء: (ينكث) بضم الكاف وكسرها، وبما عاهد وعهد) فسنؤتيه (بالنون والياء، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت به، وهي لغة تهامة. ومنها قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾[1] [البقرة: ١٧٧].

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٣٣٧.

المثال السادس: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

فهم السلف لهذه الآية:

قال الإمام ابن جرير الطبري: «وقوله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] يقول تعالى ذكره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا»[(١)].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ۝٧﴾ [هود: ٧] ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التوبة: ١٢٩]. قال أبو العالية: «استوى إلى السماء ارتفع. (فسواهن) خلقهن. وقال مجاهد: (استوى) علا (على العرش»[(٢)].

قال الإمام الترمذي: «وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا قد تثبت الروايات في هذا و يؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف؟ هكذا روي عن مالك و سفيان بن عيينة و عبدالله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث أمروها بلا كيف وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة...وقال إسحق بن إبراهيم إنما يكون التشبيه إذا قال يد كيد أو مثل يد أو سمع كسمع أو مثل سمع فإذا قال سمع كسمع أو مثل سمع فهذا التشبيه وأما إذا قال كما قال الله تعالى يد وسمع وبصر ولا يقول كيف ولا يقول مثل سمع ولا كسمع فهذا لا

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧٠.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٢٤.

يكون تشبيها وهو كما قال الله تعالى في كتابه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[1] [الشورى: ١١].

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، قال الكلبي ومقاتل: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد... فأما أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾، كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالا، ثم أمر به فأخرج، وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة: أمروها كما جاءت بلا كيف، والعرش في اللغة: هو السرير. وقيل: هو ما علا فأظل، ومنه عرش الكروم[2].

فهم المعتزلة لهذه الآية:

حرفوا الاستواء بالاستيلاء والسيطرة، قال الإمام الترمذي: «وأما الجهمية

---

(١) سبق توثيقه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٦.

فأنكرت هذه الروايات وقالوا هذا تشبيه وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في غير موضع من كتابه اليد والسمع والبصر فتأولت الجهمية هذه الآيات ففسروها على غير ما فسر أهل العلم وقالوا إن الله لم يخلق آدم بيده وقالوا إن معنى اليد ههنا القوة»[(١)].

قال الإمام البغوي: «وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء»[(٢)].

المثال السابع: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣].

فهم السلف لهذه الآية:

قال الإمام ابن جرير الطبري: «وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الحسن وعكرِمة، من أن معنى ذلك تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:حدثني عليّ بن الحسين بن أبجر، قال: ثنا مصعب بن المقدام، قال: ثنا إسرائيل بن يونس، عن ثوير، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنَّ أدْنى أهْلِ الجَنَّةِ مَنزلَةً، لَمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ ألْفَيْ سَنَةٍ، قال: وإنَّ أفضَلَهُمْ مَنزلَةً لَمَن يَنْظُرُ فِي وَجْهِ اللهِ كُلَّ يَوْم مَرَّتَينِ؛ قال: ثم تلا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣] قال: بالبياض والصفاء، قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ قال: تنظر كلّ يوم في وجه الله عَزَّوَجَلَّ»[(٣)].

---

(١) سبق توثيقه.

(٢) سبق توثيقه.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ١٤.

فهم المعتزلة لهذه الآية:

حرفوها برؤية رحمة الله، وما شابه ذلك، ويقول القاضي عبدالجبار: وربما قيل في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣].

إنه أقوى دليل على أن الله يرى في الآخرة، وجوابنا: أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله جسم، فإنا لا ننازعه في أنه يرى، بل في أنه يصافح، ويعانق، ويلمس، تعالى الله عن ذلك، وإنما نكلمه في أنه ليس بجسمٍ، وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله، فلابد من أن يعترف بأن النظر الى الله تعالى لا يصح؛ لأن النظر هو: تقليب العين الصحيحة نحو الشيء طلبًا لرؤيته، وذلك لا يصح إلا في الأجسام، فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب[(١)].

قال الإمام أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «احتجت المعتزلة في أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يرى بالأبصار بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣] قالوا: فلما عطف الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ على قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وكان قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ على العموم أنه يدركها في الدنيا والآخرة وأنه يراها في الدنيا والآخرة كان قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ دليلا على أنه لا تراه الأبصار في الدنيا والآخرة وكان في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر.

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبدالجبار: ٣٥٨، ذيل الآية ٢٣ من سورة القيامة.

قيل لهم: فيجب إذا كان عموم القولين واحدا وكانت الأبصار أبصار العيون وأبصار القلوب لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥]. أي فهي بالأبصار فأراد أبصار القلوب وهي التي يفضل بها المؤمنون الكافرين ويقول أهل اللغة: فلان بصير بصناعته يريدون بصر العلم ويقولون: قد أبصرته بقلبي كما يقولون قد أبصرته بعيني فإذا كان البصر بصر العين وبصر القلب ثم أوجبوا علينا أن يكون قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر وجب عليهم بحجتهم أن الله تعالى لا يدرك بأبصار العيون ولا بأبصار القلوب لأن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وإذا لم يكن عندهم هكذا فقد وجب أن يكون قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أخص من قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وانتقض احتجاجهم.

وقيل لهم: إنكم زعمتم أنه لو كان قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ خاصا في وقت دون وقت لكان قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ خاصا في وقت دون وقت وكان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ

بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤] في وقت دون وقت فإن جعلتم قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ خاصا رجع احتجاجكم عليكم وقيل لكم: إذا كان قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ خاصا ولم يجب خصوص هذه الآيات فلم أنكرتم أن يكون قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ إنما أراد في الدنيا دون الآخرة؟ وكما أن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أراد بعض الأبصار دون بعض ولا يوجب ذلك تخصيص هذه الآيات التي عارضتمونا بها.

فإن قالوا: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يوجب أن لا يدرك بها في الدنيا والآخرة وليس ينفي ذلك أن نراه بقلوبنا ونبصره بها ولا ندركه بها.

قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون لا تدركه بإبصار العيون لا يوجب إذا لم ندركه بها أن لا نراه فرؤيتنا له بالعيون وإبصارنا له بها ليس بإدراك له بها كما أن إبصارنا له بالقلوب ورؤيتنا له بها ليس بإدراك له بها.

فإن قالوا: رؤية البصر هي إدراك البصر.

قيل لهم: ما الفرق بينكم وبين من قال: إن رؤية القلب وإبصاره هو إدراكه وإحاطته فإذا كان علم القلب بالله عَزَّوَجَلَّ وإبصار القلب له رؤيته إياه ليس بإحاطة ولا إدراك فما أنكرتم أن يكون رؤية العيون وإبصارها لله عَزَّوَجَلَّ ليس بإحاطة ولا إدراك ويقال لهم: إذا كان قول الله سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لأن أحد

الكلامين معطوف على الآخر فخبرونا أليس الأبصار والعيون لا تدركه رؤية ولا لمسا ولا ذوقا ولا على وجه من الوجوه؟

فمن قولهم: نعم فيقال لهم: أخبرونا عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

أتزعمون أنه يدركها لمسا وذوقا بأن يلمسها؟ فمن قولهم: لا.

فيقال لهم: فقد انتقض قولكم: إن قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ في العموم كقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ...﴾[1].

❁❁❁

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص٥٩.

المبحث الرابع
أثرها على تفسير الأشاعرة

نماذج من مخالفتهم فهم السلف:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

فهم السلف لهذه الآية:

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، فإنه يعني بذلك جل ثناؤه: وخاطب الله بكلامه موسى خطابًا»[(١)] ثم نقل عن السلف.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وهذا تشريف لموسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكليم.

وقد قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه: حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي، حدثنا مَسيحُ بن حاتم، حدثنا عبدالجبار بن عبدالله قال: جاء رجل إلى أبي بكر بن عيَّاش فقال: سمعت رجلا يقرأ: «وكلم الله موسى تكليما» فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأتُ على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى بن وثَّاب على أبي عبدالرحمن السَّلْمِيّ، وقرأ أبو عبدالرحمن، عَلَى عَلِيٍّ بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وإنما اشتد غضب

---

(١) تفسير طبري ٩/ ٤٠٣

أبي بكر بن عياش، رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مَن قرأ كذلك؛ لأنه حَرّف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلَّم موسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو يكلم أحدًا من خلقه، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: «وكلم الله موسى تكليما» فقال له: يا ابن اللَّخْنَاء، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل[(١)].

كيفية إثبات السلف لصفة الكلام:

أن أهل السنة والجماعة يقولون بأن الله سبحانه وتعالى لم يزل متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وأن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته، وأن كلامه قديم النوع حادث الآحاد، وأنه يتكلم بصوت، وأن القرآن كلام الله تعالى ألفاظه ومعانيه، وهو المكتوب في المصاحف المحفوظ في الصدور، المقروء بالألسن، المسموع بالآذان، وهو في جميع هذه المراتب قرآن حقيقة شرعية معلوم من الدين بالضرورة.

أجمع السلف على إثبات الحرف والصوت لدلالة الكتاب والسنة عليه:

قال الإمام السجزي: «فالإجماع منعقد بين العقلاء على كون الكلام حرفاً وصوتاً فلما نبغ ابن كلاب وأضرابه وحاولوا الرد على المعتزلة من طريق مجرد العقل وهم لا يخبرون أصول السنة ولا ما كان السلف عليه، ولا يحتجون بالأخبار الواردة في ذلك زعماً منهم أنها أخبار آحاد وهي لا

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٤.

توجب علما وألزمتهم المعتزلة أن الاتفاق حاصل على أن الكلام حرف وصوت ويدخله التعاقب والتأليف وذلك لا يوجد في الشاهد إلا بحركة وسكون ولا بد له من أن يكون ذا أجزاء وأبعاض وما كان بهذه المثابة لا يجوز أن يكون من صفات ذات الله لأن ذات الله سبحانه لا توصف بالاجتماع والافتراق والكل والبعض والحركة والسكون وحكم الصفة الذاتية حكم الذات.

قالوا: فعلم بهذه الجملة أن الكلام المضاف إلى الله سبحانه خلق له أحدثه وأضافه إلى نفسه كما تقول: عبد الله، وخلق الله وفعل الله.

فضاق بابن كلاب وأضرابه النفس عند هذا الإلزام لقلة معرفتهم بالسنن وتركهم قبولها وتسليمهم العنان إلى مجرد العقل فالتزموا ما قالته المعتزلة وركبوا مكابرة العيان وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة المسلم والكافر وقالوا للمعتزلة: الذي ذكرتموه ليس بحقيقة الكلام وإنما يسمى ذلك كلاماً على المجاز لكونه حكاية أو عبارة عنه وحقيقة الكلام: معنى قائم بذات المتكلم»[(١)].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا، فلما سمعوه خروا سجدا، فلما رفعوا رءوسهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير»[(٢)].

---

(١) رسالة الإمام السجزي في الرد على من أنكر الحرف والصوت ص٣.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٢/ ٩١ عند الآية المذكورة، وأورده السيوطي في الدر=

قال عبدالله بن أحمد: «سألت أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قومٍ يقولون لما كلم الله عَزَّوَجَلَّ موسى لم يتكلم بصوت، قال أبي: بلى، إن ربك عَزَّوَجَلَّ تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت»(١).

وقال أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا تكلم الله عَزَّوَجَلَّ سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان» قال أبي: «وهذا الجهمية تنكره»(٢).

وقال الإمام أحمد ردا على شبهتهم الفاسدة: «قوله: إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان، أليس قال الله للسماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١] أتراها قالت: بجوف وفم وشفتين ولسان وأدوات؟. هناك بعض المخلوقات تتكلم ولا نعلم الكيفية، ما ندري كيف، وليس لها لسان، ولا جوف، ولا شفتان، وإذا أمكن هذا في المخلوقات فإمكانه في الخالق من باب أولى.

فالسماوات والأرض، قال الله تعالى: اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا فأجابتا فقالتا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ هل السماوات لها جوف أو فم أو شفتان؟ وهل الأرض لها كذلك؟ نعم.

= المنثور ٦٦٩٧ منسوبا لابن أبي حاتم وابن مردويه قال ابن القيم: وهذا إسناد معروف يروي به ابن جرير وابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، وغيرهم التفسير وغيره عن ابن عباس، وهو إسناد متداول بين أهل العلم وهم ثقات.

(١) السنة لعبدالله بن أحمد ١/ ٢٨٠.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٨١.

الأدلة على كلام الله وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩] أتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفتين؟. حجر يسبح في يد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والطعام يسبح، كذلك الجذع الذي كان يخطب عليه النبي حَنَّ وصَاحَ كما يصيح الطفل، فنزل إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعل يهدئه كما يهدئ الصبي حتى سكت، ما له، الجذع ما له فم ولا لسان ولا شفتان.

فإذا كان بعض المخلوقات تتكلم، ولا نعرف كيف تتكلم، وليس لها لسان، ولا شفتان، ولا جوف، فإمكان ذلك في الخالق من باب أولى. ولهذا قال الإمام، نعم.

ولكن الله أنطقها كيف شاء، وكذلك الله تكلم كيف شاء، من غير أن نقول بجوف ولا فم ولا لسان ولا شفتين»[(١)].

وفي إثبات الصوت لله سبحانه وتعالى، ونفي المشابهة بينه وبين أصوات المخلوقين يقول أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ويذكر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يحب أن يكون الرجل خفيض الصوت ويكره أن يكون رفيع الصوت وأن الله عَزَّوَجَلَّ ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب فليس هذا لغير الله جل ذكره قال أبو عبدالله وفي هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق لأن صوت الله جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته فإذا

(١) الرد على الجهمية مع شرح الشيخ الراجحي ص٢٨١.

تنادى الملائكة لم يصعقوا وقال عَزَّوَجَلَّ فلا تجعلوا لله أندادا فليس لصفة الله ند ولا مثل ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين»[(١)] ثم ذكر الأحاديث.

أثبت الصوت حبر الأمة، وإماما أهل السنة: أحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري - قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكل أهل السنة على قولهما -، وقد صرح بذلك وحكاه إجماعا حرب بن إسماعيل صاحب أحمد، وإسحاق، وصرح به خشيش بن أصرم النسائي، ومحمد بن حاتم المصيصي، وعبدالله بن الإمام أحمد، وأبو داوود السجستاني، وابنه أبو بكر[(٢)].

قال أبو نصر السجزي رحمه الله تعالى: «فقول خصومنا إن أحداً لم يقل إن القرآن كلام الله حرف وصوت كذب وزور، بل السلف كلهم كانوا قائلين بذلك»[(٣)].

كما أجمع السلف على إثبات الحرف وقال أبو محمد بن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «وأما إثبات حروف القرآن فإن القرآن هو هذا الكتاب العربي المنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو سور وآيات، وحروف وكلمات، من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، فمن أقر بهذا وعلمه فقد أقر بالحروف، فلا وجه لإنكاره ولمجمجته، ومن أنكر هذا ففي القرآن أكثر من مائة آية ترد عليه، فإجماع المسلمين يكذبه وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) خلق أفعال العباد ص٩٨ برقم: ٣٣٨ ط/ دار المعارف السعودية الرياض ١٣٩٨.

(٢) انظر مختصر الصواعق ٣/ ١٢٩٢ الطبعة المحققة.

(٣) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص١٦٩.

وقول أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن بعدهم يكفره -إلى أن قال- مع أن لفظ الحروف قد نطق به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أخباره، وجاء عن أصحابه كثيراً وعن من بعدهم، وأجمع الناس على عد حروف القرآن وآيه وكلماته، وأجمعوا على أن من جحد حرفًا متفقًا عليه فهو كافر، فما الجحد له بعد ذلك إلا العناد»[(١)].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى -عن الحروف-: «ولم تزل هذه الأخبار، وهذه اللفظة -يعني الحروف- متداولة منقولة بين الناس، لا ينكرها منكر، ولا يختلف فيها أحد، إلى أن جاء الأشعري فأنكرها، وخالف الخلق كلهم مسلمهم وكافرهم، ولا تأثير لقوله عند أهل الحق، ولا يترك الحقائق وقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجماع الأمة لقول الأشعري إلا من سلبه الله التوفيق، وأعمى بصيرته، وأضله عن سواء السبيل ثم تكلم رَحِمَهُ اللَّهُ على إثبات الصوت والرد على الأشاعرة في ذلك»[(٢)].

فمن أدلة إثبات الصوت:

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**»[(٣)].

---

(١) تحريم النظر في كتب الكلام ص٦٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أخرجه البخاري ٤/ ١٧٦٧ برقم: ٤٤٦٤.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان**»(١).

ومن أدلة إثبات الحرف:

روى الترمذي وصححه من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(٢).

مخالفة فهم الأشاعرة لفهم السلف في كلام الله:

من المعلوم أن صفة الكلام من الصفات السبع التي يثبتها الأشاعرة إلا أنهم يخالفون السلف في كيفية إثبات كلام الله، وأن الكلام الذي يثبتونه هو الكلام النفسي، أما الحروف والصوت فليست كلام الله قال الرازي مقررا فهم الأشاعرة - الذين زعم أنهم أهل السنة والجماعة - المخالف لفهم السلف الموافق لفهم المعتزلة - وإن تظاهروا بالرد عليهم - في صفة الكلام:

المسألة الأولى: دلت الآية على أنه تعالى كلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والناس مختلفون في كلام الله تعالى فمنهم من قال: كلامه عبارة عن الحروف المؤلفة المنتظمة، ومنهم من قال: كلامه صفة حقيقة مغايرة للحروف

---

(١) المرجع السابق ٤/ ١٧٣٦ برقم: ٤٤٢٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٥/ ١٧٥ برقم: ٢٩١٠. وقال: حسن صحيح وصححه الألباني.

والأصوات. أما القائلون بالقول الأول فالعقلاء المحصلون، اتفقوا على أنه يجب كونه حادثًا كائنًا بعد أن لم يكن. وزعمت الحنابلة والحشوية أن الكلام المركب من الحروف والأصوات قديم، وهذا القول أخس من أن يلتفت العاقل إليه، وذلك أني قلت يومًا إنه تعالى إما أن يتكلم بهذه الحروف على الجمع أو على التعاقب والتوالي، والأول: باطل لأن هذه الكلمات المسموعة المفهومة إنما تكون مفهومة إذا كانت حروفها متوالية فأما إذا كان حروفها توجد دفعة واحدة فذاك لا يكون مفيداً ألبتة، والثاني: يوجب كونها حادثة، لأن الحروف إذا كانت متوالية فعند مجيء الثاني ينقضي الأول، فالأول حادث لأن كل ما ثبت عدمه امتنع قدمه، والثاني حادث، لأن كل ما كان وجوده متأخراً عن وجوده غيره فهو حادث، فثبت أنه بتقدير أن يكون كلام الله تعالى عبارة عن مجرد الحروف والأصوات محدث.

إذا ثبت هذا فنقول للناس ههنا مذهبان: الأول: أن محل تلك الحروف والأصوات الحادثة هو ذات الله تعالى، وهو قول الكرامية. الثاني: أن محلها جسم مباين لذات الله تعالى كالشجرة وغيره، وهو قول المعتزلة.

أما القول الثاني: وهو أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات، فهذا قول أكثر أهل السنة والجماعة. وتلك الصفة قديمة أزلية. والقائلون بهذا القول اختلفوا في الشيء الذي سمعه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فقالت الأشعرية: إن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سمع تلك الصفة الحقيقية الأزلية قالوا: وكما لا يتعذر رؤية ذاته، مع أن ذاته ليست جسمًا ولا عرضًا، فكذلك لا يبعد

سماع كلامه مع أن كلامه لا يكون حرفًا ولا صوتًا. وقال أبو منصور الماتريدي الذي سمعه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أصوات مقطعة وحروف مؤلفة قائمة بالشجرة، فأما الصفة الأزلية التي ليست بحرف ولا صوت فذاك ما سمعه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ألبتة، فهذا تفصيل مذاهب الناس في سماع كلام الله تعالى[(١)].

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

فهم السلف لهذه الآية وأمثالها:

أجمع السلف على أن الله سبحانه وتعالى في السماء على العرش وقد نقل الإجماع غير واحد من الأئمة منهم:

قال الإمام الأوزاعي: «كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفات الله جل وعلا»[(٢)].

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فنحن نؤمن بخبر الله جل وعلا: أن خالقنا مستو على عرشه، لا نبدل كلام الله، ولا نقول قولا غير الذي قيل لنا، كما قالت المعطلة الجهمية: إنه استولى على عرشه، لا استوى، فبدلوا قولا غير الذي قيل لهم كفعل اليهود كما أمروا أن يقولوا حطة، فقالوا: حنطة مخالفين لأمر الله - جل وعلا - كذلك الجهمية»[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٤/ ١٨٦.

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات وصححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص٤٣ وجود إسناده الحافظ في الفتح ١٣/ ٤٠٦.

(٣) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ١/ ٢٣٣.

وقال الإمام ابن عبدالبر في شرح حديث النزول: «وفيه دليل على أن الله عَزَّوَجَلَّ في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم إن الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكان وليس على العرش والدليل على صحة ما قالوه أهل الحق في ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ [السجدة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١] وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء: ٤٢] وقوله تبارك اسمه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۝١٠﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦]، وقال جل ذكره ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، وهذا من العلو وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، والجهمي يزعم

أنه أسفل وقال جل ذكره قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وقال لعيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ [المعارج: ٢-٣] والعروج هو الصعود وأما قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦] فمعناه من على السماء يعني على العرش وقد يكون في بمعنى على ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٢﴾﴾ [التوبة: ٢] أي على الأرض وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١]، وهذا كله يعضده قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا الباب وهذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل استوى استولى

فلا معنى له لأنه غير ظاهر في اللغة ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد وهو الواحد الصمد ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك وإنما يوجه كلام الله عَزَّوَجَلَّ إلى الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات وجل الله عَزَّوَجَلَّ عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ قال علا قال وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت وقال غيره استوى أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد...»[(١)].

مخالفة فهم الأشاعرة لفهم السلف:

قال الرازي مقررا لفهم الأشاعرة الموافق لفهم الجهمية والمعتزلة والمخالف لفهم السلف للإستواء: المسألة الثانية: المشبهة تعلقت بهذه الآية في أن معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان، ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان بل كان غنياً عنه فهو بالصفة التي لم يزل عليها إلا أن يزعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش.

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر ٧/ ١٢٨.

وثانيها: أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش فيكون في نفسه مؤلفًا مركبًا وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب وذلك محال.

وثالثها: أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكنًا من الانتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك فإن كان الأول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثًا لا محالة وإن كان الثاني كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ منه فإن الزمن إذا شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم.

ورابعها: هو أن معبودهم إما أن يحصل في كل مكان أو في مكان دون مكان فإن حصل في كل مكان لزمهم أن يحصل في مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل، وإن حصل في مكان دون مكان افتقر إلى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجًا وهو على الله محال.

وخامسها: أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] يتناول نفي المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فإنه يحسن أن يقال ليس كمثله شيء إلا في الجلوس وإلا في المقدار وإلا في اللون وصحة الاستثناء تقتضي دخول جميع هذه الأمور تحته، فلو كان جالسًا لحصل من يماثله في الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٧] فإذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم

أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لأن الخالق هو الذي يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله.

وسابعها: أنه لو جاز أن يكون المستقر في المكان إلهـًا فكيف يعلم أن الشمس والقمر ليس بإله لأن طريقنا إلى نفي إلهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثـًا ولم يكن إلهـًا فإذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح في إلهية الشمس والقمر.

وثامنها: أن العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكني ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس، فلو كان المعبود مختصـًا بجهة فتلك الجهة وإن كانت فوقـًا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المبعود تحت جميع الأشياء.

وتاسعها: أجمعت الأمة على أن قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصـًا بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه يلي ما على يساره فيكون مركبـًا منقسمـًا فلا يكون أحداً في الحقيقة فيبطل قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

وعاشرها: أن الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦]، ولو كان المعبود جسمـًا لكان آفلاً أبداً غائبـًا أبداً فكان يندرج تحت قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ۝٧٦﴾ فثبت بهذه الدلائل أن الإستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان، الأول: أنا لا نشتغل بالتأويل بل

نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالي عن بعض أصحاب الإمام أحمد بن حنبل أنه أول ثلاثة من الأخبار: قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «**الحجر الأسود يمين الله في الأرض**»، وقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**» وقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن**» واعلم أن هذا القول ضعيف لوجهين: الأول: أنه إن قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأن ليس مراد الله تعالى من الإستواء الجلوس وهذا هو التأويل. وإن لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقي شاكًا فيه فهو جاهل بالله تعالى، اللهم إلا أن يقول أنا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يشعر به ظاهره بل مراده به شيء آخر ولكني لا أعين ذلك المراد خوفًا من الخطأ فهذا يكون قريبًا، وهو أيضًا ضعيف لأنه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ إلا موضوعه في لسان العرب وإذا كان لا معنى للاستواء في اللغة إلا الاستقرار والإستيلاء وقد تعذر حمله على الإستقرار فوجب حمله على الإستيلاء وإلا لزم تعطيل اللفظ وإنه غير جائز. والثاني: وهو دلالة قاطعة على أنه لا بد من المصير إلى التأويل وهو أن الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار، فإما أن نعمل بكل واحد من الدليلين، وإما أن نتركهما معًا، وإما أن نرجح النقل على العقل، وإما أن نرجح العقل ونؤول النقل. والأول باطل وإلا لزم أن يكون الشيء الواحد منزهًا عن المكان وحاصلاً في المكان وهو محال. والثاني: أيضًا

محال لأنه يلزم رفع النقيضين معـًا وهو باطل. والثالث: باطل لأن العقل أصل النقل فإنه ما لم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح في العقل يقتضي القدح في العقل والنقل معـًا، فلم يبق إلا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع في المقصود إذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الإستواء الإستيلاء قال الشاعر:

قـد اسـتوى بشـر علـى العـراق مـن غيـر سـيف ودم مهـراق

فإن قيل هذا التأويل غير جائز لوجوه. أحدها: أن الإستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك في حق الله تعالى محال. وثانيها: أنه إنما يقال فلان استولى على كذا إذا كان له منازع ينازعه، وكان المستولى عليه موجوداً قبل ذلك، وهذا في حق الله تعالى محال، لأن العرش إنما حدث بتخليقه وتكوينه. وثالثها: الاستيلاء حاصل بالنسبة إلى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة. والجواب: أنا إذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية، قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش، وهو سرير الملك لا يحصل إلامع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على البلد يريدون ملك، وإن لم يقعد على السرير البتة، وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أصرح وأقوى في الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة، بمعنى أنه جواد وبخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى أن من لم تبسط يده قط

بالنوال أو لم يكن له يد رأسًا قيل فيه يده مبسوطة لأنه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]. أي هو بخيل ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أي هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل بالتسمية من ضيق العطن. وأقول: إنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فإنهم أيضًا يقولون المراد من قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١٢] الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور فعل، وقوله: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩] المراد منه تخليص إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة، وكذا القول في كل ما ورد في كتاب الله تعالى، بل القانون أنه يجب حمل كل لفظ ورد في القرآن على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه، وليت من لم يعرف شيئًا لم يخض فيه، فهذا تمام الكلام في هذه الآية، ومن أراد الاستقصاء في الآيات والأخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس وبالله التوفيق[(١)].

المثال الثالث: قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧].

فهم السلف لهذه الآية:

قال الإمام ابن جرير الطبري: «... وقال بعضهم: الغضب منه معنى

(١) التفسير الكبير ٢٢/ ٦-٨.

مفهوم، كالذي يعرف من معاني الغضب، غير أنه -وإن كان كذلك من جهة الإثبات- فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يزعجهم ويحركهم ويشق عليهم ويؤذيهم.

لأن الله جل ثناؤه لا تحل ذاته الآفات، ولكنه له صفة، كما العلم له صفة، والقدرة له صفة، على ما يعقل من جهة الإثبات، وإن خالفت معاني ذلك معاني علوم العباد، التي هي معارف القلوب، وقواهم التي توجد مع وجود الأفعال وتعدم مع عدمها»[(١)].

وهذا القول الذي قاله إمام المفسرين هو الذي أجمع عليه السلف الصالح لدلالة الكتاب والسنة عليه:

الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ [النور: ٩].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١﴾ [طه: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾ [الممتحنة: ١٣] وغيرها من الآيات.

والدليل من السنة:

حديث: «**إنَّ رحمتي غلبت غضبي**»[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري ١/ ١٨٩.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ١١٦٦ برقم: ٣٠٢٢ ومسلم ٨/ ٦٥ برقم: ٧١٤٥.

حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «**إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»[(١)] وغيرها من الأحاديث.

وأهل السنة والجماعة يثبتون صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ بوجه يليق بجلاله وعظمته، لا يكيفون ولا يشبهون ولا يؤولون؛ كمن يقول :الغضب إرادة العقاب، ولا يعطلون، بل يقولون :لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ.

قال الطحاوي في (عقيدته) المشهورة: «والله يغضب ويرضى لا كأحدٍ من الورى».

قال الشارح ابن أبي العز الحنفي: «ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة»[(٢)].

وقال قوَّام السُّنَّة الأصبهاني: «قال علماؤنا: يوصف الله بالغضب، ولا يوصف بالغيظ»[(٣)].

مخالفة فهم الأشاعرة لفهم السلف للآية:

قال الرازي مقررا لفهم الأشاعرة المخالف لفهم السلف مشبها غضب الرب بغضب المخلوق:

الفائدة الرابعة: الغضب تغير يحصل عند غليان دم القلب لشهوة الانتقام واعلم أن هذا على الله تعالى محال لكن ههنا قاعدة كلية وهي أن جميع

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٧٤٥ برقم: ٤٤٣٥ ومسلم ١/ ١٢٧ برقم: ٥٠١.

(٢) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص٤٧٢.

(٣) الحجة في بيان المحجة ٢/ ٤٩٠.

الأعراض النفسانية - أعني الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياء والغيرة والمكر والخداع والتكبر والاستهزاء - لها أوائل ولها غايات ومثاله الغضب فإن أوله غليان دم القلب وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه فلفظ الغضب في حق الله تعالى لا يحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب بل على غايته الذي هو إرادة الإضرار وأيضا الحياء له أول وهو انكسار يحصل في النفس وله غرض وهو ترك الفعل فلفظ الحياء في حق الله يحمل على ترك الفعل لا على انكسار النفس وهذه قاعدة شريفة في هذا الباب[(١)].

المثال الرابع: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ١١٥].

فهم السلف لهذه الآية وأمثالها:

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وقال آخرون: عنى بـ«الوجه» ذا الوجه. وقال قائلو هذه المقالة: وجه الله صفة له»[(٢)].

وهذا القول الذي قاله الإمام ابن جرير الطبري هو الذي أجمع عليه السلف:

قال أبو الحسن الأشعري: «فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة:... وأن له سبحانه وجها بلا كيف كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾»[(٣)] [الرحمن: ٢٧].

---

(١) التفسير الكبير ١/ ٢١١.

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٥٣٦.

(٣) الإبانة للأشعري ص٢٠.

وقال الإمام ابن خزيمة: بعد أن أورد جملة من الآيات تثبت صفة الوجه لله تعالى «فنحن وجميع علمائنا... مذهبنا: أنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا، ونصدق ذلك بقلوبنا؛ من غير أن نشبه وجه الله خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عز ربنا أن يشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقالة المعطلين»[(١)].

وقال عبد الواحد التميمي (ت: ٤١٠ هـ): «ومذهب أبي عبدالله أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن لله عَزَّوَجَلَّ وجهًا لا كالصور المصورة، والأعيان المخططة بل وجه وصفة له بقوله: «**كل شيء هالك إلا وجهه**» ومن غير معناه فقد ألحد عنه، وذلك عنده وجه في الحقيقة دون المجاز، ووجه الله باق لا يبلى، وصفة له لا تفنى. ومن ادعى أن وجهه نفسه فقد ألحد، ومن غير معناه فقد كفر، وليس معنى وجه معنى جسم عنده ولا صورة ولا تخطيط، ومن قال ذلك فقد ابتدع»[(٢)].

وقال ابن جرير (ت: ٣١٠ هـ): «وله سبحانه يدان ويمين وأصابع، وليست جارحة، ولكن يدان مبسوطتان بالنعم على الخلق، لا مقبوضتان عن الخير. ووجهٌ لا كوجه الخلق التي من لحم ودم»[(٣)].

وقال أبو عثمان إسماعيل الصابوني (ت: ٤٤٩ هـ) «وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح من:

---

(١) كتاب التوحيد (١/ ٢٥).

(٢) معتقد الإمام أحمد (ص/ ٣٣).

(٣) التبصير في معالم الدين (ص ١٤٢).

السمع، والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقدرة ٠٠٠»[(١)].

وقال البغوي (ت:٥١٦ هـ) «والإصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل من صفات الله تعالى؛ كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرجل، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح»[(٢)].

وقال البيهقي: «وهذه صفات طريق إثباتها السمع، فنثبتها لورود خبر الصادق بها، ولا نكيفها قال الله تبارك وتعالى: «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» فأضاف الوجه إلى الذات، وأضاف النعت إلى الوجه، فقال: «ذو الجلال والإكرام» ولو كان ذكر الوجه صلة -أي :زيادة، ولم يكن للذات صفة لقال: ذي الجلال والإكرام. فلما قال: ذو الجلال والإكرام علمنا أنه نعت للوجه، وهو صفة للذات»[(٣)].

مخالفة فهم الأشاعرة لفهم السلف:

قال الرازي مقررا فهم الأشاعرة المخالف لفهم السلف: الوجه الثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ ولو كان الله تعالى جسماً وله وجه جسماني لكان وجهه مختصاً بجانب معين وجهة

(١) عقيدة أصحاب الحديث (ص/ ١٦٥).

(٢) شرح السنة (١/ ١٦٨).

(٣) الاعتقاد (ص/ ٨٩).

معينة فما كان يصدق قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فلما نص الله تعالى على ذلك علمنا أنه تعالى منزه عن الجسمية واحتج الخصم بالآية من وجهين:

الأول: أن الآية تدل على ثبوت الوجه لله تعالى والوجه لا يحصل إلا لمن كان جسمًا.

الثاني: أنه تعالى وصف نفسه بكونه واسعًا، والسعة من صفة الأجسام.

والجواب عن الأول: أن الوجه وإن كان في أصل اللغة عبارة عن العضو المخصوص لكنا بينا أنا لو حملناه ههنا على العضو لكذب قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ لأن الوجه لو كان محاذيًا للمشرق لاستحال في ذلك الزمان أن يكون محاذيًا للمغرب أيضًا، فإذن لا بد فيه من التأويل وهو من وجوه:

الأول: أن إضافة وجه الله كإضافة بيت الله وناقة الله، والمراد منها الإضافة بالخلق والإيجاد على سبيل التشريف، فقوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي: فثم وجهه الذي وجهكم إليه لأن المشرق والمغرب له بوجهيهما، والمقصود من القبلة إنما يكون قبلة لنصبه تعالى إياها فأي وجه من وجوه العالم المضاف إليه بالخلق والإيجاد نصبه وعينه فهو قبلة.

الثاني: أن يكون المراد من الوجه القصد والنية قال الشاعر:

أستغفر الله ذنبًا لست أحصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل

ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

الثالث: أن يكون المراد منه فثم مرضاة الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩] يعني لرضوان الله، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨] يعني ما كان لرضا الله، ووجه الاستعارة أن من أراد الذهاب إلى إنسان فإنه لا يزال يقرب من وجهه وقدامه، فكذلك من يطلب مرضاة أحد فإنه لا يزال يقرب من مرضاته، فلهذا سمي طلب الرضا بطلب وجهه. الرابع: أن الوجه صلة كقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ويقول الناس هذا وجه الأمر لا يريدون به شيئًا آخر غيره، إنما يريدون به أنه من ههنا ينبغي أن يقصد هذا الأمر، واعلم أن هذا التفسير صحيح في اللغة إلا أن الكلام يبقى، فإنه يقال لهذا القائل: فما معنى قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ مع أنه لا يجوز عليه المكان فلا بد من تأويله بأن المراد: فثم قبلته التي يعبد بها، أو ثم رحمته ونعمته وطريق ثوابه والتماس مرضاته[1].

المثال الخامس: قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

فهم السلف لهذه الآية وأمثالها:

أجمع السلف على إثبات صفة اليدين لله تعالى لدلالة الكتاب والسنة عليها:

---

(١) التفسير الكبير ٤/ ٢١.

فمن الكتاب:

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: ١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ [ص: ٧٥] وغيرهما من الآيات الكثيرة.

ومن السنة:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[(١)].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث الشفاعة: «... **فيأتونه فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر؛ خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه**»[(٢)]. إلى غير ذلك من الأدلة المستفيضة.

وأما الإجماع:

فقال أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأجمعوا على أنه عَزَّوَجَلَّ يسمع ويرى، وأنَّ له تعالى يدين مبسوطتين»[(٣)] انتهى.

قال ابن خزيمة: «باب: ذكر إثبات اليد للخالق الباريء جلَّ وعلا، والبيان أنَّ الله تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تَنْزيله...»، وسرد جملة من الآيات تدل على ذلك، ثم قال: «باب ذكر البيان من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٩).

(٢) رواه: البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم ١٩٤.

(٣) رسالته إلى أهل الثغر ص (٢٢٥).

على إثبات يد الله جل وعلا موافقـًا لما تلونا من تَنْزيل ربنا لا مخالفـًا، قد نَزَّه الله نبيه وأعلى درجته ورفع قدره عن أن يقول إلا ما هو موافق لما أنزل الله عليه من وحيه»[(١)].

وقال قَوَّام السُّنَّة الأصبهاني: «فصل: في إثبات اليد لله تعالى صفة له، ثم أورد بعض الآيات التي تدل على ذلك، ثم قال: «ذكر البيان من سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إثبات اليد موافقـًا للتَنْزيل» ثم أورد أحاديث بسنده تدل على ذلك»[(٢)].

وقال اللالكائي: «سياق ما دل من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن من صفات الله عَزَّوَجَلَّ الوجه والعينين واليدين، ثم ساق ما يؤيد ذلك من القرآن والسنة»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ لله تعالى يدين مختصتان به ذاتيتان له كما يليق بجلاله»[(٤)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مئة موضع وروداً متنوعـًا متصرفـًا فيه، مقرونـًا بما يدل على أنها يد حقيقية؛ من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط،...

---

(١) كتاب التوحيد (١/ ١١٨).

(٢) (الحجة) (١/ ١٨٥).

(٣) شرح اعتقاد أهل السنة ٣/ ٤١٢ - ٤٣٤.

(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٦٣).

وأخذ الصدقة بيمينه... وأنه يطوي السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى...»[(١)].

مخالفة فهم الأشاعرة لفهم السلف:

قال الرازي مقررا لفهم الأشاعرة المخالف لفهم السلف: «واعلم أن الكلام في هذه الآية من المهمات، فإن الآيات الكثيرة من القرآن ناطقة بإثبات اليد، فتارة المذكور هو اليد من غير بيان العدد. قال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٠﴾ [الفتح: ١٠].

وتارة بإثبات اليدين لله تعالى: منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى لإبليس الملعون ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ [ص: ٧٥].

وتارة بإثبات الأيدي قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾ [يس: ٧١].

إذا عرفت هذا فنقول اختلفت الأمة في تفسير يد الله تعالى، فقالت المجسمة: إنها عضو جسماني كما في حق كل أحد، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: ١٩٥] وجه الاستدلال

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧١).

أنه تعالى قدح في إلهية الأصنام لأجل أنها ليس لها شيء من هذه الأعضاء، فلو لم تحصل لله هذه الأعضاء لزم القدح في كونه إلهـًا، ولما بطل ذلك وجب إثبات هذه الأعضاء له قالوا وأيضـًا اسم اليد موضوع لهذا العضو، فحمله على شيء آخر ترك للغة، وأنه لا يجوز.

واعلم أن الكلام في إبطال هذا القول مبني على أنه تعالى ليس بجسم، والدليل عليه أن الجسم لا ينفك عن الحركة والسكون، وهما محدثان، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث/ ولأن كل جسم فهو متناه في المقدار، وكل ما كان متناهيـًا في المقدار فهو محدث، ولأن كل جسم فهو مؤلف من الأجزاء، وكل ما كان كذلك كان قابلاً للتركيب والانحلال، وكل ما كان كذلك افتقر إلى ما يركّبه ويؤلفه، وكل ما كان كذلك فهو محدث، فثبت بهذه الوجوه أنه يمتنع كونه تعالى جسمـًا، فيمتنع أن تكون يده عضواً جسمانيـًا.

وأما جمهور الموحدين فلهم في لفظ اليد قولان:

الأول: قول من يقول: القرآن لما دلّ على إثبات اليد لله تعالى آمنا به، والعقل لما دل على أنه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الأجزاء والأبعاض آمنا به، فأما أن اليد ما هي وما حقيقتها فقد فوضنا معرفتها إلى الله تعالى، وهذا هو طريقة السلف.

وأما المتكلمون فقالوا: اليد تذكر في اللغة على وجوه:

أحدها: الجارحة وهو معلوم.

وثانيها: النعمة، قوله: لفلان عندي يد أشكره عليها،

وثالثها: القوة قال تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥] فسروه بذوي القوى والعقول، وحكى سيبويه أنهم قالوا: لا يد لك بهذا، والمعنى سلب كمال القدرة.

ورابعها: الملك، يقال: هذه الضيعة في يد فلان، أي في ملكه. قال تعالى: ﴿بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي يملك ذلك.

وخامسها: شدة العناية والاختصاص. قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ والمراد تخصيص آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهذا التشريف، فإنه تعالى هو الخالق لجميع المخلوقات. ويقال: يدي لك رهن بالوفاء إذا ضمن له شيئًا.

إذا عرفت هذا فنقول: اليد في حق الله يمتنع أن تكون بمعنى الجارحة، وأما سائر المعاني فكلها حاصلة. وههنا قول آخر، وهو أن أبا الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ زعم في بعض أقواله أن اليد صفة قائمة بذات الله تعالى، وهي صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء قال: والذي يدل عليه أنه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه علة لكرامة آدم واصطفائه، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لامتنع كونه علة للاصطفاء، لأن ذلك حاصل في جميع المخلوقات، فلا بدّ من إثبات صفة أخرى وراء القدرة يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء، وأكثر العلماء زعموا أن اليد في حق الله تعالى عبارة عن القدرة وعن النعمة.

فإن قيل: إن فسرتم اليد في حق الله تعالى بالقدرة فهذا مشكل؛ لأن قدرة الله تعالى واحدة ونص القرآن ناطق بإثبات اليدين تارة، وبإثبات الأيدي

أخرى، وإن فسرتموها بالنعمة فنص القرآن ناطق بإثبات اليدين، ونعم الله غير محدودة كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والجواب: إن اخترنا تفسير اليد بالقدرة كان الجواب عن الاشكال المذكور أن القوم جعلوا قولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] كناية عن البخل، فأجيبوا على وفق كلامهم، فقيل ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أي ليس الأمر على ما وصفتموه به من البخل، بل هو جواد على سبيل الكمال. فإن من أعطى بيديه أعطى على أكمل الوجوه، وأما إن اخترنا تفسير اليد بالنعمة كان الجواب عن الاشكال المذكور من وجهين: الأول: أنه نسبة بحسب الجنس، ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع لا نهاية لها، فقيل: نعمتاه نعمة الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة الظاهر ونعمة الباطن، أو نعمة النفع ونعمة الدفع، أو نعمة الشدة ونعمة الرخاء. الثاني: أن المراد بالنسبة المبالغة في وصف النعمة، ألا ترى أن قولهم (لبيك) معناه إقامة على طاعتك بعد إقامة، وكذلك (سعديك) معناه مساعدة بعد مساعدة، وليس المراد منه طاعتين ولا مساعدتين. فكذلك الآية: المعنى فيها أن النعمة متظاهرة متتابعة ليست كما ادعى من أنها مقبوضة ممتنعة[1].

❁❁❁

(١) التفسير الكبير ١٢/ ٣٦-٣٨.

المبحث الخامس

أثرها على تفسير الصوفية

لم يعرف لفظ التصوف ولم تطلق كلمة الصوفية إلا في منتصف القرن الثاني الهجري، وفي هذا القرن تولدت بعض الأبحاث الصوفية، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التي تواضعوا عليها، وأخذت تتزايد.

ولقد كان لبعض المتصوفة صلات قوية بالفلاسفة واهتمام بالنظريات الفلسفية، ومن هنا كان للمتصوفة في تصوفهم اتجاهان: اتجاه نظري يقوم على البحث والدراسة، واتجاه عملي يقوم على التقشف والزهد والتفاني. وكان للمتصوفة كغيرهم دراسات في القرآن الكريم، عليها طابع التصوف بنوعيه السابقين، وليس من السهل أن يجد الصوفي في القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه، ولا ما يتمشى بوضوح مع نظرياته التي يقول بها، إذ إن القرآن عربي جاء لهداية الناس لا لإثبات نظرية من النظريات ربما كانت مستحدثة وبعيدة عن روح الدين وبداهة العقل. غير أن الصوفي حرصاً منه على أن تسلم له تعاليمه ونظرياته يحاول أن يجد في القرآن ما يشهد له أو يستند إليه، فتراه من أجل هذا يتعسف في فهمه للآيات القرآنية، ويشرحها شرحاً يخرج بها عن ظاهرها الذي يؤيده الشرع وتشهد له اللغة[(١)].

وإذا ما ذهبنا نستعرض ما للقوم من تفسير صوفي نظري وما لهم من تفسير إشاري فيضي؛ وجدنا هذا أو ذاك اتجاهاً منحرفاً عن النهج القويم لتفسير القرآن الحكيم.

---

(١) التفسير والمفسرون ٢/ ٣٢٧.

أولاً: التفسير الصوفي النظري:

وهو يخرج بالقرآن في الغالب عن هدفه الذي يرمي إليه، فيأبى الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه وقصده إلى ما يقصده هو، وغرض الصوفي بهذا كله أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وآراءه على أساس من كتاب الله تعالى، وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته ونظرياته التصوفية، ولم يقدم للقرآن شيئًا إلا هذا التأويل الذي كله شر على الدين.

ونستطيع أن نعتبر محيي الدين ابن عربي شيخ هذه الطريقة في التفسير، وإن كان له من التفسير الإشاري ما يجعله في عداد المفسرين الإشاريين إن لم يكن شيخهم أيضًا، وله كتب يُشك في نسبتها إليه كالتفسير المشهور باسمه، وكتب تُنسب إليه حقيقة كالفتوحات المكية والفصوص، وهو يطبق كثيراً من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية، فهو صاحب عقيدة وحدة الوجود، والتي يعني بها أنه ليس هناك في الوجود إلا وجود واحد كل العالم مظاهر له ومجال له، فيزعم أن الله هو الموجود بحق وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والخيال -تعالى الله عما قال ابن عربي وأمثاله-، وسيأتي أمثلة لتفسيرات ابن عربي النظرية الصوفية التي يطبق فيها ضلالات وحدة الوجود إن شاء الله تعالى.
إن التفسير الصوفي النظري - نقرر هذا في صراحة واطمئنان- يخرج بالقرآن في الغالب عن هدفه الذي يرمي إليه، ورأيي الذي أدين الله به: أن مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ما كان لنا أن نقبله مهما كان قائله،

كذلك ليس لنا أن نقبل التفسير الذي أُسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا في الطبيعة وما وراء الطبيعة، والذي جرى عليه ابن عربي وغيره من المتصوفة في تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية [(١)].

ثانيًا: التفسير الصوفي الإشاري الفيضي:

أما الاتجاه الإشاري أو الفيضي، فللقوم فيه جولات وشطحات، وهو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة. والفرق بينه وبين التفسير الصوفي النظري؛ أن النظري ينبني على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولاً ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك، أما الإشاري فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية. كما أن التفسير الصوفي النظري يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من معان وليس وراءها معنى آخر، أما الإشاري فيرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولاً وقبل كل شيء وهو المعنى الظاهر. وإذا ما بحثنا عن مستند لهذا الاتجاه الإشاري في التفسير؛ وجدنا مستندهم الأول والأهم ما يُنسب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن للقرآن ظاهراً وباطنًا، وعلماء الرسم - في زعمهم - هم الذين يفهمون الظاهر فقط، أما الباطن فلا يدركه إلا من صفت نفسه. ولا نريد أن نناقش القوم في صحة ما

(١) التفسير والمفسرون، ج٢ ص ٣٣٧.

ينسب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن للقرآن ظاهراً وباطناً، ولكن نناقشهم في معنى الظاهر والباطن، فهل الظاهر ما يظهر للنص القرآني بادي الرأي، والباطن ألغاز وأحاجي ومعميات لا يفهمها إلا هم؟ !لا، فالقرآن فوق هذا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧]، وقال: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [البقرة: ٩٩].

ومهما يكن من شيء فإن ظاهر القرآن -وهو المنزل بلسان عربي مبين- هو المفهوم المجرد، وباطنه هو مراد الله تعالى وغرضه الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب، هذا هو خير ما يقال في معنى الظاهر والباطن .وقد اشترط العلماء لصحة المعنى الباطن شرطين:

الأول: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية.

والثاني: أن يكون له شاهد -نصاً أو ظاهراً- في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

إذا عرفنا هذا ثم ذهبنا نستعرض على ضوئه أقوال القوم في معاني القرآن الباطنة؛ وجدنا كثيراً منها من قبيل الباطن الصحيح، ووجدنا كثيراً منها أيضاً من قبيل الباطن الفاسد المرفوض .فمن الأفهام الباطنة، والتي يمكن أن تكون من الصحيح المقبول: ما قاله سهل التستري في تفسيره لقوله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢] قال: «أنداداً» أي: أضداداً، فأكبر الأضداد النفس الأمارة بالسوء، المنطلقة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله»[(١)].

وتفسيره هذا مشكل من حيث الظاهر؛ لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله سواء أكان صنماً أم غير صنم، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، وبيان ذلك أن سهل لم يرد أن يفسر الآية، بل أتى بما هو ند في الاعتبار الشرعي، والنفس الأمارة هذا شأنها .وهناك ما يشهد لذلك، وهو أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وكان هو يعد نفسه بها مع أن الآية نزلت في حق الكفار لقوله تعالى فيها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذ من معنى الآية معنى أجرى الآية فيه وإن لم تنزل فيه، خوفاً من أن يكون التوسع في المباحات سبباً في الحرمان من نعيم الآخرة.

أما التفسيرات الباطنة المرفوضة فهناك أقوال في التفسير الصوفي الإشاري يقف أمامها العقل حائراً وعاجزاً عن تلمس محمل لها وسيأتي في المقارنة بعض الأمثلة.

---

(١) تفسير القرآن لسهل التستري، ص ١٤٤.

وفي انحرافهم في التفسير ومخالفتهم فهم السلف: قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن هؤلاء القوم لما تركوا العلم وانفردوا بالرياضيات على مقتضى آرائهم لم يصبروا عن الكلام في العلوم فتكلموا بواقعاتهم فوقعت الأغاليط القبيحة منهم فتارة يتكلمون في تفسير القرآن، وتارة في الحديث، وتارة في الفقه، وغير ذلك ويسوقون العلوم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا به والله سبحانه لا يخلي الزمان من أقوام قوام بشرعه يردون على المتخرصين ويبينون غلط الغالطين... وقد جمع أبو عبدالرحمن السلمي في تفسير القرآن من كلامهم الذي أكثره هذيان لا يحل نحو مجلدين سماها حقائق التفسير»[(١)].

قلت: يعد كتاب أبي عبدالرحمن السلمي أشهر كتاب للصوفية في تفسيرهم جمع فيه جملة من أقوالهم تأولوا فيها الآيات على خلاف الظاهر منها ولذا طعن بعض الأئمة في تفسيره، قال الذهبي: «ألف «حقائق التفسير» فأتى فيه بمصائب وتأويلات الباطنية نسأل الله العافية»[(٢)]. وقال: «فياليته لم يؤلفه فنعوذ بالله من الإشارات الحلاجية، والشطحات البسطامية، وتصوف الاتحادية فواحزناه على غربة الإسلام والسنة قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[(٣)] [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) تلبيس إبليس ص٢٩٣.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٤٦.

(٣) السير ١٣/ ٤٤٢.

ومن أهم كتب التفسير الإشاري: (تفسير القرآن العظيم) لأبي محمد سهل بن عبدالله التستري المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، وقد طعن بعض العلماء في هذا التفسير، فقد صنفه السيوطي ضمن مَن صنف في التفسير من المبتدعة، وقال: «إنما أوردته في هذا القسم لأن تفسيره غير محمود»[(١)]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما ينقل في حقائق السلمي عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر كما قد كذب عليه في غير ذلك»[(٢)].

نماذج من مخالفتهم فهم السلف في تفسيرهم:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فهم السلف لهذه الآية:

قال أبو جعفر: «قد بينا فيما مضى معنى «الألوهية»، وأنها اعتباد الخلق. فمعنى قوله: «﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ والذي يستحق عَليكم أيها الناس الطاعةَ له، ويستوجب منكم العبادة، معبودٌ واحدٌ وربٌّ واحد، فلا تعبدوا غيرَه، ولا تشركوا معه سواه، فإنّ من تُشركونه معه في عبادتكم إياه، هو خَلقٌ من خلق إلهكم مثلكم، وإلهكم إله واحد، لا مثلَ لهُ وَلا نَظير»[(٣)].

---

(١) انظر طبقات المفسرين ص ٣١).

(٢) منهاج السنة، ٤/ ١٥٥.

(٣) تفسير الطبري ٣/ ٢٦٥.

فهم الصوفية للآية:

قال ابن عربي ما نصه: «إن الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله، فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة؛ فقال الله لنا: إن إلهكم والإله الذي يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذي أشرك به واحد، كأنكم ما اختلفتم في أحديته...»[(١)].

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧].

فهم السلف لهذه الآية:

قال الإمام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينعت، تبارك وتعالى، بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب -وهو التوراة- فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال:

---

(١) الفتوحات ج٤/ ١٦٠.

﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥]. حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي: المعجزات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحَسَدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠]، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أسوأ المعاملة، ففريقًا يكذبونه. وفريقًا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

فهم الصوفية للآية:

قال ابن عربي: «... والظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعَّال، وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة لأرزاق العباد، وإسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية

الكلية الموكلة بالحيوانات، وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه ويسلمها إلى الله تعالى»[(١)].

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: ٩- ١٠].

فهم السلف للآيتين:

يقول الإمام ابن جرير الطبري: «وقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ يقول تعالى ذكره: مرج ربّ المشرقين وربّ المغربين البحرين يلتقيان، يعني بقوله: (مَرَجَ): أرسل وخلى، من قولهم: مرج فلان دابته: إذا خلاها وتركها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(٢)].

فهم الصوفية للآية:

يقول ابن عربي: «﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأُجاج، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفُرات، ﴿بَيْنَهُمَا﴾ فى الوجود الإنسانى، ﴿بَرْزَخٌ﴾ هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجرَّدة ولطافتها، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها، ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن

(١) تفسير ابن عربي ١/ ٦٢-٧٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٩.

ويخرج به ويجعله من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله ماديـًا... سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء»[(١)].

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨- ٨٩].

فهم السلف للآية:

يقول الإمام ابن جرير: «وقوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ يقول تعالى ذكره: فأما إن كان الميت من المقرّبين الذين قرّبهم الله من جواره في جنانه (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ) يقول: فله روح وريحان.

واختلف القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء الأمصار(فَرَوْحٌ) بفتح الراء، بمعنى: فله برد. (وَرَيْحَانٌ) يقول: ورزق واسع في قول بعضهم، وفي قول آخرين فله راحة وريحان وقرأ ذلك الحسن البصريّ (فَرُوحٌ) بضم الراء، بمعنى: أن روحه تخرج في ريحانة.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب قراءة من قرأه بالفتح لإجماع الحجة من القرّاء عليه، بمعنى: فله الرحمة والمغفرة، والرزق الطيب الهنيّ»[(٢)].

فهم الصوفية للآية:

قالوا: الروح النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ والريحان الاستماع لكلامه وجنة نعيم هو أن لا يحجب فيها عن الله عَزَّوَجَلَّ قال الإمام ابن الجوزي: هذا كلام

---

(١) تفسير ابن عربي ٢/ ٢٨٠.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٦١.

بالواقع على خلاف أقوال المفسرين وقد جمع أبو عبدالرحمن السلمي في تفسير القرآن من كلامهم الذي أكثره هذيان لا يحل نحو مجلدين سماها حقائق التفسير [١].

❁❁❁

(١) تلبيس إبليس ص٢٩٣.

المبحث السادس

أثرها على تفسير أصحاب التفسير العلمي

نماذج من مخالفة فهمهم فهم السلف:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فهم السلف للآية:

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصار قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا رَتْقا: يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين، يقال منه: رتق فلان الفتق: إذا شدّه، فهو يرتقه رتقا ورتوقا، ومن ذلك قيل للمرأة التي فرجها ملتحم: رتقاء، ووحد الرتق، وهو من صفة السماء والأرض، وقد جاء بعد قوله: (كانَتا) لأنه مصدر، مثل قول الزور والصوم والفطر. وقوله: (فَفَتَقْناهُما) يقول: فصدعناهما وفرجناهما»[(١)].

فهم أصحاب الإعجاز العلمي للآية:

أن الأرض كانت متصلة بالشمس وجزءً منها ومن شدة دوران الشمس انفصلت عنها الأرض ثم برد سطحها وبقي جوفها حاراً وصارت من الكواكب التي تدور حول الشمس[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٤٣٠.

(٢) الفتاوى اللجنة الدائمة ٤/ ١٤٥.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

فهم السلف لهذه الآية:

قال الإمام أبو جعفر الطبري: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ يا محمد ﴿تَحْسَبُهَا﴾ قائمة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ كالذي حدثني عليّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يقول: قائمة. وإنما قيل: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لأنها تجمع ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيرا حثيثا، كما قال الجعدي:

بِأَرْعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحْسِبُ أَنَّهُمْ... وُقُوفٌ لحِاجٍ والرِّكابُ تُهَمْلجُ

قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وأوثق خلقه. وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل ثم نقل عن السلف[(١)].

فهم أصحاب الإعجاز العلمي:

يستدلون بالآية على دوران الأرض وذلك أن هذه التفاسير تحرف الكلم عن مواضعه وتخضع القران الكريم لما يسمونه نظريات علمية وإنما هي ظنيات أو وهميات وخيالات[(٢)].

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣].

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٥٠٥.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة ٤/ ١٤٥.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فهم السلف للآيتين:

فهم الآية الأولى: قال أبو جعفر: يعني جل ذكره بقوله: فقلنا لقوم موسى الذين اداءوا في القتيل - الذي قد تقدم وصفنا أمره -: اضربوا القتيل. و«الهاء» التي في قوله: (اضربوه) من ذكر القتيل؛ (ببعضها) أي: ببعض البقرة التي أمرهم الله بذبحها فذبحوها.

فهم الآية الثانية: قال أبو جعفر: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عجب نبيه ﷺ ممن قال - إذ رأى قرية خاوية على عروشها - «أنى يحيي هذه الله بعد موتها»، مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أنى يحييها الله بعد موتها! ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصح من قِبَلِهِ البيان على اسم قائل ذلك. وجائز أن يكون ذلك عزيرا، وجائز أن يكون أورميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت -من قريش،

ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب- وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظهراني مهاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يهود بني إسرائيل، بإطلاعه نبيه محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يزيل شكهم في نبوته، ويقطع عذرهم في رسالته، إذ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقومه، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقومه منهم، بل كان أميا وقومه أميون فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجَرِه، أن محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبة عليه نصبا يقطع العذر ويزيل الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قِيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه»[(١)].

فهم أصحاب الإعجاز العلمي من الآيتين:

يقول الشيخ طنطاوي جوهري (ت١٣٥٨): وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

واستنبط من الآيات أن يكون محضر الأرواح ذا قلب نقي خالص كالعزير وإبراهيم وموسى.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٣٨.

وبهرت لغة العصر سيد قطب فوصف كلام الله «بالتصوير الفني، والتصور الرباني، والموسيقى الحادة التقاسم، والموسيقى المطمئنة المتموجة»[(١)].

❁❁❁

(١) جواهر تفسير القرآن.

المبحث السابع
أثرها على تفسير مدعي التجديد من المحدثين

ومن أصحاب هذا المنهج: صاحب كتاب «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن»، وقد ثار على هذا الكتاب علماء الأزهر حتى صودر ومنع، فقد تسلط صاحب هذا التفسير على معجزات الأنبياء وجردها من معانيها الإعجازية، فلا عيسى عنده ينفخ في الطين فيصير طيراً بإذن الله، ولا هو يبرئ الأكمه والأبرص ولا يحيي الموتى بإذن الله. ومما نقله عنه المؤلف في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩]، يقول: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التي كان يسخرها داود في صناعته الحربية، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ يطلق على كل ذي جناح، وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطيارات الهوائية، وفسر قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾» [الأنبياء: ٨١] يقول: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ الآن تجري بأمر الدول الأوربية وإشاراتها في التلغراف والتلفونات الهوائية.

نماذج مخالفة فهمهم فهم السلف:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩].

فهم السلف للآية: قال الإمام ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: وسخرنا مع داود الجبال، والطير يسبحن معه إذا سبح.

وكان قَتادة يقول في معنى قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في هذا الموضع ما حدثنا به بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾: أي يصلين مع داود إذا صلى.

وقوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ يقول: «وكنا قد قضينا أنا فاعلو ذلك، ومسخرو الجبال والطير في أمّ الكتاب مع داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»[(١)].

فهم مدعي التجديد للآية:

يقول صاحب كتاب «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن»: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التي كان يسخرها داود في صناعته الحربية، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ يطلق على كل ذي جناح، وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطيارات الهوائية[(٢)].

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

فهم السلف الصالح للآية:

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ: ١٢] قال: فذكر لي أن منزلا بناحية دجلة

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٧٤.

(٢) الهداية والعرفان ص٢٧٥.

مكتوب فيه كتاب كتبه بعض صحابة سليمان، إما من الجنّ وإما من الإنس، نحن نزلناه وما بنيناه، ومبنيا وجدناه، غدونا من إصطخر فقلناه، ونحن راحلون منه إن شاء الله قائلون الشام.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾... إلى قوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ قال: ورث الله سليمان داود، فورثه نبوّته وملكه وزاده على ذلك أن سخر له الريح والشياطين»[(١)].

فهم مدعي التجديد للآية:

يقول صاحب كتاب «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن»: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ الآن تجري بأمر الدول الأوربية وإشاراتها في التلغراف والتلفونات الهوائية[(٢)].

❁❁❁

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٨٢.

(٢) الهداية والعرفان ص٢٥٧.

الفصل الثاني

أثرها على العقيدة

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: أثرها على الإيمان.

المبحث الثاني: أثرها على التوحيد فيما يتعلق بذات الله.

المبحث الثالث: أثرها على الملائكة.

المبحث الرابع: أثرها على الكتب.

المبحث الخامس: أثرها على الرسل.

المبحث السادس: أثرها على الإيمان باليوم الآخر.

المبحث السابع: أثرها على الإيمان بالقدر.

المبحث الأول

أثرها على الإيمان

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: أثرها على مفهوم الإيمان.

المطلب الثاني: أثرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الثالث: أثرها على شعب الإيمان.

المطلب الرابع: أثرها على العلاقة بين الإسلام والإيمان.

المطلب الخامس: أثرها على الاستثناء في الإيمان.

المطلب السادس: أثرها على تفاضل أهل الإيمان في الإيمان.

المطلب السابع: أثرها على الأسماء والأحكام.

المطلب الثامن: أثرها على الخروج على الإمام

المطلب الأول
أثرها على مفهوم الإيمان

النصوص:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢- ٤].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٢ برقم: ٩. ومسلم ١/ ٤٦ برقم: ١٦١.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا**»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[(٢)].

ولما سأل وفد عبدالقيس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإيمان، فقال: «**الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وأن تعطوا من المعنم الخمس**»[(٣)] الحديث.

فهم السلف الصالح لهذه النصوص وأمثالها هو: أن الإيمان قول وعمل:

أولا: أجمعوا على أن الإيمان قول وفعل:

وقد حكى الإمام الشافعي إجماع الصحابة والتابعين عليه وحكى أبو ثور الإجماع عليه أيضا[(٤)].

وقال الأوزراعي: كان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل وحكاه غير واحد من سلف العلماء عن أهل السنة والجماعة[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد ١٢/ ٣٦٤ برقم: ٧٤٠٢ وأبو داوود ١٣/ ٤١٢ برقم: ٤٦٨٤ والترمذي ٣/ ٤٦٦ برقم: ١١٦٢ وقال: حسن صحيح وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٩/ ٤١ برقم: ٩٠٨٣ ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة في باب الأحاديث الدالة على أن الأعمال داخلة في الإيمان ١/ ٤٠٧ برقم: ٣٩٧.

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٤٥ برقم: ٨٧ ومسلم ١/ ٣٥ برقم: ١٢٤.

(٤) فتح الباري لابن رجب ١/ ٥.

(٥) المرجع السابق.

وممن حكى ذلك عن أهل السنة والجماعة: الفضيل بن عياض.

ووكيع بن الجراح [(١)].

وقال البعوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ [الأنفال: ٢] الآيات فجعل الأعمال كلها إيمانا، وكما نطق به حديث أبي هريرة، وقالوا: إن الإيمان قول، وعمل وعقيدة...» [(٢)].

وقال ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل،ولا عمل إلا بنية والإيمان عندهم يزيد وينقص» [(٣)].

وقال أبو عبدالله محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالوا فجعل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد من الإيمان وجعل أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وذلك أن الله أمر بهما ووكدهما في كتابه فقال في الحب فيه ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۝٧١ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال في البغض لله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۝٢٢ ﴾ [المجادلة: ٢٢]،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) شرح السنة ١/ ٧٨.

(٣) التمهيد ٩/ ٢٣٩.

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ۝١﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾[(١)] [الممتحنة: ١٣].

ثانيا: صرحوا أن قولهم: إن الإيمان قول وعمل ناتج عن فهمهم للنصوص:

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام: «... فوجدنا الكتاب والسنة يصدقان الطائفة التي جعلت الإيمان بالنية والقول والعمل جميعا، وينفيان ما قالت الأخرى والأصل الذي هو حجتنا في ذلك اتباع ما نطق به القرآن... والشهيد على أن الصلاة من الإيمان قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣]، وإنما نزلت في الذين توفوا من أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهم على الصلاة إلى بيت المقدس، فسئل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فنزلت هذه الآية فأي شاهد يلتمس على أن الصلاة من الإيمان بعد هذه الآية؟»[(٢)].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ: «باب الصلاة من الإيمان وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۝١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣] ثم قال: حدثنا عمرو بن خالد قال حدثنا زهير قال حدثنا أبو إسحاق عن البراء أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة شهرا وكان يعجبه أن تكون

---

(١) تعظيم قدر الصلاة ١/ ٤٠٧.

(٢) كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٢.

قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك.

قال زهير حدثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ ﴿١٤٣﴾﴾ وبوب أبوابا كثيرة في هذا الباب وقال قبل هذا الباب: باب من قال: إن الإيمان هو العمل؛ لقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقال عدة من أهل العلم في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣] عن قول لا إله إلا الله. وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

ثم خرج حديث: أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور».

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «مقصود البخاري بهذا الباب: أن الإيمان كله عمل؛ مناقضة لقول من قال: إن الإيمان ليس فيه عمل بالكلية؛ فإن الإيمان أصله تصديق بالقلب، وقد سبق ما قرره البخاري أن تصديق القلب

كسب له وعمل، ويتبع هذا التصديق قول اللسان. ومقصود البخاري هاهنا: أن يسمى عملا أيضا، أما أعمال الجوارح فلا ريب في دخولها في اسم العمل، ولا حاجة إلى تقرير ذلك؛ فإنه لا يخالف فيه أحد، فصار الإيمان كله - على ما قرره - عملا. والمقصود بهذا الباب: تقرير أن قول اللسان: عمله؛ واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١] ومعلوم أن الجنة إنما يستحق دخولها بالتصديق بالقلب مع شهادة اللسان، وبها يخرج من يخرج من أهل النار فيدخل الجنة - كما سبق ذكره. وفي «المسند»، عن معاذ بن جبل مرفوعا: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله». وحكى البخاري عن عدة من أهل العلم أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢] عن قول لا إله إلا الله؛ ففسروا العمل بقول كلمة التوحيد.

وممن روي عنه هذا التفسير: ابن عمر، ومجاهد. ورواه ليث بن أبي سليم، عن بشير بن نهيك، عن أنس موقوفا. روي عنه مرفوعا - أيضا - خرجه الترمذي وغربه. وقال الدار قطني: ليث غير قوي، ورفعه غير صحيح[(١)].

روى الخلال عن أحمد قال: الإيمان قول وعمل. وروى اللالكائي عن البخاري قال: كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل. أشار البخاري إلى هذا الإجماع قال الجرجاني

(١) فتح الباري لابن رجب ١/ ١١٢.

قال سمعت أبا محمد عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن البخاري بالشاش يقول سمعت أبا عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري يقول: لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم أهل الحجاز ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر لقيتهم كرات قرنا بعد قرن ثم قرنا بعد قرن أدركتهم وهم متوافرون منذ أكثر من ست وأربعين سنة أهل الشام ومصر والجزيرة مرتين والبصرة أربع مرات في سنين ذوي عدد بالحجاز ستة أعوام ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدثي أهل خراسان منهم المكي بن إبراهيم ويحيى بن يحيى وعلي بن الحسن بن شقيق وقتيبة بن سعيد وشهاب بن معمر وبالشام محمد بن يوسف الفريابي وأبا مسهر عبدالأعلى بن مسهر وأبا المغيرة عبدالقدوس بن الحجاج وأبا اليمان الحكم بن نافع ومن بعدهم عدة كثيرة وبمصر يحيى بن كثير وأبا صالح كاتب الليث بن سعد وسعيد بن أبي مريم واصبغ بن الفرح ونعيم بن حماد وبمكة عبدالله بن يزيد المقري والحميدي وسليمان بن حرب قاضي مكة وأحمد بن محمد الأزرقي وبالمدينة إسماعيل بن أبي أويس ومطرف بن عبدالله وعبدالله بن نافع الزبيري وأحمد بن أبي بكر أبا مصعب الزهري وإبراهيم بن حمزه الزبيري وإبراهيم بن المنذر الحزامي. وبالبصرة أبا عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني وأبا الوليد هشام بن عبدالملك والحجاج بن المنهال وعلي بن عبدالله بن جعفر المديني، وبالكوفة أبا نعيم الفضل بن دكين وعبيد الله بن موسى وأحمد بن يونس وقبيصة بن عقبة وابن نمير

وعبدالله وعثمان ابنا أبي شيبة، وببغداد أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبا معمر وأبا خيثمة وأبا عبيد القاسم بن سلام.

ومن أهل الجزيرة عمرو بن خالد الحراني وبواسط عمرو بن عون وعاصم بن علي بن عاصم وبمرو صدقة بن الفضل وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي واكتفينا بتسمية هؤلاء كي يكون مختصرا وأن لا يطول ذلك فما رأيت واحدا منهم يختلف في هذه الأشياء أن الدين قول وعمل وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥] وأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال أبو عبدالله محمد بن إسماعيل قال ابن عيينة فبين الله الخلق من الأمر لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وأن الخير والشر بقدر لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ [الفلق: ١-٢]، ولقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، ولم يكونوا يكفرون أحدا من أهل القبلة بالذنب لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ٤٨﴾ [النساء: ٤٨]، وما رأيت فيهم أحدا يتناول أصحاب

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت عائشة أمروا أن يستغفروا لهم وذلك قوله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، وكانوا ينهون عن البدع ما لم يكن عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤]، ويحثون على ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأن لا ننازع الأمر أهله لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مسلم إخلاص العمل لله وطاعة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» ثم أكد في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأن لا يرى السيف على أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(١)].

وقال البعوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢] الآيات فجعل الأعمال كلها إيمانا، وكما نطق به حديث أبي

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٩٤-١٩٦.

هريرة، وقالوا: إن الإيمان قول، وعمل وعقيدة...»[(١)].

وقال أبو القاسم إسماعيل ابن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني: «باب مسائل الإيمان في الشرع عبارة عن جميع الطاعات الباطنة والظاهرة.

وقالت الأشعرية: الإيمان هو التصديق، والأفعال والأقوال من شرائعه، لا من نفس الإيمان، وفائدة هذا الاختلاف أن من أخل بالأفعال وارتكب المنهيات لا يتناوله اسم مؤمن على الإطلاق، فيقال: هو ناقص الإيمان لأنه قد أخل ببعضه، وعندهم يتناوله الاسم على الإطلاق، لأنه عبارة عن التصديق وقد أتى به. دليلنا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢- ٤]، فوصفهم بالإيمان الحقيقي لوجود هذه الأفعال. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣]. يعني صلاتكم، فأطلق عليها اسم الإيمان وهي أفعال. ويدل عليه: ما روى أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**». وفي رواية «**بضع وستون شعبة: أفضلها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى من الطريق. والحياء شعبة من الإيمان**»[(٢)]. ولأن المكره على الإيمان يصح دخوله فيه،

---

(١) شرح السنة ١/ ٧٨.

(٢) سبق تخريجه.

فلو كان الإيمان يختص بالقلب لم يصح دخوله فيه، لأن ذلك لا يمكن تحصيله بالإكراه، وإنما يحصل من جهة الأفعال الظاهرة والأقوال، ولأن الإيمان دين المؤمنين، والدين عبارة عن الطاعات، وكذلك الإيمان الذي هو صفته، ولأنه لا يطلق على من ترك الصيام والزكاة، وارتكب الفواحش أنه كامل الإيمان»[(١)].

مخالفة الخلف لفهم السلف في النصوص المذكورة:

عمدة الخلف: عُمْدَةُ الْمُرْجِئَةِ،والجهمية، والكرامية، وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُدْخِلْ الْأَعْمَالَ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ: دَلَالَةُ لَفْظِ الْإِيمَانِ عَلَى الْأَعْمَالِ مَجَازٌ. قال شيخ الإسلام: فَصْلٌ فَإِنْ قِيلَ: مَا ذَكَرَ مِنْ تَنَوُّعِ دَلَالَةِ اللَّفْظِ بِالْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ فِي كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَكَلَامِ كُلِّ أَحَدٍ؛ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ؛ لَكِنْ نَقُولُ: دَلَالَةُ لَفْظِ الْإِيمَانِ عَلَى الْأَعْمَالِ مَجَازٌ؛ فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ**» مَجَازٌ. وَقَوْلُهُ: «**الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**» إلَى آخِرِهِ؛ حَقِيقَةٌ. وَهَذَا عُمْدَةُ الْمُرْجِئَةِ والجهمية والكرامية وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُدْخِلْ الْأَعْمَالَ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ[(٢)].

وجه مخالفتهم السلف في فهم أدلة هذا الباب:

أن السلف حملوا النصوص الدالة على دخول العمل في مسمى الإيمان

---

(١) الحجة في بيان المحجة ١/ ٤٣٨.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٨٧.

على الحقيقة فأجمعوا على أن الإيمان قول وعمل. والخلف حملوها على المجاز فخرقوا إجماع السلف وأخرجوا العمل عن الإيمان وهذه مخالفة ظاهرة.

أما الجواب عن شبهتهم فمن ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن فهمهم مخالف لفهم السلف الصالح وبالتالي فهو مردود.

الوجه الثاني: إبطال تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز في اللغة، بله النصوص الشرعية، وأن الحق أن الكلام يختلف معناه بحسب دلالة الإطلاق والتقييد.

وفي إبطال هذا التقسيم منع لإبطال معاني النصوص بدعوى المجاز، كما صنع المبتدعة في نصوص الصفات، وفي مسمى الإيمان.

وأما الوجه الثالث: وهو لو صح وجود المجاز، فما الحقيقة والمجاز في لفظ الإيمان؟

هل الحقيقة هي دخول العمل فيه، والمجاز خروجها منه، أو العكس وقد حرر شيخ الإسلام هذا الجواب: فقال مخاطبا المرجئة: إن صح - يعني وجود الحقيقة والمجاز - فهذا لا ينفعكم، بل هو عليكم لا لكم. لأن الحقيقة هي اللفظ الذي يدل بإطلاقه بلا قرينة، والمجاز إنما يدل بقرينة.

وقد تبين أن لفظ الإيمان حيث أطلق في الكتاب والسنة دخلت فيه الأعمال وإنما يدعى خروجها منه عند التقييد. وهذا يدل على أن الحقيقة قوله: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**» الحديث.

وأما حديث جبريل فإن كان أراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام، فهو

كذلك، وهذا هو المعنى الذي أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطعا، كما أنه لما ذكر الإحسان أراد الإحسان مع الإيمان والإسلام ولم يرد أن الإحسان مجرد عن إيمان وإسلام [(١)].

أضاف شيخ الإسلام إلى هذه الشبهة شبهاتهم الأخرى التي بسببها اشتبه الأمر عليهم وهي:

الشبهة الثانية: أن الله قد فرق في كتابه بين الإيمان والعمل، فقال في غير موضع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧].

الجواب عن هذه الشبهة:

أولا: أن السلف لم يفهموا من هذه النصوص إخراج العمل عن الإيمان، بل فهموا منها أن الإيمان شامل للعمل وفهمهم حجة.

ثانيا: قال شيخ الإسلام موردا هذه الحجة، ومجيبا عنها: وفصل الخطاب في هذا الباب: أن اسم الإيمان قد يذكر مجردا، وقد يذكر مقرونا بالعمل الصالح، أو بالإسلام.

فإذا ذكر مجردا: تناول الأعمال، كما في الصحيحين: «**الإيمان بضع وستون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[(٢)].

وفيهما: أنه قال لوفد عبد القيس: «آمركم بالإيمان بالله، وهل تدرون ما

---

(١) مجموع التاوى ٧/ ١١٧.

(٢) سبق تخريجه.

الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»[(١)].

وإذا ذكر مع الإسلام، كما في حديث جبريل أنه سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام والإحسان، ففرق بينهما، فقال: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله**»[(٢)] إلى آخره، وفي المسند عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**»[(٣)].

فلما ذكرهما جميعا: ذكر أن الإيمان في القلب، والإسلام ما يظهر منه الأعمال[(٤)].

وقال: «وعطف الشيء على الشيء في القرآن، وسائر الكلام، يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذي ذكر لهما.

والمغايرة على مراتب:

أعلاها: أن يكونا متباينين، ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزؤه، ولا يعرف لزومه له. كقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٥٩]، ونحو ذلك، وقوله: ﴿مَن

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد ١٩/ ٣٧٤ برقم: ١٢٣٨١.

(٤) مجموع الفتاوى ١٨/ ٢٧١.

كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٣-٤]، وهذا هو الغالب.

ويليه: أن يكون بينهما لزوم: كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

والثالث: عطف بعض الشيء عليه. كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٧].

والرابع: عطف الشيء على الشيء؛ لاختلاف الصفتين:كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ١-٤]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾[1] [البقرة: ٣-٤].

ثم للناس في مثل هذا قولان:

منهم من يقول: المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصا له؛ لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول، وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأعراف: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد: ٢]، فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله وَالَّذِينَ آمَنُوا، وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، فإنه قصد أولا تكون العبادة لله وحده لا

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٧٧.

لغيره، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان، فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما.

وكذلك يذكر الإيمان أولا؛ لأنه الأصل الذي لابد منه، ثم يذكر العمل الصالح، فإنه أيضا من تمام الدين، لابد منه، فلا يظن الظان الاكتفاء بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح،... فعلى قول هؤلاء يقال: الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان، وعطفت عليه عطف الخاص على العام؛ إما لذكره خصوصا بعد عموم، وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل في العام.

وقيل: بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان، فإن أصل الإيمان هو ما في القلب، ولكن هي لازمة له، فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا؛ لأن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم، لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الإيمان إذا أطلق، كما تقدم في كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا عطفت عليه ذكرت؛ لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد، فكان ذكرها تخصيصا وتنصيصا؛ ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة، وهو الجنة بلا عذاب، لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا، لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل.

وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله: آمنت، لابد أن يقوم بالواجب، وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم[(١)].

(١) مجنوع الفتاوى ٧/ ٢٠٢.

ويقول شيخ الإسلام: «إذا تبين هذا، وعلم أن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد، وأنه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه، زالت الشبهة العلمية في هذه المسألة، ولم يبق إلا نزاع لفظي في أن موجب الإيمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مسماه، فيكون لفظ الإيمان دالا عليه بالتضمن والعموم، أو هو لازم للإيمان، ومعلول له، وثمرة له، فتكون دلالة الإيمان عليه بطريق اللزوم؟. وحقيقة الأمر أن اسم الإيمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا، كما قد تقدم.

فإذا قرن اسم الإيمان بالإسلام أو العمل كان ذلك دالا على الباطن فقط، وإن أفرد اسم الإيمان، فقط يتناول الباطن والظاهر، وبهذا تأتلف النصوص. فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، أفرد لفظ الإيمان فدخل فيه الباطن والظاهر.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - ذكره مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، فلما قرنه باسم الإسلام ذكر ما يخصه، فالاسم في ذلك الحديث مجرد عن الاقتران، وفي هذا الحديث مقرون باسم الإسلام»[(١)].

(١) المرجع السابق.

الشبهة الثالثة: ورأوا أن الله خاطب الإنسان بالإيمان قبل وجود الأعمال، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة: ٩].

الجواب عن هذه الشبهة:

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام: «... وهذا هو الموضع الذي غلط فيه من ذهب إلى أن الإيمان بالقول، لما سمعوا تسمية الله إياهم مؤمنين، أوجبوا لهم الإيمان كله بكماله كما غلطوا في تأويل حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين سئل عن الإيمان ما هو؟ فقال: «**أن تؤمن بالله وكذا وكذا**» وحين سأله الذي عليه رقبة مؤمنة عن عتق العجمية؟ فأمر بعتقها، وسماها مؤمنة وإنما هذا على ما أعلمتك من دخولهم في الإيمان، ومن قبولهم وتصديقهم بما نزل منه، وإنما كان ينزل متفرقا كنزول القرآن والشاهد لما نقول والدليل عليه كتاب الله تبارك وتعالى، وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن الكتاب قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ

قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢] في مواضع من القرآن مثل هذا أفلست ترى أن الله تبارك وتعالى لم ينزل عليهم الإيمان جملة، كما لم ينزل القرآن جملة؟ فهذه الحجة من الكتاب، فلو كان الإيمان مكملا بذلك الإقرار ما كان للزيادة إذا معنى، ولا لذكرها موضع وأما الحجة من السنة والآثار المتواترة في هذا المعنى من زيادات قواعد الإيمان بعضها بعد بعض، ففي حديث منها أربع، وفي آخر خمس، وفي الثالث تسع، وفي الرابع أكثر من ذلك»[(١)].

وأجاب شيخ الإسلام أيضا عن ذلك بقوله: «أنهم خوطبوا به قبل أن يجب تلك الأعمال، فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان، وكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه، فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين» ومثل على ذلك بالحج، فإنه لم يأت ذكره في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الإسلام والإيمان، كحديث وفد عبد القيس حيث قال فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آمركم بالإيمان بالله وحده، هل تدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم، أو خمسا من المغنم»[(٢)].

---

(١) كتب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٢.

(٢) سبق تخريجه.

وحديث ضمام بن ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أنه سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: آلله أرسلك إلى الناس كلهم فقال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة، قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا قال: اللهم نعم، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر»[(١)].

وإنما جاء ذكره في حديث جبريل، وفيه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت**»[(٢)].

وذلك لأن الحج آخر ما فرض من الأركان الخمسة، فكان قبل فرضه لا يدخل في الإيمان والإسلام، فلما فرض أدخله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإيمان إذا أفرد، وأدخله في الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد[(٣)].

الشبهة الرابعة: قالوا: لو أن رجلا آمن بالله ورسوله ضحوة، ومات قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال، مات مؤمنا، وكان من أهل الجنة، فدل على أن الأعمال ليست من الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٣٥ برقم: ٦٣ ومسلم ١/ ٣٢ برقم: ١١١.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ١٩٧.

الجواب عن هذه الشبهة:

قال شيخ الإسلام مجيبا عن ذلك: «وكذلك قولهم من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمنا، فصحيح؛ لأنه أتى بالواجب عليه، والعمل لم يكن وجب عليه بعد».

فالأمر ليس مرده لكون العمل ليس من الإيمان، بل لأن العمل لم يكن واجبا عليه في تلك الحال.

يقول شيخ الإسلام: «فإن الله تعالى لما بعث محمدا رسولا إلى الخلق كان الواجب على الخلق تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، ولم يأمرهم حنيئذ بالصلوات الخمس، ولا صيام شهر رمضان، ولا حج البيت، ولا حرم عليهم الخمر والربا، ونحو ذلك، ولا كان أكثر القرآن قد نزل، فمن صدقه حينئذ فيما نزل من القرآن، وأقر بما أمر به من الشهادتين، وتوابع ذلك، كان ذلك الشخص حينئذ مؤمنا تام الإيمان الذي وجب عليه، وإن كان مثل هذا الإيمان لو أتى به بعد الهجرة لم يقبل منه، ولو اقتصر عليه كان كافرا».

ويقول: بل كانوا في أول الإسلام يكون الرجل مؤمنا كامل الإيمان مستحقا للثواب إذا فعل ما أوجبه الله عليه ورسوله، وإن كان لم يقع من التصديق المفصل بما لم ينزل من القرآن، ولم يصم رمضان، ولم يحج البيت، كما أن من آمن في زمننا هذا إيمانا تاما ومات قبل دخول وقت صلاة عليه مات مستكملا للإيمان الذي وجب عليه، كما أنه مستحق للثواب على إيمانه ذلك.

وأما بعد نزول ما نزل من القرآن وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله من الواجبات وتمكن من فعل ذلك، فإنه لا يكون مستحقا للثواب بمجرد ما كان يستحق به الثواب قبل ذلك[١].

الشبهة الخامسة: توهمهم أن الإيمان لو كان مركبا للزم منه ذهابه كله بذهاب بعضه، ولخرج العصاة من الإيمان، وهذا قول الخوارج، وللزم منه اجتماع الإيمان والكفر في الشخص، وهذا مخالف للإجماع عندهم.

سيأتي الجواب عن هذه الشبهة.

الشبهة السادسة: أن الإيمان في اللغة هو التصديق فهذه الحجة تقوم على مقدمتين:

إحداهما: أن الإيمان في اللغة هو التصديق، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يخاطب الناس بلغة العرب ولم يغيرها، فيكون مراده بالإيمان التصديق فحسب.

والثانية: أن التصديق إنما يكون بالقلب واللسان، أو بالقلب، فالأعمال بكل حال ليست من الإيمان.

الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: فهمكم لهذه النصوص مخالف لفهم السلف الصالح وبالتالي مردود.

الوجه الثاني: نقد المنهجية التي سلكها المرجئة في هذه المسألة، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام: «فيقال لهم: اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن

---

(١) المرجع السابق.

والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ، وهو أصل الدين، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويفرق بين السعداء والأشقياء، ومن يوالى ويعادى، والدين كله تابع لهذا، وكل مسلم يحتاج إلى ذلك.

أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله، ووكله إلى هاتين المقدمتين؟!

ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق أنه من القرآن، ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من تواتر لفظ الكلمة، فإن الإيمان يحتاج إلى معرفته جميع الأمة فينقلونه، بخلاف كلمة من سورة، فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة، فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات، ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم، وسلكوا السبل، وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأن منهج المرجئة في تقرير هذه الحجة مخالف لما يجب سلوكه في فهم المصطلحات الشرعية، حيث يقول: ومما ينبغي أن يعرف أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة، ولا غيرهم، ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع:

نوع يعرف حده بالشرع: كالصلاة، والزكاة.

ونوع يعرف حده باللغة: كالشمس، والقمر.

ونوع يعرف حده بالعرف: كلفظ القبض، ولفظ المعروف في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]، ونحو ذلك.

وروي عن ابن عباس أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله من ادعى علمه فهو كاذب. فاسم الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ونحو ذلك قد بين الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يراد بها في كلام الله ورسوله، وكذلك لفظ الخمر، وغيرها، ومن هناك يعرف معناها، فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بينه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقبل منه.

وأما الكلام في اشتقاقها، ووجه دلالتها، فذاك من جنس علم البيان، وتعليل الأحكام، هو زيادة في العلم، وبيان حكمة ألفاظ القرآن، لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا.

واسم الإيمان، والإسلام، والنفاق، والكفر هي أعظم من هذا كله، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بين المراد بهذه الألفاظ بيانا لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق، وشواهد استعمال العرب، ونحو ذلك، فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله، فإنه شاف كاف، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة[(١)].

الوجه الثالث: في نقض هذه الحجة، فهو الجواب المفصل:

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨٧.

وفيه نقض المقدمتين اللتين بني المرجئة عليهما احتجاجهم باللغة، وذلك بجوابين:

الجواب الأول: مبني على منع دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق.

الجواب الثاني: مبني على فرض التسليم بالترادف.

وهذا شرح لهذين الجوابين:

الجواب الأول: في منع دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق.

وذلك في وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: المطالبة بإثبات الترادف.

وهب أن المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع، فلم قلت إنه يوجب الترادف؟ ولو قلت: ما أنت بمسلم لنا، ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى، لكن لم قلت إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن؟ وإذا قال الله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٧٢]، ولو قال القائل: أتموا الصلاة، ولازموا الصلاة، التزموا الصلاة، افعلوا الصلاة، كان المعنى صحيحا، لكن لا يدل هذا على معنى أَقِيمُواْ، فكون اللفظ يرادف اللفظ يراد دلالته على ذلك»[(١)].

الوجه الثاني: الرد على ما استدل به المرجئة على دعوى الترادف.

استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، لا يتم لهم؛ لأنه «ليس في الآية ما يدل على أن المصدق مرادف للمؤمن، فإن صحة المعنى بأحد اللفظين لا يدل على أنه مرادف للآخر».

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٩٠.

الوجه الثالث: إثبات الفروق اللغوية بين الإيمان والتصديق وهي:

الفرق الأول: من جهة التعدي.

فإن الفعل صدق يتعدى بنفسه، ولا يتعدى بغيره إلا إذا ضعف عمله بتأخيره وتقديم مفعوله عليه، أو كونه اسم فاعل، أو مصدرا، ونحو ذلك. تقول: صدقته، وأنا به مصدق، وأنا مصدق له.

وأما الفعل آمن، فإنه يتعدى بغيره، ولا يتعدى بنفسه إلا إذا كان بمعنى الأمان ضد الإخافة.

تقول: آمنت به، وآمنت له، وإذ أردت معنى الأمان قلت: أمنته.

قال شيخ الإسلام: «وذلك أن الإيمان يفارق التصديق، لفظا ومعنى، فإنه أيضا يقال: صدقته، فيتعدى بنفسه إلى المصدق، ولا يقال: آمنته، إلا من الأمان الذي هو ضد الإخافة، بل آمنت له.

وإذا ساغ أن يقال: ما أنت بمصدق لفلان، كما يقال: هل أنت مصدق له؛ لأن الفعل المتعدى بنفسه إذا قدم مفعوله عليه، أو كان العامل اسم فاعل ونحوه، مما يضعف عن الفعل، فقد يعدونه باللام تقوية له، كما يقال: عرفت هذا وأنا به عارف، وضربت هذا وأنا له ضارب، وسمعت هذا ورأيته وأن له سامع وراء، كذلك يقال: صدقته وأنا له مصدق، ولا يقال صدقت له به.

وهذا خلاف آمن، فإنه لا يقال إذا أردت التصديق: آمنته، كما يقال: أقررت له، ومنه قوله: آمنت له، كما يقال: أقررت له».

الفرق الثاني: من جهة الاستعمال.

فالإيمان يستعمل في الخبر عن الأمور الغائبة، وفي خبر يؤتمن عليه المخبر من الأمور التي فيها ريب، وفي الحقائق الثابتة التي تعلم بدون خبر، ويتناول الذوات المرتبطة بمعاني الحب والبغض.

وأما التصديق فيستعمل في جميع الأخبار، المشهودة والغائبة، ويختص بمتعلقات الذوات المرتبطة بمعاني الحب والبغض.

قال شيخ الإسلام: «وليس الإيمان مرادفا للفظ التصديق، كما يظنه طائفة من الناس، فإن التصديق يستعمل في كل خبر.

فيقال لمن أخبر بالأمور المشهودة - مثل قوله: الواحد نصف الاثنين، والسماء فوق الأرض - مجيبا: صدقت، وصدقنا بذلك.

ولا يقال: آمنا له، ولا آمنا بهذا، حتى يكون المخبر به من الأمور الغائبة، فيقال للمخبر، آمنا له، وللمخبر به: آمنا به، كما قال إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمقر لنا، ومصدق لنا؛ لأنهم أخبروه عن غائب، «أي: لا تقر بخبرنا، ولا تثق به، ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لما يأمن لهم».

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ [التوبة: ٦١]، «أي: فيصدقهم فيما أخبروا به

مما غاب عنه، وهو مأمون عنده على ذلك»، وقوله تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الدخان: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس: ٨٣]، أي: أقر له، ثم قال: «الإيمان لا يستعمل في جميع الأخبار، بل في الإخبار عن الأمور الغائبة، ونحوها مما يدخلها الريب، فإذا أقر بها المستمع قيل: آمن. بخلاف لفظ التصديق، فإنه عام متناول لجميع الأخبار»، ثم قال: فلفظ التصديق إنما يستعمل في جنس الأخبار، فإن التصديق إخبار بصدق المخبر، والتكذيب إخبار بكذب المخبر، فقد يصدق الرجل الكاذب تارة، وقد يكذب الرجل الصادق أخرى. فالتصديق والتكذيب نوعان من الخبر، وهما خبر عن الخبر، فالحقائق الثابتة في نفسها التي قد تعلم بدون خبر لا يكاد يستعمل فيها لفظ التصديق والتكذيب إن لم يقدر مخبر عنها.

بخلاف الإيمان، والإقرار، والإنكار، والجحود، ونحو ذلك، فإنه يتناول الحقائق، والإخبار عن الحقائق أيضا. وأيضا فالذوات التي تحب تارة وتبغض أخرى، وتوالى تارة وتعادى أخرى، وتطاع تارة وتعصى أخرى، ويذل لها تارة ويستكبر عنها أخرى، تختص هذه المعاني فيها بلفظ الإيمان، والكفر، ونحو ذلك.

وأما لفظ التصديق، والصدق، ونحو ذلك، فيتعلق بمتعلقها، كالحب،

والبغض، فيقال: حب صادق، وبغض صادق. فكما أن الصدق والكذب في إثبات الحقائق ونفيها متعلق بالخبر النافي والمثبت دون الحقيقة ابتداء، فكذلك في الحب والبغض ونحو ذلك يتعلق بالحب والبغض دون الحقيقة ابتداء. بخلاف لفظ الإيمان والكفر، فإنه يتناول الذوات بلا واسطة إقرارا، أو إنكارا أو حبا، أو بغضا، أو طمأنينة، أو نفورا. ويشهد لهذا الدعاء المأثور المشهور عند استلام الحجر: «اللهم إيمانا بك، وتصديقا بكتابك، ووفاء بعهدك، وأتباعا لسنة نبيك محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

فقال إيمانا بك، ولم يقل: تصديقا بك، كما قال: تصديقا بكتابك. وقال تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]، فجعل التصديق بالكلمات والكتب.

ومنه الحديث الذي في الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي، وتصديق بكلماتي**»، ويروى: «**إيمانا بي، وتصديقا برسلي**»، ويروى: «**لا يخرجه إلا جهادا في سبيل الله، وتصديق كلماته**» ففي جميع هذه الألفاظ جعل لفظ التصديق بالكلمات والرسل.

الفرق الثالث: من جهة المقابل للفظ التصديق والإيمان.

فالتصديق يقابله التكذيب، وأما الإيمان فيقابله الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب.

قال شيخ الإسلام: «لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل التكذيب، كلفظ التصديق. فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت،

ويقال صدقناه أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له أو مكذبه له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، يقال: هو مؤمن، أو كافر»، ثم قال: «فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكذيبا، ويكون مخالفة ومعاداة، وامتناعا بلا تكذيب، فلابد أن يكون الإيمان تصديقا مع موافقة، موالاة، وانقياد، لا يكفي مجرد التصديق».

الفرق الرابع: من جهة المعنى.

فالإيمان وإن كان يتضمن التصديق، فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة.

وهذا هو الذي حققه شيخ الإسلام في معنى الإيمان، حيث يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقا».

ويقول: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق». ويقول: «فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو: القرار والطمأنينة».

ويقول: «فاللفظ - يعني لفظ الإيمان - متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق».

وقد عقد شيخ الإسلام مقارنة تظهر أوجه التقارب بين الإيمان والإقرار قال فيها: «فإن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، كما أن لفظ الإقرار مأخوذ من قر، يقر، وهو قريب من آمن، يأمن، لكن الصادق يطمئن

إلى خبره، والكاذب بخلاف ذلك، كما يقال: الصدق طمأنينة والكذب ريبة، فالمؤمن دخل في الأمن، كما أن المقر دخل في الإقرار. ولفظ الإقرار يتضمن الالتزام، ثم إنه يكون على وجهين:

أحدهما: الإخبار، وهو من هذا الوجه، كلفظ التصديق، والشهادة، ونحوهما، وهذا معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار.

والثاني: إنشاء الالتزام، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]، فهذا الالتزام للإيمان، والنصر للرسول. وكذلك لفظ الإيمان فيه إخبار، وإنشاء، والتزام، بخلاف التصديق المجرد. فمن أخبر الرجل بخبر لا يتضمن طمأنينة إلى المخبر لا يقال فيه: آمن له، بخلاف الخبر الذي يتضمن طمأنينة إلى الخبر. والمخبر قد يتضمن خبره طاعة المستمع له، وقد لا يتضمن إلا مجرد الطمأنينة إلى صدقه، فإذا تضمن طاعة المستمع لم يكن مؤمنا للمخبر إلا بالتزام طاعته مع تصديقه. بل قد استعمل لفظ الكفر المقابل للإيمان في نفس الامتناع عن الطاعة والانقياد، فقياس ذلك أن يستعمل لفظ الإيمان كما استعمل لفظ الإقرار في نفس التزام الطاعة والانقياد».

ويقول: «فالإيمان متضمن للإقرار بما أخبر به، والكفر تارة يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به، وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما أخبر به، وتارة بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به، والأصل في ذلك هو

الإخبار بالله وبأسمائه، ولهذا كان جحد ما يتعلق بهذا الباب أعظم من جحد غيره، وإن كان الرسول أخبر بكليهما.

ثم مجرد تصديقه في الخبر والعلم بثبوت ما أخبر به، إذا لم يكن معه طاعة لأمره، لا باطنا ولا ظاهرا، ولا محبة ولا تعظيم له، لم يكن ذلك إيمانا»[(١)].

الجواب الثاني: في نقض احتجاج المرجئة باللغة، مبني على فرض التسليم بالترادف بين الإيمان والتصديق.

وثمة أجوبة عدة تدخل تحت هذا الجواب:

أحدها: أنه وإن قيل بأن الإيمان معناه التصديق، فإن قولهم إن التصديق لا يكون إلا بالقلب أو اللسان ممنوع، «بل الأفعال تسمى تصديقا، كما ثبت في الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ذلك ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[(٢)].

وكذلك قال أهل اللغة، وطوائف من السلف، والخلف.

قال الجوهري: والصديق مثال الفسيق: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل.

وقال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٥٣٤.

(٢) أخرجه أحمد ٧/ ٢٨ برقم: ٣٩١٢.

الثاني: «أنه إذا كان أصله التصديق، فهو تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، والصيام إمساك مخصوص».

فالإيمان تصديق مخصوص، يتناول التصديق بالقلب والقول والعمل عند أهل الحديث.

فليس: «هو التصديق بكل شيء بل بشيء مخصوص، وهو ما أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحينئذ يكون الإيمان في كلام الشارع أخص من الإيمان في اللغة، ومعلوم أن الخاص ينضم إليه قيود لا توجد في جميع العام،...،

فالتصديق الذي هو الإيمان أدنى أحواله أن يكون نوعا من التصديق العام، فلا يكون مطابقا له في العموم والخصوص، من غير تغيير اللسان، ولا قلبه، بل يكون الإيمان في كلام الشارع مؤلفا من العام والخاص».

الثالث: أنه «وإن كان هو التصديق، فالتصديق التام القائم مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ونقول: إن هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة، وتخرج عنه أخرى».

الرابع: أن يقال: إن اللفظ باق على معناه في اللغة، ومتروك على ما كان، ولكن الشريعة زادت فيه أحكاما، وضمت إليه شروطا وقيودا.

الخامس: أن يقال: «إن الشارع استعمله في معناه المجازي، فهو حقيقة شرعية، مجاز لغوي».

السادس: أن يقال: إنه منقول من معناه اللغوي إلى المعنى الشرعي، كالأسماء الشرعية من الصلاة والزكاة ونحوها.

فكل هذه الأجوبة يكفي الواحد منها لإبطال حجة المرجئة لو سلم لهم دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق، ومع ذلك فإن التحقيق يدور في الأجوبة الثلاثة الأولى منها، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام: «فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء، كخطاب الناس بغيرها وهو خطاب مقيد خاص، لا مطلق يحتمل أنواعا، وقد بين الرسول تلك الخصائص، والاسم دل عليها، فلا يقال إنها منقولة، ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم، بل الاسم إنما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع، لم يستعمل مطلقا. وهو إنما قال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها، فكان التعريف منصرفا إلى الصلاة التي يعرفونها، لم ينزل لفظ الصلاة وهم لم يعرفون معناها»، ثم قال: «وكذلك الإيمان والإسلام، وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الأمور، وإنما سأل جبريل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك وهم يسمعون، وقال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»؛ ليبين لهم كمال هذه الأسماء وحقائقها التي ينبغي أن تقصد؛ لئلا يقتصروا على أدنى مسمياتها. وهذا كما في الحديث الصحيح أنه قال: «ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس إلحافا»[(١)]، فهم كانوا يعرفون المسكين، وأنه المحتاج، وكان ذلك

(١) أخرجه البخاري ٢/ ٥٣٧ برقم: ١٤٠٦ ومسلم ٣/ ٢٥ برقم: ٢٤٤٠.

مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته السؤال، فيبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته بإعطاء الناس له، والسؤال له بمنزلة الحرفة، وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته، فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينا، وإنما المسكين المحتاج الذي لا يسأل، ولا يعرف فيعطى، فهذا هو الذي يجب أن يقدم في العطاء، فإنه مسكين قطعا، وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله.

وكذلك قوله: «الإسلام هو الخمس، يريد أن هذا كله واجب داخل في الإسلام، فليس للإنسان أن يكتفي بالإقرار بالشهادتين، وكذلك الإيمان يجب أن يكون على هذا الوجه المفصل لا يكتفي فيه بالإيمان المجمل، ولهذا وصف الإسلام بهذا».

ويزيد الأمر وضوحا أن الشارع خاطب الناس بلغة العرب، فهو خاطبهم بلغتهم المعروفة، وقد جرى عرفهم أن الاسم يكون مطلقا وعاما، ثم يدخل فيه قيد أخص من معناه، فلما خاطبهم باسم الإيمان، والصلاة، والزكاة إنما خاطبهم بهذه الأسماء بلام التعريف، وقد عرفهم قبل ذلك أن المراد الإيمان الذي صفته كذا وكذا، والدعاء الذي صفته كذا وكذا، فبتقدير أن يكون في لغتهم التصديق، فإنه قد بين أنه لا يكتفي بتصديق القلب واللسان، فضلا عن تصديق القلب وحده، بل لابد أن يعمل بموجب ذلك التصديق، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وفي قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٨١] وكقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(١)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل ومن يا رسول الله قال الذى لا يأمن جاره بوائقه**»(٢)، وأمثال ذلك، وهو كثير في الكتاب والسنة.

فقد بين لهم أن التصديق الذي لا يكون الرجل مؤمنا إلا به هو: أن يكون تصديقا على هذا الوجه، وهذا بين في القرآن والسنة، من غير تغيير للغة، ولا نقل لها.

وبهذا يكون «التحقيق أن الشارع لم ينقل تلك الأسماء، ولم يغيرها، ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة، كما يستعمل نظائرها. كقوله تعالى: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فذكر حجا خاصا، وهو حج البيت، وكذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري ٥/ ٢٤٠ برقم: ٥٦٧٠

ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فلم يكن لفظ الحج متناولا لكل قصد، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة».

فتصرف الشارع فيها كتصرف أهل العرف في بعض الأسماء اللغوية، إما بتخصيصها ببعض معانيها، وإما تحويلها إلى ما بينه وبين المعنى الأول سبب ومناسبة [(١)].

وقال أبو محمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلف الناس في ماهية الإيمان فذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة وهذا قول أبي محرز الجهم بن صفوان وأبي الحسن الأشعري البصري وأصحابهما.

وذهب قوم إلى أن الإيمان هو إقرار باللسان بالله تعالى وإن اعتقد الكفر بقلبه فإذا فعل ذ لك فهو مؤمن من أهل الجنة وهذا قول محمد بن كرام السجستاني وأصحابه.

وذهب قوم إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب والإقرار باللسان معا فإذا عرف المرء الدين بقلبه وأقر بلسانه فهو مسلم كامل الإيمان والإسلام وأن الأعمال لا تسمى إيمانا ولكنها شرائع الإيمان وهذا قول أبي حنيفة النعمان بن ثابت الفقيه وجماعة من الفقهاء.

---

(١) كتاب الإيمان ص٢٥٥.

وذهب سائر الفقهاء وأصحاب الحديث والمعتزلة والشيعة وجميع الخوارج إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب بالدين والإقرار به باللسان والعمل بالجوارح وأن كل طاعة وعمل خير فرضا كان أو نافلة فهي إيمان وكل ما ازداد الإنسان خيرا ازداد إيمانه وكلما عصى نقص إيمانه.

وقال محمد بن زياد الحريري الكوفي من آمن بالله عَزَّوَجَلَّ وكذب برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فليس مؤمنا على الإطلاق ولا كافرا على الإطلاق ولكنه مؤمن كافر لأنه آمن بالله تعالى فهو مؤمن وكافر بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهو كافر.

قال أبو محمد فحجة الجهمية والكرامية والأشعرية ومن ذهب مذهب أبي حنيفة حجة واحدة وهي أنهم قالوا إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين وبلغة العرب خاطبنا الله تعالى ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والإيمان في اللغة هو التصديق فقط والعمل بالجوارح لا يسمى في اللغة تصديقا فليس إيمانا قالوا والإيمان هو التوحيد والأعمال لا تسمى توحيدا فليست إيمانا قالوا ولو كانت الأعمال توحيدا وإيمانا لكان من ضيع شيئا منها قد ضيع الإيمان وفارق الإيمان فوجب أن لا يكون مؤمنا قالوا وهذه الحجة إنما تلزم أصحاب الحديث خاصة لا تلزم الخوارج ولا المعتزلة لأنهم يقولون بذهاب الإيمان جملة بإضاعة الأعمال.

قال أبو محمد ما لهم حجة غير ما ذكرنا وكل ما ذكروا فلا حجة لهم فيه أصلا لما نذكره إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

قال أبو محمد: إن الإيمان هو التصديق في اللغة فهذا حجة على الأشعرية والجهمية والكرامية مبطلة لأقوالهم إبطالا تاما كافيا لا يحتاج معه إلى غيره وذلك قولهم أن الإيمان في اللغة التي بها نزل القرآن هو التصديق فليس كما قالوا على الإطلاق وما سمى قط التصديق بالقلب دون التصديق باللسان إيمانا في لغة العرب وما قال قط عربي أن من صدق شيئا بقلبه فأعلن التكذيب به بقلبه وبلسانه فإنه لا يسمى مصدقا به أصلا ولا مؤمنا به البتة وكذلك ما سمي قط التصديق باللسان دون التصديق بالقلب إيمانا في لغة العرب أصلا على الإطلاق ولا يسمى تصديقا في لغة العرب ولا إيمانا مطلقا إلا من صدق بالشيء بقلبه ولسانه معا فبطل تعلق الجهمية والأشعرية باللغة جملة ثم نقول لمن ذهب مذهب أبي حنيفة في أن الإيمان إنما هو التصديق باللسان والقلب معا وتعلق في ذلك باللغة إن تعلقكم باللغة لا حجة لكم فيه أصلا لأن اللغة يجب فيها ضرورة أن كل من صدق بشيء فإنه مؤمن به وأنتم والأشعرية والجهمية والكرامية كلكم توقعون اسم الإيمان ولا تطلقونه على كل من صدق بشيء ما ولا تطلقونه إلا على صفة محدودة دون سائر الصفات وهي من صدق بالله عَزَّوَجَلَّ وبرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وبكل ما جاء به القرآن والبعث والجنة والنار والصلاة والزكاة وغير ذلك مما قد أجمعت الأمة على أنه لا يكون مؤمنا من لم يصدق به وهذا خلاف اللغة مجرد فإن قالوا إن الشريعة أوجبت علينا هذا قلنا صدقتم فلا تتعلقوا باللغة حيث جاءت الشريعة بنقل اسم منها عن موضوعه في اللغة كما فعلتم

آنفا سواء بسواء ولا فرق»[(١)].

الشبهة السابعة: الاستدلال بنصوص الوعد:

احتج المرجئة بالنصوص التي فيها أن من أتى بالقول، فهو من أهل الإيمان والجنة، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[(٢)].

وكما جاء في حديث الجارية «أن رجلا جاء بأمة سوداء، وقال يا رسول الله: إن عليّ رقبة مؤمنة، فإن كانت هذه مؤمنة أعتقها، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتشهدين أن لا إله إلا الله، فقالت: نعم، قال: أتشهدين أني رسول الله، قالت: نعم، قال: أتؤمنين بالبعث بعد الموت، قالت: نعم، قال: فأعتقها»[(٣)]، وعند مسلم: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة»[(٤)].

وفي حديث البطاقة، عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، ثم يقول الله تبارك وتعالى له: أتنكر من هذا شيئا؟ فيقول: لا يا رب، فيقول** عَزَّوَجَلَّ: **ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول** عَزَّوَجَلَّ: **بلى، إن لك عندنا**

---

(١) الفصل في الملل والآهواء والنحل ٣/ ١٠٦.

(٢) أخرجه أحمد ٣٦/ ٤٤٣ برقم: ٢٢١٢٧ وأبو داوود ٣/ ١٥٩ برقم: ٣١١٨ قال الألباني: صحيح.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٥١١٢٩ برقم: ٢٨٧٥ وأحمد في المسند ١٣/ ٢٨٥ برقم: ٧٩٠٦.

(٤) أخرجه مسلم ٢/ ٧٠ برقم: ١٢٢٧.

حسنات، وإنه لا ظلم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول عَزَّوَجَلَّ: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة»[(١)].

وفي حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «يدرس الإسلام كما يدرس وشيء الثوب، حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وليسري على كتاب الله في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس - الشيخ الكبير، والعجوز - يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها»، فقال صلة لحذيفة: «ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة تنجيهم من النار - ثلاثا»[(٢)].

ونحو ذلك من النصوص والعمومات، التي فهموا منها أنه لا يشترط في الإيمان فعل الواجبات، وأن من وجبت عليه العبادات فتركها، وارتكب المحظورات يستحق اسم الإيمان المطلق.

وقالوا: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ

(١) أخرجه ابن ماجه ٢/ ١٤٣٧ برقم: ٤٣٠٠ قال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢/ ١٣٤٤ برقم: ٤٠٤٩ قال في الزوائد إسناده صحيح رجاله ثقات والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٢٠ برقم: ٨٤٦٠ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، قالوا: ومعلوم أن امتحانهن إنما هو مطالبة لهن بالإقرار بالشهادة، كما جاء في حديث الجارية. وقالوا: أجمع المسلمون على أن الكافر إذا أراد أن يسلم يكتفي منه بالإقرار بالشهادتين.

وأولوا لأجل تلك النصوص ما يقابلها من نصوص الوعيد التي فيها نفي الإيمان عمن ارتكب بعض الذنوب، كقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١)، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»(٢) وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا، فليس منا**»(٣)، ونحو ذلك من النصوص

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله.

(٢) أخرجه أحمد ١٩/ ٣٧٦ برقم: ١٢٣٨٣ قال الأرناؤوط: إسناده حسن في الشواهد.

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ٢٥٩١ برقم: ٦٦٥٩. ومسلم ١/ ٦٩ برقم: ٢٩٤.

وقالوا بأن المراد: ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا، أو أن المنفي ثمرة الإيمان أو العمل به، وقالوا: إن لم يكن مؤمنا لما هو؟ هذا هو موقف المرجئة من نصوص الوعد والوعيد.

الجواب عن هذه الشبهة:

أولا: فهمكم مخالف لفهم السلف الصالح لهذه النصوص وبالتالي مردود.

ثانيا: نجيب عن هذه الشبهة من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: بيان الموقف الحق من نصوص الوعد والوعيد:

تعد مسألة الوعد والوعيد من أكبر مسائل العلم، وأهل البدع افترقوا فيها إلى طائفتين:

فالوعيدية من الخوارج والمعتزلة نظروا إلى نصوص الوعيد، والمرجئة نظروا إلى نصوص الوعد.

وأما الذي عليه أهل السنة وعامة علماء السلف، فهو الإيمان بالوعد والوعيد والإقرار بالنصوص الواردة في هذا الباب على ما دلت عليه من المعاني، وإمرارها كما جاءت وأنها حق على ظاهرها اللائق بها، ويجمعون بينها، ويفسرون بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها، أو تأويلها بتأويلات تخرجها عن مقصود الشرع، كما يصنعه من يحرفها ويسمى تحريفه تأويلا.

يقول شيخ الإسلام بعد ذكره قول الوعيدية والمرجئة في نصوص الوعد والوعيد: «وكل من القولين خطأ، فإن النصوص، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا

﴿١٠﴾ [النساء: ١٠]. لم يشترط فيها الكفر، بل هي في حق المتدين بالإسلام. وقوله: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة». لم يشترط فيه فعل الواجبات، بل قد ثبت في الصحاح: «وإن زني، وإن سرق، وإن شرب الخمر»[(١)].

فهنا اضطرب الناس: فأنكر قوم من المرجئة العموم، وقالوا: ليس في اللغة عموم، وهم الواقفية في العموم من المرجئة، وبعض الأشعرية، والشيعة. وإنما التزموا ذلك؛ لئلا يدخل جميع المؤمنين في نصوص الوعيد. وقالت المقتصدة: بل العموم صحيح، والصيغ صيغ عموم، لكن العام يقبل التخصيص، وهذا مذهب جميع الخلائق من الأولين والآخرين، إلا هذه الشرذمة.

قالوا -يعني المقتصدة-: فمن عفي عنه كان مستثنى من العموم. وقال قوم آخرون: بل إخلاف الوعيد ليس بكذب، وإن العرب لا تعد عارا أو شنارا أن يوعد الرجل شرا ثم لا ينجزه، كما تعد عارا أو شنارا أن يعد خيرا ثم لا ينجزه، وهذا قول طوائف من المتقدمين والمتأخرين.

وقد احتجوا بقول كعب بن زهير يخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

قالوا: فهذا وعيد خاص، وقد رجا فيه العفو مخاطبا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلم أن العفو عن المتوعد جائز، وإن لم يكن من باب تخصيص العام. والتحقيق أن يقال: الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد والوعيد، كما أنهما مشتمل على نصوص الأمر والنهي، وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه.

---

(١) سبق تخريجه.

فكما أن نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط؛ لأن القرآن قد دل على أن من ارتد فقد حبط عمله. فكذلك نصوص الوعيد للكفار والفساق مشروطة بعدم التوبة؛ لأن القرآن قد دل على أن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب، وهذا متفق عليه بين المسلمين، فكذلك في موارد النزاع، فإن الله قد بين بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن السيئات، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وأن مصائب الدنيا تكفر الذنوب، وأنه يقبل شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل الكبائر، وأنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، كما بين أن الصدقة يبطلها المن ولأذى، وأن الرياء، يبطل العمل، وأنه إنما يتقبل الله من المتقين، أي في ذلك العمل ونحوه.

فجعل للسيئات ما يوجب رفعها، كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة، كما أنه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة.

وبهذا يتبين أنا نشهد بأن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء: ١٠] على الإطلاق والعموم، ولا نشهد لمعين أنه في النار؛ لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه؛ لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع في حقه، وفائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتض لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شروطه، وانتفاء مانعه.

يبين هذا أنه قد ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وآكل ثمنها، وثبت عنه في صحيح البخاري عن عمر أن رجلا كان يكثر شرب الخمر، فلعنه رجل، قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله**»، فنهى عن لعن هذا المعين وهو مدمن خمر؛ لأنه يحب الله ورسوله، وقد لعن شارب الخمر على العموم.

فأحاديث الوعيد إنما هي فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة، فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، بل كثير ممن يقول: «لا إله إلا الله» يدخل النار، أو أكثرهم، ثم يخرج منها.

وتواترت الأحاديث بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

ولكن جاءت مقيدة بالإخلاص واليقين، وبموت عليها، فكلها مقيدة بهذه القيود الثقال، وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين، ومات على ذلك امتنع أن تكون سيئاته راجحة على حسناته، بل كانت حسناته راجحة فيحرم على النار؛ لأنه إذا قالها العبد بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرا على ذنب، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء، فلا يبقى في قلبه حينئذ إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله، فهذا هو الذي يحرم

على النار، وإن كان له ذنوب، فهذا الإيمان، وهذه التوبة، وهذا الإخلاص، وهذه المحبة، وهذا اليقين، وهذه الكراهة لا يتركون له ذنبا إلا محي عنه كما يمحى النهار والليل.

فإن قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأصغر والأكبر، فهذا غير مُصر على ذنب أصلا، فيغفر له، ويحرم على النار. وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه.

وهذا خلاف من رجحت سيئاته على حسناته، ومات على ذلك، فإنه يستوجب النار. وإن كان قال: لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك، بل قالها وأتى بعدها بسيئات رجحت على هذه الحسنات، فإنه في حال قوله لها مخلصا مستيقنا بها قلبه تكون حسناته راجحة، ولا يكون مصرا على سيئة، فإن مات قبل ذلك دخل الجنة. ولكن بعد ذلك قد يأتي بسيئات راجحة، ولا يقولها بالإخلاص واليقين المانع من جميع السيئات، ومن الشرك الأكبر والأصغر، بل يبقى معه الشرك الأصغر، ويأتي بعد ذلك بسيئات تنضم إلى ذلك الشرك، فترجح سيئاته، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف بسبب ذلك قول: لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي، أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن يختبر بها، من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهؤلاء لم

يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل قد يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين الضعيف، وقد يقولونها من غير يقين وصدق تام، ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة. فالذي قالها بيقين وصدق تام: إما أن لا يكون مصرا على سيئة أصلا، أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته. والذين دخلوا النار قد فات فيهم أحد الشرطين:

إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام النافي للسيئات، أو لرجحانها على الحسنات. أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، فيضعف لذلك صدقهم، ويقينهم، فلم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين يمحو سيئاتهم أو يرجح حسناتهم.

وكذلك ما ورد من نصوص الوعيد المطلقة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النساء: ٣٠]، فهو مبين ومفسر بما في الكتاب والسنة من النصوص المبينة لذلك المقيدة له، وكذلك ما ورد من نصوص الوعد المطلقة. وكذلك بين أن الحسنات تمحو السيئات، والخطايا تكفر بالمصائب وغيرها من العمل الصالح وغيره، كالدعاء له، والصدقة عنه، والصيام، والحج له. فقوله: «**لا يدخل النار من في قلبه مقال ذرة من إيمان**» نفى به الدخول المطلق الذي توعد به في القرآن توعداً مطلقا، وهو دخول الخلود فيها، وأنه لا يخرج منها بشفاعة ولا غيرها،...، وكذلك قوله: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**». نفى الدخول المطلق المعروف، وهو دخول المؤمنين الذين أعدت لهم الجنة».

وهذا كما أن نصوص الوعيد عامة في أكل أموال اليتامى، والزنى، والسارق، فلا نشهد بها على معين بأنه من أصحاب النار، لجواز تخلف المتقضى عن المتقضى لمعارض راجح، إما بتوبة، وإما حسنات ماحية، وإما مصائب مكفرة، وإما شفاعة مقبولة، وإما غير ذلك. فإنا نطلق القول بنصوص الوعد والوعيد، والتكفير والتفسيق والتكفير، ولا نحكم لمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم فيه المقتضى الذي لا معارض له[(١)].

وملخص هذا الجواب أن نصوص الوعيد نصوص مطلقة عامة، وجاءت نصوص فسرتها وقيدتها، وبينت أن لحوقها بالمعين لابد فيه من توفر شروط وانتفاء موانع في حقه، فالوعيد سبب مقتض للعذاب، والسبب يتوقف تأثيره على وجود شروطه وانتفاء مانعه.

ومن أسباب زوال الوعيد: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والدعاء والأعمال الصالحة، والشفاعة، والمصائب، وما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة، وأهوال يوم القيامة، ورحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته، فكل وعيد، فإنه قد يدفع بأحد هذه الأسباب. وكذلك نصوص الوعد نصوص مطلقة عامة، وجاءت نصوص بينتها وفسرتها وقيدتها بقيود ثقال، كالإخلاص، واليقين، والموت عليها، وجاءت مشروطة بانتفاء الموانع من دخول الجنة، وأعظمها أن يموت كافرا الكفر المحبط - والعياذ بالله -، أو أن تكثر ذنوبه وترجح على حسناته، أو أن يعقب العمل ما يبطله، كالمن والأذى.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٢٨٧.

الوجه الثاني: نقض استدلال المرجئة بنصوص الوعد.

فبعد أن تحررت القاعدة الشرعية في نصوص الوعد والوعيد المتقدم ذكرها لاح للناظر أن كل ما احتج به المرجئة من المعلومات الواقعة في نصوص الوعد، فإنه يندرج تحتها.

فصاحب البطاقة قال كلمة التوحيد على وجه خلص به من الشرك الأكبر، دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، فيحرم صاحبها على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه.

وهذه حال من قال كلمة التوحيد بإخلاص وصدق، كما قالها صاحب البطاقة، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم، كما ترجح قول صاحب البطاقة. فالعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها، كما في حديث صاحب البطاقة.

وشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله، دقه وجله، خطأه وعمده، أوله وآخره، سره وعلانيته، وتأتي على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه.

وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرا مما يبعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلغه

ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة، فإنه لا يحكم بكفره، حتى يعرف ما جاء به الرسول، ولهذا جاء في الحديث: «**يأتي على الناس زمان، لا يعرفون فيه صلاة، ولا زكاة**».

وأكثر هؤلاء ليس عندهم من آثار الرسالة وميراث النبوة ما يعرفون به الهدى، وكثير منهم لم يبلغهم ذلك، وفي أوقات الفترات، وأمكنة الفترات يثاب الرجل على ما معه من الإيمان القليل، ويغفر الله فيه لمن لم تقم الحجة عليه، كما في الحديث المعروف: «**يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة، ولا صياما**».

فالمذكورون في حديث حذيفة صنف من الناس انتفى في حقهم شرط البلاغ، فلم تقم عليهم الحجة، وبالتالي سقطت عنهم بعض الواجبات، «ومن ترك بعض الإيمان الواجب؛ لعجزه عنه، إما لعدم تمكنه من العلم، مثل أن لا تبلغه الرسالة، أو لعدم تمكنه من العمل، لم يكن مأمورا بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل». وبخصوص حديث الجارية، فليس فيه ما توهمته المرجئة من أنه ينافي حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»؛ لأن من نفي عنه الإيمان؛ فذلك لانتفاء بعض ما يجب عليه من ترك هذه الكبائر، والجارية لم تترك واجبا تستحق بتركه أن تكون هكذا. وهذا الحديث يعد

من حجج المرجئة المشهورة، ومع دخوله في القاعدة السابقة، فثمة جوابان آخران عنه غير ما سبق، كلاهما منقول عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الجواب الأول: أن روايات الحديث لم تتفق على وصف الجارية بأنها مؤمنة، وإنما اتفقت على الأمر بالإعتاق فحسب. قال الأثرم: قلت لأبي عبدالله: فالحديث الذي يروى: (أعتقها، فإنها مؤمنة) قال: ليس كل أحد يقول: (إنها مؤمنة)، يقولون: (أعتقها). قال: ومالك سمعه من هذا الشيخ هلال بن علي، لا يقول: «**إنها مؤمنة**».

والجواب الثاني: أن قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «**مؤمنة**»، معناه كما قال الإمام أحمد: «قد قال بعضهم بأنها مؤمنة، فهي حين تقر بذاك، فحكمها حكم المؤمنة، هذا معناه».

وقد قرر شيخ الإسلام هذا الجواب، وبين أن كونها مؤمنة يراد به «أن حكمها في الدنيا حكم المؤمنة، لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار إذا لقيته بمجرد هذا الإقرار. وهذا راجع إلى أن «قبول الإسلام الظاهر يجرى على صاحبه أحكام الإسلام الظاهرة، مثل عصمة الدم، والمال، والمناكحة، والموارثة، ونحو ذلك. وهذا يكفي فيه مجرد الإقرار الظاهر، وإن لم يعلم ما في باطن الإنسان، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإذا قالوها عصموا منى دماءهم، وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله**»، وقال: «**إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم**»...، وأما الإيمان الباطن الذي ينجي من عذاب الله في الآخرة، فلا يكفي فيه

مجرد الإقرار الظاهر، بل قد يكون الرجل مع إسلامه الظاهر منافقا، وقد كان المنافقون على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منافقون، وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن في غير موضع، ...، والمنافق عمله حابط لا يتقبله الله».

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولا يصلي عليهم، ويستغفر لهم، حتى نهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٨٠]، ولكن دماؤهم معصومة لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون، بل يظهرون الكفر دون الإيمان، والله تعالى لما أمر في الكفارة بعتق رقبة مؤمنة لم يكن على الناس أن لا يعتقوا إلا من يعلموا أن الإيمان في قلبه، فإن هذا كما لو قيل لهم اقتلوا إلا من علمتم أن الإيمان في قلبه، وهم لا يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم، فإذا رأوا رجلا يظهر الإيمان جاز لهم عتقه. وصاحب الجارية لما سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل هي مؤمنة؟

إنما أراد الإيمان الظاهر الذي يفرق به بين المسلم والكافر. والمقصود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أخبر عن تلك الأمة بالإيمان الظاهر الذي علقت به الأحكام الظاهرة، وإلا فقد ثبت عنه أن سعدا لما شهد لرجل أنه مؤمن قال: «أو مسلم»، وكان يظهر من الإيمان ما تظهره الجارية وزيادة.

فيجب أن يفرق بين أحكام المؤمنين الظاهرة التي يحكم فيها الناس في الدنيا، وبين حكمهم في الآخرة بالثواب والعقاب.

«وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم إذا ماتوا، ويدفنون في مقابر المسلمين من عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمقبرة التي كانت للمسلمين في حياته وحياة خلفائه وأصحابه يدفن فيها كل من أظهر الإيمان، وإن كان منافقا في الباطن، ولم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون بها عن المسلمين في شيء من ديار الإسلام، كما تكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها.

ومن دفن في مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون، والصلاة لا تجوز على من علم نفاقه بنص القرآن، فعلم أن ذلك بناء على الإيمان الظاهر، والله يتولى السرائر».

فخلاصة هذا الجواب أن المراد بالإيمان في حديث الجارية الإيمان الظاهر الذي تجري على صاحبه الأحكام في الدنيا، فإن هذا يكفي فيه مجرد الإقرار الظاهر، وإن لم يعلم ما في الباطن. وبهذا يجاب عن احتجاج المرجئة بآية الممتحنة، فإن الله تعالى أمر بامتحانهن، وقال: اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ، ولو كان ذلك إيمانا حقيقيا لما قال ذلك. وكذلك يجاب عن احتجاجهم بإجماع المسلمين على أن الكافر إذا أراد أن يسلم يكتفي منه بالإقرار بالشهادتين. فالكافر إنما يجتزأ منه بذلك؛ لإجراء أحكام الإسلام عليه، فإن صاحب الشرع جعل ذلك إمارة لإجراء الأحكام.

الوجه الثالث: بيان التفسير الصحيح لنفي الإيمان في نصوص الوعيد.

فإن الناس اضطربوا في المراد بالنفي في تلك النصوص، وقد قرر شيخ الإسلام في معرض كلامه على حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» أن عامة السلف يقرون هذه الأحاديث، ويمرونها كما جاءت، ويكرهون أن تتأول تأويلات تخرجها عن مقصود الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والذي عليه جماهير السلف، وأهل الحديث، وغيرهم: أن نفي الإيمان في هذه النصوص؛ لانتفاء بعض الواجبات فيه، والشارع دائما لا ينفي المسمى الشرعي إلا لانتفاء واجب فيه.

وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا**» كله من هذا الباب، لا يقوله إلا لمن ترك ما أوجب الله، أو فعل ما حرمه الله ورسوله، فيكون قد ترك من الإيمان المفروض عليه ما ينفي عنه الاسم لأجله، فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد، السالمين من الوعيد».

فالمسلم إذا أتى الفاحشة، وإن كان كمال الإيمان الواجب قد زال عنه، فإن أصل الإيمان معه، إذ معه أصل الاعتقاد أن الله حرم ذلك الفعل، ومعه خشية عقاب الله، ورجاء رحمته، وإيمانه بأن الله يغفر الذنب، فهو يعتقد تحريم الفواحش التي يفعلها؛ ولذا صار من المسلمين. وفاعل الكبيرة لم يفعلها إلا لحب في نفسه لذلك الفعل، وإلا فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة، أو حب الله الذي يغلبها، لما فعل المعصية، ومن كان مخلصا لله حق الإخلاص لم يعص، وإنما يعص؛ لخلوه عن ذلك، وهذا هو الإيمان

الذي ينزع منه، فهو لم يقم بقلبه كمال الأحوال الواجبة في الإيمان، وإنما معه شيء من حب الله وخشيته مع التصديق، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانا البتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس.

ولو كان هذا العاصي اعتقاده بقبح ذلك الفعل اعتقادا تاما لم يفعله بحال، لكنه معه أصل الإيمان، وفعله هذا لا يزين له من كل وجه، بل يستحسته من وجه، ويبغضه من وجه، ولكنه حين فعله يغلب تزيين الفعل. هذا هو الوجه الحق في فقه نصوص الوعيد وحال العصاة، ولا تحتاج إلى تأويلها بالتأويلات المستكرهة، ومن أمثلتها:

١- أن معنى نفي الإيمان، أي ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا. وقد رد عليهم السلف بأن من عمل أعمال البر كلها أيكون مثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وأن من لم يعمل هذه المعاصي أيكون من خيار المؤمنين بمجرد هذا؟. ولا يجوز أن يقال فيه - يعني في معنى هذه النصوص -: ليس من خيارنا، كما تقوله المرجئة، أو أنه صار من غير المسلمين كما تقوله الخوارج والمعتزلة. بل الصواب أن هذا الاسم المضمر ينصرف إطلاقه إلى المؤمنين الإيمان الواجب الذي به يستحقون الثواب بلا عقاب، ولهم الموالاة المطلقة والمحبة المطلقة، وإن كان لبعضهم درجات في ذلك بما فعله من المستحب».

٢- تأويل نفي الإيمان بأن معناه نفي كماله وتمامه، أو شرائعه وثمراته. فلفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب، وقد يراد به الكمال المستحب، «فمن قال إن المنفي هو الكمال: إن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم

تاركه، ويتعرض للعقوبة، فقد صدق. وإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه، ويتعرض للعقوبة، فقد صدق. وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع في كلام الله تعالى ورسوله».

٣- تأويلها بأن اللفظ لفظ الخبر، ومعناه النهي، أي: ينبغي للمؤمن ألا يفعل ذلك، أو أن المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفي. وهذا كله مشابه لقول من قال إن المراد هو الزجر والتخويف فحسب، وليس لذلك حقيقة، وهذا من تأويل المرجئة، وهو شبيه بأقوال الملاحدة والمتفلسفة والقرامطة.

وأما الاحتجاج على هذا التأويل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦] قد يحتج بهذا بعض الجهال، والجواب: «الآيات التي خوف الله بها عباده تكون سببا في شر ينزل بالناس، فمن اتقى الله بفعل ما أمر الله به، وقي ذلك الشر، ولو كان مما لا حقيقة له أصلا لم يخف أحد إذا علم أنه لا شر في الباطن، وإنما يبقى التخويف للجاهل القدم، كما يفزع الصبيان بالخيال، وقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦]، فخوف العباد مطلقا، وأمرهم بتقواه؛ لئلا ينزل المخوف، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، والإنذار هو الإعلام بما يخاف منه، وقد وجدت المخوفات في الدنيا، وعاقب الله على الذنوب أمما كثيرة، كما قصه في كتابه، وكما شوهد من الآيات، وأخبر عند دخول أهل النار النار في غير موضع من القرآن.

وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨] ولو كان الأمر كما يتوهمه الجاهل، لكان إنما يخشاه من عباده الجهال الذين يتخيلون ما لا حقيقة له.

٤- القول بأن نفي الإيمان في هذه النصوص؛ لكون من نفى عنه الإيمان لم يكن من خواص المسلمين وأفاضلهم. وهذا أيضا لا يصح، «فإن هذا لو كان كذلك لكان ينفي الإيمان المطلق عن الأبرار المتقصدين المتقين الموعودين بالجنة بلا عذاب إذا كانوا من أصحاب اليمين، ولم يكونوا من السابقين والمقربين، وليس الأمر كذلك، بل كل من أصحاب اليمين مع السابقين المقربين كلهم مؤمنون موعودون بالجنة بلا عذاب، وكل من كان كذلك فهو مؤمن باتفاق المسلمين من أهل السنة وأهل البدع. ولو جاز أن ينفى الإيمان عن شخص لكون غيره أفضل منه إيمانا نفي الإيمان عن أكثر أولياء الله المتقين، بل وعن كثير من الأنبياء، وهذا في غاية الفساد، وهذا من جنس قول من يقول نفي الاسم لنفي كماله المتسحب».

وإن أراد صاحب هذا القول أنه ليس من خواصهم، بمعنى أن إيمانه ليس كإيمان من حقق خاصة الإيمان، سواء كان من الأبرار أو من المقربين، فيكون من نفي عنه الإيمان ليس كالأبرار ولا المقربين. فيقال إن هذا أيضا لا ينفي عنه الإيمان، فيقال هو مسلم لا مؤمن؛ لأن من نفي عنه الإيمان، فلابد أن يكون ترك واجبا، أو فعل محظورا، وكثير من الناس ليسوا ممن تحقق بحقائق الإيمان التي فضل الله بها غيرهم، ولا تركوا واجبا عليهم،

وإن كان واجبا على غيرهم، كمن آتاه الله سكينة ويقينا وثباتا في قلبه، فيفضل به على كثير من الخلق، فمن لم يؤت ذلك ليس عنده من الإيمان كما عند من أوتيه، ومع هذا لا يعرف في كلام صاحب الشرع نفي الإيمان عمن كانت هذه حاله، ولم يعرف في كلامه إلا أن نفي الإيمان يقتضي الذم حيث كان، فلا ينفى إلا عمن له ذنب. وكذلك، فإن كثيرا من المسلمين باطنا وظاهرا، ومعه تصديق مجمل، ولكنه لم يتصف بالإيمان المفصل الذي بينه الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

٥- القول بأن إخلاف الوعيد جائز، والاحتجاج عليه ببيت كعب، كما تقدم نقله. وهذا تأويل ضعيف، وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩] تضعف من يقول: إن إخلاف الوعيد جائز، فإن قوله يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ بعد قوله وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ دليل على أن وعيده لا يبدل، كما لا يبدل وعده.

❁❁❁

المطلب الثاني

أثرها على زيادة الإيمان ونقصانه

النصوص:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: ٣١].

قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ٧٦].

قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣].

الأحاديث منها:

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا له إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا له إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير**»[(١)] وضع الإمام البخاري هذا الحديث تحت باب زيادة الإيمان ونقصانه.

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٢٤ برقم: ٤٤ ومسلم ١/ ١٢٢ برقم: ٤٨٩.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»(١).

والأحاديث التي فيها نفي الإيمان، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن أحدكم**» الحديث، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» الحديث(٢).

فهم السلف لهذه النصوص وأمثالها:

أولا: أجمع السلف الصالح على أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية:

قال أبو الحسن الأشعري: «وأجمعوا على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»(٣).

وقال شيخ الإسلام: «وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»(٤).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مذهب جماعة أهل السنة، من سلف الأمة وخلفها، أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص»(٥).

وقال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ٥٠ برقم: ١٨٦.

(٢) أخرجه البخاري ٢/ ٨٧٥ برقم: ٢٣٤٣ ومسلم ١/ ٢٤٨ برقم: ٢١١.

(٣) الرسالة إلى أهل الثغر ص٢٧٢.

(٤) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٧٢.

(٥) شرح صحيح البخاري ١/ ٥٦.

قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[(١)].

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان... وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية»[(٢)].

ثانيا: صرح السلف أن قولهم: الإيمان يزيد، وينقص ناتج عن فهمهم للنصوص:

قال الإمام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة»[(٣)].

قال أبو عبيد: حدثنا عن ميمون بن مهران، أنه رأى جارية تغني، فقال: «من زعم أن هذه على إيمان مريم بنت عمران فقد كذب، وكيف يسع أحدا أن يشبه البشر بالملائكة، وقد عاتب الله المؤمنين في غير موضع من كتابه أشد العتاب، وأوعدهم أغلظ الوعيد، ولا يعلم فعل بالملائكة من ذلك

---

(١) التمهيد ٩/ ٢٣٨.

(٢) شرح السنة ١/ ٧٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٢.

شيئا، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ ﴾ [البقرة: ٢٧٨- ٢٧٩]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ ﴾ [الصف: ٢]، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ﴾ [الحديد: ١٦]، فأوعدهم النار في آية، وآذنهم بالحرب في أخرى، وخوفهم بالمقت في ثالثة، واستبطأهم في رابعة، و في هذا كله يسميهم مؤمنين، فما تشبه هؤلاء من جبريل وميكائيل مع مكانهما من الله؟ إني لخائف أن يكون هذا من الاجتراء على الله، والجهل بكتابه»[(١)].

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويزيد وينقص. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ ٤ ﴾ [الفتح: ٤]. ﴿ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ ﴾ [الكهف: ١٣]، قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ ٧٦ ﴾ [مريم: ٧٦]، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ ﴾ [محمد: ١٧]، قال تعالى: ﴿ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا ٣١ ﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ

(١) كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٢١.

أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]. قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تلا البخاري الآيات التي ذكر فيها زيادة الإيمان وقد استدل بها على زيادة الإيمان أئمة السلف قديما، منهم: عطاء بن أبي رباح فمن بعده»(١).

مخالفة الخلف لفهم السلف:

أولا: المبتدعة على اختلاف أسمائهم قالوا: إن الإيمان لا يزيد، ولا ينقص، فمن قال: إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة ونحوهم، وأخرج الأعمال من مسمى الإيمان قال: إن التصديق لا يمكن أن يدخله الزيادة، وأما إذا نقص فيكون شكا وكفرا.

وأما من أدخل الأعمال في مسمى الإيمان من المبتدعة كالمعتزلة والخوارج فقالوا: الإيمان شيء واحد فإذا ذهب بعضه ذهب كله فإذا نقص أدى إلى الكفر وليس لديهم حجج شرعية، وإنما عندهم شبهات عقلية كما ترى(٢).

ثانيا: صرح المبتدعة أن مخالفتهم السلف الصالح ناتج عن مخالفة فهمهم لفهم السلف الصالح للنصوص، فقالوا:

---

(١) فتح الباري لابن رجب ١/ ٨.

(٢) انظر عقيدة الإمام ابن عبدالبر في التوحيد والإيمان ص٥٠٠.

إن الزيادة المذكورة في هذه الآيات هي باعتبار زيادة المؤمن به. أما بعد كمال الدين، فلا يتصور أن تكون هناك زيادة كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

وجه مخالفتهم السلف في فهم النصوص: أن السلف فسروا النصوص بزيادة الإيمان، وأن الخلف فسروها بزيادة المؤمن به.

والرد على هذه الشبهة بأن يقال:

أولا: هذا الفهم مخالف لفهم السلف الصالح لهذه النصوص فيكون مردودا.

ثانيا: يقال: إنه بعد أن اكتمل الدين فلا يزاد فيه ولا ينقص منه، ولكن إيمان المؤمنين لهذا الدين يزيد وينقص فالكمال راجع إلى كمال الشرع والوضع، لا إلى كمال أداء المؤدين له وقيام القائمين به[(١)]. قال الإمام ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: ٣١]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وكَيْفَ يُقَالُ في هذه الآية والتي قَبْلَهَا إِنَّ الزِّيَادَةَ بِاعْتِبَارِ زِيَادَةِ الْمُؤْمِنِ به؟ فَهَلْ في قَوْلِ النَّاسِ ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

(١) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٦٢.

﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ زِيَادَة مَشْرُوعٍ؟ وَهَلْ فِي إِنْزَالِ السَّكِينَة على قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ زِيَادَة مَشْرُوعٍ؟ وَإِنَّمَا أَنْزَلَ الله السَّكِينَة فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَرْجِعَهُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَة لِيَزْدَادُوا طُمَأْنِينَة وَيَقِينًا، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: ١٦٧]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤]. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٥]. وَقَدْ وَصَفَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النِّسَاءَ بِنُقْصَانِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ وَلَدِه وَوَالِدِه وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**». وَالْمُرَادُ نَفْي الْكَمَالِ، وَنَظَائِرُه كثيرة، وَحَدِيثُ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَحَدِيثُ الشَّفَاعَة، وأنه يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِه أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّة مِنْ إِيمَانٍ. فَكَيْفَ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا: إِنَّ إِيمَانَ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سَوَاءٌ؟ وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِمَعَانٍ أُخَرَ غَيْرِ الْإِيمَانِ؟! وَكَلَامُ الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي هَذَا المعنى كَثِيرٌ أَيْضًا. منه: قَوْلُ أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِنْ فِقْه الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَاهَدَ إِيمَانَه وَمَا نَقَصَ منه، وَمِنْ فِقْه الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَيَزْدَادُ هُوَ أَمْ يَنْقُصُ.

وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لِأَصْحَابِه: «هَلُمُّوا نَزْدَدْ إِيمَانًا»، فَيَذْكُرُونَ الله عَزَّوَجَلَّ.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ فِي دُعَائِه: «اللَّهُمَّ زِدْنَا إِيمَانًا وَيَقِينًا

وَفِقْهًا». وَكَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لِرَجُلٍ: «اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَة». وَمِثْلُه عَنْ عبدالله بْنِ رَوَاحَة.

وَصَحَّ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ: إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِه، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ إِقْتَارٍ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ». ذكره البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صَحِيحِه. وفي هَذَا الْقدرِ كِفَايَة، وَبِالله التَّوْفِيقُ [(١)].

❁❁❁

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص٣٢٨.

المطلب الثالث

أثرها على العلاقة بين الإسلام والإيمان

النصوص منها:

قال تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات: ١٤].

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدٌ بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحدٌ حتى جلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال: فأخبرني عن أماراتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبث مليًا ثم قال يا عمر

أتدري من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»[(١)].

الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند، وأبو يعلى وابن أبي شيبة في المصنف عن أنس قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: الإسلام علانية، والإيمان في القلب، ثم يشير بيده إلى صدره ويقول: التقوى هاهنا...»[(٢)].

وحديث وقد عبد القيس عن أبي جمرة نصر بن عمران الضبعي قال كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس ومنهم من قال وكان يقعدني معه على سريره فأتته امرأة تسأله عن نبيذ الجر فقال: إن وفد عبد القيس أتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوفد أو من القوم قالوا ربيعة قال مرحبًا بالقوم أو بالوفد - غير خزايا ولا ندامى قال فقالوا يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة وإن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلاً في الشهر الحرام فمرنا بأمرٍ فصل نخبر به من

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داوود الطيالسي وابن معين وأبو حاتم، وضعفه آخرون، ونظراً للخلاف في علي بن مسعدة فقد اختلف أهل العلم في ثبوت الحديث، فقد حسنه حسين أسد في تحقيق مسند أبي يعلى، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع، والأرناؤوط في تحقيق مسند أحمد، وقد احتج بالحديث بعض العلماء الأجلاء منهم شيخ الإسلام في الفتاوى وابن كثير في التفسير وابن رجب في جامع العلوم والحكم وابن أبي العز في شرح الطحاوية وابن القيم في حادي الأرواح.

وراءنا وندخل به الجنة قال فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده قال: (هل تدرون ما الإيمان بالله) قالوا الله ورسوله أعلم قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمساً من المغنم ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير قال شعبة وربما قال المقير وقال احفظوا وأخبروا به من وراءكم»[(١)].

وفي حديث نصر بن علي نحوه وقال أنهاكم عما ينبذ في الدباء والنقير والحنتم والمزفت وزاد في حديث عبيد الله بن معاذ عن أبيه قال: وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأشج أشج عبد القيس إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن رجلاً سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي الإسلام خير. قال: أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[(٢)].

وفي حديث عبدالله بن عبيدالله بن عمير عن أبيه عن جده أنه قيل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما الإسلام؟ قال: إطعام الطعام وطيب الكلام قيل فما الإيمان، قال: السماحة والصبر[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري ٥/ ٢٣٠٢ برقم ٥٨٨٢، ومسلم ١/ ٤٧ برقم: ١٦٩.

(٣) وصححه الألباني

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن الحديث»[(١)].

وعن سعد بن أبي وقاص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطى رجالا، ولم يعط رجلا الحديث[(٢)].

فهم السلف لهذه النصوص وأمثالها:

بين فهم السلف الصالح لهذه النصوص الإمام الحافظ ابن رجب، فقال: «القول الصواب الذي عليه أكثر العلماء من السلف ومن بعدهم، حتى قيل: إنه لا يعلم عن السلف في ذلك خلاف هو القول بالتفصيل وهو: اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده، وإن قرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده، ودل الآخر على الباقي، وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة»[(٣)].

ثم يقول ابن رجب بعدها: «وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة. قال أبو بكر الإسماعيلي في رسالته إلى أهل الجبل: قال كثير من أهل السُّنَّة والجماعة إن الإيمان قول وعمل، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله. إذا ذكر كل اسم على حدته مضموماً إلى الآخر، فقيل المؤمنون والمسلمون جميعاً مفردين أريد بأحدهما معنى لم يرد به الآخر، وإذا ذكر أحد الاسمين شمل الكل وعمهم. وقد ذكر هذا المعنى أيضاً الخطابي في

---

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه البخاري ١/ ١٨ برقم: ٢٧ ومسلم ١/ ٩١ برقم: ٣٩٦.

(٣) جامع العلوم والحكم ١/ ٦٤. وانظر معالم السنن للخطابي ٣/ ٥٣٤ ط/ مكتبة المعارف.

«معالم السُنن» وتبعه عليه جماعة من العلماء بعده ثم يقول: «وقد نقل هذا التفريق بينهما عن كثير من السلف: منهم قتادة وداود ابن أبي هند وأبو جعفر الباقر والزهري وحماد بن زيد وابن مهدي وشريك وابن أبي ذئب وأحمد بن حنبل وأبو خيثمة ويحيى بن معين وغيرهم... وبهذا التفصيل الذي ذكرناه يزول الاختلاف فيقال: إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ، وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق. والتحقيق في الفرق بينهما أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته، والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له» ويدلُّ على صحَّةِ ذلك أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَّرَ الإيمانَ عند ذكرِه مفرداً في حديث وفد عبدِالقيسِ بما فسّر به الإسلامَ المقرونَ بالإيمانِ في حديثِ جبريلَ، وفسَّر في حديثٍ آخرَ الإسلامَ بما فسّر به الإيمانَ، كما في «مسند الإمام أحمد».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما إذا قيد الإيمان فقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح؛ فإنه قد يراد به ما في القلب من الإيمان باتفاق الناس»[(١)].

مخالفة بعض العلماء لفهم السلف:

ومنهم الإمام محمد بن نصر المرزي فقال: وَقَالَتْ «طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ» وَهُمْ الْجُمْهُورُ الْأَعْظَمُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ: الْإِيمَانُ الَّذِي دَعَا اللهُ الْعِبَادَ إلَيْهِ وَافْتَرَضَهُ عَلَيْهِمْ هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي جَعَلَهُ دِينًا وَارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ وَدَعَاهُمْ إلَيْهِ وَهُوَ ضِدُّ الْكُفْرِ الَّذِي سَخِطَهُ فَقَالَ تعالى: ﴿وَلَا

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٦٢.

يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وَقَالَ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، فَمَدَحَ اللهُ الْإِسْلَامَ بِمِثْلِ مَا مَدَحَ بِهِ الْإِيمَانَ. وَجَعَلَهُ اسْمَ ثَنَاءٍ وَتَزْكِيَةٍ فَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ أَسْلَمَ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ وَهُدًى وَأَخْبَرَ أَنَّهُ دِينُهُ الَّذِي ارْتَضَاهُ وَمَا ارْتَضَاهُ فَقَدْ أَحَبَّهُ وَامْتَدَحَهُ أَلَا تَرَى أَنَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ وَرُسُلَهُ رَغِبُوا فِيهِ إلَيْهِ وَسَأَلُوهُ إيَّاهُ فَقَالَ إبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠]، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٦] إلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٧]، فَحُكْمُ اللهِ بِأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ فَقَدْ اهْتَدَى وَمَنْ آمَنَ فَقَدْ اهْتَدَى فَسَوَّى بَيْنَهُمَا. قَالَ: وَقَدْ ذَكَرْنَا تَمَامَ الْحُجَّةِ فِي أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الْإِيمَانُ وَأَنَّهُمَا لَا يَفْتَرِقَانِ وَلَا يَتَبَايَنَانِ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ هَذَا فَكَرِهْنَا إعَادَتَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَرَاهَةَ التَّطْوِيلِ وَالتَّكْرِيرِ غَيْرَ أَنَّا سَنَذْكُرُ مِنْ الْحُجَّةِ مَا لَمْ نَذْكُرْهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَنُبَيِّنُ خَطَأَ تَأْوِيلِهِمْ وَالْحُجَجَ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا مِنْ

الْكِتَابِ وَالْأَخْبَارِ عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ»[(١)] وهو قول الإمام البخاري، وابن عبدالبر رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ومقصوده (محمد بن نصر المروزي) أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر وهذا لا يعرف عن أحد من السلف، وإن قيل: هما متلازمان، فالمتلازمان لا يجب أن يكون هذا هو مسمى هذا، وهو لم ينقل عن احد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا أئمة الإسلام المشهورين أنه قال: مسمى الإسلام هو مسمى الإيمان كما نصر، بل ولا عرفت أنا أحدا قال ذلك من السلف»[(٢)].

❁❁❁

(١) تعظيم قدر الصلاة ٢/ ٥٣١.

(٢) الإيمان لابن تيمية ١/ ٢٨٧

المطلب الرابع

أثرها على شعب الإيمان

النصوص:

قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١). وقد اعتنى الأئمة بهذا الحديث واعتبروه أصلاً لإدخال الطاعات في الإيمان وعدوها من شعبه وألفوا في ذلك بعض المصنفات، ومن أغزرها «المنهاج في شعب الإيمان» للإمام أبي عبدالله الحليمي واختصره الإمام البيهقي في كتاب «الجامع لشعب الإيمان» مع عنايته بالأسانيد خلافاً للحليمي، واختصر كتاب البيهقي الإمام القزويني وجميعهم عدوا سبعاً وسبعين شعبة من شعب الإيمان مع شرحها وممن اعتنى بحصر شعب الإيمان الإمام اللالكائي فقد ذكر في كتابه (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) اثنتين وسبعين خصلة من خصال الإيمان وذكر تحت كل خصلة ما يناسبها من الأحاديث.

---

(١) سبق تخريجه.

وعد الإمام ابن بطه في الإيمان سبعين شعبة سرداً دون ذكر أدلتها. وقال أبو حاتم بن حبان: تتبعت معنى هذا الحديث مدة وعددت الطاعات فإذا هي تزيد على العدد شيئا كثيراً فرجعت إلى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين فرجعت إلى كتاب الله فقرأته بالتدبر وعددت كل طاعة عدها الله تعالى من الإيمان فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فضممت الكتاب إلى السنن وأسقطت المعاد فإذا هي كل شيء عده الله تعالى ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان تسع وسبعين شعبة لا يزيد عليها ولا تنقص فعلمت أن مراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكتاب والسنن.

وعدها أيضـًا الحافظ ابن حجر فقال: هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن، فأعمال القلب فيه المعتقدات والنيات وتشتمل على أربع وعشرين خصلة ثم ذكرها وأعمال اللسان وتشتمل على سبع خصال ثم ذكرها وأعمال البدن وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة ثم ذكرها، إلى أن قال :فهذه تسع وستون خصلة ويمكن عدها تسعـًا وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر. والله أعلم.

وأخيراً ننقل كلامـًا للقاضي عياض قال فيه: وبقي بين هذين الطرفين – أي الشهادتان وإماطة الأذى – أعداد لو تكلف المجتهد تحصيلها بغلبة الظن وشدة التتبع لأمكنه وقد فعل ذلك بعض من تقدم، وفي الحكم بأن ذلك مراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صعوبة، ثم إنه لا يلزم معرفة أعيانها، ولا

يقدح جهل ذلك في الإيمان، إذ أصول الإيمان وفروعه معلومة محققة والإيمان بأنها هذا العدد واجب في الجملة.

فهم السلف لهذه النصوص:

بين الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهم السلف الصالح لهذه النصوص حيث بوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: باب أمور الإيمان واستدل بهذه النصوص. وقال ابن رجب: «وقد سأل أبو ذر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإيمان، فتلا عليه هذه الآية وهذا يدل على أن الخصال المذكورة فيها هي خصال الإيمان المطلق، فإذا أطلق الإيمان دخل فيه كل ما ذكر في هذه الآية كما سأل السائل عن الإيمان فتلا عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية»[(١)].

كما بوب الإمام أبو داوود بقوله: باب رد الإرجاء. وفي نسخة الخطابي: باب الرد على المرجئة، وأورد تحته حديث الشعب قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم بمعنى ذي شعب وأجزاء لها أعلى وأدنى، وأفعال وأقوال، وزيادة ونقصان فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبها، وتستوفي جملة أجزائها كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء والاسم يتعلق ببعضها والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها ويدل على صحة ذلك قوله: الحياء شعبة من الإيمان فأخبر أن الحياء أحد الشعب وفيه إثبات التفاضل في الإيمان وتباين المؤمنين في درجاتهم».

---

(١) فتح الباري لابن رجب ١/ ٢٦.

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان أصل له شعب متعددة، وكل شعبة تسمى إيمانـًا، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصوم، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل.. وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتـًا عظيمـًا، منها ما يلحق بشعبة الشهادة، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى، ويكون إليها أقرب، وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان، فشعب الكفر كفر، والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر، والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر... والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وشعب الإيمان قسمان: قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعلية. ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية. فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً - وهي شعبة من شعب الكفر- فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل»[(٢)].

وقال الإمام ابن عبدالبر: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان

---

(١) كتاب الصلاة ص٣٣٢.

(٢) المرجع السابق.

قول وعمل ولا عمل إلا بنية والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها عندهم إيمان إلا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيمانا قالوا: إنما الإيمان التصديق والإقرار ومنهم من زاد والمعرفة...»[(١)].

مخالفة الخلف لفهم السلف:

أولا: قولهم: يقول شيخ الإسلام: وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج، والمرجئة، والمعتزلة والجهمية، وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شيئا واحدا إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه، فلم يقولوا: بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان**»، ثم قال الخوارج والمعتزلة: الطاعة كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان، فذهب سائره فحكموا أن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان. وقالت المرجئة والجهمية: ليس الإيمان إلا شيئا واحدا لا يتبعض: إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيها الأعمال صارت جزء منه فإذا ذهب ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان وهذا قول المعتزلة والخوارج[(٢)].

وقال في موضع آخر: «وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب

---

(١) التمهيد ٩/ ٢٣٥.

(٢) شرح حديث جبريل (الإيمان الأوسط) ٢/ ٣٨٣.

كله فهذا ممنوع وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع»[(١)].

ثانيا: فهمهم للنصوص التي استدل بها السلف «والمرجئة المتكلمون منهم، والفقهاء منهم يقولون: إن الأعمال قد تسمى إيمانا مجازا؛ لأن العمل ثمرة الإيمان ومقتضاه؛ ولأنها دليل عليه. ويقولون: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**» مجاز.

وجه مخالفتهم السلف في فهم النصوص:

أن السلف حملوا النصوص الدالة على شعب الإيمان على الحقيقة، والخلف حملوها على المجاز.

النقد:

أولا: هذا الفهم مخالف لفهم السلف وبالتالي مردود.

ثانيا: الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

أحدها: أن الحقيقة الجامعة لأمور سواء كانت في الأعيان والأعراض. إذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، وسواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك، لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها.

الثاني :أن ما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطابقة لذلك، فإن الواحد من العشرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة، بل قد تبقى التسعة، فإذا زال أحد

(١) المرجع السابق ص٤٢٨.

جزئي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر، لكن أكثر ما يقولون زالت الهيئة الاجتماعية، وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب كما يزول اسم العشرة والسكنجبين.

الثالث: أن كون الشيء المركب لم يبق على تركيبه بعد زوال شيء من أجزائه منه لا نزاع فيه بين العقلاء، ولا يدعي عاقل أن الإيمان أو الصلاة أو الحج أو غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور والمشتملة على أجزاء أنه إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه، ولا يقول أحد أن الشجرة أو الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت، ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعـًا، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[(١)]، فالمجتمعة الخلق بعد الجدع لا تبقى مجتمعة، ولكن لا يلزم زوال بقية الأجزاء، فدعواهم أنه إذا زال بعض المركب زال بعضه الآخر ليس بصواب، وإن كان يسلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله، وأن الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كانت.

الرابع: أن المركبات في ذلك على وجهين:

أحدهما: ما يكون التركيب شرطـًا في إطلاق الاسم عليه.

ثانيهما: ما لا يكون التركيب شرطـًا في إطلاق الاسم عليه .

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٤٦٥ برقم: ١٣١٩ ومسلم ٤/ ٢٠٤٦ برقم: ٢٢.

ومثال الأول: السكنجبين والعشرة، فإن هذا النوع يزول عنه اسمه عند زوال بعض أجزائه منه، ولا يطلق الاسم إلا على الهيئة المركبة مجتمعة.
ومثال الثاني: جميع المركبات المتشابهة الأجزاء، وكذلك كثير من المختلفة الأجزاء فإن المكيلات والموزونات تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة، وكذلك التراب والماء ونحو ذلك.

وكذلك لفظ العبادة والطاعة والخير والحسنة والإحسان والصدقة والعلم ونحو ذلك مما يدخل فيه أمور كثيرة يطلق الاسم على قليلها وكثيرها، وعند زوال بعض الأجزاء وبقاء بعض الأجزاء، وكذلك لفظ القرآن فيقال على جميعه وعلى بعضه، ولو نزل قرآن أكثر من هذا لسمى قرآنًا، وكذلك لفظ الذكر والدعاء يقال للقليل والكثير وكذلك لفظ الجبل والنهر والبحر والدار والقرية ونحو ذلك يقال على الجملة المجتمعة، ثم ينقص كثير من أجزائها والاسم باق.

فإذا كانت المركبات على نوعين، بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولهم، أنه إذا زال جزؤه لزم أن يزول الاسم.

الخامس: أن هذا القول مخالف لنصوص الوحي الدالة على أن للإيمان أجزاء وأبعاضًا.

مثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[(١)] ومن المعلوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان، ومثل قوله:

(١) سبق تخريجه.

«**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان**»[(١)] فأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه، وأن ذاك من الإيمان، فعلم أن بعض الإيمان يزول ويبقى بعضه، وهذا ينقض مآخذهم الفاسدة.

السادس :أن ما يجب على العباد من شرائع وأحكام يختلف باختلاف حال نزول الوحي من السماء وبحال المكلف في البلوغ وعدمه، وهذا مما يتنوع به نفس التصديق، ويختلف حاله باختلاف القدرة والعجز وغير ذلك من أسباب الوجوب، وهذه يختلف بها العمل أيضًا. ومعلوم أن الواجب على كل من هؤلاء لا يماثل الواجب على الآخر. فإذا كان نفس ما وجب من الإيمان في الشريعة الواحدة يختلف ويتفاضل، وإن كان بين جميع هذه الأنواع قدر مشترك موجود في الجميع كالإقرار بالخالق، وإخلاص الدين له والإقرار برسله واليوم الآخر على وجه الإجمال. فمن المعلوم أن بعض الناس إذا أتى ببعض ما يجب عليه دون بعض كان قد تبعض ما أتى به من الإيمان، كتبعض سائر الواجبات.

لكن بقي أن يقال: إن هذا البعض الآخر الزائل إما أن يكون شرطًا في ذلك البعض وقد لا يكون شرطًا فيه، فالشرط كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه، أو ببعض الرسل وكفر ببعضهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النساء: ١٥٠].

---

(١) سبق تخريجه.

وقد يكون البعض المتروك ليس شرطًا في وجود الآخر ولا قبوله كفعل بعض الكبائر وترك بعض الواجبات فيما دون الكفر. وحينئذ فقد يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق، وبعض شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر.

السابع: أن كون الإنسان قد يجتمع فيه إيمان ونفاق وإيمان وبعض شعب الكفر دلت عليه نصوص صحيحة صريحة.

كما في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

وفي الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة نفاق**»(٢).

وفي الصحيحين عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت**»(٤).

وفي الصحيحين عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا وليتبوأ مقعده من**

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٢١ برقم: ٣٤ ومسلم ١/ ٥٦ برقم: ٢١٩.

(٢) أخرجه مسلم ٦/ ٥٩ برقم: ٥٠٤٠

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٢٧ برقم: ٤٨ ومسلم ١/ ٥٧ برقم: ٣٠.

(٤) أخرجه مسلم ١/ ٥٨ برقم: ٢٣٦.

النار، ومن رمى رجلاً بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه»[(١)]. وغيرها من النصوص مما قد يطول ذكره.

الثامن: أن أجزاء الإيمان مختلفة متفاوتة، فمنها ما يزول الإيمان كلية بزوالها كفعل أمر كفري ناقض للإيمان، ومنها ما يزول كمال الإيمان الواجب بزوالها كفعل كبيرة من الكبائر، ومنها ما يزول كمال الإيمان المستحب بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق.

مثل الصلاة فإن فيها أجزاء تنقص بزوالها عن كمال الاستحباب، وفيه أجزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمال الواجب مع الصحة في مذهب أبي حنيفة وأحمد ومالك، وفيها ماله أجزاء إذا زالت جبر نقصها بسجود السهو، وأمور ليست كذلك، فقد رأيت أجزاء الشيء تختلف أحكامها شرعاً وطبعاً.

التاسع: أن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة، ولا تتلازم عند الضعف فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨١]. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٥٤٢ برقم: ٤٠٧١ ومسلم ١/ ٥٧ برقم: ٢٢٩.

وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فيكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة، لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك. فقال لسعد بن معاذ :كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحمية، ولهذه الشبهة سمى عمر حاطبًا منافقًا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: إنه شهد بدراً فكان عمر متأولاً في تسميته منافقًا للشبهة التي فعلها. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه، إنما أنت منافق، تجادل عن المنافقين هو من هذا الباب، وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق، وإن كان قال ذلك لما رأي فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين.

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعًا واحداً، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق. وبهذا يعلم فساد شبهتهم وزعمهم أن الإيمان كل واحد لا يتجزأ إذا ذهب بعضه ذهب كله، وأنه كرقم عشرة إذا زال بعض أجزائه زال الاسم عنه، وأنه لا يجتمع في القلب إيمان ونفاق وإيمان وبعض شعب الكفر.

❁ ❁ ❁

المطلب الخامس

أثرها على الاستثناء في الإيمان

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٢- ٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٢﴾ [النور: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى المقبرة فقال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لا حقون وددت إني قد رأيت إخواننا**»(١).

قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا**»(٢).

فهم السلف لهذا النصوص وأمثالها:

قال الإمام أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: باب الاستثناء في الإيمان:

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦٩ وابن حبان في صحيحه ١٦/ ٢٢٤ برقم ٧٢٤٠.

(٢) أخرجه أحمد ٤٣/ ٦٦ برقم: ٢٠٢٦٦.

قال أبو عبيد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن أبي الأشهب، عن الحسن قال: قال رجل عند ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنا مؤمن فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أفأنت من أهل الجنة؟» فقال: أرجو، فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أفلا وكلت الأولى كما وكلت الأخرى؟»[(١)].

وقال أبو عبيد: حدثنا عبدالرحمن بن مهدي، عن سفيان بن سعيد، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبدالله فقال: بينا نحن نسير إذ لقينا ركبا، فقلنا: من أنتم؟ فقالوا: نحن المؤمنون فقال: «أولا قالوا: إنا من أهل الجنة؟»[(٢)].

وقال أبو عبيد: حدثنا يحيى بن سعيد، ومحمد بن جعفر كلاهما عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن إبراهيم، عن علقمة قال: قال رجل عند عبدالله: أنا مؤمن فقال عبدالله: «فقل: إني في الجنة ولكن آمنا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله»[(٣)].

وقال أبو عبيد: حدثنا عبدالرحمن، عن سفيان، عن محل بن محرز قال: قال لي إبراهيم: «إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله»[(٤)].

وقال أبو عبيد: حدثنا عبدالرحمن، عن سفيان، عن معمر، عن ابن

---

(١) كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص١١.

(٢) المرجع السابق ص١٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

طاوس، عن أبيه، قال: «إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: آمنت بالله، وملائكته وكتبه، ورسله»[(١)].

وقال أبو عبيد: حدثنا عبدالرحمن، عن حماد بن زيد، عن يحيى بن عتيق، عن محمد بن سيرين، قال: «إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط....»[(٢)].

وقال أبو عبيد: حدثنا جرير بن عبدالحميد، عن منصور، عن إبراهيم، قال: قال رجل لعلقمة: أمؤمن أنت؟ فقال: «أرجو إن شاء الله»[(٣)] قال أبو عبيد: ولهذا كان يأخذ سفيان ومن وافقه الاستثناء فيه، وإنما كراهتهم عندنا أن يبتوا الشهادة بالإيمان مخافة ما أعلمتكم في الباب الأول من التزكية والاستكمال عند الله، وأما على أحكام الدنيا فإنهم يسمون أهل الملة جميعا مؤمنين، لأن ولايتهم وذبائحهم وشهاداتهم ومناكحتهم، وجميع سنتهم إنما هي على الإيمان، ولهذا كان الأوزاعي يرى الاستثناء وتركه جميعا واسعين.

وقال أبو عبيد: حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، قال: «من قال: أنا مؤمن، فحسن ومن قال: أنا مؤمن إن شاء الله فحسن؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]، وقد علم أنهم داخلون وهذا عندي وجه حديث عبدالله حين أتاه صاحب معاذ فقال: ألم تعلم أن الناس كانوا على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أصناف: مؤمن ومنافق وكافر، فمن أيهم كنت؟ قال: من المؤمنين إنما نراه أراد: أني كنت من أهل هذا الدين لا من الآخرين فأما الشهادة بها عند الله فإنه كان عندنا أعلم بالله وأتقى له من أن يريده، فكيف يكون ذلك، والله يقول ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢]، والشاهد على ما نظن أنه كان قبل هذا لا يقول: أنا مؤمن على تزكية ولا على غيرها، ولا نراه أنه كان ينكره على قائله بأي وجه كان، إنما كان يقول: آمنت بالله وكتبه ورسله، لا يزيد على هذا اللفظ، وهو الذي كان أخذ به إبراهيم وطاوس وابن سيرين ثم أجاب عبد الله إلى أن قال: أنا مؤمن، فإن كان الأصل محفوظا عنه فهو عندي على ما أعلمتك، وقد رأيت يحيى بن سعيد ينكره، ويطعن في إسناده، لأن أصحاب عبد الله على خلافه وكذلك نرى مذهب الفقهاء الذين كانوا يتسمون بهذا الاسم بلا استثناء، فيقولون: نحن مؤمنون، منهم عبدالرحمن السلمي، وإبراهيم التيمي، وعون بن عبدالله، ومن بعدهم مثل: عمر بن ذر، والصلت بن بهرام، ومسعر بن كدام، ومن نحا نحوهم، إنما هو عندنا منهم على الدخول في الإيمان لا على الاستكمال، ألا ترى أن الفرق بينهم وبين إبراهيم وبين ابن سيرين وطاوس إنما كان أن هؤلاء كانوا به أصلا، وكان الآخرون يتسمون به فأما على

مذهب من قال: كإيمان الملائكة والنبيين فمعاذ الله، ليس هذا طريق العلماء، وقد جاءت كراهيته مفسرة عند عدة منهم.

وقال أبو عبيد: حدثنا سعيد بن أبي مريم المصري، عن نافع، عن عمر الجمحي، قال: سمعت ابن أبي مليكة، وقال له إنسان: إن رجلا في مجالسك يقول: إن إيمانه كإيمان جبرائيل، فأنكر ذلك وقال: «سبحان الله والله قد فضل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الثناء على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين.

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، أو حدثت عنه، عن جويبر، عن الضحاك: أنه كان يكره أن يقول الرجل: «أنا على إيمان جبريل وميكائيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ»[(١)].

الخلاصة:

قالوا في الاستثناء في الإيمان إذا كان المراد بالإيمان ما في هذه الآية فنعم وبناء عليه قالوا: أن الاستثناء في الإيمان جائز ومشروع:

قال يحيى بن سعيد القطان: ما أدركت أحدا من أصحابنا، ولا بغيرنا إلا على الاستثناء[(٢)].

وقال البيهقي: «وقد روينا هذا - يعني الاستثناء في الإيمان - عن جماعة من الصحابة والتابعين والسلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين»[(٣)].

---

(١) كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص١٩.

(٢) السنة للخلال ٣/ ٥٩٥.

(٣) شعب الإيمان ١/ ٨٣ برقم: ٧٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما مذهب سلف أصحاب الحديث كابن مسعود وأصحابه، والثوري، وابن عيينة، وأكثر علماء الكوفة، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة، وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة؛ فكانوا يستثنون في الإيمان، وهذا متواتر عنهم». وقال: «والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة؛ أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه يجوز الاستثناء فيه»(١).

والذي حمل السلف على الاستثناء في الإيمان، ليس الشك في الإيمان وحاشاهم من ذلك.

وإنما حملهم على ذلك مآخذ:

المأخذ الأول: يفسره قول الإمام أحمد: «أذهب إلى حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في الاستثناء في الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل، والعمل الفعل، فقد جئنا بالقول، ونخشى أن نكون قد فرطنا في العمل، فيعجبني أن نستثني في الإيمان، وأقول: أنا مؤمن إن شاء الله»(٢).

مأخذ السلف في استثنائهم في الإيمان هو اعتبارهم أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله، وترك المحرمات كلها، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن، بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين

(١) كتاب الإيمان الكبير ص ٢٣٢.

(٢) السنة للخلال ٣/ ٦٠٠.

بفعل جميع ما أمروا به وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله ولا يدعي مسلم عاقل هذا لنفسه.

لهذا كان السلف يستثنون مخافة واحتياطًا أن لا يكونوا كملوا الأعمال وأتوا بها على وجهها المطلوب، فقول أنا مؤمن عندهم كقول أنا وليّ أو أنا تقيّ، ولا يجزم أحد أنه كمل مراتب التقوى، وأتم مراتب الولاية إلا من خسف عقله وقلّ خوفه، فكذلك لا يجزم أنه كمل مراتب الإيمان وأتم درجاته، فعندئذ لزمه الاستثناء في إيمانه مخافة واحتياطًا.

فهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون في الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم قول وعمل، والقول كل يجزم أنه أتى به، وأما العمل فلا، إذ الناس متفاوتون في القيام به تفاوتًا عظيمًا، وأقوال السلف في هذا كثيرة. وقال: «لو كان القول كما تقول المرجئة أن الإيمان قول ثم استثنى بعد على القول لكان هذا قبيحًا أن تقول لا إله إلا الله إن شاء الله ولكن الاستثناء على العمل»[(١)].

وقال: «لا نجد بداً من الاستثناء؛ لأنه إذا قال: أنا مؤمن، فقد جاء بالقول، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول. وقال له رجل: قيل لي أمؤمن أنت؟ قلت: نعم. هل علي في ذلك شيء هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد وقال: هذا كلام الإرجاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة: ١٠٦]، من هؤلاء؟ ثم قال أحمد:

(١) انظر مجموع الفتاوى ٨/ ٤٢١.

أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ فقال الرجل: بلى، قال فجئنا بالعمل؟ قال: لا. قال: كيف تعيب أن تقول إن شاء الله وتستثني»[(١)].

وعن الميموني أنه سأل أبا عبدالله عن قوله ورأيه في مؤمن إن شاء الله. قال: «أقول مؤمن إن شاء الله ومؤمن أرجو؛ لأنه لا يدري كيف أداؤه للأعمال على ما افترضت عليه أم لا»[(٢)].

قال شيخ الإسلام بعد أن ذكر طائفة من هذه النقول: ومثل هذا كثير في كلام أحمد.

وقال محمد بن حسين الآجري: «.. هذا طريق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين لهم بإحسان، عندهم أن الاستثناء في الأعمال، لا يكون في القول، والتصديق بالقلب، وإنما الاستثناء في الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان، والناس عندهم على الظاهر مؤمنون، به يتوارثون، وبه يتناكحون، وبه تجري أحكام ملة الإسلام، ولكن الاستثناء منهم على حسب ما بيناه لك، وبينه العلماء من قبلنا»[(٣)]. روي في هذا سنن كثيرة.

المأخذ الثاني: فهو الاستثناء بالنظر إلى تقبل الأعمال من الله تعالى، إذ إن من قام بالعمل وأتى به لا يدري هل تقبل منه عمله أو لا؟.

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) السنة للخلال ٣/ ٥٥٧.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٦٠١.

(٣) كتاب الشريعة ١/ ٣٠٦.

رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقد سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هؤلاء فقالت: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر، ويخاف أن يعذب؟ قال: «لا، يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»[(١)].

وهكذا كان دأب السلف الصالح من صحابة وتابعين، يقومون بالأعمال الكثيرة الجليلة، ثم يخافون أن لا تكون قد تقبلت منهم. قال ابن بطة العكبري: «فهذه سبيل المؤمنين وطريق العقلاء من العلماء لزوم الاستثناء والخوف والرجاء لا يدرون كيف أحوالهم عند الله ولا كيف أعمالهم أمقبولة هي أم مردودة؟ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]، وأخبر عن عبده الصالح سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في مسألته إياه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

أفلا تراه كيف يسأل الله الرضا منه بالعمل الصالح لأنه قد علم أن الأعمال ليست بنافعة وإن كانت في منظر العين صالحة إلا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ قد رضيها وقبلها، فهل يجوز لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجزم أن أعماله الصالحة من أفعال الخير وأعمال البر كلها مرضية وعنده زكية ولديه مقبولة، هذا لا يقدر على حتمه وجزمه إلا جاهل مغتر بالله، نعوذ بالله من الغرة بالله والإصرار على معصية الله.

---

(١) أخرجه الحميدي في المسند ١/ ١٣٢ برقم: ٢٧٥. انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥.

أما ترون رحمكم الله إلى الرجل من المسلمين قد صلى الصلاة فأتمها وأكملها وربما كانت في جماعة وفي وقتها وعلى تمام طهارتها فيقال له: صليت؟ فيقول: قد صليت إن قبلها الله، وكذلك القوم يصومون شهر رمضان؛ فيقولون في آخره: صمنا إن كان الله قد تقبله منا، وكذلك يقول من قدم من حجه بعد فراغه من حجه وعمرته، وقضاء جميع مناسكه إذا سئل عن حجه إنما يقول: قد حججنا ما بقي غير القبول، وكذلك دعاء الناس لأنفسهم ودعاء بعضهم لبعض: اللهم تقبل صومنا وصلاتنا وزكاتنا، وبذلك يلقى الحاج فيقال له: قبل الله حجك وزكى عملك، وكذا يتلاقى الناس عند انقضاء شهر رمضان فيقول بعضهم لبعض: قبل الله منا ومنك.

بهذا مضت سنة المسلمين وعليه جرت عادتهم وأخذه خلفهم عن سلفهم، فليس يخالف الاستثناء في الإيمان ويأبى قبوله إلا رجل خبيث مرئ ضال قد استحوذ الشيطان على قلبه نعوذ بالله منه.

وقال شيخ الإسلام: «وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه، لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على وجهه المأمور، وهذا أظهر الوجوه في استثناء من استثنى منهم في الإيمان وفي أعمال الإيمان كقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، وصليت إن شاء الله، لخوف أن لا يكون أتى بالواجب على الوجه المأمور به، لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق»[(١)]. فهذا وجه من أوجه الاستثناء عند السلف الصالح وهو النظر إلى التقبل، وهو في

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٩٦.

الحقيقة عند التأمل يعود إلى الوجه الأول، وهو النظر إلى الأعمال وتكميلها؛ لأن القبول متعلق بالإتيان بالأعمال على الوجه المطلوب، فمن كان عمله كذلك قبل منه.

لذا يقول شيخ الإسلام عقب ذكره لأثر سليمان بن حرب المتقدم: والقبول متعلق بفعله كما أمر. فكل من اتقى الله في عمله، ففعله كما أمر فقد تقبل منه لكن هو لا يجزم بالقبول، لعدم جزمه بكمال الفعل ثم ذكر حديث عائشة المتقدم.

المأخذ الثالث: في الاستثناء عند السلف، هو البعد عن تزكية النفس، وليس هناك تزكية للنفس وراء الشهادة لها بالإيمان، الذي قال الله في وصف أهله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [الأنفال: ٣]. فمن قال عن نفسه إنه مؤمن فقد زكاها بأعظم تزكية ونعتها بأكمل الصفات وأجملها، والله قد نهى عن ذلك في محكم تنزيله، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢ ﴾ [النجم: ٣٢].

قال الحسن في معنى الآية: «علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم فلا تبرئوها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها»[(١)].

فإذا علم أن الله قد نهى عباده عن الثناء على أنفسهم وتزكيتها، فأي

(١) الإبانة لابن بطة ٢/ ١٨٥ والدر المنثور ٧/ ٢٦٧.

وصف وثناء أبلغ من الثناء عليها بالإيمان وأي تزكية أعظم من هذا، يقول الخليل النحوي: إذا قلت إني مؤمن فأي شيء بقي.

ومن لطيف ما روي في هذا أن أعرابيًا سئل أمؤمن أنت؟ فقال: أزكي. نفسي. وتأمل كيف وفق هذا الأعرابي بفطرته السليمة إلى هذا الفقه المسدد، الذي لا يتهيأ مثله لمن شغل أوقاته بالفلسفات الكلامية والآراء المنطقية، التي هي أشد ما يكون خطراً على الإيمان والفطر. فينبغي للعقلاء أهل الإيمان أن يتجنبوا قول ما فيه تزكية نفوسهم، كما قال ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر بعض أوصاف أهل الإيمان: اعلموا رحمنا الله وإياكم أن من شأن المؤمنين وصفاتهم وجود الإيمان فيهم، ودوام الإشفاق على إيمانهم، وشدة الحذر على أديانهم، فقلوبهم وجلة من خوف السلب، قد أحاط بهم الوجل، لا يدرون ما الله صانع بهم في بقية أعمارهم، حذرين من التزكية، متبعين لما أمرهم به مولاهم الكريم حين يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: ٣٢].

فهذا مأخذ ثالث للسلف في الاستثناء، يستثنون مخافة تزكية النفس، فكلمة مؤمن تعدل عندهم كلمة بر وتقي ومن أهل الجنة. قال شيخ الإسلام: «فإذا قال الرجل: أنا مؤمن، بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة؛

فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون».

المأخذ الرابع: هو أن الاستثناء يجوز في الأمور المتيقنة التي لا شك فيها، وقد جاءت السنة بمثل هذا لما فيه من الحكمة قال الإمام أحمد: «قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حين وقف على المقابر: وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[(١)] وفي قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا**»[(٢)] وفي مسألة الرجل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدنا يصبح جنبًا يصوم فقال: «**إني لأفعل ذلك ثم أصوم**» فقال: إنك لست مثلنا أنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، فقال: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله**»،[(٣)] وهذا كثير وأشباهه على اليقين.

ودخل عليه شيخ فسأله عن الإيمان فقال: قول وعمل، فقال له: يزيد، قال: يزيد وينقص. فقال له: أقول مؤمن إن شاء الله؟ قال نعم، فقال له: إنهم يقولون لي: إنك شاك. قال: بئس ما قالوا. ثم خرج فقال: «ردوه»، فقال: «**أليس يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص**»، قال: نعم. قال هؤلاء مستثنون، قال له: كيف يا أبا عبدالله؟ قال: قل لهم: زعمتم أن الإيمان قول وعمل، فالقول قد أتيتم به، والعمل فلم تأتوا به، فهذا الاستثناء لهذا العمل، فقيل له: فيستثنى في الإيمان؟ قال: نعم، أقول: أنا مؤمن إن شاء الله، استثني

---

(١) أخرجه أحمد ١٣/ ٣٧٣ برقم: ٧٩٩٣.ومسلم ٢/ ٢٢٩ برقم: ٦٠٧.

(٢) أخرجه أحمد ٣٥/ ٢٥٣ برقم: ٢١٣٢٨.

(٣) أخرجه مسلم ٣/ ٢٣٨ برقم: ٢٦٤٩.

على اليقين لا على الشك، ثم قال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧] فقد علم تبارك وتعالى أنهم داخلون المسجد الحرام»[(١)].

قال شيخ الإسلام - معلقًا على كلام أحمد هذا منبهًا على ما فيه من فوائد -: «فقد بين أحمد في كلامه أنه يستثني مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه، يقوله بلسانه وقلبه لا يشك في ذلك، ويستثني لكون العمل من الإيمان وهو لا يتيقن أنه أكمله بل يشك في ذلك، فنفى الشك وأثبت اليقين فيما يتيقنه من نفسه وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده، وبيّن أن الاستثناء مستحب لهذا الثاني الذي لا يعلم هل أتى به أم لا، وهو جائز أيضًا لما يتيقنه، فلو استثنى لنفس الموجود في قلبه جاز كقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله لأرجو أن أكون أخشاكم لله وهذا أمر موجود في الحال ليس بمستقبل وهو أخشانا، فإنه لا يرجو أن يصير أخشانا لله، بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول أخشانا لله، كما يرجو المؤمن إذا عمل عملاً أن يكون الله تقبله منه ويخاف أن لا يكون تقبله منه»[(٢)].

وعن محمد بن الحسن بن هارون قال: «سألت أبا عبدالله عن الاستثناء في الإيمان؟ فقال: نعم الاستثناء على غير معنى شك مخافةً واحتياطًا للعمل

---

(١) السنة للخلال ٣/ ٥٩٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٥٢.

وقد استثنى ابن مسعود وغيره وهو مذهب الثوري، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾، وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأصحابه: «**إني لأرجو أن أكون أتقاكم لله**» وقال في البقيع: «عليه تبعث إن شاء الله»(١).

قال شيخ الإسلام موضحاً كلام الإمام أحمد هذا: «فقد بين أحمد أنه يستثني مخافة واحتياطاً للعمل، فإنه يخاف أن لا يكون قد كمل المأمور به، فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك يعني من غير شك مما يعلمه الإنسان من نفسه، وإلا فهو يشك في تكميل العمل الذي خاف أن لا يكون كمله، فيخاف من نقصه ولا يشك في أصله(٢).

وقال حرب بن إسماعيل سمعت أحمد يقول في التسليم على أهل القبور أنه قال: «**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**» قال: هذا حجة في الاستثناء في الإيمان؛ لأنه لا بدّ من لحوقهم ليس فيه شك، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، وهذه حجة أيضاً لأنه لابد داخلوه(٣).

فبهذه النقول الجليلة والأقوال الجميلة، يندفع عن أهل السنة والجماعة شناعة المشنعين من أهل البدع والأهواء بأنهم شكاكة، وحاشاهم رَحِمَهُمُٱللَّهُ، بل هم أهل دين وورع وعلم ويقين.

---

(١) السنة للخلال ٣/ ٥٩٤ برقم: ١٠٤٩.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٥٠.

(٣) السنة للخلال ٣/ ٥٩٤.

مخالفة الخلف فهم السلف:

وخالف السلف في الاستثناء طوائف:

منهم من أوجب الاستثناء في الإيمان ومن لم يستثن كان مبتدعا.

ومنهم من حرمه وأن الاستثناء محظور فإنه يقتضي الشك في الإيمان:

لخص الإمام ابن أبي العز أقوالهم، فقال: «مسألة الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْإِيمَانِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ، أي الرَّجُلَ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ الله. وَالنَّاسُ فيه على ثَلَاثَة أَقْوَالٍ: طَرَفَانِ وَوَسَطٌ، مِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَرِّمُه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُه بِاعْتِبَارٍ وَيَمْنَعُه بِاعْتِبَارٍ، وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ».

أَمَّا مَنْ يُوجِبُه فَلَهُمْ مَأْخَذَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عليه، وَالْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الله مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا بِاعْتِبَارِ الْمُوَافَاة وَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِه أنه يَكُونُ عليه، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ لَا عِبْرَة به، قَالُوا: وَالْإِيمَانُ الذي يَتَعَقَّبُه الْكُفْرُ فَيَمُوتُ صَاحِبُه كَافِرًا -: لَيْسَ بِإِيمَانٍ، كَالصَّلَاة التي أَفْسَدَهَا صَاحِبُهَا قَبْلَ الْكَمَالِ، وَالصِّيَامِ الذي يُفْطِرُ صَاحِبُه قَبْلَ الْغُرُوبِ، وَهَذَا مَأْخَذُ كَثِيرٍ مِنَ الْكُلَّابِيَّة وَغَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ أَنَّ الله يُحِبُّ فِي الْأَزَلِ مَنْ كَانَ كَافِرًا إِذَا عَلِمَ منه أنه يَمُوتُ مُؤْمِنًا، فَالصَّحَابَة مَا زَالُوا مَحْبُوبِينَ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ، وَإِبْلِيسُ وَمَنِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِه مَا زَالَ الله يُبْغِضُه وَإِنْ كَانَ لَمْ يَكْفُرْ بَعْدُ! وَلَيْسَ هَذَا قَوْلَ السَّلَفِ، وَلَا كَانَ يُعَلِّلُ بِهَذَا مَنْ يَسْتَثْنِي مِنَ السَّلَفِ فِي إِيمَانِه، وَهُوَ فَاسِدٌ، فَإِنَّ الله تعالى قَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]،

فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّهُمْ إِنِ اتَّبَعُوا الرَّسُولَ، فَاتِّبَاعُ الرَّسُولِ شَرْطُ الْمَحَبَّة، وَالْمَشْرُوطُ يَتَأَخَّرُ عَنِ الشَّرْطِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّة. ثُمَّ صَارَ إلى هَذَا الْقَوْلِ طَائِفَة غَلَوْا فيه، حتى صَارَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَسْتَثْنِي فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَة، يَقُولُ: صَلَّيْتُ إِنْ شَاءَ الله! وَنَحْوَ ذَلِكَ، يعني الْقَبُولَ. ثُمَّ صَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَسْتَثْنُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: هَذَا ثَوْبٌ إِنْ شَاءَ الله! هَذَا حَبْلٌ إِنْ شَاءَ الله! فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: هَذَا لَا شَكَّ فيه؟ يَقُولُونَ: نَعَمْ، لَكِنْ إِذَا شَاءَ الله أَنْ يُغَيِّرَه غيره!!.

الْمَأْخَذُ الثاني: أَنَّ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ مَا أَمَرَ الله به عَبْدَه كله، وَتَرْكَ مَا نَهَاه عنه كله، فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ: أَنَا مُؤْمِنٌ، بِهَذَا الِاعْتِبَارِ -: فَقَدْ شَهِدَ لِنَفْسِه أنه مِنَ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ، الْقَائِمِينَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرُوا به، وَتَرْكِ كُلِّ مَا نُهُوا عنه، فَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله الْمُقَرَّبِينَ! وَهَذَا مَعَ تَزْكِيَةِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِه، وَلَوْ كَانَتْ هذه الشَّهَادَة صَحِيحَة، لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَشْهَدَ لِنَفْسِه بِالْجَنَّة إِنْ مَاتَ على هذه الْحَالِ.

وَهَذَا مَأْخَذُ عَامَّة السَّلَفِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَثْنُونَ، وَإِنْ جَوَّزُوا تَرْكَ الِاسْتِثْنَاءِ، بمعنى آخَرَ.

وَيَحْتَجُّونَ أَيْضًا بِجَوَازِ الِاسْتِثْنَاءِ فِيمَا لَا شَكَّ فيه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَقَفَ على الْمَقَابِرِ: «**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لَاحِقُونَ**». وَقَالَ أَيْضًا: «**إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لله**» وَنَظَائِرُ هَذَا.

وَأَمَّا مَنْ يُحَرِّمُه، فَكُلُّ مَنْ جَعَلَ الْإِيمَانَ شَيْئًا وَاحِدًا، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي مُؤْمِنٌ، كَمَا أَعْلَمُ أَنِّي تَكَلَّمْتُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فقولي: أَنَا مُؤْمِنٌ، كَقَوْلِي: أَنَا مُسْلِمٌ، فَمَنِ اسْتَثْنَى فِي إِيمَانِه فَهُوَ شَاكٌّ فيه، وَسَمَّوُا الَّذِينَ يَسْتَثْنُونَ فِي إِيمَانِهِمُ الشَّكَّاكَة. وَأَجَابُوا عَنْ الِاسْتِثْنَاءِ الذي في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]، بِأَنَّه يَعُودُ إلى الْأَمْنِ و الْخَوْفِ، فَأَمَّا الدُّخُولُ فَلَا شَكَّ فيه! وَقِيلَ: لَتَدْخُلُنَّ جَمِيعُكُمْ أَوْ بَعْضُكُمْ، لأنه عَلِمَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَمُوتُ[1]!.

النقد:

أما الرد على شبهة الوعيدية، فقد سبق؛ لأن منعهم الاستثناء مبني على جعلهم الإيمان شيئا واحدا.

وأما الرد على شبهة المرجئة وهي قولهم: إنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عليه، وَالْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الله مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا بِاعْتِبَارِ الْمُوَافَاة وَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِه أنه يَكُونُ عليه، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ لَا عِبْرَة به، فنقول:

إن الإنسان إذا كان كافراً فهو عدو لله، ثم إذا آمن واتقى صار وليـًا لله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ

(١) العقيدة الطحاوية ص٣٥٣.

مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١] إلى قوله تعالى: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧]، وكذلك كان، فإن هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح، آمن أكثرهم، وصاروا من أولياء الله ورسوله، وابن كلاب وأتباعه بنوا ذلك على أن الولاية صفة قديمة لذات الله، وهي الإرادة والمحبة والرضا ونحو ذلك. فمعناها: إرادة إثابته بعد الموت، وهذا المعنى تابع لعلم الله، فمن علم أنه يموت مؤمنًا، لم يزل وليًا لله، لأنه لم يزل الله مريداً لإدخاله الجنة، وكذلك العداوة .

وأما الجمهور فيقولون:الولاية والعداوة وإن تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه، فهو سبحانه يرضى عن الإنسان ويحبه، بعد أن يؤمن ويعمل صالحًا، وإنما يسخط عليه ويغضب، بعد أن يكفر، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨]، فأخبر أن الأعمال أسخطته، وكذلك قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥]. قال المفسرون: أغضبونا، وكذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزمر: ٧]، وفي الحديث الصحيح الذي في البخاري عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: يقول الله تعالى: «**من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي**

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تَرَدُّدِي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه»[1] فأخبر أنه: لا يزال يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه، ثم قال: فإذا أحببته: كنت كذا، وكذا .

وهذا يبين أن حبه لعبده إنما يكون بعد أن يأتي بمحابه، والقرآن قد دل على مثل ذلك، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط، ولهذا جزم، وهذا ثواب عملهم، وهو إتباع الرسول، فأثابهم على ذلك بأن أحبهم، وجزاء الشرط وثواب العمل، ومسبب السبب لا يكون إلا بعده، لا قبله، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب:

---

(١) أخرجه البخاري ٥/ ٢٣٨٤ برقم: ٦١٣٧.

٧٠- ٧١]، ومثل هذا كثير، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾ [التوبة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصف: ٢- ٤]، وكانوا قد سألوه: لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه . وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠﴾ [غافر: ١٠]، فهذا يدل على أن حبه ومقته، جزاء لعملهم وأنه يحبهم إذا التقوا وقاتلوا؛ ولهذا رغبهم في العمل بذلك، كما يرغبهم بسائر ما يعدهم به، وجزاء العمل بعد العمل، وكذلك قوله: «إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ» فإنه سبحانه يمقتهم إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ [الفتح: ١٨]، فقوله: «لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ»، بين أنه رضي عنهم هذا الوقت، فإن حرف (إذ) ظرف لما مضى من الزمان، فعلم أنه ذاك الوقت رضي عنهم بسبب ذلك العمل، وأثابهم عليه، والمسبب لا يكون قبل سببه، والموقت بوقت لا يكون قبل وقته، وإذا كان راضيا عنهم من جهة، فهذا الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن إلا حينئذ، كما ثبت في الصحيح أنه يقول لأهل الجنة «يا أهل الجنة، هل رضيتم ؟ فيقولون: يا ربنا وما لنا لا

نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم ما هو أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا وأي شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[(١)]، وهذا يدل على أنه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان، الذي لا يتعقبه سخط أبداً، ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط . وفي الصحيحين في حديث الشفاعة يقول كل من الرسل «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»[(٢)]، وفي الصحاح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير وجه أنه قال: «لَلَّه أشد فرحاً بتوبة عبده، من رجل أضل راحلته بأرض دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ، عليها طعامه وشرابه، فطلبها فلم يجدها، فاضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ، إذا دابته عليها طعامه وشرابه «وفي رواية» كيف تجدون فرحه بها؟ قالوا: عظيماً يا رسول الله، قال:لله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته»[(٣)]، وكذلك ضحكه إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة، وضحكه إلى الذي يدخل الجنة آخر الناس، ويقول:أتسخر بي وأنت رب العالمين، فيقول «لا، ولكني على ما أشاء قادر»، وكل هذا في الصحيح . وفي دعاء القنوت «تَوَلَّنِي فيمن تَوَلَّيْتَ»، والقديم لا يتصور طلبه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

(١) أخرجه البخاري ٥/ ٢٣٩٨ برقم: ٦١٨٣ ومسلم ٨/ ١٤٤ برقم: ٧٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٤/ ١٧٤٥ برقم: ٤٤٣٥ ومسلم ١/ ١٢٧ برقم: ٥٠١.

(٣) أخرجه البخاري ٥:٢٣٢٤ برقم: ٥٩٤٩ ومسلم ٨/ ٩١ برقم: ٧١٢٩.

[الأعراف: ١٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٩]، فهذا التولي لهم، جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه، فلا يكون متقدماً عليه، وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه، لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين، فدل على أن هذا التولي هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده، ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين، وهكذا الرحمة، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، قال الترمذي: حديث صحيح، وكذلك قوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب، والجزاء إنما يكون بعد الشرط، وكذلك قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]. يدل على أنه يشاء ذلك فيما بعد . وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، فـ(إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان. فدل على أنه إذا أراد كونه، قال له: كن، فيكون. وكذلك قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فبين فيه أنه سيرى ذلك في المستقبل إذا عملوه[(١)].

❀ ❀ ❀

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٤٥.

المطلب السادس

أثرها على تفاضل أهل الإيمان

النصوص:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من إيمان، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من إيمان، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان**»[(١)]. وهذا الحديث دليل صريح على أن أهل الإيمان متفاوتون في إيمانهم.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»[(٢)].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ١١٦ برقم: ٢٩٨ ومسلم ١/ ٦١ برقم: ٢٥٠.

(٣) سبق تخريجه.

فهم السلف لهذه النصوص وأمثالها:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينا فهم السلف لهذه النصوص وأمثالها «... وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين:

من جهة أمر الرب.

ومن جهة فعل العبد.

أما الأول: فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة. وأيضا فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد تجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملا، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل.

وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان... قد تبين أن الإيمان الذي أوجبه الله على عباده يتنوع ويتفاضل، ويتباينون فيه تباينا عظيما، فيجب على الملائكة من الإيمان ما لا يجب على البشر، ويجب على الأنبياء من الإيمان ما لا يجب على غيرهم، ويجب على العلماء ما لا يجب على غيرهم، ويجب على الأمراء ما لا

يجب على غيرهم، وليس المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط؛ بل ومن التصديق والإقرار... وبالجملة، فلا يمكن المنازعة أن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس، ويتفاضلون في إيمانهم ودينهم بحسب ذلك؛ ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النساء: «**ناقصات عقل ودين**» وقال في نقصان دينهن: «**إنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي**»، وهذا مما أمر الله به، فليس هذا النقص دينا لها تعاقب عليه، لكن هو نقص، حيث لم تؤمر بالعبادة في هذا الحال، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة في كل حال، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها وإن لم يكن عاصيًا، فهذا أفضل دينًا وإيمانًا، وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم، فهذه زيادة كزيادة الإيمان بالتطوعات، لكن هذه زيادة بواجب في حق شخص، وليس بواجب في حق شخص غيره، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها، وذاك لا يستحق العقاب بتركها، ولكن إيمان ذلك أكمل، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[(١)].

فهذا يبين تفاضل الإيمان في نفس الأمر به، وفي نفس الأخبار التي يجب التصديق بها.

والنوع الثاني: هو تفاضل الناس في الإتيان به مع استوائهم في الواجب، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع. وهذا أيضًا

---

(١) أخمد ١٢/ ٣٦٤ برقم: ٧٤٠٢.وأبو داوود ٤/ ٣٥٤ برقم: ٤٦٨٤ والترمذي ٣/ ٤٦٦ برقم: ١١٦٢ قال ترمذي حسن صحيح وقال الألباني: صحيح.

يتفاضلون فيه، فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه، بل هذا أفضل دينًا وبرًا وتقوى، فهو كذلك أفضل إيمانًا، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»، وقد يجتمع في العبد إيمان ونفاق، كما في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلَة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها: إذا حَدَّث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غَدَر، وإذا خاصم فَجَر**»[(١)]»[(٢)].

قلت: وهذا الذي قرره شيخ الإسلام هو الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة أنَّ أهل الإيمان متفاضلون فيما بينهم، فالله فَضَّلَ بعض الرسل على بعض؟ قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وتفضيل بعضهم على بعض لسبب وهو تفاضلهم في الإيمان.

فالرسل منهم أولوا العزم وهم أعظم الرسل مقامًا وأرفع الرسل مكانَةً؟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الفرقان بين الحق والباطل ص٣٠٢-٣٠٧.

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فالرسل ليسوا في منزلةٍ واحدة عند الله؟.

والتفاضل هنا يكون بالإيمان -بإيمان القلب- ويكون بإيمان الجوارح بفعلها.

والآيات والأحاديث وآثار الصحابة والتابعين في هذا الباب أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر والمقصود بيان أن الناس متفاوتون في الدين بتفاوت الإيمان في قلوبهم متفاضلون فيه بحسب ذلك فأفضلهم وأعلاهم أولو العزم من الرسل وأدناهم المخلطون من أهل التوحيد وبين ذلك مراتب ودرجات لا يحيط بها إلا الله عَزَّوَجَلَّ الذي خلقهم ورزقهم وكما يتفاوتون في مبلغ الإيمان من قلوبهم يتفاوتون في أعمال الإيمان الظاهرة.

فالخلاصة: الناس يتفاوتون في الإيمان من جهة:

١ - زيادته ونقصانه في أعمالهم الظاهرة وهي أمور الإسلام: من الصلاة والزكاة والصيام والحج والاستسلام لله في الأوامر والانقياد ونحو ذلك والانتهاء من المحرمات.

٢ - وكذلك أعمال القلوب.

وأعمال القلوب نوعان:

أعمالٌ واجِبَةُ الفعل.

وأعمالٌ مُحَرَّمَةُ العمل أو واجبة الترك.

أما واجبة الفعل مثل: محبة الله، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخشيته، والخوف منه، والطمأنينة له، ونحو ذلك من أعمال القلوب.

وما يجب تركه من أعمال القلوب المحرمات التي هي الكِبْرْ والبَطَر وتزكية النفس وسوء الظن بالله ونحو ذلك، هذه كلها يجب تركها.

مخالفة الخلف لفهم السلف:

وخالف أهل السنة في ذلك المرجئة:

قالت: كل موحد لا يخلد في النار، والناس في الإيمان سواء؛ وهم ثلاثة أصناف:

صنف قالوا: الإيمان مجرد ما في القلب وهم نوعان:

الأول: من يدخل أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة.

الثاني: من لا يدخلها وهم الجهمية وأتباعهم، كالأشعرية لكن الأشعري يثبت الشفاعة في أهل الكبائر.

والصنف الثاني قالوا: الإيمان مجرد قول اللسان، وهم الكرامية ولا يعرف لأحد قبلهم، وهؤلاء يقولون: إن المنافق مؤمن ولكنه يخلد في النار.

الصنف الثالث يقولون: إنه تصديق القلب وقول اللسان وهم أهل الفقه والعبادة من المرجئة وهم أبو حنيفة وأصحابه. قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى»[(١)].

(١) العقيدة الطحاوية مع شرحه لابن أبي العز ص٣١٤.

الرد على هذه الشبهة:

أولا: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وهذا من أصول غلط المرجئة، فإنهم ظنوا أنه شيء واحد، وأنه يستوي فيه جميع المكلفين، فقالوا: إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء، كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين، أو قرأ فاتحة الكتاب كان لفظه كلفظ غيره من الناس... وأصل هؤلاء: أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل، بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع العباد فيما أوجبه الرب من الإيمان، وفيما يفعله العبد من الأعمال، فغلطوا في هذا وهذا ثم تفرقوا، كما تقدم»[(١)].

ثانيا: هدم هذا الأصل شرعا:

من أسهل الأمور وأجلاها بيان فساد هذا الأصل، ولهذا سنكتفي بإيراد هذه الأدلة المجملة.

١- انعقاد الإجماع على ذلك من الصحابة والتابعين وتابعيهم - كما سبق - وهو إجماع مستند إلى النصوص الصريحة من الكتاب و السنة في زيادة الإيمان ونقصه، واجتماع النفاق والإيمان في القلب الواحد واجتماع الشرك والإيمان في عمل الرجل الواحد.

٢- تفاضل المؤمنين في الأعمال الظاهرة تفاضلا لا ينكره إلا مكابر، فمنهم القانت الأواب، والمجاهد الدائب، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه المنهمك في فسقه.

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل ص٢٠٣.

٣- تفاوت المؤمنين في الأعمال الباطنة، كالحب والخوف والرجاء والذكر والتفكر في آلاء الله وآياته والخشوع واليقين ... ونحو ذلك مما لا يجحده إلا معاند عامد.

٤- تفاوت الناس في العلم بما يؤمن به - حتى لو سلم جدلا أنه التصديق - فمنهم من يعلم من صفات الله وآياته وأسباب سخطه ومرضاته الشيء الكثير، ويؤمن بذلك ويعتقده مفصلا، ومنهم من لا يعلم منه إلا النزر اليسير المجمل، فلا مراء في أن الأول مصدق بأضعاف ما الآخر مصدق به، فالمعرفة والعلم واليقين كل منها درجات متفاوتة، والإنسان الواحد نفسه يكون إيمانه بشيء أقوى من إيمانه بشيء آخر، ويكون إيمانه بالشيء اليوم أقوي منه غدا أو العكس.

٥- أن الإيمان يتفاوت بتفاوت سببه و مستنده، فمن آمن بسبب آية خارقة رآها، ليس كمن آمن تبعا لإيمان غيره من الناس أو نحو ذلك من الأسباب العارضة.

المطلب السابع

أثرها على الأسماء والأحكام

النصوص:

قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ٩- ١٠]. قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسماهم مؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣].

قال تعالى: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن: ٢٣].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن حبة من إيمان**»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**»[(٢)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده**»[(٣)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[(٤)].

فهم السلف لمجموع هذه الأدلة:

أولا: أهمية الموضوع:

أهمية هذا الموضوع تكمن في وجوب الحذر منه والبعد عنه، فهو علامة شقاوة العبد في الدنيا والآخرة، وهو أيضا أعظم الذنوب والآثام وأشدها خطرا وأعظمها وقعا وأثرا وهو أخوف ما يخافه ويحذره المؤمنون وفي ذلك نصوص من الوحيين كثيرة جدا.

ثانيا: قواعد مهمة في هذا الباب وهي:

١- الكفر حكم شرعي محض مرده إلى الله ورسوله، فمن كفرهم الله،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ٤٨٥ برقم: ٦٤٠١ ومسلم ٥/ ١١٣ برقم: ٤٥٠٣.

(٤) سبق تخريجه.

أو كفرهم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عينا أو جنسا أو وصفا وجب وتعين تكفيرهم، ومن لا فلا.

٢- أن الكفر كالإيمان له شعب كثيرة فكما صح في «الصحيحين» «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**» الحديث.

٣- أن الكفر نوعان: كفر أكبر مخرج من الملة ومحبط للعمل، وكفر أصغر لا يخرج من الملة.

٤- أن هناك علاقة بين الكفر الأكبر والشرك الأكبر وهي علاقة عموم وخصوص فكل شرك كفر وليس كل كفر شركا.

٥- أن الكفر ورد في موارده المعتبرة في نصوص الوحيين الشريفين على صورتين:

أ- الصورة الأولى: معرفا بالألف واللام فالمراد به الكفر المعهود، أو المستغرق في الكفر وهو المخرج من الملة.

ب- الصورة الثانية: ويأتي منكرا غير معرف، لا بالألف واللام، ولا بالإضافة والتخصيص. فلا يعد بالصورة الثانية كفرا أكبر، بل الأصل فيه أنه كفر أصغر لا يخرج من الملة[(١)].

٦- أن أهل السنة والجماعة يعظمون لفظ التكفير جدا ويجعلون حقا لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط فلا يجوز ولا يسوغ عندهم تكفير أحد إلا من كفره الله، أو كفره رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١٢٣٧-٢٣٨.

٧- أن أهل السنة والجماعة يفرقون بين الكفر المطلق والكفر المعين، فهم يقرون بالكفر الأكبر مطلقا على غير معينين، ولهم شروط وضوابط وتورع وديانة في إيقاعه على المعينين بناء على اختلاف الطوائف في مسمى الإيمان. قال الحافظ ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعد ما ذكر الأحاديث التي استدل بها الوعيدية: «وقد ضلت طائفة من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة في هذا الباب، فاحتجوا بهذه الآثار ومثلها في تكفير المذنبين»[(١)].

ثالثا: فهم السلف الصالح هو:

عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قيل له: «يا أبا محمد هل كنتم تسمون شيئا من الذنوب كفرا، أو شركا، أو نفاقا؟ قال: معاذ الله ولكنا نقول مؤمنين مذنبين»[(٢)].

وعليه أن من ارتكب كبيرة من الكبائر - دون الشرك - غير مستحل لها فإنه لا يكفر، بل هو ناقص الإيمان، فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته، وإن مات مصرا عليها ولم يتب فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بفضله ورحمته، وإن شاء عذبه على قدر ذنوبه، بعدله، ثم يدخله الجنة، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد[(٣)].

وقال شيخ الإسلام: «لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج، بل الإخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي... ولا يسلبون

---

(١) التمهيد١٧/ ١٦.

(٢) المرجع السابق ١٧/ ٢١.

(٣) انظر عقيدة السلف للصابوني ص٢٧٦ ومجموع الفتاوى ٧/ ٦٧٠-٦٧٣.

الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار؛ كما تقول المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢- ٤]، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**»[(١)].ويقولون: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الإيمان»[(٢)].

رابعا: أن عقيدتهم ناتجة عن فهمهم النصوص:

روى البيهقي، وغيره عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما زلنا نمسك عن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) العقيدة الواسطية ص٢٤.

الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]. وأنه قال: «ادخرت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة»(١).

وبين الإمام البخاري أن مذهب السلف في هذا الباب ناتج عن فهمهم لنصوص الباب حيث بوب بقوله: باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «إنك امرؤ فيك جاهلية» وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

كما بوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: باب قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩]. فسماهم مؤمنين.

كما بين الإمام ابن عبدالبر فهم السلف لنصوص هذا الباب، فقال بعد ما ذكر آيات الوعيد التي استدل بها الوعيدية: «ومثل هذا كثير من الآثار التي وردت بلفظ التغليظ، وليست على ظاهرها عند أهل الحق والعلم؛ لأصول تدفعها أقوى منها من الكتاب والسنة المجتمع عليها، والآثار الثابتة أيضا من جهة الإسناد»(٢).

---

(١) الاعتقاد للبيهقي ص١٠ قال السيوطي في الدر المنثور: إسناده صحيح.

(٢) التمهيد ١٧/ ١٥.

مخالفة فهم الخلف لفهم السلف:

وقد خالف السلف في هذا الأصل طوائف:

أولا: أقوالهم:

فالخوارج يكفرون أهل الكبائر ويخلدونهم في النار:

قال الإسفراييني: «والخوارج يزعمون أن كل من أذنب ذنبا من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر ويكون في النار مخلدا»[(١)].

والمعتزلة يقولون: في منزلة بين منزلتين في الدنيا ويخلدونهم في النار في الآخرة:

قال القاضي عبدالجبار: «إن صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين فلا يكون اسمه اسم كافر، ولا اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقا، وكذلك صاحب الكبيرة له حكم بين الحكمين فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث»[(٢)].

وقال الإمام ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما المعتزلة فالإيمان عندهم جماع الطاعات ومن قصر منها عن شيء فهو فاسق لا مؤمن ولا كافر وسماهم المتحققون بالاعتزال أصحاب المنزلة بين المنزلتين ومنهم من قال في ذلك بقول الخوارج المذنب كافر غير مؤمن إلا أن الصفرية تجعله كالمشرك وتجعل دار المذنب المخالف لهم دار حرب وأما الإباضية فتجعله كافر

---

(١) التبصير في الدين ص٤٦.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص٦٩٧.

نعمة ولكنهم يخلدونه في النار إن لم يتب من الكبيرة ولا يستحلون ماله كما يستحله الصفرية ولهم ظواهر آيات يبرهنون بها قد فسرتها السنة وقد مضى على ما فسرت السنة في ذلك علماء الأمة»[(١)].

وغلاقة المرجئة الجهمية يكون الكفر عندهم الجهل بالله.

ومرجئة الأشاعرة الكفر عندهم: هو التكذيب وما زاد عليه كالجحود.

ومرجئة الكرامية الكفر عندهم بعدم النطق باللسان.

أما مرجئة الفقهاء فأخف الطوائف في مسألة الكفر. قال الإمام ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن المرجئة قالت: تارك الصلاة مؤمن مستكمل الإيمان إذا كان مقرا غير جاحد، ومصدقا غير مستكبر. وحكيت هذه المقالة عن أبي حنيفة وسائر المرجئة وهو قول جهم»[(٢)].

ثانيا: مخالفتهم السلف في فهم نصوص الكتاب والسنة:

أما الوعيدية من الخوارج، والمعتزلة، فاستدلوا بنصوص الوعيد على أن المذنب إذا مات مصرا على كبيرته فإنه يخلد في النار.

الرد على هذه الشبهة:

أولا: خالفتم فهم السلف الصالح لنصوص الوعد والوعيد؛ لأن فهم السلف الصالح هو الإيمان بالوعد والوعيد، والإقرار بالنصوص الواردة في هذا الباب على ما دلت عليه من المعاني، وإمرارها كما جاءت وأنها حق

---

(١) التمهيد ٩/ ٢٥١.

(٢) التمهيد ٤/ ٢٤٢.

على ظاهرها اللائق بها، ويجمعون بينها، ويفسرون بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها، أو تأويلها بتأويلات تخرجها عن مقصود الشرع، كما يصنعه من يحرفها ويسمى تحريفه تأويلا.

فهم وسط بين طرفي الإفراط والتفريط، فلم يجعلوا مرتكب الكبيرة مؤمناً كامل الإيمان كما قالت المرجئة، ولم يخرجوه من الإيمان ويقولوا بتخليده في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة، وقالوا: هو مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلم يصفوه بكمال الإيمان ولم يخرجوه من الإيمان، فبقولهم: (هو مؤمن) فارقوا الخوارج والمعتزلة، وبقولهم: (ناقص الإيمان) فارقوا المرجئة، فقول أهل السنة وسط بين طرفين وهدى بين ضلالتين.

ثانيا: أن نصوص الوعيد نصوص مطلقة عامة، وجاءت نصوص فسرتها وقيدتها، وبينت أن لحوقها بالمعين لابد فيه من توفر شروط وانتفاء موانع في حقه، فالوعيد سبب مقتض للعذاب، والسبب يتوقف تأثيره على وجود شروطه وانتفاء موانعه.

ومن أسباب زوال الوعيد: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والدعاء، والأعمال الصالحة، والشفاعة، والمصائب، وما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة، وأهوال يوم القيامة، ورحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته، فكل وعيد، فإنه قد يدفع بأحد هذه الأسباب.

توجيه أهل السنة لنصوص الوعيد:

لا تخرج أقوالهم عن التوجيهات التالية:

١- لا يدخل الجنة في الوقت الذي يدخلها من لم يرتكب هذا الذنب.

٢- لا يدخل الجنة أي بعض الجنان، التي هي أعلى وأشرف وأنبل وأكثر نعيما، لا أنه لا يدخل شيئا من تلك الجنان.

٣- أن في الكلام شرطا، أو استثناء مقدرا، والتقدير لا يدخل الجنة إن عذبه، أو لا يدخل الجنة إلا أن يغفر له.

٤- أن هذه النصوص ونحوها تطلق على العموم، ولا يخص شخص بعينه، حتى يقوم فيه المقتضي الذي لا معارض له.

٥- أن هذا الوعيد في حق المستحل لذلك، لأنه كافر. وقد أنكر الإمام أحمد هذا القول، وقال: لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافرا والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: من فعل كذا وكذا [(١)].

وقد وجه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام نصوص الوعيد فقال: «أما هذا الذي فيه ذكر الذنوب والجرائم، فإن الآثار جاءت بالتغليظ على أربعة أنواع: فاثنان منها فيها نفي الإيمان، والبراءة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والآخران فيها تسمية الكفر وذكر الشرك، وكل نوع من هذه الأربعة تجمع أحاديث ذوات عدة.

فمن النوع الذي فيه نفي الإيمان: حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الرجل حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن**»[(٢)] وقوله:

---

(١) انظر هذه الأقوال في كتاب التوحيد لا بن خزيمة ص٢٣٧-٢٤١ ومجموع الفتاوى ٧/ ٦٧٨ و٢٨/ ٥٠٠ و١٠/ ٣٢٩

(٢) سبق تخريجه.

«**ما هو بمؤمن من لا يأمن جاره غوائله**»[١] وقوله: «**الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن**»[٢] وقوله: «**لا يبغض الأنصار أحد يؤمن بالله ورسوله**»[٣] ومنه قوله: «والذي نفسي بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا»[٤] وكذلك قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إياكم والكذب، فإنه يجانب الإيمان. وقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا إيمان لمن لا أمانة له وقول سعد: كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب وقول ابن عمر: لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء، وإن كان محقا، ويدع المزاحة في الكذب.

ومن النوع الذي فيه البراءة: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من غشنا فليس منا**»[٥] وكذلك قوله: «**ليس منا من حمل السلاح علينا**»[٦] وكذلك قوله: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا**»[٧]، في أشياء من هذا القبيل.

ومن النوع الذي في تسمية الكفر: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين مطروا،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٨٢ برقم: ٧٣٠٠ وسكت عنه الذهبي في التلخيص.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤١برقم:١٤٢٦ وأبو داوود ٣/ ٤٣ برقم: ٢٧٧١ قال الألباني صحيح.

(٣) أخرجه مسلم ١/ ٦٠ برقم: ٢٤٧.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٢٩ برقم: ١٤١٢.

(٥) أخرجه مسلم ١/ ٦٩ برقم: ٤٥.

(٦) أخرجه البخاري ٦/ ٢٥٠ برقم: ٦٤٨٠ ومسلم ١/ ١٧ برقم: ٧٥.

(٧) أخرجه أحمد ١١/ ٣٤٥ برقم: ٦٧٣٣ وأبو داوود ٤/ ٤٤١ برقم: ٤٩٤٥ والترمذي ٤/ ٣٢١ برقم: ١٩١٩ قال الألباني: صحيح.

فقال: «**أتدرون ما قال ربكم؟ قال: أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما الذي يقول: مطرنا بنجم كذا وكذا كافر بي مؤمن بالكوكب، والذي يقول هذا رزق الله ورحمته مؤمن بي وكافر بالكوكب**»[(١)]. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(٢)] وقوله: «**من قال لصاحبه: كافر فقد باء به أحدهما**»[(٣)] وقوله: «**من أتى ساحرا أو كاهنا فصدقه بما يقول، أو أتى حائضا أو امرأة في دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، أو كفر بما أنزل على محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٤)] وقول عبدالله: سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر [(٥)] وبعضهم يرفعه.

ومن النوع الذي فيه ذكر الشرك: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر**»، قيل: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «**الرياء**»[(٦)]، ومنه قوله: «**الطيرة شرك، وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**»[(٧)]

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٢٩٠ برقم: ٧١٠ ومسلم ١/ ٥٩ برقم: ٢٤٠.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ٥٦ برقم: ١٢١ ومسلم ١/ ٢٧٤ برقم: ٢٣٢.

(٣) أخرجه البخاري ٥/ ٢٦٣ برقم: ٥٧٥٢.

(٤) أخرجه أحمد ١٣/ ٣٣١ برقم: ٩٥٣٦ وأبو داوود ٤/ ٢١برقم: ٣٩٠٦ وقال الألباني: صحيح.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه أحمد ٣٩/ ٣٩ برقم: ٢٣٦٣٠.

(٧) أخرجه أحمد ٦/ ٢١٣ برقم: ٣٦٨٧ وأبو داوود ٤/ ٢٤ برقم: ٣٩١٢ وابن ماجه ٢/ ١١٧٠ برقم: ٣٥٣٨ قال الألباني: صحيح.

وقول عبد الله: في التمائم والتولة: إنها من الشرك وقول ابن عباس: إن القوم يشركون بكلبهم يقولون: كلبنا يحرسنا، ولولا كلبنا لسرقنا.

فهذه أربعة أنواع من الحديث، قد كان الناس فيها على أربعة أصناف من التأويل:

فطائفة تذهب إلى كفر النعمة.

وثانية تحملها على التغليظ والترهيب.

وثالثة تجعلها كفر أهل الردة.

ورابعة تذهبها كلها، وتردها».

ثم رد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأقوال كلها فقال: «فكل هذه الوجوه عندنا مردودة غير مقبولة، لما يدخلها من الخلل والفساد، والذي يرد المذهب الأول ما نعرفه من كلام العرب ولغاتها، وذلك أنهم لا يعرفون كفران النعم إلا بالجحد لأنعام الله وآلائه، وهو كالمخبر على نفسه بالعدم، وقد وهب الله له الثروة، أو بالسقم وقد من الله عليه بالسلامة، وكذلك ما يكون من كتمان المحاسن ونشر المصائب فهذا الذي تسميه العرب كفرانا، إن كان ذلك فيما بينهم وبين الله، أو كان من بعضهم لبعض، إذا تناكروا اصطناع المعروف عندهم وتجاحدوه ينبئك عن ذلك مقالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنساء: «**إنكن تكثرن اللعن، وتكفرن العشير**»[1] يعني: الزوج وذلك أن تغضب إحداكن، فتقول: ما رأيت منك خيرا قط فهذا ما في كفر النعمة.

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ١١٦ برقم: ٢٩٨.

وأما القول الثاني: المحمول على التغليظ، فمن أفظع ما تئول على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أن جعلوا الخبر عن الله وعن دينه وعيدا، لا حقيقة له وهذا يؤول إلى إبطال العقاب، لأنه إن أمكن ذلك في واحد منها، كان ممكنا في العقوبات كلها.

وأما الثالث: الذي بلغ كفر الردة نفسها فهو شر من الذي قبله، لأنه مذهب الخوارج الذين مرقوا من الدين بالتأويل، فكفروا الناس بصغار الذنوب وكبارها، وقد علمت ما وصفهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المروق، وما أذن فيهم من سفك دمائهم، ثم قد وجدنا الله تبارك وتعالى يكذب مقالتهم وذلك أنه حكم في السارق بقطع اليد، وفي الزاني والقاذف بالجلد، ولو كان الذنب يكفر صاحبه ما كان الحكم على هؤلاء إلا القتل، لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من بدل دينه فاقتلوه**» أفلا ترى أنهم لو كانوا كفارا لما كانت عقوباتهم القطع والجلد؟ وكذلك قول الله فيمن قتل مظلوما: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، فلو كان القتل كفرا، ما كان للولي عفو ولا أخذ دية، ولزمه القتل.

وأما القول الرابع: الذي فيه تضعيف هذه الآثار، فليس مذهب من يعتد بقوله، فلا يلتفت إليه، إنما هو احتجاج أهل الأهواء والبدع، الذين قصر علمهم عن الاتساع، وعييت أذهانهم عن وجوهها، فلم يجدوا شيئا أهون عليهم من أن يقولوا: متناقضة، فأبطلوها كلها.

وبعد ما أبطل هذه الأقوال ذكر ما يراه صحيحا في هذه المسألة فقال:

«وإن الذي عندنا في هذا الباب كله: أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيمانا، ولا توجب كفرا، ولكنها إنما تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه الذي نعت الله به أهله، واشترطه عليهم في مواضع من كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١] إلى قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: ١] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩-١٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

قال أبو عبيد: فهذه الآيات التي شرحت وأبانت شرائعه المفروضة على أهله ونفت عنه المعاصي كلها، ثم فسرته السنة بالأحاديث التي فيها خلال الإيمان في الباب الذي في صدر هذا الكتاب، فلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت بغيرها، قيل: ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين ولا الأمانات التي يعرف بها أنه الإيمان فنفت عنهم حينئذ حقيقته ولم يزل عنهم اسمه.

فإن قال قائل: كيف يجوز أن يقال: ليس بمؤمن واسم الإيمان غير زائل عنه؟ قيل: هذا كلام العرب المستفيض عندنا غير المستنكر في إزالة العمل عن عامله، إذا كان عمله على غير حقيقته، ألا ترى أنهم يقولون للصانع إذا كان ليس بمحكم لعمله: ما صنعت شيئا ولا عملت عملا، وإنما وقع معناهم هاهنا على نفي التجويد، لا على الصنعة نفسها، فهو عندهم عامل بالاسم، وغير عامل في الإتقان حتى تكلموا به فيما هو أكثر من هذا، وذلك كرجل يعق أباه ويبلغ منه الأذى، فيقال: ما هو بولد، وهم يعلمون أنه ابن صلبه ثم يقال مثله في الأخ، والزوجة، والمملوك وإنما مذهبهم في هذا: المزايلة الواجبة عليهم من الطاعة والبر وأما النكاح والرق والأنساب، فعلى ما كانت عليه أماكنها وأسماؤها فكذلك هذه الذنوب التي ينفى بها الإيمان، إنما أحبطت الحقائق منه الشرائع التي هي من صفاته، فأما الأسماء فعلى ما كانت قبل ذلك، ولا يقال لهم إلا: مؤمنون، وبه الحكم عليهم وقد وجدنا مع هذا شواهد لقولنا من التنزيل والسنة فأما التنزيل: فقول الله جل ثناؤه في أهل الكتاب، حين قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال أبو عبيد: حدثنا الأشجعي، عن مالك بن مغول، عن الشعبي، في هذه الآية قال: أما إنه كان بين أيديهم، ولكن نبذوا العمل به ثم أحل الله لنا ذبائحهم، ونكاح نسائهم، فحكم لهم بحكم الكتاب إذا كانوا به مقرين، وله منتحلين، فهم بالأحكام والأسماء في الكتاب داخلون، وهم لها بالحقائق

مفارقون، فهذا ما في القرآن، وأما السنة: فحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يحدث به رفاعة في الأعرابي الذي صلى صلاة فخففها فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**»، حتى فعلها مرارا، كل ذلك يقول: «**فصل**»، وهو قد رآه يصليها، أفلست ترى أنه مصل بالاسم، وغير مصل بالحقيقة، وكذلك في المرأة العاصية لزوجها، والعبد الآبق، والمصلي بالقوم الكارهين له إنها غير مقبولة، ومنه حديث عبدالله بن عمر في شارب الخمر أنه: «**لا تقبل له صلاة أربعين ليلة**» وقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد**» وحديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المقدم ثقله ليلة النفر أنه: «**لا حج له**»، وقال حذيفة: من تأمل خلق امرأة من وراء الثياب وهو صائم أبطل صومه قال أبو عبيد: فهذه الآثار كلها، وما كان مضاهيا لها، فهو عندي على ما فسرته لك، وكذلك الأحاديث التي فيها البراءة، فهي مثل قوله: من فعل كذا وكذا فليس منا، لا نرى شيئا منها يكون معناه التبرؤ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا من ملته إنما مذهبه عندنا: أنه ليس من المطيعين لنا، ولا من المقتدين بنا، ولا من المحافظين على شرائعنا، وهذه النعوت وما أشبهها وقد كان سفيان بن عيينة يتأول قوله: ليس منا: ليس مثلنا، وكان يرويه عن غيره أيضا فهذا التأويل وإن كان الذي قاله إمام من أئمة العلم، فإني لا أراه من أجل أنه إذا جعل من فعل ذلك ليس مثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزمه أن يصير من يفعله مثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا فلا فرق بين الفاعل والتارك، وليس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عديل ولا مثل من

فاعل ذلك ولا تاركه فهذا ما في نفي الإيمان وفي البراءة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما أحدهما من الآخر، وإليه يؤول وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبهما بالمعاصي، فإن معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفرا ولا شركا يزيلان الإيمان عن صاحبه، إنما وجوهها: أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون، وقد وجدنا لهذين النوعين من الدلائل في الكتاب والسنة نحوا مما وجدنا في النوعين الأولين فمن الشاهد على الشرك في التنزيل: قول الله تبارك وتعالى في آدم وحواء عند كلام إبليس إياهما: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ﴾ إلى ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٩- ١٩٠]، وإنما هو في التأويل أن الشيطان قال لهما: سميا ولدكما عبد الحارث، فهل لأحد يعرف الله ودينه أن يتوهم عليهما الإشراك بالله مع النبوة، والمكان من الله، فقد سمى فعلهما شركا، وليس هو الشرك بالله وأما الذي في السنة: فقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر**»، فقد فسر لك بقوله: «**الأصغر**» أن هاهنا شركا سوى الذي يكون به صاحبه مشركا بالله ومنه قول عبدالله: الربا بضعة وستون بابا، والشرك مثل ذلك فقد أخبرك أن في الذنوب أنواعا كثيرة تسمى بهذا الاسم، وهي غير الإشراك التي يتخذ لها مع الله إلها غيره تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فليس لهذه الأبواب عندنا وجوه إلا أنها أخلاق المشركين، وتسميتهم، وسننهم، وألفاظهم، وأحكامهم، ونحو ذلك من أمورهم وأما

الفرقان الشاهد عليه في التنزيل، فقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة وقال عطاء بن أبي رباح: كفر دون كفر فقد تبين لنا أنه كان ليس بناقل عن ملة الإسلام أن الدين باق على حاله، وإن خالطه ذنوب، فلا معنى له إلا خلاف الكفار وسنتهم، على ما أعلمتك من الشرك سواء، لأن من سنن الكفار الحكم بغير ما أنزل الله، ألا تسمع قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] تأويله عند أهل التفسير أن من حكم بغير ما أنزل الله وهو على ملة الإسلام كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية، إنما هو أن أهل الجاهلية كذلك كانوا يحكمون وهكذا قوله: «ثلاثة من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة، والأنواء» ومثله الحديث الذي يروى عن جرير وأبي البختري الطائي: «ثلاثة من سنة الجاهلية: النياحة، وصنعة الطعام، وأن تبيت المرأة في أهل الميت من غيرهم» وكذلك الحديث: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**» وقول عبد الله: الغناء ينبت النفاق في القلب ليس وجوه هذه الآثار كلها من الذنوب: أن راكبها يكون جاهلا ولا كافرا ولا منافقا وهو مؤمن بالله وما جاء من عنده، ومؤد لفرائضه، ولكن معناها أنها تتبين من أفعال الكفار محرمة منهي عنها في الكتاب وفي السنة، ليتحاماها المسلمون ويتجنبوها، فلا يتشبهوا بشيء من أخلاقهم ولا شرائعهم ولقد روي في بعض الحديث: إن السواد خضاب الكفار فهل يكون لأحد أن يقول: إنه يكفر من أجل الخضاب؟ وكذلك

حديثه في المرأة إذا استعطرت، ثم مرت بقوم يوجد ريحها: أنها زانية، فهل يكون هذا على الزنا الذي تجب فيه الحدود؟ ومثله قوله: المستبان شيطانان يتهاتران، ويتكاذبان، أفيتهم عليه أنه أراد الشيطانين اللذين هم أولاد إبليس؟ إنما هذا كله على ما أعلمتك من الأفعال والأخلاق والسنن وكذلك كل ما كان فيه ذكر كفر أو شرك لأهل القبلة فهو عندنا على هذا، ولا يجب اسم الكفر والشرك الذي تزول به أحكام الإسلام ويلحق صاحبه بردة إلا كلمة الكفر خاصة دون غيرها، وبذلك جاءت الآثار مفسرة[(١)].

قال إمام الأئمة ابن خزيمة: «بَاب ذكر أخبار رويت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابتة من جهة النقل جهل معناها فرقتان: فرقة المعتزلة والخوارج. واحتجوا بها وادعوا أن مرتكب الكبيرة إذا مات قبل التوبة منها مخلد في النار محرم عليه الجنان»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو بكر فاسمعوا الآن بابًا آخر من هذا الجنس أيضًا في إعلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرمان الجنة لمرتكب بعض الذنوب والخطايا من الذي ليس بكفر ولا يزيل الإيمان بأسره لا على ما تتوهمه الخوارج والمعتزلة»[(٣)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَاب ذكر اخبار رويت أيضًا في حرمان الجنة على من ارتكب بعض المعاصي التي لا تزيل الإيمان بأسره وجهل معناها المعتزلة

---

(١) كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٢٤.

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة ٢/ ٨٣٦.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٨٤٤.

والخوارج فأزلوا اسم المؤمن عن مرتكبها ومرتكبي بعضها. أنا ذاكرها بأسانيدها ومبين معانيها ومؤلف بين معانيها ومعاني الاخبار التي قدمنا ذكرها التي احتج بها المرجئة وتوهمت أن مرتكب هذه الذنوب والخطايا كامل الإيمان لا نقص في ايمانهم إن وفق الله ذلك وشاء»[(١)].

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أبو بكر معنى هذا الخبر إن ثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قد أعلمت أصحابي منذ دهر طويل أن معنى الاخبار إنما هو على أحد معنيين:

أحدهما: لا يدخل الجنة أي بعض الجنان إذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أعلم انها جنان في جنة واسم الجنة واقع على كل جنة منها، فمعنى هذه الاخبار التي ذكرنا من فعل كذا لبعض المعاصي حرم الله عليه الجنة أو لم يدخل الجنة معناها لا يدخل بعض الجنان التي هي أعلى واشرف وانبل وأكثر نعيمًا وسرورًا وبهجة وأوسع لا أنه أراد لا يدخل شيئًا من تلك الجنان التي هي في الجنة. وعبدالله بن عمرو قد بين خبره الذي روى عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر أنه إنما أراد حظيرة القدس من الجنة على ما تأولت أحد المعنيين.

قال: حدثنا بهذا الخبر محمد بن بشار قال حدَّثنا محمد بن جعفر. وَحَدَّثَنا محمد بن عبدالأعلى قال حدَّثنا خالد يعني ابن الحارث قال حدَّثنا شعبة عن يعلي بن عطاء عن نافع بن عروة بن مسعود عن عبدالله

(١) المرجع السابق ٢/ ٨٥٧.

بن عمرو أنه قال لا يدخل حظيرة القدس سكير ولا عاق ولا منان.

غير أن ابن عبدالأعلى قال سكير ولا مدمن ولا منان والصحيح ما قاله بندار.

والمعنى الثاني ما قد أعلمت أصحابي ما لا أحصي من مرة أن كل وعيد في الكتاب والسنة لأهل التوحيد فإنما هو على شريطة أي إلا أن يشاء الله أن يغفر ويصفح ويتكرم ويتفضل فلا يعذب على ارتكاب تلك الخطيئة؛ إذ الله عَزَّوَجَلَّ قد خبر في محكم كتابه أنه قد يشاء أن يغفر ما دون الشرك من الذنوب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]. قد أمليت هذه المسألة في كتاب معاني القرآن الكتاب الاول واستدللت أيضًا بخبر عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على هذا المعنى لم أكن ذكرته في ذلك الموضع أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إنما اراد بقوله من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين حرم الله عليه الجنة أي إلا أن يشاء الله أن يعفو عنه فلا يعاقبه»[(١)].

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: «قال أبو بكر قد أمليت أكثر طرق هذا الخبر في كتاب الجهاد وقد أمليت في كتاب ذكر نعيم الجنة ذكر درجات الجنة وبعد ما بين الدرجتين وأمليت اخبار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدرى في افق من آفاق السماء لتفاضل ما بينهما وقول بعض أصحابه تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.

---

(١) كتاب التوحيد لابن خزيمة ٢/ ٨٦٨-٨٧٠.

وأمليت اخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين كل درجتين من درج الجنة مسيرة مائة عام. فمعنى هذه الاخبار التي فيها ذكر بعض الذنوب الذي يرتكبه بعض المؤمنين فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني قال أن مرتكبه لا يدخل الجنة معناها أنه لا يدخل العالي من الجنان التي هي دار المتقين الذين لم يرتكبوا تلك الذنوب والخطايا والحوبات وقد كنت أقول- وانا حدث - جائز أن يكون معنى اخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان**» أي لا يدخل النار دخول الابد، كدخول أهل الشرك والأوثان كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما أهل النار الذين هم اهلها لا يموتون فيها ولا يحيون**».

الأخبار التي قد أمليتها بتمامها أو يكون معناها أي لا يدخلون النار موضع الكفار والمشركين من النار إذ الله عَزَّوَجَلَّ قد أعلم أن للنار سبعة أبواب وأخبر أن لكل باب منهم جزءًا مقسومًا فقال: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُم جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤]. فمعنى هذا الخبر قد يكون أنهم لا يدخلون النار موضع الكفار منها لأن العلم محيط أن من لم يدخل موضعًا ولم يقل لم يخرج قد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الاخبار المتواترة التي لا يدفعها عالم بالأخبار أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فإذا استحال أن يخرج من موضع لم يدخل فيه ثبت وبان وصح أن يخرج من النار ممن كان في قلبه ذرة من ايمان إنما اخرج من موضع النار غير الموضع الذي خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يدخل ذلك الموضع من النار.

فالتأليف بين الاخبار المأثورة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بينا وبيقين يعلم

كل عالم بلغة العرب أن جائزًا أن يقول القائل لا ادخل الدار إنما يريد بعض الدور كذلك يقول أيضًا لا ادخل دار فلان. ولفلان دور ذوات عدد إنما يريد إني لا أدخل بعض دوره لا انه إنما يريد لا أدخل شيئًا من دور فلان والصادق عند السامع الذي لا يتهم بكذب إذا سمعه يقول لا أدخل دار فلان ثم يقول بعد مدة قصيرة أو طويلة ادخل دار فلان لم يتوهم من سمع من الصادق هاتين اللفظتين أن احداهما خلاف الاخرى إذا كان المتكلم بهاتين اللفظتين عندهم ورعًا دينًا فاضلاً صادقًا ويعلم من سمعه ممن يعلم أنه لا يكذب أنه إنما اراد بقوله لا ادخل دار فلان إذا سمع اللفظة الثانية ادخل دار فلان أنه اراد بالدار التي ذكر أنه لا يدخلها غير الدار التي ذكر أنه يدخلها فإذا كان معلومًا عند السامعين إذا سمعوا الصادق البار عندهم يتكلم بهاتين اللفظتين أنهما ليستا بمتناقضتين ولا متهاترتين وأنهم يحملون اللفظتين جميعًا على الصدق ويؤلفون بينهما أنه إنما اراد الدار التي ذكر أنه لا يدخلها غير الدار التي ذكر أنه يدخلها وجب على كل مسلم يقر بنبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستيقن أنه ابر الخلق واصدقهم وابعدهم من الكذب والتكلم بالتكاذب والتناقض أن يعلم ويستيقن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان يريد لا يدخل شيئًا من المواضع التي يقع عليها اسم النار ثم يقول يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان؛ لأن اللفظتين اللتين رويتا عنه إذا حملتا على هذا كانت احداهما دافعة للأخرى فإذا تؤولتا على ما ذكرنا كانتا متفقتي المعنى وكانتا من الفاظ العام التي يراد بها الخاص فافهموا هذا الفصل لا تخدعوا فتضلوا عن سواء السبيل. ونقول أيضًا

معلوم متيقن عند العرب أن المرء قد يقول لا ادخل موضع كذا وكذا ولا يدخل فلان موضع كذا وكذا يريد مدة من المدد ووقتًا من الأوقات.

قد يجوز أن يقول من فعل كذا وكذا لم يدخل الجنة يريد لم يدخل الجنة في الوقت الذي يدخلها من لم يرتكب هذه الحوبة لأنه يحبس عن دخول الجنة إما للمحاسبة على الذنب أو لإدخال النار ليعذب بقدر ذلك الذنب إن كان ذلك الذنب مما يستوجب به المرتكب النار أن لم يعف الله ويصفح ويتكرم فيغفر ذلك الذنب.

فمعنى هذه الاخبار لم يخل من أحد هذه المعاني لأنها إذا لم تحمل على بعض هذه المعاني كانت على التهاتر والتكاذب. وعلى العلماء أن يتأولوا أخبار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما قال علي بن أبي طالب إذا حدثتم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فظنوا به الذي هو أهناه وأهداه وأتقاه»[(١)].

قال الإمام ابن عبدالبر مبينا مخالفتهم فهم السلف الصالح في النصوص: «ولهم ظواهر آيات يبرهنون بها قد فسرتها السنة وقد مضى على ما فسرت السنة في ذلك علماء الأمة»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقوله: «لا يدخل الجنة» متضمن لكونه ليس من أهلها ولا مستحقا لها لكن إن تاب أو كانت له حسنات ماحية لذنبه أو ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطاياه ونحو ذلك زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة؛ فيدخلها أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر من نفسه؛

(١) كتاب التوحيد لابن خزيمة ٢/ ٨٧٤-٨٧٨.

(٢) التمهيد ٩/ ٢٥١.

فلا يدخلها ومعه شيء من الكبر ولهذا قال: من قال في هذا الحديث وغيره: إن المنفي هو الدخول المطلق الذي لا يكون معه عذاب؛ لا الدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة؛ فإنه إذا أطلق في الحديث فلان في الجنة أو فلان من أهل الجنة كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يدخل النار. فإذا تبين هذا كان معناه أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة ولا يدخلها بلا عذاب بل هو مستحق للعذاب لكبره كما يستحقها غيره من أهل الكبائر ولكن قد يعذب في النار ما شاء الله فإنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد وهذا كقوله: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**» وقوله: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**» وأمثال هذا من أحاديث الوعيد وعلى هذا فالحديث عام في الكفار وفي المسلمين. وقول القائل: إن المسلمين يدخلون الجنة بالإسلام فيقال له: ليس كل المسلمين يدخلون الجنة بلا عذاب بل أهل الوعيد يدخلون النار ويمكثون فيها ما شاء الله مع كونهم ليسوا كفارا فالرجل الذي معه شيء من الإيمان وله كبائر قد يدخل النار ثم يخرج منها: إما بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإما بغير ذلك؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» وكما في الصحيح أنه قال: «**أخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان**» وهكذا الوعيد في قاتل النفس والزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور وغير هؤلاء من أهل الكبائر؛ فإن هؤلاء – وإن لم يكونوا كفارا – لكنهم ليسوا من المستحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب، ومذهب أهل السنة والجماعة:

أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب؛ وهذا مبسوط في موضعه والله أعلم»[(١)].

شبهة المرجئة: استدلوا بنصوص الوعد وأنكرت نصوص الوعيد:

الرد على هذه الشبهة:

أن نصوص الوعد نصوص مطلقة عامة، وجاءت نصوص بينتها وفسرتها وقيدتها بقيود ثقال، كالإخلاص، واليقين، والموت عليها، وجاءت مشروطة بانتفاء الموانع من دخول الجنة، وأعظمها أن يموت كافرا الكفر المحبط - والعياذ بالله -، أو أن تكثر ذنوبه وترجح على حسناته، أو أن يعقب العمل ما يبطله، كالمن والأذى.

قال إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... والفرقة الأخرى المرجئة كفرت بهذه الأخبار وأنكرتها ودفعتها جهلا منهم بمعانيها»[(٢)]. وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ما ذكر أحاديث من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة: «قال أبو بكر قد كنت أمليت أكثر هذا الباب في كتاب الإيمان وبينت في ذلك الموضع معنى هذه الاخبار وإن معناها ليس كما يتوهمه المرجئة وبيقين يعلم كل عالم من أهل الاسلام أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرد بهذه الاخبار أن من قال لا اله إلا الله أو زاد مع شهادة أن لا اله إلا الله شهادة أن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يؤمن

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٧٨-٦٧٩.

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة ١/ ٥٣٦.

بأحد من الأنبياء غير محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا آمن بشيء من كتاب الله ولا بجنة ولا نار ولا بعث ولا حساب أنه من أهل الجنة لا يعذب بالنار ولئن جاز للمرجئة الاحتجاج بهذه الاخبار وان كانت هذه الاخبار ظاهرها خلاف أصلهم وخلاف كتاب الله وخلاف سنن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاز للجهمية الاحتجاج بأخبار رويت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تؤولت على ظاهرها استحق من يعلم أن الله ربه وإن محمدًا نبيه الجنة وإن لم ينطق بذلك لسانه ولا يزال يسمع أهل الجهل والعناد ويحتجون بأخباره مختصرة غير متقصاه وبأخبار مجملة غير مفسرة لا يفهمون اصول العلم يستدلون بالمتقصى من الاخبار على مختصرها وبالمفسر منها على مجملها قد ثبتت الاخبار عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلفظة لو حملت على ظاهرها كما حملت المرجئة الاخبار التي ذكرناها في شهادة أن لا اله إلا الله على ظاهرها لكان العالم بقبله أن لا اله إلا الله مستحقًا للجنة وإن لم يقر بذلك بلسانه ولا اقر بشيء مما أمر الله تعالى بالإقرار به ولا آمن بقلبه بشيء أمر الله بالإيمان به ولا عمل بجوارحه شيئًا أمر الله به ولا انزجر عن شيء حرمه الله من سفك دماء المسلمين وسبي ذراريهم وأخذ اموالهم واستحلال حرمهم فاسمع الخبر الذي ذكرت أنه غير جائز أن يحمل على ظاهره كما حملت المرجئة الاخبار التي ذكرناها على ظاهرها»[(١)].

❁❁❁

(١) المرجع السابق.

المطلب الثامن

أثرها على الخروج على الإمام

النصوص:

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم ٦/ ١٢ برقم: ٤٨٦٩.

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا إذا بايعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السمع والطاعة يقول لنا: «**فيما استطعتم**»[(١)].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[(٢)].

وفي رواية له: ومن مات وهو مفارق للجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية.

(الميتة) بكسر الميم.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسمعوا وأطيعوا إن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**»[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك**»[(٤)].

وعن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر فنزلنا منزلا فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو في جشره إذ نادى منادي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن**

---

(١) أخرجه البخاري ٢٣/ ٤٥٨ برقم: ٧١٩٩ ومسلم ٦/ ١٦ برقم: ٤٨٧٤.

(٢) أخرجه مسلم ٦/ ٢٢برقم: ٤٨٩٩.

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٢٤٦ برقم: ٦٦١.

(٤) أخرجه مسلم ٦/ ١٤ برقم: ٤٨٦٠.

يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها وتجيء فتن يرقق بعضها بعضا وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[(١)].

وعن أبي هنيدة وائل بن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه. ثم سأله فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم**»[(٢)].

وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها**» قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: «**تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم**»[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من**

---

(١) المرجع السابق ٦/ ١٨ برقم: ٤٨٨٢.

(٢) المرجع السابق ٦/ ١٩ برقم: ٤٨٨٨.

(٣) أخرجه البخاري ٣/ ١٣١٨ برقم: ٣٤٠٨ ومسلم ٦/ ١٧ برقم: ٤٨٨١.

أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني»[(١)].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية**»[(٢)]. وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح.

فهم السلف لهذه النصوص:

فهم السلف لهذه النصوص يتمثل في ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية الله وتحريم طاعتهم في المعصية وهو عقيدة أهل السنة والجماعة.

وإليك أقوال السلف:

قال أبو عبدالله سفيان بن سعيد الثوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عقيدته:

«... يا شعيب لا ينفعك ما كتبت حتى ترى الصلاة خلف كل بر وفاجر والجهاد ماض إلى يوم القيامة والصبر تحت لواء السلطان جار أم عدل»[(٣)].

وقال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في عقيدته: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة وترك الخصومات والجلوس مع

(١) أخرجه البخاري ٣/ ١٠٨٠ برقم: ٢٧٩٧ ومسلم ٦/ ١٣ برقم: ٤٨٥٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦/ ٢٥٨٨ برقم: ٦٦٤٥ ومسلم ٣/ ١٤ ٧٧ برقم: ٥٦.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ٣٠٥.

أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال والخصومات في الدين... والسمع والطاعة للائمة وامير المؤمنين البر والفاجر ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به. ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر لا يترك...»[(١)].

وقال الإمام علي بن المديني: «... ثم السمع والطاعة للائمة وامراء المؤمنين البر والفاجر ومن ولي الخلافة بإجماع الناس ورضاهم لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ليلة إلا وعليه امام برا كان او فاجرا فهو أمير المؤمنين، والغزو مع الأمراء ماض إلى يوم القيامة البر والفاجر لا يترك وقسمة الفيء واقامة الحدود للائمة الماضية ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم ودفع الصدقات إليهم جائزة نافذة قد برىء من دفعها إليهم وأجزأت عنه برا كان أو فاجرا. وصلاة الجمعة خلفه وخلف من ولاه جائزة قائمة ركعتان من اعادها فهو مبتدع تارك للإيمان مخالف وليس له من فضل الجمعة شيء إذا لم ير الجمعة خلف الائمة من كانوا برهم وفاجرهم والسنة أن يصلوا خلفهم لا يكون في صدره حرج من ذلك.

ومن خرج علي إمام من ائمة المسلمين وقد اجتمع عليه الناس فأقروا له بالخلافة بأي وجه كانت برضا كانت أو بغلبة فهو شاق هذا الخارج عليه العصا وخالف الآثار عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية.

---

(١) المرجع السابق.

ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس فمن عمل ذلك فهو مبتدع على غير السنة»[(١)].

وقال الإمام عبدالرحمن بن أبي حاتم، وأبي زرعة: أخبرنا محمد بن المظفر المقري قال حدثنا الحسين بن محمد بن حبش المقري قال حدثنا أبو محمد عبدالرحمن بن ابي حاتم قال: سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في اصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك فقالا أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازا وعراقا وشاما ويمنا فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

ونقيم فرض الجهاد والحج مع ائمة المسلمين في كل دهر وزمان... ولا نرى الخروج على الائمة ولا القتال في الفتنة ونسمع ونطيع لمن ولاه الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا ولا ننزع يدا من طاعة نتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة فإن الجهاد ماض مذ بعث الله عَزَّوَجَلَّ نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى قيام الساعة مع أولي الأمر من ائمة المسلمين لا يبطله شيء.

والحج كذلك ودفع الصدقات من السوائم إلى أولي الأمر من ائمة المسلمين...»[(٢)].

الوجه الثاني: حكم من يحكم بغير ما أنزل الله:

أولا: مناسبة نزول الآيات من سورة المائدة:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

في المسند ومعجم الطبراني عن ابن عباس: إن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود. ثم قال: فيهما والله نزلت وإياهما عنى الله عَزَّوَجَلَّ (١).

وقد صح أيضا عن أبي مجلز أن مناسبة نزولها في اليهود كما سيأتي..وهو الصحيح المتبادر من ظاهر تركيب السياق القرآني. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

ومع ذلك فهناك قاعدة مشهورة تقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويدل عليه رواية حذيفة في تفسير الآية: قال الإمام الحاكم في المستدرك: حدثنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري ثنا محمد بن عبدالسلام ثنا إسحاق بن إبراهيم أنبأ جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن همام قال: كنا عند حذيفة فذكروا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، فقال رجل من القوم: إن هذا في بني إسرائيل!!فقال حذيفة:

---

(١) رواه أحمد ١/ ٢٤٦ والطبراني في الكبير ٣/ ٩٥ بطوله وحسنه شعيب الأرنؤوط والألباني في الصحيحة ٦/ ١١١.

نعم الأخوة بنو إسرائيل إن كان لكم الحلو ولهم المر، كلا والذي نفسي بيده حتى تحذو السنة بالسنة حذو القذة بالقذة [(١)].

فتبين من هذا العرض السريع أن مناسبة نزولها في اليهود من أهل الكتاب الذين عاصروا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن هذا لا يمنع -حسب القواعد العلمية لتفسير القرآن- الحكم بعموم لفظها كما ذكر ابن جرير الآثار في تفسيرها:

تفسير ابن جرير للآية: قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسير الآية «يقول تعالى ذكره: ومن كتم حُكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكمًا بين عباده، فأخفاه وحكم بغيره، كحكم اليهود في الزانيين المحصنين. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه، ولكن بدَّلوا وغيروا حكمه، وكتموا الحقَّ الذي أنزله في كتابه ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ يقول: هم الذين سَتَروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينُه، وغطَّوه عن الناس، وأظهروا لهم غيره، وقضوا به، لسحتٍ أخذوه منهم عليه. اهـ ثم ذكر آثارا كثيرة أن المراد بهذه الآيات الثلاث من سورة المائدة اليهود وكل الكفار... ثم قال:

وقال بعضهم: عنى بـ«الكافرين»، أهل الإسلام، وبـ «الظالمين» اليهود، وبـ «الفاسقين» النصارى، ورواه عن الشعبي بتسع روايات عنه. ثم قال:

وقال آخرون: بل عنى بذلك: كفرٌ دون كفر، وظلمٍ دون ظلم، وفسقٌ دون

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ٣٤٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط البخاري ومسلم. ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده (٦٤٦٣).

فسق. ثم روى خمسة آثار عن عطاء قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾، قال: كفر دون كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم [(١)].

وروى بسنده عن سفيان، عن سعيد المكي، عن طاوس: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، قال: ليس بكفرٍ ينقل عن الملّة[(٢)].

ثم ذكر آثار ابن عباس وستأتي بالتفصيل ثم قال:

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب، وهى مرادٌ بها جميعُ الناس، مسلموهم وكفارهم. ثم ذكر آثار عن إبراهيم والحسن وغيرهما... ثم قال:

وقال آخرون: معنى ذلك: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به، فأما الظلم والفسق، فهو للمقرِّ به. ثم روى عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة وستأتي روايته.

ثم خلص ابن جرير من هذه الجولة بكلام نفيس هو كالختام لهذا التقرير، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأثابه: «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: نزلت هذه الآيات في كفّار أهل الكتاب، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت، وهم المعنيُّون بها. وهذه الآيات سياقُ الخبر عنهم،

---

(١) وإسناده صحيح.

(٢) وإسناده صحيح أيضـًا.

فكونُها خبرًا عنهم أولى... فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذكره قد عمَّ بالخبر بذلك عن جميع منْ لم يحكم بما أنزل الله، فكيف جعلته خاصًّا؟ قيل: إن الله تعالى عَمَّ بالخبر بذلك عن قومٍ كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكمَ، على سبيل ما تركوه، كافرون. وكذلك القولُ في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به، هو بالله كافر، كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حكم الله بعدَ علمه أنه أنزله في كتابه، نظير جحوده نبوّة نبيّه بعد علمه أنه نبيٌّ. اهـ

وظهر من قوله الأخير أن حكم الآية العموم وإن كان سبب نزولها خاص.

ثانيا: أقوال السلف في حكم من حكم بغير ما أنزل الله:

أقوال ابن عباس:

قوله: كفر دون كفر [(١)].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٣) والبيهقي في سننه الكبرى (٨/ ٢٠) وغيرهما من طريق سفيان بن عيينة، عن هشام بن حجير، عن طاوس، عن ابن عباس أنه قال: إنه ليس بالكفر الذي يذهبون (أي الخوارج) إليه، إنه ليس كفرا ينقل عن الملة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ كفر دون كفر. وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح وضعفه البعض لضعف ابن حجير. وارتضى هذا الأثر جماعة لا يحصون كثرة كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير إلى علماء عصرنا رحمهم الله تعالى. فقال الإمام الألباني في الصحيحة (٦/ ١١٣) كفر دون كفر: صح ذلك عن ترجمان القرآن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثم تلقاه عنه بعض التابعين وغيرهم. .اهـ =

قوله: هي به كفر [١].

قوله: هي كبيرة [٢].

= وفي تفسير ابن أبي حاتم (رقم ٦٤٦٧) من طريق ابن حجير أيضا: في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قال: ليس هو بالكفر الذي يذهبون إليه. وهذا القول صحيح في معناه وله شواهد أخرى عن ابن عباس وغيره..ومن الشواهد على صحة ما جاء عن ابن عباس في تفسيرها: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود... ثم أقسم على ذلك فقال: فيهما والله نزلت وإياهما عنى الله عز وجل. والحديث رواه أحمد ١/ ٢٤٦ والطبراني في الكبير ٣/ ٩٥ بطوله وحسنه شعيب الأرنؤوط والألباني في الصحيحة ٦/ ١١١ .

(١) رواه الإمام الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٥٥) عن عطاء بن أبي رباح وطاووس بن كيسان اليماني بأسانيد صحيحة. وروى من طريق هناد السري وابن وكيع... وأولاد وكيع ثلاثة: سفيان - ومليح - وعبيد بن وكيع - وهو أحسنهم كلاهما عن سفيان الثوري الإمام عن معمر بن راشد وهو من أقرانه... عن ابن طاوس وهو عبدالله بن طاووس ثقة... عن أبيه طاووس بن كيسان اليماني... عن شيخه ابن عباس الحبر والبحر، في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. قال: هي به كفر، وليس كفراً بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقيل الجملة الأخيرة مدرجة من كلام طاووس أو ابنه كما سيأتي تحريره.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره قال: حدثنا الحسن بن أبي الربيع. وقد قال ابن أبى حاتم: عن ابن طاووس، عن أبيه قال: سئل ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. قال: هي كبيرة. قال ابن طاووس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وروي عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر. اهـ قلت: قول ابن عباس: هي كبيرة أي أنه ليس بكفر يخرج من الملة..وقول ابن طاووس رواه الطبري بسند صحيح. =

= ومن الروايات عن ابن ابن عباس رواية علي بن أبي طلحة قال ابن جرير الطبري حدثنا المثنى ثنا عبدالله بن صالح (كاتب الليث ضعيف) قال ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قال: من جحد ما أنزل فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق.

وعلي بن أبي طلحة (وهو سالم بن المخارق) مختلف فيه وتفسيره عن ابن عباس من طريق مجاهد وغيره ولم يذكرها. وقد أثنى عليها الإمام أحمد في كلمته المشهورة واعتمد البخاري عليه في التفسير كثيرا. وهي كالشاهد لما مر من آثار عن ابن عباس وعطاء وطاووس.

رواية أبي مجلز: ومن هذه الروايات التي تؤيد صحة قول ابن عباس: ما رواه الطبري في تفسيره (رقم: ١٢٠٢٥ و ١٢٠٢٦) عن عمران بن حدير: قال: أتى أبا مجلز (وهو لاحق بن حميد الشيباني السدوسي وهو تابعي ثقة) ناس من بني عمرو بن سدوس (وهو من الإباضية الخوارج على الأغلب) فقالوا: يا أبا مجلز، أرأيت قول الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أحق هو؟ قال: نعم..قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أحق هو؟ قال: نعم. قال: فقالوا: يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون، وإليه يدعون، فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا، فقالوا: لا والله، ولكنك تفرق! (أي تخاف) قال: أنتم أولى بهذا مني! لا أرى، وإنكم ترون هذا ولا تحرجون! ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك، أو نحوا من هذا.

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: إسناداه صحيحان. وقال الشيخ محمود شاكر فيما نقله عن أخيه المحدث: ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية، إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء. اهـ =

قول عطاء: كفر دون كفر[(١)].

= التعليق على هذه الروايات: وضح أن المروي عن ابن عباس مطلق، ومقيد..المطلق قوله: هي كفر – أو – هي به كفر، وهذا لا يختلف في صحته. والمقيد قوله: كفر دون كفر أو – ليس بالكفر الذي يذهبون إليه... وهذا متكلم فيه ولكن يؤيده قوله في رواية ابن أبي حاتم: هي كبيرة. وسندها صحيح كما أسلفنا فالأولى للجمع حمل المطلق على المقيد فيتضح المقصود.

وهو ما تشهد له الروايات الأخرى عن طاووس وعطاء وأبي مجلز وغيرهم، فإن قال قائل: قوله في الآية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ معرفة بالألف واللام فالمراد الكفر الأكبر إلا إذا جاءت قرينة تصرفه عن ظاهره..قلنا: القرينة أن أصل الآيات نزلت في اليهود كما في سياقها الوارد، فللعمل بها وتطبيقها في الملة الإسلامية لابد من التفصيل المنقول عن السلف في تفسيرها، وها هو بين يديك:

كلام العلماء والمشهور المنقول عن أئمة أهل السنة قديما وحديثا، أن معنى كلام ابن عباس (كفر دون كفر) صحيح ثابت وإن لم ينقل فيه الإجماع..وهو قول حكاه ابن جرير: قال: وقال آخرون معنى ذلك ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به، فأما الظلم والفسق، فهو للمقرِّ به.

وقال أيضـًا: إن الله تعالى عَمَّ بالخبر بذلك عن قومٍ كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكمَ، على سبيل ما تركوه، كافرون. وكذلك القولُ في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به، هو بالله كافر.(٢) اهـ

(١) رواه الطبري من طريق سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾. قال: كفر دون كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم. وسنده صحيح.

قول طاووس [١].

ثالثا: بيان العلماء خلاصة رأي السلف في هذه النصوص:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْإِنْسَانُ مَتَى حَلَّلَ الْحَرَامَ - الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ - أَوْ حَرَّمَ الْحَلَالَ - الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ - أَوْ بَدَّلَ الشَّرْعَ - الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ - كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ. وَفِي مِثْلِ هَذَا نَزَلَ قَوْلُهُ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ هُوَ الْمُسْتَحِلُّ لِلْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ [٢]. اهـ

---

(١) قال ابن جرير الطبري: حدثنا هنادٌ قال ثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال ثنا أبي عن سفيان عن سعيد المكي عن طاوس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قال: ليس بكفرٍ ينقل عن الملة. وسنده صحيح وقال الإمام عبدالرزاق: أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. قال: هي به كفر.. قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. .وسنده صحيح. فأفاد هذا: أن في طريق سفيان عن معمر، جعل الكلام كله لابن عباس، وطريق عبدالرزاق عن معمر فصل كلام ابن عباس عن ابن طاووس، وعبدالرزاق أوثق الناس عن معمر وكلامه المقدم عند الاختلاف. روى ابن عساكر (تاريخ دمشق ٣٦/ ١٦٩) من طريق حنبل قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا اختلف أصحاب معمر فالحديث لعبدالرزاق. فالظاهر قول ابن عباس: هي به كفر. والزيادة لابن طاووس.

وقد يقال: هذا لا يعد اختلافًا فقد رواها معمر مرة من كلام ابن عباس ومرة من كلام طاوس، وطاووس هو التلميذ النجيب لابن عباس فالاحتمال كبير في أن يكون رواها عنه... فالله أعلم.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦٧

وقال في موضع آخر: «وَإِذَا كَانَ مِنْ قَوْلِ السَّلَفِ: إنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ فِيهِ إيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِمْ: إنَّهُ يَكُونُ فِيهِ إيمَانٌ وَكُفْرٌ لَيْسَ هُوَ الْكُفْرُ الَّذِي يَنْقُلُ عَنْ الْمِلَّةِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابُهُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قَالُوا: كَفَرُوا كُفْرًا لَا يَنْقُلُ عَنْ الْمِلَّةِ وَقَدْ اتَّبَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ[1]. اهـ

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «ينكر اللهُ على من خرج من حكم الله المُحْكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شرّ، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتارُ من السياسات الملكية المأخوذة عن مَلِكهم «جنكيز خان» الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكامٍ قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بَنِيهِ شرعا مُتّبعا يقدِّمونها على الحكم بكتاب الله وسنّة

---

(١) المرجع السابق ٧/ ٣١٢ قلت نقل قول الإمام أحمد عن الشالنجي في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٤): قال الإمام أحمد في كلام له: وَمِنْ نَحْوِ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. فَقُلْت لَهُ: (الشالنجي): مَا هَذَا الْكُفْرُ؟ قَالَ (أحمد): كُفْرٌ لَا يَنْقُلُ عَنْ الْمِلَّةِ مِثْلَ الْإِيمَانِ بَعْضُهُ دُونَ بَعْضٍ؛ فَكَذَلِكَ الْكُفْرُ حَتَّى يَجِيءَ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا يُخْتَلَفُ فِيه.

رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن فعل ذلك فهو كافرٌ يجب قتاله حتى يرجعَ إلى حكم الله ورسوله، فلا يُحَكِّم سواه في قليل ولا كثير قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾، أي: ومن أعدل من الله في حكمه، لِمَن عَقَل عن الله شرعه وآمن به وأيقن، وعلِم أنّ الله أحكمُ الحاكمين، وأرحمُ بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء»[(١)].

وقال ابن أبي العز شارح الطحاوية: «وهنا أمر يجب أن يُتفطَّن له، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا ينقل عن الملَّة، وقد يكون معصيةً كبيرةً أو صغيرةً، ويكون كفرًا: إما مجازيًّا، وإما كفرًا أصغر، على القولين المذكورين، وذلك بحسب حال الحكم: فإنه إن اعتقد أنَّ الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخيَّر فيه، أو استهان به، مع تيقنه أنه حكم الله؛ فهذا كفرٌ أكبر، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه، مع اعترافه بأنه مستحقٌّ للعقوبة؛ فهذا عاصٍ، ويسمى كافرًا كفرًا مجازيًّا أو كفرًا أصغر، وإن جهل حكم الله فيها، مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه؛ فهذا مخطئ، له أجرٌ على اجتهاده، وخطؤه مغفور»[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ١٣٩.

(٢) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص٣٠٥.

وقد سئل شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن حكم من حكم بغير ما أنزل الله؟

فأجاب قائلا: أقول وبالله تعالى التوفيق، وأسأله الهداية والصواب: «إن الحكم بما أنزل الله تعالى من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته، وكمال ملكه وتصرفه، ولهذا سمى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى أربابًا لمتبعيهم، فقال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ ﴾ [التوبة: ٣١]، فسمى الله تعالى المتبوعين أربابًا حيث جعلوا مشرعين مع الله تعالى، وسمى المتبعين عباداً حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى. وقد قال عدي بن حاتم لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: إنهم لم يعبدوهم، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**بل إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**». إذا فهمت ذلك فاعلم أن من لم يحكم بما أنزل الله، وأراد أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله وردت فيه آيات بنفي الإيمان عنه، وآيات بكفره وظلمه، وفسقه.

فأما القسم الأول: فمثل قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا

﴿وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٠- ٦٢] فوصف الله تعالى هؤلاء المدعين للإيمان وهم منافقون بصفات:

الأولى: أنهم يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت، وهو كل ما خالف حكم الله تعالى ورسوله ﷺ، لأن ما خالف حكم الله ورسوله فهو طغيان واعتداء على حكم من له الحكم وإليه يرجع الأمر كله وهو الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

الثانية: أنهم إذا دُعُوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدوا وأعرضوا.

الثالثة: أنهم إذا أصيبوا بمصيبة بما قدمت أيديهم، ومنها أن يعثر على صنيعهم جاؤوا يحلفون أنهم ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق، كحال من يرفض اليوم أحكام الإسلام ويحكم بالقوانين المخالفة لها زعماً منه أن ذلك هو الإحسان الموافق لأحوال العصر. ثم حذر سبحانه هؤلاء المدعين للإيمان المتصفين بتلك الصفات بأنه سبحانه يعلم ما في قلوبهم وما يكنونه من أمور تخالف ما يقولون، وأمر نبيه أن يعظهم ويقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً، ثم بين أن الحكمة من إرسال الرسول أن يكون هو المطاع المتبوع لا غيره من الناس مهما قويت أفكارهم واتسعت مداركهم، ثم أقسم تعالى بربوبيته لرسوله التي هي أخص أنواع الربوبية والتي تتضمن الإشارة إلى صحة رسالته ﷺ، أقسم بها قسماً مؤكداً أنه لا يصلح الإيمان إلا بثلاثة

أمور: الأول: أن يكون التحاكم في كل نزاع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: أن تنشرح الصدور بحكمه ولا يكون في النفوس حرج وضيق منه.

الثالث: أن يحصل التسليم التام بقبول ما حكم به وتنفيذه بدون توان أو انحراف.

وأما القسم الثاني: فمثل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾، وهل هذه الأوصاف الثلاثة تتنزل على موصوف واحد؟ بمعنى أن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم، فاسق، لأن الله تعالى وصف الكافرين بالظلم والفسق فقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤]، فكل كافر ظالم فاسق، أو هذه الأوصاف تتنزل على موصوفين بحسب الحامل لهم على عدم الحكم بما أنزل الله؟ هذا هو الأقرب عندي والله أعلم.

فنقول: من لم يحكم بما أنزل الله استخفافًا به، أو احتقاراً له، أو اعتقاداً أن غيره أصلح منه، وأنفع للخلق فهو كافر كفراً مخرجًا عن الملة، ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهاجًا يسير الناس عليه، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية إلا وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق، إذ من المعلوم بالضرورة العقلية، والجبلة الفطرية أن الإنسان لا يعدل عن منهاج

إلى منهاج يخالفه إلا وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ونقص ما عدل عنه. ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به، ولم يحتقره، ولم يعتقد أن غيره أصلح منه، وأنفع للخلق، وإنما حكم بغيره تسلطاً على المحكوم عليه، أو انتقاماً منه لنفسه أو نحو ذلك، فهذا ظالم وليس بكافر وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم. ومن لم يحكم بما أنزل الله لا استخفافاً بحكم الله، ولا احتقاراً، ولا اعتقاداً أن غيره أصلح، وأنفع للخلق، وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له، أو مراعاة لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق، وليس بكافر، وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله: إنهم على وجهين: أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ويعتقدون تحليل ما حرم، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال -كذا العبارة المنقولة عنه- ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب[1].

---

(١) انظر القول المفيد ٢/ ١٠٨.

الوجه الثالث: الخروج على ولي الأمر:

إِجْمَاعُ عُلَمَاء الأُمَّة عَلَى حُرْمَةِ الخُرُوجِ إلا بشروط وهي:

الشرط الأول: في قوله: «أن تروا» أي: أنتم بأنفسكم، لا بمجرد السماع؛ لأننا ربما نسمع عن ولاة الأمور أشياء فإذا تحققنا لم نجدها صحيحة، فلابد أن نرى نحن بأنفسنا مباشرة، سواء كانت هذه الرؤية رؤية علم أو رؤية بصر، المهم: أن نعلم

الشرط الثاني: في قوله: «كفرا» أي: لا فسوقا فإننا لو رأينا فيهم أكبر الفسوق فليس لنا أن ننازعهم الأمر إلا أن نرى كفرا.

الشرط الثالث: في قوله: «بواحًا» أي: صريحًا ليس فيه تأويلٌ، فإن كان فيه تأويلٌ ونحن نراه كفراً، ولكن هم لا يرونه كفراً، سواءً كانوا لا يرونه باجتهادٍ منهم أو بتقليدِ من يرونه مجتهداً، فإنا لا ننازعهم ولو كان كفراً، ولهذا كان الإمام أحمد يقول: إن من قال: القرآن مخلوقٌ فهو كافر، والمأمون كان يقول: القرآن مخلوق، ويدعو الناس إليه ويحبس عليه، ومع ذلك كان يدعوه بأمير المؤمنين؛ لأنه يرى بأن القول بخلق القرآن بالنسبة له ليس بواحًا، وليس صريحًا، فلابد أن يكون هذا الكفر صريحًا لا يحتمل التأويل، فإن كان يحتمل التأويل فإنه لا يحل لنا أن ننازع الأمر أهله .

الشرط الرابع: في قوله: «عندنا فيه من الله برهان» أي دليل قاطع، بأنه كفر، لا مجرد أن نرى أنه كفر، ولا مجرد أن يكون الدليل محتملا لكونه كفرا أو غير كفر، بل لابد أن يكون الدليل صريحا قاطعا بأنه كفر. فانظر إلى

هذه الشروط الأربعة، فإذا تمت الشروط الأربعة فحينئذ ننازعه، لأنه ليس له عذر، ولكن هذه المنازعة لها شروط.

الشرط الخامس: أن يكون لدينا قدرة وهذه مهمة جدا، يعني: لا أن ننازعه فنخرج إليه بالسكاكين ومحاجين الحمير، وهو عنده الدبابات، والقذائف، وما أشبه ذلك، فلو أننا فعلنا هذا لكنا سفهاء، وهذا حرام علينا، لأنه يضر بنا، ويضر بغيرنا أيضا، ولأنه يؤدي في النهاية إلى محو ما نريد أن يكون السلطان عليه، لأن السلطان كما هو معلوم ذو سلطة يريد أن تكون كلمته هي العليا، فإذا رآنا ننازعه أخذته العزة بالإثم، واستمر فيما هو عليه وزاد عليه، فيكون نزاعنا له زاد الطين بلة، فلا يجوز أن ننازعه إلا ومعنا قدرة وقوة على إزاحته وإلا فلا [(١)].

وقَدْ نَقَل إِجْماعَ الأُمَّةِ عَلَى حُرْمَةِ الخُروجِ عَلَى الحَاكِمِ الجَائِرِ جَمْعٌ مِن أَهْلِ العِلْمِ المحَقّقِينَ، وَإِلَيْكَ أَقْوَالهم مَعْزُوَّةً إِلَى مَظَانّها: قالَ الإِمَامُ أَحْمَد بنُ حَنْبَل: «أَجْمَعَ سَبْعُونَ رَجُلاً مِن التَّابِعِينَ وأَئِمَّةِ المسْلِمِينَ وَأَئِمَّة السَّلَفِ وفُقَهاء الأَمْصَارِ، عَلى أنَّ السُّنّة التي تُوُفّي عَلَيْهَا رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... -وَذَكَر مِنْهَا-: والصّبر تحتَ لِوَاء السُّلطان عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ عَدْلٍ أو جَوْرٍ، ولا نَخرُج عَلَى الأُمَراء بالسَّيْفِ وَإِنْ جَارُوا» [(٢)].

وقَالَ الإِمَام أَبُو الحَسَن الأَشْعَرِي: «الإِجمَاعُ الخَامِسُ وَالأَرْبَعُونَ: وَأَجْمَعُوا

---

(١) ذكر هذه الشروط شيخنا ابن عثيمين رحمه الله.

(٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص٢٢٦.

عَلى السَّمْعِ والطَّاعَةِ لِأئِمَّةِ المسْلِمِينَ وَعَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمورِهِم عَنْ رِضَى أَوْ غَلبَةٍ وامتَدَّتْ طاعَتُه مِن بَرّ وفَاجِرٍ لاَ يَلْزَمُ الخرُوج عَلَيْهِم بِالسَّيْفِ جَارَ أَو عَدَلَ، وعَلَى أَنْ يَغْزُوا مَعَهُم العَدُو، ويحجّ مَعهم البَيت، وتُدفَع إِلَيهِمْ الصَّدَقَات إِذَا طَلَبُوهَا ويُصَلَّى خَلْفَهُم الجُمع والأَعْيَاد»[(١)].

وقَال الإمَام المُزَنِي صَاحِب الإمَام الشَّافِعِي: «وَالطَّاعَة لأُولي الْأَمر فِيمَا كَانَ عِنْد الله عَزَّوَجَلَّ مَرْضِيًّا وَاجْتنَاب مَا كَانَ عِنْد الله مسخطا وَتَركُ الْخُرُوج عِنْد تَعَدِّيهِم وَجَوْرِهِمْ وَالتَّوْبَة إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ كَيْمَا يعْطف بهم على رَعِيَّتِهِمْ»[(٢)].

ثُمَّ قَال بَعْدُ: هَذِه مَقَالاتٌ وأَفْعَالٌ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا الماضُونَ الْأَوَّلونَ مِن أَئِمَّة الْهدَى وَبِتَوْفِيقِ الله اعْتَصَمَ بهَا التابعون قدْوَة ورِضَى وَجَانَبُوا التَّكَلُّف فِيمَا كفوا فسُدِّدُوا بِعَوْنِ الله وَوُفِّقُوا لم يَرْغَبُوا عَن الِاتِّبَاع فيقَصّرُوا وَلم يُجَاوِزُوهُ تَزَيُّدا فيعتدوا فَنحْن بِالله واثِقُون وَعَلِيهِ مُتَوكِّلُون وَإِلَيْهِ فِي اتِّبَاع آثَارِهِم رَاغِبُونَ»[(٣)].

وقَالَ ابْنُ بَطَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقَدْ أجْمَعَت العُلماءُ مِن أَهْلِ الفِقْهِ والعِلْم والنُّسَّاك والعُبَّاد والزُّهَّاد مِن أوَّل هَذِهِ الأُمَّةِ إلى وَقْتِنَا هَذا: أنَّ صلاةَ الجمُعَة وَالعِيدَيْنِ ومِنَى وعَرَفَات وَالغَزْو مَع كلِّ أَميرٍ بَرٍ وفَاجِرٍ... والسَّمْع والطَّاعَة لِمن وَلُّوه وَإِنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيـًا إلا فِي مَعْصِيةِ الله تَعَالى، فَلَيْسَ لمخْلُوقٍ فِيهَا طَاعَة»[(٤)].

---

(١) رسالة أهل الثغر ص١٦٨.

(٢) شرح السنة معتقد إسماعيل بن يحيى المزني ص٨٤.

(٣) المرجع السابق ٨٩.

(٤) الإبانة الصغرى ٢٧٩.

وقَالَ ابنُ المُنْذِر: «كُلَّ مَنْ يُحْفَظُ عَنْهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ كَالْمُجْمِعِينَ عَلَى اسْتِثْنَاءِ السُّلْطَانِ لِلْآثَارِ الْوَارِدَةِ بِالْأَمْرِ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِهِ وَتَرْكِ الْقِيَامِ عَلَيْهِ»[(١)].

وقَالَ الإِمَامُ النَّوَوِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَمَّا الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَقِتَالُهُمْ فَحَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانُوا فَسَقَةً ظَالِمِينَ، وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَحَادِيثُ بِمَعْنَى مَا ذَكَرْتُهُ، وَأَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّهُ لَا يَنْعَزِلُ السُّلْطَانُ بِالْفِسْقِ، وَأَمَّا الْوَجْهُ الْمَذْكُورُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا أَنَّهُ يَنْعَزِلُ، وَحُكِيَ عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ أَيْضًا فَغَلَطٌ مِنْ قَائِلِهِ مُخَالِفٌ لِلْإِجْمَاعِ. قَالَ الْعُلَمَاءُ وَسَبَبُ عَدَمِ انْعِزَالِهِ وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْفِتَنِ وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ وَفَسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ فَتَكُونُ الْمَفْسَدَةُ فِي عَزْلِهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي بَقَائِهِ»[(٢)].

نَقَل الإِمَام النَّوَوِي عَن القَاضِي عِيَاض قَوْله: «وَقَالَ جَمَاهِيرُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ لَا يَنْعَزِلُ بِالْفِسْقِ وَالظُّلْمِ وَتَعْطِيلِ الْحُقُوقِ وَلَا يُخْلَعُ وَلَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ بَلْ يَجِبُ وَعْظُهُ وَتَخْوِيفُهُ لِلْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ قَالَ الْقَاضِي وَقَدِ ادَّعَى أَبُو بَكْرِ بْنُ مُجَاهِدٍ فِي هَذَا الْإِجْمَاعَ وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ هَذَا بِقِيَامِ الحَسَن وابن الزُّبَيْرِ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ وَبِقِيَامِ جَمَاعَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ وَالصَّدْرِ الْأَوَّلِ عَلَى الحَجَّاجِ مَعَ ابْنِ الأَشْعَث وتَأَوَّلَ هَذا القَائِل قَولَه أَنْ لا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ فِي

(١) فتح الباري لابن حجر ٥/ ١٢٤.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/ ٢٢٩.

أَئِمَّةِ الْعَدْلِ وَحُجَّةُ الْجُمْهُورِ أَنَّ قِيَامَهُمْ عَلَى الْحَجَّاجِ لَيْسَ بِمُجَرَّدِ الْفِسْقِ بَلْ لِمَا غَيَّرَ مِنَ الشَّرْعِ وَظَاهَرَ مِنَ الْكُفْرِ قَالَ الْقَاضِي وَقِيلَ إِنَّ هَذَا الْخِلَافَ كَانَ أَوَّلًا ثُمَّ حَصَلَ الْإِجْمَاعُ عَلَى مَنْعِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ»[(١)].

وقَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابْن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلِهَذَا (اِسْتَقَرَّ) أَمْرُ أَهْل السُّنَّة عَلَى تَرْكِ القِتَال في الفِتْنَة للأَحَادِيثِ الصَّحِيحَة الثَّابِتَة عن النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَارُوا يَذْكُرُونَ هَذَا في عَقَائِدِهِم ويأمرون بالصَّبر على جور الأئِمَّة وترك قِتَالِهِم وإِنْ كَانَ قَد قَاتَلَ في الفِتْنَة خلقٌ كثيرٌ مِن أهل العِلْم والدِّين»[(٢)].

وقَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ في ترجمة الحَسَن بْن صَالِح بن حَي: وقَوْلهم: «وكَانَ يَرَى السَّيْفَ يعني أَنَّهُ كَانَ يرَى الخرُوجَ بِالسَّيْف عَلى أَئِمَّة الجوْرِ، وَهَذَا مَذْهَبٌ للسَّلَفِ قَدِيمٌ لكنَّ اسْتَقَرَّ الأمرُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ لِما رَأَوْهُ قد أَفْضَى إِلَى أَشَدَّ منه؛ فَفِي وَقْعَةِ الحرّة وَوَقْعَة ابن الأَشْعَث وغيرهما عِظةٌ لمنْ تَدَبَّر»[(٣)].

وَقَالَ ابْنُ القَطَّان الفَاسِي: «وأَجْمَعُوا أَنَّ السَّمْعَ والطَّاعَةَ وَاجِبَة لِأَئِمَّة المسْلِمِين، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِن أُمُورِهِم عَن رِضَا أَوْ غَلَبَةٍ وَاشْتَدَّتْ وَطْأَتُهُ مِنْ بَرّ وَ فَاجِرٍ لاَ يَلْزَمهُم الخُرُوجُ عَلَيْهِم بِالسَّيْفِ، جَارُوا أَوْ عَدلُوا»[(٤)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) منهاج السنة ٤/ ٥٢٩.

(٣) تهذيب التهذيب ١/ ٣٩٩.

(٤) الإقناع في مسائل الإجماع ١/ ٦١.

مخالفة فهم الخلف لفهم السلف:

أما المعتزلة، فمن أصولهم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعنون به الخروج على ولاة الأمر.

وأما الخوارج فتوضح الروايات سبب خروج الخوارج وهو: سوء فهمهم، ومخالفتهم السلف الصالح في فهم نصوص الكتاب والسنة:

«وأقبلت الخوارج يقولون: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة، فحملوا على الخيالة الذين قدمهم علي، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة، وأخرى إلى الميسرة فاستقبلتهم الرماة بالنبل، فرموا وجوههم، وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقُتل أمراؤهم: عبدالله بن وهب، وحرقوص بن زهير، وشريح ابن أوفى، وعبدالله بن سخبرة السلمي، وقال أبو أيوب: وطعنت رجلاً من الخوارج بالرمح، فأنفذته من ظهره وقلت له: أبشر يا عدو الله بالنار، فقال: ستعلم أينا أولى بها صليًا»[(١)].

وإن من كبرى آفات الخوارج صفة الجهل بالكتاب والسُّنة، وسوء فهمهم وقلة تدبرهم وتعقلهم، وعدم إنزال النصوص منازلها الصحيحة، وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين، وكان ابن عمر إذا سُئل عن الحرورية؟،

(١) انظر تلبيس إبليس ص٨٥. والدرر السنية ٩/ ٢٢٧.

قال: يُكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم، وينكحون النساء في عددهم، وتأتيهم المرأة فينكحها الرجل منهم ولها زوج، فلا أعلم أحدًا أحق بالقتال منهم، ومن جهلهم بشرع الله رأوا أن التحكيم معصية تستوجب الكُفر، فيلزم من وقع فيه أن يعترف على نفسه بالكُفر ثم يستقبل التوبة، وهذا ما طالبوا به عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ طلبوا منه أن يقر على نفسه بالكفر ثم يستقبل التوبة، فتخطئة الخوارج له ولمن معه من المهاجرين والأنصار واعتقادهم أنهم أعلم منهم وأولى منهم بالرأي، هي والله عين الجهل والضلال، ومن جهالاتهم الشنيعة أنهم وجدوا عبدالله بن خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه أم ولد حبلى، فناقشوه في أمور، ثم سألوه رأيه في عثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأثنى عليهما خيرًا، فنقموا عليه، وتوعدوه بأن يقتلوه شر قتله فقتلوه وبقروا بطن المرأة، ومر بهم خنزير لأهل الذمة فقتله أحدهم، فتحرجوا من ذلك وبحثوا عن صاحب الخنزير وأرضوه في خنزيره، فيا للعجب، أتكون الخنازير أشد حرمة من المسلمين عند أحد يدعي الإسلام، لكنها عبادة الجُهال، التي أملاها عليهم الهوى والشيطان، قال ابن حجر: إن الخوارج لما حكموا بكفر من خالفهم استباحوا دماءهم وتركوا أهل الذمة فقالوا: نفي لهم.

وكان أمير المؤمنين عليّ حريصًا على إرجاعهم إلى جماعة المسلمين، فأرسل ابن عباس إليهم لمناظرتهم، وهذا ابن عباس يروي لنا الحادثة، فيقول:.. فخرجت إليهم ولبست أحسن ما يكون من حلل اليمن، وترجلت،

ودخلت عليهم في دار في نصف النهار، وكان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيرًا، فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، ما هذه الحلة؟، قال: ما تعيبون عليّ؟، لقد رأيت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن ما يكون من الحلل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢]، قالوا: فما جاء بك؟ قال: قد أتيتكم من عند صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المهاجرين والأنصار، من عند ابن عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصهره وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون، فانتحى لي نفر منهم، قلت: هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابن عمه، قالوا: ثلاث، قلت: ما هن؟ قالوا: أما إحداهن: فإنه حكم الرجال في أمر الله، وقال الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠] ما شأن الرجال والحكم؟، قلت: هذه واحدة، وأما الثانية فإنه قاتل ولم يَسب ولم يغنم، فإن كانوا كفارًا لقد حل سبيهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل سبيهم ولا قتلهم، قلت: هذه اثنتان فما الثالثة؟، قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين، قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟، قالوا: حسبنا هذا، قلت لهم: أرأيتكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يرد قولكم أترجعون؟، قالوا: نعم، قلت: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله، فإني أقرأ

عليكم من كتاب الله أن قد صير الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه، أرأيتم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة: ٩٥]، وكان من حكم الرجال، أنشدكم بالله أحكم الرجال في صلاح ذات البين، وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟ قالوا: بلى، بل هذا أفضل، قلت: وفي المرأة وزوجها قال تعالى: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء: ٣٥]، فنشدتكم بالله حكم الرجال في صلاح ذات بينهم وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، قلت: وأما قولكم: قاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة، تستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟، فإن قلتم: إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦]، فأنتم بين ضلالتين فأتوا منها بمخرج، أفخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، فقال: وأما محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون، إن نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ

يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: «اكتب يا علي ما صالح عليه محمد رسول الله»، قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «امح يا علي، اللهم إنك تعلم أني رسول الله، امح يا علي واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله»، والله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم، فقاتلوا على ضلالتهم، قتلهم المهاجرون والأنصار.

فائدة: ويمكننا أن نستخرج من مناظرة ابن عباس للخوارج مجموعة من الدروس والعبر والحكم منها:

١- حسن الاختيار لمن سوف يقوم بالمناظرة مع الخصم: فقد اختار أمير المؤمنين علي ابن عمه عبدالله بن عباس، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن؛ لأن القوم كانوا يعرفون بالقراء ويعتمدون في الاستدلال على معتقدهم بالقرآن، لذا كان أولى الناس بمناظرتهم من هو أدرى الناس بالقرآن وبتأويله، ويمكن القول بأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو صاحب الاختصاص في هذه المناظرة، لما يتحلى به من إخلاص النية لله، واجتناب الهوى، والتحلي بالحلم والصبر، والتريث والترفق بالخصم، وحسن الاستماع لكل الخصوم، وتجنب المماراة، ووضوح الحجة وقوة الدليل.

٢- الابتداء مع الخصم من نقاط الاتفاق: فقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وخصومه من الخوارج متفقين على الأخذ من كتاب الله وسنة

نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك كان عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيث قال لهم: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يرد قولكم أترجعون؟، ومع هذا فإن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستوثق منهم قبل بداية المناظرة.

٣- معرفة ما عند الخصم من الحجج واستقصاؤها: والاستعداد لها قبل بداية المناظرة، ونتوقع أن أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علم بحججهم قبل مناظرتهم، وقرر لأصحابه كيفية الرد عليها.

٤- تفنيد مزاعم الخصم واحدة تلو الأخرى: حتى لا يبقى لهم حجة كما يتضح من كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مناظرته لهم كلما فرغ من تفنيد حجة قال: أخرجت من هذه؟.

٥- التقديم للمناظرة بما يخدم نتيجتها لصالح الحق: فإن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال في بداية الأمر وقبل المناظرة: أتيتكم من عند أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصهره وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم أحد منهم.

٦- إظهار احترام رأي الخصم أثناء المناظرة: ليكون أدعى لسماع كل ما عنده، وأن يحمله على احترام رأيه، وهذا ما ظهر من مناظرة ابن عباس للخوارج وقد وفق الله عَزَّوَجَلَّ الآلاف من هؤلاء: إذ بلغ عدد من شهد معركة النهروان منهم أقل من أربعة آلاف -كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى- وذلك عندما عرفوا الحق، وزالت عنهم الشبهة بفضل الله، ثم بسبب ما أوتيه ابن

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من علم وقوة وحُجة وبيان، إذ وضح لهم بطلان ما احتجوا به، بتفسير الآيات التي تأولوها التفسير الصحيح، وبالسُنة النبوية المشرفة والتي توضح معاني القرآن الكريم.

٧- قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وليس فيكم منهم أحد: هذا نص صريح من ابن عباس في كون الخوارج لا يوجد فيهم أحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يعترض عليه أحد من الخوراج، والرواية صحيحة وثابتة، كما أنه لا يوجد أحد من علماء أهل السنة -على حد علمي- قال: إن الخوارج كان فيهم بعض أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأما الزعم أن الخوارج كان فيهم بعض الصحابة فذلك عند المذهب الخارجي، وليس لهم دليل علمي موثوق به على قولهم.

٨- تحديد المرجعية: في قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أرأيتكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه وسُنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يرد قولكم أترجعون؟، قالوا: نعم. ففي كلام ابن عباس هذا درس مهم، ألا وهو تحديد المرجعية للمتناظرين حتى يمكن الوصول إلى نتيجة صحيحة من خلال المناظرة.

كما خرج أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمناظرة بقية الخوارج وسياسته في التعامل معهم بعد رجوعهم للكوفة ثم خروجهم من جديد بعد مناظرة ابن عباس للخوارج واستجابة ألفين منهم له، خرج أمير المؤمنين علي بنفسه إليهم فكلمهم فرجعوا ودخلوا الكوفة، إلا أن هذا الوفاق لم يستمر طويلاً، بسبب أن الخوارج فهموا من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رجع عن التحكيم وتاب من

خطيئته -حسب زعمهم- وصاروا يذيعون هذا الزعم بين الناس، فجاء الأشعث بن قيس الكندي إلى أمير المؤمنين، وقال له: إن الناس يتحدثون أنك رجعت لهم عن الكفر، فخطب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم الجمعة، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ذكرهم ومباينتهم الناس وأمرهم الذي فارقوه فيه، وفي رواية: جاء رجل فقال: لا حكم إلا لله، ثم قام آخر فقال: لا حكم إلا لله، ثم قاموا نواحي المسجد يحكمون الله، فأشار عليهم بيده، اجلسوا، نعم لا حكم إلا لله، كلمة حق يبتغى بها باطل، حكم الله أنتظر فيكم، وأخذ يسكتهم بالإشارة وهو على المنبر، فقام رجل منهم واضعًا إصبعيه في أذنيه ويقول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، فرد أمير المؤمنين علي بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

وأعلن أمير المؤمنين علي سياسته الراشدة العادلة تجاه هذه الجماعة المتطرفة، فقال لهم: إن لكم عندنا ثلاثًا:

١- لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد.

٢- ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا.

٣- ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا. فقد سلم لهم أمير المؤمنين علي بهذه الحقوق ما داموا لم يقاتلوا الخليفة، أو يخرجوا على جماعة المسلمين، مع احتفاظهم بتصوراتهم الخاصة في إطار العقيدة الإسلامية، فهو لا يخرجهم بداية من الإسلام، وإنما يسلم لهم بحق الاختلاف دون أن يؤدي إلى الفرقة

وحمل السلاح. ولم يزج أمير المؤمنين بالخوارج في السجون أو يسلط عليهم الجواسيس، ولم يحجر على حرياتهم، ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حرص على إيضاح الحجة وإظهار الحق لهم ولغيرهم ممن قد ينخدع بآرائهم ومظهرهم، فقد أمر مؤذنه بأنه يدخل عليه القراء ولا يدخل أحد إلا قد حفظ القرآن، فامتلأ الدار من قراء الناس، فدعا بمصحف إمام عظيم، فطفق يصكه بيديه ويقول: أيها المصحف حدث الناس، فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأله عنه، إنما هو مداد من ورق، ونحن نتكلم بما وعينا منه، فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء: ٣٥]. فأمة محمد أعظم دمًا وحرمة من امرأة ورجل، ونقموا علي أن كاتبت معاوية، فكتبت علي بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحديبية حين صالح قومه قريشًا، فكتب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فقال سهيل: لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال: «كيف تكتب؟» قال: اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اكتب» فكتبت، فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك، فكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله قريشًا، يقول الله في كتابه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولما أيقن الخوارج أن أمير المؤمنين عازم على إنفاذ أبي موسى الأشعري حكمًا، طلبوا منه الامتناع عن ذلك، فأبى علي عليهم ذلك وبين لهم أن هذا يعد غدرًا ونقضًا للأيمان والعهود، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهودًا، وقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل: ٩١].

فقرر الخوارج الانفصال عن أمير المؤمنين علي وتعيين أمير عليهم، فاجتمعوا في منزل عبدالله بن وهب الراسبي، فخطبهم خطبة بليغة زهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة والجنة، وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا السواد، إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه الأحكام الجائرة، ثم قام حرقوص بن زهير فقال بعد حمد الله والثناء عليه: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها، ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨]. فقال حمزة بن سنان الأسدي: يا قوم، إن الرأي ما رأيتم وإن الحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلاً منكم، فإنه لابد لكم من عماد وسنان، ومن راية تحفون بها، وترجعون إليها. فبعثوا إلى زيد بن حصن الطائي -وكان من رؤوسهم- فعرضوا عليه الإمارة فأبى، ثم عرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعرضوها على حمزة بن سنان فأبى، وعرضوها على شريح بن أبي أوفى

العبسي فأبى، وعرضوها على عبدالله بن وهب الراسبي فقبلها، وقال: أما والله لا أقبلها رغبة في الدنيا، ولا أدعها فرقًا من الموت»[(١)].

واجتمعوا أيضًا في بيت زيد بن حصن الطائي السنبيسي فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلا عليهم آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، والآية التي بعدها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]، والآية التي بعدها: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

ثم قال: فأشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا، أنهم قد اتبعوا الهوى ونبذوا حكم الكتاب، وجاروا في القول والأعمال، وأن جهادهم حق على المؤمنين، وبكى رجل منهم يقال له: عبدالله بن شجرة السلمي، ثم حرض أولئك على الخروج على الناس وقال في كلامه: اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم وأطيع الله كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره، وإن فشلتم فأي شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته»[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٣١٢ وتاريخ الطبري ٥/ ٦٨٩.

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٣١٢.

أصول الخوارج الأولين ومنهجهم وسماتهم العامة:

إن الدارس لحال الخوارج الأولين يخلص في تقرير منهجهم وأصولهم وسماتهم العامة إلى الأصول والسمات التالية:

١- التكفير بالمعاصي (الكبائر) وإلحاق أهلها (المسلمين) بالكفار في الأحكام والدار والمعاملة والقتال.

٢- الخروج على أئمة المسلمين اعتقاداً وعملاً- غالبًا- أو أحدهما أحيانًا.

٣- الخروج على جماعة المسلمين ومعاملتهم معاملة الكفار في الدار والأحكام، والبراء منهم وامتحانهم، واستحلال دمائهم.

٤- صرف نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى منازعة الأئمة والخروج عليهم، وقتال المخالفين.

٥- كثرة القراء الجهلة فيهم والأعراب، وأغلبهم كما وصفهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام**».

٦- ظهور سيما الصالحين عليهم، وكثرة العبادة كالصلاة والصيام، وأثر السجود، وتشمير الثياب، مسهمة وجوههم من السهر ويكثر فيهم الورع - على غير فقه - والصدق والزهد، مع التشدد والتنطع في الدين كما وصفهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تحقرون صلاتكم عند صلاتهم...**».

٧- ضعف الفقه في الدين وقلة الحصيلة من العلم الشرعي، كما وصفهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم**».

٨- ليس فيهم من الصحابة ولا الأئمة والعلماء وأهل الفقه في الدين أحد، كما قال ابن عباس: «**وليس فيكم منهم أحد**» يعني الصحابة.

٩- الغرور والتعالي على العلماء، حتى زعموا أنهم أعلم من علي وابن عباس وسائر الصحابة، والتفوا على الأحداث الصغار والجهلة قليلي العلم من رؤوسهم.

١٠- الخلل في منهج الاستدلال؛ حيث أخذوا بآيات الوعيد وتركوا آيات الوعد، واستدلوا بالآيات الواردة في الكفار وجعلوها في المخالفين لهم من المسلمين، كما قال فيهم ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين».

١١- الجهل بالسنة واقتصارهم على الاستدلال بالقرآن غالبًا.

١٢- سرعة التقلب واختلاف الرأي وتغييره (عواطف بلا علم ولا فقه)، لذلك يكثر تنازعهم وافتراقهم في ما بينهم، وإذا اختلفوا تفاصلوا وتقاتلوا.

١٣- التعجل في إطلاق الأحكام والمواقف من المخالفين (سرعة إطلاق الحكم على المخالف بلا تثبت).

١٤- الحكم على القلوب واتهامها، ومنه الحكم باللوازم والظنون.

١٥- القوة والخشونة والجلد والجفاء والغلظة في الأحكام والتعامل وفي القتال والجدال.

١٦- قصر النظر وضيق العَطَن وقلة الصبر، واستعجال النتائج.

١٧- يقتلون أهل الإسلام ويخاصمونهم، ويَدَعُون أهل الأوثان كما جاء وصفهم في الحديث.

خوارج العصر:

التكفير في هذا الزمان فتنة ابتلي بها بعض شباب المسلمين ومن ليس عندهم فقه في الدين، فأخذ بعضهم يكفر بعضـًا، وما علم هؤلاء أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**».

إن من أصول الخوارج، الخروج على الأئمة بالسيف، وهم يرون هذا تديناً يدينون الله به ولذلك قاتل السلف الخوارج وقتلوهم، وذلك لأنهم حملوا السيف على المسلمين، وعليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما اعتزلوه، لم يمنعهم من الصلاة ومخالطة إخوانهم المسلمين، حتى استباحوا الدم المعصوم وقتلوا خبيباً، ولما طالبهم بمن قتله، أبوا وقالوا: كلنا قتله!. فعندئذ قاتلهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وله في هذا أصل وسلف:

أهم مظاهر الغلو في العصر الحديث:

إن مظاهر الغلو في العصر الحديث كثيرة منها:

١- التشدد في الدين على النفس والتعسير على الآخرين: من مظاهر الغلو في هذا العصر الخروج عن منهج الاعتدال في الدين، الذي كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن هذا الدين يُسر، ولن يُشاد الدين أحد إلا غلبه**»، والتشدد في الدين كثيرًا ما ينشأ عن قلة الفقه في الدين، وهما من أبرز سمات الخوارج، أعني التشدد في الدين وقلة الفقه،

وأغلب الذين ينزعون إلى خصال الخوارج اليوم تجد فيهم هاتين الخصلتين، ومن مظاهر الغلو التعسير وترك التيسير، فأصحاب الغلو يطالبون الناس بما لا يُطيقون، ويلزمونهم بما لا يلزمهم به الشرع السهل، ولا يراعون قدراتهم وتفاوتها، وطاقاتهم واستطاعتهم وتباينها، وأفهامهم واختلافها، فيخاطبونهم بما لا يفهمون، ويطالبونهم بما لا يستطيعون. ومن أسباب التعسير الورع الفاسد، والجهل بمراتب الأحكام، والجهل بمراتب الناس، وأما مجالاته وصوره وأشكاله؛ إيجاب النظر والاستدلال على الجميع، وتحديث الناس بما لا يعرفون، وترك الرخص والإلزام بما لم يلزم به الشرع.

٢- التعالي والغرور وما يؤدي إليه من تصدر الأحداث: من السمات البارزة في ظاهرة الغلو في الوقت المعاصر: التعالي والغرور، وادعاء العلم في حين أنك تجد أحدهم لا يعرف بدهيات العلم الشرعي، والأحكام وقواعد الدين، أو قد يكون عنده علم قليل، بلا أصول ولا ضوابط ولا فقه ولا رأي سديد، ويظن أنه بعلمه القليل وفهمه السقيم قد حاز علوم الأولين والآخرين، فيستقل بغروره علم العلماء، ويقعد عن مواصلة طلب العلم فيهلك بغروره ويُهلك، وهكذا كان الخوارج الأولون يدعون العلم والاجتهاد، ويتطاولون على العلماء وهم من أجهل الناس. وأدى التعالم والغرور إلى تصدر حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام للدعوة بلا علم ولا فقه، فاتخذ بعض الناس منهم رؤوسًا جُهالاً، فأفتوا بغير علم وحكموا في الأمور بلا فقه، وواجهوا الأحداث الجسام بلا تجربة ولا رأي، ولا رجوع

إلى أهل العلم والفقه والتجربة والرأي، بل كثير منهم يستنقص العلماء والمشايخ، ولا يعرف لهم قدرهم، وإذا أفتى بعض المشايخ على غير هواه ومذهبه، أو بخلاف موقفه أخذ يلمزهم إما بالقصور أو التقصير، أو الجبن والمداهنة، أو بالسذاجة وقلة الوعي والإدراك، ونحو ذلك مما يحصل بإشاعته الفرقة والفساد العظيم، وغرس الغل على العلماء والحط من قدرهم ومن اعتبارهم، وغير ذلك مما يعود على المسلمين بالضرر البالغ في دينهم ودنياهم.

٣- الاستبداد بالرأي وتجهيل الآخرين: من أبرز معالم الغلو حديثًا التعصب للرأي، وعدم الاعتراف برأي الآخرين، وإنكار ما عندهم من الحق ما دام خالفه في الرأي، ومن الأسباب التي تولد التعصب للرأي والانحياز له، قلة العلم، مصادفة الرأي لذهن خال، الإعجاب بالرأي، اتباع الهوى. إن آفة الإعجاب بالرأي والتعصب له هوت بأصحابها إلى دركات خطيرة، في أزمنة قبلنا، فما الذي هوى بذي الخويصرة الجهول، يقول ابن الجوزي: وآفته أنه رضي برأي نفسه، ولو وقف لعلم أنه لا رأي فوق رأي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والذي هوى بأصحاب ذي الخويصرة هو إعجابهم برأيهم، وظن السوء في غيرهم، وكانت الخوارج تتعبد، إلا أن اعتقادهم أنهم أعلم من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهذا مرض صعب أوقعهم في المهالك. إن هؤلاء المساكين وقعوا أسرى لألفاظ لم يحسنوا فهمها، ولم يستمعوا لمن يجليها لهم، ويفهمهم إياها، لأن الصواب هو رأيهم وما عداه خطأ، يقول بعضهم

أولئك استولت عليهم ألفاظ الإيمان، ولا حكم إلا لله، والتبرؤ من الظالمين، وباسمها أباحوا دماء المسلمين وخضبوا البلاد الإسلامية بجميع الدماء وشنوا الغارة في كل مكان. إن هذا التعصب المقيت قد صدهم عن الاستجابة للحق بعد وضوحه، فقد ناظرهم أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وناظرهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأزالا أعذارهم، ودحضا شبهاتهم، وأقاما عليهم الحجج الدامغة، وأفحماهم بالبراهين الساطعة، فلم يستجب إلا بعضهم واندفع الكثير لاستباحة دماء المسلمين. إن التعصب للرأي وتجهيل الآخرين يتنافى مع مبادئ هامة في الإسلام كالشورى والتناصح.

٤- الطعن في العلماء العاملين: يشهد عصرنا حملة غريبة وظاهرة عجيبة ألا وهي الاعتداء على هيبة العلماء العاملين، وطعنهم بخناجر الزيغ والضلال، ولقد شهدت الصحف والمجلات، والكتب والمقالات، وقاعات الدروس والحلقات نماذج كثيرة من تلك الحملات، فجلب على أمة الإسلام أبلغ الأضرار، فشتت الشمل المشتت، وفرق الجمع المفرق، وعمق الشق الغائر، ولا شك أن للطعن في العلماء أسبابًا منها: التعلم بدون مُعلم، الفهم الخاطئ لبعض عبارات العلماء، واتباع الهوى، والحسد، وقد لجأ بعض الشباب إلى أسلوب سيء ألا وهو تتبع عورات العلماء وزلاتهم، وتصيد أقوالهم، وشواذ آرائهم، وتحريف كلمهم عن مقصودهم، فعلوا ذلك ليبرروا حملتهم الشعواء في الطعن على العلماء قديمًا وحديثًا ممن يخالف آراءهم، ولا يقر مناهجهم الحائدة عن الاعتدال، ولقد كان فعلهم

هذا وبالاً على الإسلام، وقرة عين لأعداء الإسلام من بني صهيون وعابدي الأوثان، وإن هذا المسلك المشين الذي يدل على جهل صاحبه أو مرضه وحقده، قد حذر منه العلماء لخطورته على المسلمين، ولأنه تنفيذ لمخطط أعداء الدين، وتحقيق لأغراضهم بلا تعب ولا نصب، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو ينهى عن رواية الأقوال الضعيفة عن الأئمة والعلماء: ومثل هذه المسألة الضعيفة، ليس لأحد أن يحكيها عن إمام من أئمة المسلمين لا على وجه القدح فيه، ولا على وجه المتابعة له فيها، فإن ذلك ضرب من الطعن في الأئمة واتباع الأقوال الضعيفة، وبمثل ذلك صار وزير التتار يلقى الفتنة بين مذاهب أهل السنة حتى يدعوهم إلى الخروج عن السُّنة والجماعة، ويوقعهم في مذهب الرافضة وأهل الإلحاد، إن الذين يطعنون في علماء الأمة العاملين يخدمون المخططات اليهودية والنصرانية والطاغوتية والاستخباراتية سواءً أشعروا بذلك أم لا، والذين لا يزالون يطعنون في علماء الأمة بفعلهم هذا يكونون قد ابتعدوا عن منهج أهل السنة الجماعة الذي يقول: وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل، وليعلم الذين يطعنون في علماء الأمة العاملين أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، وما يدري هذا المتعالم أن الاعتبار في الحكم على الأشخاص بكثرة الفضائل! قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعًا أن الرجل الجليل

الذي له في الإسلام قدم صالحة وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين. فمن يبقى لأمة الإسلام إذا طُعن في علمائهم؟، سيبقى شباب أحداث، لا يحسنون التلاوة، ولا تستقيم لهم لغة، وليس لهم باع طويلة ولا قصيرة في كثير من علوم الشرع؟!.

إن أسلوب الطعن في العلماء قرة عين لأعداء الإسلام؛ لأنه ينشئ جيلاً بلا قادة، وهل رأيتم جيلاً بلا قادة قد أفلح؟

إن أسوأ ما في الأمم السابقة علماؤهم وأحبارهم، فقد كثر فيهم الضالون المضلون، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤].

وأفضل ما في الإسلام علماؤه الربانيون العاملون، قال الشعبي: كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين، فإن علماءها خيارها، ووضح ذلك ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: وذلك أن كل أمة غير المسلمين فهم ضالون، وإنما يضلهم علماؤهم، فعلماؤهم شرارهم، والمسلمون على هدى وإنما يتبين الهدى بعلمائهم، فعلماؤهم خيارهم.

٥- سوء الظن: لقد كثر هذا المرض واستشرى ضرره في عصرنا،

وكانت هذه الآفة أداة فتك وتدمير، ووسيلة هدم وتخريب، وقد ترتب عليها نتائج خطيرة، ومفاسد عظيمة، ولهذه الآفة أسباب ودوافع منها: الجهل، فالجهل بتفهم حقيقة ما يرى وما يسمع وما يقرأ ومرمى ذلك، وعدم إدراك حكم الشرع الدقيق في هذه المواقف خصوصًا إذا كانت المواقف غريبة، تحتاج إلى فقه دقيق، ونظر بعيد، يجعل صاحبه يبادر إلى سوء الظن، والاتهام بالعيب، والانتقاص من القدر، ومنها الهوى؛ وهو آفة الآفات، فيكفي أن يرى المرء أو يقرأ أو يسمع ما لا يعجبه، ولا يرضاه، ولا يوافق عليه ويبتغيه... يكفي ذلك لأن يطلق للظن السيء الحبال، ويرخي له العنان فيرتع ويصول ويجول، ولا يزن الأمور بميزان الشرع الدقيق، ولا يحاول أن يلتمس المعاذير، ولا يراجع نفسه فضلاً عن أن يتهم فهمه، فالهوى يصده عن ذلك، ومنها العجب والغرور، فإحسان المرء ظنه بنفسه، وغروره بفهمه، إن كان ذا فهم، وإعجابه برأيه يدفعه لأن يزكي نفسه ويحتقر غيره فهو الصواب والكل خطأ، وهو الحق والكل باطل، وهو الهدى والجميع ضلال، وقد رأينا أُناسًا بلغ بهم سوء الظن مبلغًا غريبًا عجيبًا، حتى أخرجوا جميع الناس عداهم، أحياء وأمواتًا، فرموهم بالزيغ والضلال، وفساد الاعتقاد، فالجميع في عقيدته دخن ودخل، وهم وحدهم المخلصون، الجميع هالكون وهم الناجون. إن الظن السيء آفة، ولكل آفة آثارها الخطيرة، فمن آثارها السيئة -والسيء لا يلد إلا سيئًا-:

أنه يدفع صاحبه لتتبع العورات، والبحث عن الزلات، والتنقيب عن

السقطات، وهو بذلك يعرض نفسه لغضب الله وعقابه، لأن ذلك من صفات مرضى القلوب الذين توعدهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفضيحة فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عوراتهم يتتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه في بيته».

كما يدفع صاحبه إلى الغيبة، ونهش أعراض الآخرين، والتشفي فيهم.

وأخيرًا فالظن السيء يزرع الشقاق بين المسلمين، ويقطع حبال الأخوة، ويمزق وشائج المحبة، ويزرع العداء والبغضاء والشحناء.

ولما كانت هذه الآفة ذات خطورة عظيمة كما تبين، فقد كان موقف الإسلام حاسمًا، وقد دعا وأمر باجتناب أكثر الظن، لأن الوقائع والأحداث أثبتت أن الجري وراءه واتباعه عاقبته وخيمة، وأضراره عظيمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو: التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا، ومما يدفع سوء الظن التماس العذر لأخيك، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً».

الشدة والعنف مع الآخرين: من مظاهر الغلو حديثًا الشدة والعنف في التعامل مع الآخرين، واستخدامهما في غير محلهما، وكأن الأصل في التعامل مع الغير هو العنف والغلظة لا الرفق والرحمة، وهذه الشدة أصبحت هي الطابع الغالب على سلوك بعض الشباب، وقد تجاوز العنف حدود القول إلى العمل، فسفكت دماء بريئة بسببه ودمرت منشآت، ولقد تسبب هذا العنف في أضرار فادحة على أصحابه وعلى الأمة، وقد كانت هناك جملة أسباب رئيسية وراء استخدام بعض الشباب للعنف والشدة، والقسوة والغلظة، نستطيع أن نجملها فيما يلي: المحن: فكثير من هؤلاء الشباب تعرضوا لمحن شتى، أثرت في نفوسهم، وكان لذلك رد فعل شديد، فقابلوا العنف بالعنف، وغلب ذلك على طباعهم.

صفات خوارج العصر من فتاوى علماء العصر.

وإليك أخي الكريم بعضاً من صفاتهم مستقاة من فتاوى علماء العصر:

١- التدين بالخروج على ولاة الأمر وعدم السمع والطاعة لهم بالمعروف:

سئل سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

س: بعض الأخوة -هداهم الله- لا يرون وجوب البيعة لولاة الأمر في هذه البلاد، فما هي نصيحتكم سماحة الوالد؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ننصح الجميع بالهدوء والسمع والطاعة -كما تقدم- والحذر من شق العصى والخروج على ولاة الأمور لأن هذا من المنكرات العظيمة، هذا دين الخوارج، هذا دين الخوارج دين المعتزلة، الخروج على

ولاة الأمور وعدم السمع والطاعة لهم في غير معصية، وهذا غلط خلاف ما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالسمع والطاعة بالمعروف وقال: «**من رأى من أميره شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة**» وقال: «**من أتاكم وأمركم جميع يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاضربوا عنقه**» فلا يجوز لأحد أن يشق العصا أو يخرج على ولاة الأمور أو يدعوا إلى ذلك فهذا من أعظم المنكرات وأعظم أسباب الفتنة والشحناء والذي يدعو إلى ذلك هذا دين الخوارج والشاق يقتل لأنه يفرق الجماعة ويشق العصا، فالواجب الحذر من ذلك غاية الحذر، والواجب على ولاة الأمور إذا عرفوا من يدعوا إلى هذا أن يأخذوا على يديه بالقوة حتى لا تقع فتنة [(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الدولة بحمد الله لم يصدر منها ما يوجب الخروج عليها، وإنما الذي يستبيحون الخروج على الدولة بالمعاصي هم الخوارج، الذين يكفرون المسلمين بالذنوب، ويقاتلون أهل الإسلام، ويتركون أهل الأوثان، وقد قال فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنهم: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» وقال: «**أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة**» متفق عليه. والأحاديث في شأنهم كثيرة معلومة»[(٢)].

---

(١) من شريط بعنوان: «حكم الحملات الإعلامية على بلاد الحرمين».

(٢) مجموع فتاوى سماحته (٤/ ٩١).

قال محدث العصر الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عند حديث «**بايعنا رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على السمع والطاعة...**» بعد أن رد على الخوارج قال: والمقصود أنهم سنّوا في الإسلام سنةً سيئة، وجعلوا الخروج على حكام المسلمين دينـًا على مر الزمان والأيام، رغم تحذير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم في أحاديث كثيرة، منها قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الخوارج كلاب النار**».

ورغم أنهم لم يروا كفراً بَواحـًا منهم، وإنما ما دون ذلك من ظلم وفجور وفسق.

واليوم -والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون-؛ فقد نبتت نابتة من الشباب المسلم لم يتفقهوا في الدين إلا قليلا ورأوا أن الحكام لا يحكمون بما أنزل الله إلا قليلاً فرأوا الخروج عليهم دون أن يستشيروا أهل العلم والفقه والحكمة منهم بل ركبوا رؤوسهم أثاروا فتنـًا عمياء وسفكوا الدماء في مصر وسوريا، والجزائر وقبل ذلك فتنة الحرم المكي فخالفوا بذلك هذا الحديث الصحيح الذي جرى عليه عمل المسلمين سلفا وخلفا إلا الخوارج»[(١)].

٢- تكفير مرتكب الكبيرة: وسئل الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سماحة الوالد: نعلم. أن هذا الكلام أصل من أصول أهل السنة والجماعة، ولكن هناك -للأسف- من أبناء أهل السنة والجماعة من يرى هذا فكرا انهزاميا، وفيه شيء من التخاذل، وقد قيل هذا الكلام؛ لذلك يدعون الشباب إلى تبني العنف في التغيير: فأجاب: هذا غلط من قائله، وقلة فهم؛ لأنهم ما

(١) (انظر السلسلة الصحيحة المجلد السابع/ القسم الثاني صـ١٢٤٠-١٢٤٣).

فهموا السنة ولا عرفوها كما ينبغي، وإنما تحملهم الحماسة والغيرة لإزالة المنكر على أن يقعوا فيما يخالف الشرع كما وقعت الخوارج والمعتزلة، حملهم حب نصر الحق أو الغيرة للحق، حملهم ذلك على أن وقعوا في الباطل حتى كفروا المسلمين بالمعاصي كما فعلت الخوارج، أو خلدوهم في النار بالمعاصي كما تفعل المعتزلة.

فالخوارج كفروا بالمعاصي، وخلدوا العصاة في النار، والمعتزلة وافقوهم في العاقبة، وأنهم في النار مخلدون فيها. ولكن قالوا: إنهم في الدنيا بمنزلة بين المنزلتين، وكله ضلال.

والذي عليه أهل السنة – وهو الحق– أن العاصي لا يكفر بمعصيته ما لم يستحلها فإذا زنا لا يكفر، وإذا سرق لا يكفر، وإذ شرب الخمر لا يكفر، ولكن يكون عاصيا ضعيف الإيمان فاسقا تقام عليه الحدود، ولا يكفر بذلك إلا إذا استحل المعصية وقال: إنها حلال، وما قاله الخوارج في هذا باطل، وتكفيرهم للناس باطل؛ ولهذا قال فيهم النبي: «**إنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرميه ثم لا يعودون إليه يقاتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان**».

هذه حال الخوارج بسبب غلوهم وجهلهم وضلالهم، فلا يليق بالشباب ولا غير الشباب أن يقلدوا الخوارج والمعتزلة، بل يجب أن يسيروا على مذهب أهل السنة والجماعة على مقتضى الأدلة الشرعية، فيقفوا مع النصوص كما جاءت، وليس لهم الخروج على السلطان من أجل معصية أو

معاص وقعت منه، بل عليهم المناصحة بالمكاتبه والمشافهة، بالطرق الطيبة الحكيمة، وبالجدال بالتي هي أحسن، حتى ينجحوا، وحتى يقل الشر أو يزول ويكثر الخير.

هكذا جاءت النصوص عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالواجب على الغيورين لله وعلى دعاة الهدى أن يلتزموا حدود الشرع، وأن يناصحوا من ولاهم الله الأمور، بالكلام الطيب، والحكمة، والأسلوب الحسن، حتى يكثر الخير ويقل الشر، وحتى يكثر الدعاة إلى الله، وحتى ينشطوا لدعوتهم بالتي هي أحسن، لا بالعنف والشدة، ويناصحوا من ولاهم الله الأمر بشتى الطرق الطيبة السليمة، مع الدعاء لهم بظهر الغيب: أن الله يهديهم، ويوفقهم، ويعينهم على الخير، وأن الله يعينهم على ترك المعاصي التي يفعلونها وعلى إقامة الحق.

هكذا يدعو المؤمن الله ويتضرع إليه: أن يهدي الله ولاة الأمور، وأن يعينهم على ترك الباطل، وعلى إقامة الحق بالأسلوب الحسن ويذكرهم حتى ينشطوا في الدعوة بالتي هي أحسن، لا بالعنف والشدة، وبهذا يكثر الخير، ويقل الشر، ويهدي الله ولاة الأمور للخير والاستقامة عليه، وتكون العاقبة حميدة للجميع. من كتاب: «المعلوم من واجب العلاقة بين الحاكم والمحكوم».

٣- تهييج الناس وإيغار صدروهم على الحكام بذكر معايبهم والطعن فيهم والتظاهر ضدهم:

سئل سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن المنشورات الوافدة من لندن، ومضمون كلام السائلين أنهم سمعوا كلاماً لبعض العلماء لكن يريدون الفتيا التي تصدرونها أنتم حتى نكون على بينة من أمرنا.

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما المنشورات التي تصدر من المسعري ومن معه في لندن للتشويش على هذه الدولة وهذه البلاد، قد صدر منا غير مرة الوصية بعدم نشرها، أو بإتلاف ما يوجد منها، وأنها تجر إلى الفتن والفرقة والاختلاف، فالواجب إتلاف ما يصدر وعدم تداوله بين المسلمين، والدعاء لولاة الأمور بالتوفيق والهداية والصلاح وأن الله يعينهم على كل خير وأن الله يسدد خطاهم، ويمنحهم البطانة الصالحة، في الصلاة وغيرها؛ يدعو الإنسان ربه في سجوده، وفي آخر صلاته، وفي آخر الليل، للمسلمين ولولاة الأمر بالتوفيق والهداية وصلاح الأمر والبطانة، أما نشر العيوب فهذا من أسباب الفتن، ولما نشرت الخوارج العيوب في عهد عثمان قام الظلمة والجهلة على عثمان فقتل حتى قتل علي بسبب هذه المنشورات الخبيثة، ما بين كذب وبين صدق لا يوجب الخروج على ولاة الأمور، بل يوجب الدعاء لهم بالهداية والتوفيق، هذه الأشياء التي سلكها المسعري وأشباهه هي من جنس ما سلكه عبدالله بن سبأ وأشباهه في عهد عثمان وعلي حتى فرقت الأمة، وحتى وقعت الفتنة وقتل عثمان ظلماً، وقتل علي ظلما وقتل جمع كثير من الصحابة ظلماً من شريط بعنوان: «حكم الحملات الإعلامية على بلاد الحرمين».

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يرى البعض: أن حال الفساد وصل في الأمة لدرجة لا

يمكن تغييره إلا بالقوة وتهييج الناس على الحكام، وإبراز معايبهم؛ لينفروا عنهم، وللأسف فإن هؤلاء لا يتورعون عن دعوة الناس لهذا المنهج والحث عليه، ماذا يقول سماحتكم؟

فأجاب: هذا مذهب لا تقره الشريعة؛ لما فيه من مخالفة للنصوص الآمرة بالسمع والطاعة لولاة الأمور في المعروف، ولما فيه من الفساد العظيم والفوضى والإخلال بالأمن.

والواجب عند ظهور المنكرات إنكارها بالأسلوب الشرعي، وبيان الأدلة الشرعية من غير عنف، ولا إنكار باليد إلا لمن تخوله الدولة ذلك؛ حرصا على استتباب الأمن وعدم الفوضى، وقد دلت الأحاديث الصحيحة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، ومنها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من رأى من أميره شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة**»، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره في المنشط والمكره ما لم يؤمر بمعصية الله**».

وقد بايع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر، وعلى ألا ينزعوا يدا من طاعة، إلا أن يروا كفرا بواحا عندهم من الله فيه برهان. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

والمشروع في مثل هذه الحال: مناصحة ولاة الأمور، والتعاون معهم على البر والتقوى، والدعاء لهم بالتوفيق والإعانة على الخير، حتى يقل الشر ويكثر الخير.

نسأل الله أن يصلح جميع ولاة أمر المسلمين، وأن يمنحهم البطانة الصالحة، وأن يكثر أعوانهم في الخير، وأن يوفقهم لتحكيم شريعة الله في عباده، إنه جواد كريم.

وقال الإمام ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بل العجب أنه وجه الطعن إلى الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قيل له: (اعدل) وقيل له: «هذه قسمة ما أريد بها وجه الله»، قيل للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال الرسول: إنه «**يخرج من ضئضئ هذا الرجل من يحقر أحدكم صلاته عند صلاتهم**»، (ضئضئ أي: نفسه)، وهذا أكبر دليل على أن الخروج على الإمام يكون بالسيف ويكون بالقول والكلام، لأن هذا ما أخذ السيف على الرسول، لكنه أنكر عليه وما يوجد في بعض كتب أهل السنة من أن الخروج على الإمام هو الخروج بالسيف، فمرادهم من ذلك الخروج النهائي الأكبر، كما ذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: الزنى يكون بالعين، يكون بالأذن، يكون باليد، يكون بالرجل، لكن الزنا الأعظم الذي هو الزنا في الحقيقة هو: زنى الفرج ولهذا قال: والفرج يكذبه، فهذه العبارة من بعض العلماء هذا مرادهم، ونحن نعلم علم اليقين بمقتضى طبيعة الحال، أنه لا يمكن أن يكون خروجًا بالسيف إلا وقد سبقه خروج باللسان والقول، الناس لا يمكن أن يحملوا السيف على الإمام بدون شيء يثيرهم، فلا بد من أنه هناك شيء يثيرهم وهو الكلام، فيكون الخروج على الأئمة بالكلام خروجًا حقيقةً دلت عليه السنة ودل عليه الواقع، أما السنة فعرفناها، وأما الواقع فإننا نعلم علم اليقين: أن الخروج بالسيف فرع عن

الخروج باللسان والقول، لأن الناس لن يخرجوا على الإمام بمجرد (يالله أمش) خذ السيف لا بد أن يكون هناك شوكة وتمهيد وقدح للأئمة وسلب لمحاسنهم، ثم تمتلئ القلوب غيضاً وحقداً وحينئذ يحصل البلاء»[(١)].

وسئل العلاّمة الفوزان -حفظه الله-: هل الخروج على الأئمة يكون بالسيف فقط أم يدخل في ذلك الطعن فيهم وتحريض الناس على منابذتهم والتظاهر ضدهم؟

ج: ذكرنا هذا لكم، قلنا الخروج على الأئمة يكون بالسيف وهذا أشد الخروج ويكون بالكلام، بسبهم وشتمهم والكلام فيهم في المجالس وعلى المنابر، هذا يهيج الناس ويحثهم على الخروج على ولي الأمر وينقص قدر الولاة عندهم، فالكلام خروج.

وقال العلاّمة الفوزان عن الخوارج: وفي عصرنا ربما سمّوا من يرى السمعَ والطاعةَ لأولياء الأمور في غير ما معصية عميلاً، أو مداهنًا، أو مغفلاً. فتراهم يقدحون في وَلي أمرهم، ويشهِّرون بعيوبه من فوق المنابر، وفي تجمعاتهم، والرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**من أرادَ أن ينصحَ لسلطان بأمر؛ فلا يبدِ له علانيةً ولكن ليأخذْ بيدِه، فيخلو به، فإن قَبِلَ منه فذَاكَ، وإلا كان قد أدَّى الذي عليه**»[(٢)].

أو إذا رأى وليُّ الأمرِ إيقافَ أحدِهم عن الكلام في المجامع العامة؛

---

(١) من شريط بعنوان: «حكم الحملات الإعلامية على بلاد الحرمين».

(٢) رواه أحمد: (٣/ ٤٠٤) من حديث عياض بن غنم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه - أيضًا - ابن أبي عاصم في «السنة»: (٢/ ٥٢٢).

تجمعوا وساروا في مظاهرات، يظنونَ - جهلاً منهم - أنَّ إيقافَ أحدِهم أو سجنَهُ يسوغُ الخروج، أوَلَمْ يسمعوا قولَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة**»[(١)].

وفي حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصحيحين»: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم فيه من الله برهان**» وذلك عند سؤال الصحابة واستئذانهم له بقتال الأئمة الظالمين.

ألا يعلمُ هؤلاء كم لبثَ الإمامُ أحمدُ في السجنِ، وأينَ ماتَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؟!.

ألم يسجن الإمام أحمد بضع سنين، ويجلد على القول بخلق القرآن، فلِمَ لَمْ يأمر الناس بالخروج على الخليفة؟!.

وألم يعلموا أن شيخ الإسلام مكث في السجن ما يربو على سنتين، ومات فيه، لِمَ لَمْ يأمرِ الناسَ بالخروجِ على الوالي - مع أنَّهم في الفضلِ والعلمِ غايةٌ، فيكف بمن دونهم -؟؟!.

إنَّ هذه الأفكارَ والأعمالَ لم تأتِ إلينا إلا بعدما أصبحَ الشبابُ يأخذون علمَهم من المفكِّرِ المعاصرِ فلان، ومن الأديب الشاعرِ فلان، ومن الكاتبِ الإسلامي فلان، ويتركونَ أهل العلمِ، وكتبَ أسلافِهم خلفَهم ظهريًا؛ فلا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله[(٢)].

---

(١) عند مسلم (١٨٥٥)

(٢) من محاضرة ألقاها الشيخ بمدينة الطائف يوم الاثنين الموافق ٣/ ٣/ ١٤١٥هـ في مسجد الملك فهد بالطائف.

فائدة:

وقال عبدالله بن محمد الضعيف – أحد أئمة السلف –: قَعَدُ الخوارج هم أخبث الخوارج[(١)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف بعض أنواع الخوارج: والقَعَدية الذين يُزَيِّنون الخروجَ على الأئمة ولا يباشِرون ذلك[(٢)].

٣- تكفير من لم يحكم بغير ما أنزل الله مطلقـًا:

سئل الإمام عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ متى يكفر الحاكم بغير ما أنزل الله؟

فقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كان مستحلا له أو يرى أنه ما هو مناسب أو يرى الحكم بغيره أولى، المقصود أنه محمول على المستحل أو الذي يرى بعد ذا أنه فوق الاستحلال يراه أحسن من حكم الله، أما إذا كان حكم بغير ما أنزل الله لهواه يكون عاصيا مثل من زنا لهواه لا لاستحلال، عق والديه للهوى، قتل للهوى يكون عاصيا، أما إذا قتل مستحلا، عصى والديه مستحلا لعقوقهما، زنا مستحلا: كفر، وبهذا نخرج عن الخوارج، نباين الخوارج يكون بيننا وبين الخوارج حينئذ متسع ولا - بتشديد اللام بمعنى أو - وقعنا فيما وقعت فيه الخوارج، وهو الذي شبه على الخوارج هذا، الاطلاقات هذه.

وسئل في نفس الشريط هل ترون أن هذه المسألة اجتهادية؟

فقال الشيخ ابن باز: والله أنا هذا الذي أعتقده من النصوص يعني من

---

(١) رواه أبو داود في «مسائل أحمد» ص (٢٧١) بسند صحيح.

(٢) «هدي الساري» ص (٤٨٣) وانظر «الإصابة» عند ترجمة عمران بن حطّان.

كلام أهل العلم فيما يتعلق في الفرق بين أهل السنة والخوارج والمعتزلة، خصوصاً الخوارج، أن فعل المعصية ليس بكفر إلا إذا استحله أو دافع عن دونها بالقتال. (شريط مناقشة التكفير)

سئل الإمام محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عمن يكفر حكام المسلمين فقال: «هؤلاء الذين يكفّرون؛ هؤلاء ورثة الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والكافر من كفّره الله ورسوله، وللتكفير شروط؛ منها: العلم، ومنها: الإرادة؛ أن نعلم بأن هذا الحاكم خالف الحق و هو يعلمه، وأراد المخالفة، ولم يكن متأولاً...»[(١)].

فائدة: قال الإمام الشاطبي: استشهاد الخوارج على كفر الحاكم بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤] وهذا الاستشهاد ليس وليد عصرنا، بل خوارج عصرنا رووه بالإسناد المتصل إلى شيوخهم الخوارج الأوّلين، الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾[(٢)].

أخرج ابن وهب عن بُكير أنه سأل نافعاً: كيف راي ابن عمر في الحرورية (أي: الخوارج)؟

قال: «يراهم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أُنزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين».

---

(١) «من شريط كشف اللثام عن أحمد سلام – دار بن رجب».

(٢) في الاعتصام (٢/ ٧٣٦).

فسُرَّ سعيد بن جبير من ذلك، فقال: «مما يتّبع الحرورية من المتشابه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، ويقرنون معها: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١] فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر، ومن كفر عدل بربه؛ ومن عدل بربه فقد أشرك، فهذه الأمة مشركون. فيخرجون - أي: الحرورية - فيقتلون ما رأيت، لأنهم يتأولون هذه الآية».

٤- تكفير الحاكم بحجة أنه عطّل الجهاد: سئل العلاّمة الفوزان - حفظه الله -:

هناك من يقول: إن ولاة الأمر والعلماء في هذه البلاد قد عطلوا الجهاد وهذا الأمر كفر بالله، فما هو رأيكم في كلامه؟

ج: هذا كلام جاهل، يدل على أنه ما عنده بصيرة ولا علم وأنه يكفر الناس، وهذا رأي الخوارج والمعتزلة، نسأل الله العافية، لكن ما نسيء الظن بهم نقول هؤلاء جهال يجب عليهم أن يتعلموا قبل أن يتكلموا أما إن كان عندهم علم ويقولون بهذا القول، فهذا رأي الخوارج وأهل الضلال[(١)].

٥- التفجير: قال الإمام ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حادث تفجير الخبر: «لا شك أن هذا العمل لا يرضاه أحد، كل عاقل، فضلا عن المؤمن، لأنه خلاف الكتاب والسنة، ولأن فيه إساءة للإسلام في الداخل والخارج... ولهذا تعتبر هذه جريمة من أبشع الجرائم، ولكن بحول الله إنه لا يفلح الظالمون، سوف

(١) (الجهاد وضوابطه الشرعية للعلامة الفوزان ص ٤٩).

يعثر عليهم إن شاء الله، ويأخذون جزاءهم، ولكن الواجب على طلاب العلم أن يبينوا أن هذا المنهج منهج خبيث، منهج الخوارج الذي استباحوا دماء المسلمين وكفوا عن دماء المشركين». (الفتاوى الشرعية في القضايا العصرية للشيخ فهد الحصين)

٦- تجويز قتل رجال الأمن: سئل العلاّمة الفوزان - حفظه الله -:

انتشر بين الكثير من الشباب منشورات تفيد جواز قتل رجال الأمن وخاصة «المباحث» وهي عبارة عن فتوى منسوبة لأحد طلاب العلم وأنهم في حكم المرتدين، فنرجو من فضيلتكم بيان الحكم الشرعي في ذلك والأثر المترتب على هذا الفعل الخطير؟

ج: هذا مذهب الخوارج، فالخوارج قتلوا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل الصحابة بعد أبي بكر وعمر وعثمان، فالذي قتل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا يقتل رجال الأمن؟ هذا هو مذهب الخوارج، والذي أفتاهم يكون مثلهم ومنهم نسأل الله العافية [(١)].

٧- من أقوالهم: أن الإمام من يجتمع عليه جميع المسلمين في أنحاء المعمورة من الشرق إلى الغرب: سئل العلاّمة الفوزان - حفظه الله -: هل هذا القول صحيح ان الإمام من يجتمع عليه جميع المسلمين في أنحاء المعمورة من الشرق إلى الغرب؟

ج: هذا كلام الخوارج، الإمام من بايعه أهل الحل والعقد من المسلمين،

(١) (الفتاوى الشرعية في القضايا العصرية للشيخ فهد الحصين).

ويلزم الباقين طاعته. وليس بلازم أنه يبايعه كلهم من المشرق والمغرب، رجالاً ونساء، هذا ليس منهج الإسلام في عقد الإمامة.

وبعد: هل يوجد خوارج في هذا الزمان؟!!

سئل العلاّمة الفوزان – حفظه الله –: هل يوجد في هذا الزمان من يحمل فكر الخوارج؟

فقال الشيخ: يا سبحان الله، وهذا الموجود أليس هو فعل الخوارج، وهو تكفير المسلمين، وأشد من ذلك قتل المسلمين والاعتداء عليهم، هذا مذهب الخوارج.

وهو يتكون من ثلاثة أشياء:

أولاً: تكفير المسلمين.

ثانيًا :الخروج عن طاعة ولي الأمر.

ثالثًا: استباحة دماء المسلمين.

هذه من مذهب الخوارج، حتى لو اعتقد بقلبه ولا تكلم ولا عمل شيئًا، صار خارجيًا، في عقيدته ورأيه الذي ما أفصح عنه كتاب: «الفتاوى الشرعية في القضايا العصري» لفهد الحصين.

مرجئة العصر: يدعي مرجئة العصر أن تحكيم غير شرع الله ليس كفراً أكبر مخرجًا من الملة بل هو كفر دون كفر أي معصية لا تخرج صاحبها من الملة وقد زل بعض المتأخرة في هذا الخطأ المخالف لإجماع المسلمين.

قالت اللجنة الدائمة في تحذيرها من العنبري وتخرصاته: دعواه إجماع

أهل السنة على عدم كفر من حكم بغير ما أنزل الله في التشريع العام إلا بالاستحلال القلبي كسائر المعاصي التي دون الكفر. وهذا محض افتراء على أهل السنة، منشؤه الجهل أو سوء القصد نسأل الله السلامة والعافية[(١)].

وقالت اللجنة الدائمة في الرد على كتاب «التحذير من فتنة التكبير»: «...كما أن في الكتاب التهوين من الحكم بغير ما أنزل الله، وبخاصة في (ص٥ ح١)، بدعوى أن العناية بتحقيق التوحيد في هذه المسألة فيه مشابهة للشيعة - الرافضة -وهذا غلط شنيع...».

قال الشيخ محمد بن سالم الدوسري في رده على الشيخ علي الحلبي: قال الحلبي في ص٢٣ من أجوبته: «وهاهنا - أخيراً تنبيه مهم جداً - وهو أن بعض هؤلاء المخالفين من المكفرين يتكئون على أمثال (تلك) الفتاوى (!) ليصدروا من خلالها أحكاماً عاطفية (شبابية) جزافية (!) على بعض الدول الإسلامية».

قال مقيده:

أولاً: إن هذا من التهويش والتهويل والاستعداء الظالم الذي هو على حساب التوحيد والحلبي يستخدمه مع مخالفيه ليلزمهم ما ليس بلازم لهم وهي شنشنة نعرفها من أخزم، والله الموعد وهو الحسيب سبحانه.

ثانياً: ليس هناك تلازم بين كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وبين الخروج عليه فليس كل حاكم كفر جاز الخروج عليه فهناك شروط لابد من توافرها

(١) سبق فهم السلف في هذه المسألة.

كالقدرة والاستطاعة على الخروج عليه وكذلك عدم ترتب مفسدة أعظم من المفسدة الحاصلة الآن.

ثالثًا: أن أخطاء بعض الشباب في تصرفاتهم - إن وجدت - ليست مانعًا من بيان حكم الله في المسألة، فهذا لا يقوله من شم رائحة العلم.

رابعًا: أن القوم لا يرون مسألة تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله إلا مجرد الدماء والأشلاء والتفجيرات والفتن ومشابهة الخوارج ونسوا أو تناسوا أن القضية متعلقة بإفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالحكم وما هو موقفهم تجاهه، وما مدى إيمانهم به؟ وما حكم من نازع الله عَزَّوَجَلَّ فيه؟ وهل يجوز أو يسوغ أن يشارك الله في حكمه أحد من خلقه؟ فإن قالوا نعم فقد خلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم.

وإن قالوا لا، قلنا لهم: فما هذا الذي يحصل من بعض حكام زماننا؟ وأي شيء يسمى؟ «إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يحكم بأن الزنا حرام وهم - أي أولئك الحكام - يسنون ويقننون قانونًا يخالف بل يعارض هذا الحكم وهو أن الزنا إذا كان برضا الطرفين ممن بلغوا سن الرشد القانوني فلا شيء فيه ولا على فاعليه؛ بل إنه لا يُعد الوطء المحرم ابتداء من قبيل الزنا إلا إذا صدر من محصن وعلى فراش الزوجية، ويرى أن تحريك الدعوى في هذه الحالة حق للزوج وحده ويجيز أن يتدخل لإيقاف الدعوى في أية مرحلة من مراحل التقاضي كانت؛ بل له أن يتدخل لإيقاف العقوبة حتى بعد صدور الحكم النهائي».

فالحكم هنا لمن... لله أم لهؤلاء الحكام؟ فأي منازعة أعظم من هذه؟ وأي فرق بين فعلهم وفعل اليهود الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]. فقد روى الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى رقم عن البراء بن عازب قال: «مُرَّ على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم» فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه**». فأمر به فرجم فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١]. يقول: ائتوا محمداً «فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا،

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]. قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلها». فهؤلاء اليهود لما اصطلحوا على عقوبة معينة في حد الزاني غير ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ وجعلوا تلك العقوبة قانونًا يتحاكم إليه الجميع (الشريف والوضيع) بدلاً عن حُكْمِ الله حَكَمَ الله عليهم بالكفر وجعل فعلهم هذا حكمًا بغير ما أنزل الله.

مع ملاحظة أن اليهود يعدونه زنىً وأمراً محرمًا يعاقب عليه الشريف والوضيع أما في قوانين هذا الزمان فلا يكون زنىً إلا بالشروط والقيود التي ذكرت أنفًا.

أما قول البراء (في الكفار كلها) فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فسبب النزول في الكفار والمراد بها جميع الناس مسلمهم وكافرهم.

مع أنه قد خالفه غيره من الصحابة حيث قال حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قال: «نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لكم كل حلوة ولهم كل مرة ولتسلكنّ طريقهم قدى الشراك» ا هـ. تفسير الطبري.

وعلى هذا فقس في بقية الأحكام التي بُدِّلت وحُرِّفت مع ملاحظة أن ما يطبق في تلك البلدان – التي تحكم بالقوانين الوضعية – من أحكام الشريعة

الإسلامية لا يكون له قوة الإلزام حتى يعرض على مجلس الشعب أو مجلس الأمة أو البرلمان فيوافق عليه، فقل لي بربك الحكم هنا لمن؟ ألله أم لهؤلاء؟ هذا، وإن من أسس الدستور أن السلطة التشريعية من حق الحاكم أو الرئيس، وليست من حق الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا.

وجه مخالفتهم السلف: أن السلف عملوا بنصوص الوعد والوعيد فهم وسط بين طرفي الإفراط والتفريط، فلم يجعلوا مرتكب الكبيرة مؤمنًا كامل الإيمان كما قالت المرجئة، ولم يخرجوه من الإيمان ويقولوا بتخليده في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة، وقالوا: هو مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلم يصفوه بكمال الإيمان ولم يخرجوه من الإيمان، فبقولهم: (هو مؤمن) فارقوا الخوارج والمعتزلة، وبقولهم: (ناقص الإيمان) فارقوا المرجئة، فقول أهل السنة وسط بين طرفين وهدى بين ضلالتين. وأن الخلف نظروا إلى النصوص بعيني أعور وفاتهم نظر البصير وغارت العينان.

❁❁❁

المبحث الثاني

أثرها على التوحيد فيما يتعلق بذات الله.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أثرها على تقسيم التوحيد.

المطلب الثاني: أثرها على الربوبية.

المطلب الثالث: أثرها على الألوهية.

المطلب الأول

أثرها على تقسيم التوحيد

النصوص:

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٥].

قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس: ٣١].

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٩-٩٤].

قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ [طه: ٩٨].

والآيات كثيرة جدا.

ومن الأحاديث: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق على صحته: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**»(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار**»(٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل لما سأله عن الإسلام قال: «**أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**»(٣).

وفي الصحيح أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وفي الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا: «**لبيك لا شريك لك**» يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ قَدْ**»، أي حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا(٤).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذي يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين. عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قلت: يا رسول الله، أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خَلَقَك»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٤٩ برقم: ٢٧٠١ ومسلم ١/ ٤٤ برقم: ١٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤/ ٦٣٦ برقم: ٤٢٢٧.

(٣) أخرجه البخاري ٢/ ٥٠٦ برقم: ١٣٣٣ ومسلم ١/ ٣٣ برقم: ١١٦.

(٤) أخرجه مسلم ٤/ ٨ برقم: ٢٨٧٢.

(٥) أخرجه البخاري ٤/ ٦٢٦ برقم: ٤٢٠٧. ومسلم ١/ ٦٣ برقم: ٢٦٧.

فهم السلف لهذه النصوص:

فهم السلف من هذه النصوص تقسيم التوحيد:

قد ثبت عن كثير من السلف تقسيم التوحيد وممن ثبت عنه:

١- ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به.

٢- مجاهد.

٣- عطاء فأخرج سعيد بن منصور في التفسير قال ثنا هشيم قال نا عبدالملك عن عطاء في قوله: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» قال: كانوا يعلمون أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم وكانوا مع ذلك يشركون[(١)].

٤- عكرمة.

٥- الشعبي.

٦- قتادة.

٧- الضحاك.

٨- عبدالرحمن بن زيد بن أسلم :أخرج الطبري عن عبدالرحمن بن زيد: «ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به. ألا ترى كيف قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ

(١) إسناده صحيح وأخرجه كذلك الطبري في تفسيره.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥- ٧٧]، وقد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به .ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون»[(١)].

٩- ابن جرير الطبري، فقال: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما يُقِرُّ أكثر هؤلاء الذين وصَفَ عَزَّوَجَلَّ صفتهم بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥] بالله أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء (إلا وهم مشركون)، في عبادتهم الأوثان والأصنام، واتخاذهم من دونه أربابًا، وزعمهم أنَّ له ولدًا، تعالى الله عما يقولون. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك: ثم نقل عن السلف[(٢)].

وللإمام المفسرين ابن جرير الطبري الكلام على توحيد الربوبية والألوهية في مواضع كثيرة. وفيما يلي نستشهد ببعض عبارات الإمام الطبري للتدليل على هذه النقطة:

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣]. «يقول: وله

(١) هذا إسناده صحيح وأما أقوال الباقين من تلاميذ ابن عباس، فقد ذكرها ابن جرير بأسانيده.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٢٨٦.

خَشَع من في السموات والأرض، فخضع له بالعبودية وأقرَّ له بإفراد الربوبية، وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهية طوعًا وكرهًا»[(١)]. لعل القارئ يلاحظ كيف فرق الإمام الطبري بين العبودية والربوبية حيث بيَّن أن العبودية وهي الألوهية هي الخضوع لله بالعبادة والربوبية هي الإقرار بوحدانية الله وإفراد.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦]. يعني بذلك جلَّ ثناؤه: وذلُّوا لله بالطاعة واخضعُوا له بها وأفرِدُوه بالربوبية وأخلصوا له الخضوع والذِّلة بالانتهاء إلى أمره والانزجار عن نهيه ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكًا تعظِّمونه تعظيمَكم إياه»[(٢)]. وفي هذه العبارة أيضًا تفريق بين الربوبية والعبادة أي الألوهية.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] يقول: فليخلصْ له العبادةَ وليفردْ له الربوبية[(٣)] والعبارة واضحة.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ

(١) المرجع السابق ٦/ ٥٦٤.

(٢) المرجع السابق ٨/ ٣٣٣.

(٣) المرجع السابق ١٨/ ١٣٥.

﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ [ص: ٦٥] يقول: وما من معبودٍ تصلحُ له العبادة وتنبغي له الربوبية إلا الله الذي يدين له كلُّ شيء ويعبده كلُّ خلقٍ [(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣].

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن ربكم الذي له عبادة كل شيء، ولا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهيرٍ، ثم استوى على عرشه مدبرًا للأمور، وقاضيًا في خلقه ما أحبّ، لا يضادُّه في قضائه أحدٌ، ولا يتعقب تدبيره مُتَعَقِّبٌ، ولا يدخل أموره خلل. «ما من شفيع إلا من بعد إذنه»، يقول: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد، إلا من بعد أن يأذن في الشفاعة = (ذلكم الله ربكم)، يقول جل جلاله: هذا الذي هذه صفته، سيِّدكم ومولاكم، لا من لا يسمع ولا يبصر ولا يدبِّر ولا يقضي من الآلهة والأوثان = (فاعبدوه)، يقول: فاعبدوا ربكم الذي هذه صفته، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهية والربوبية، بالذلة منكم له، دون أوثانكم وسائر ما تشركون معه في العبادة = (أفلا تذكرون)، يقول: أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج، فتنيبون إلى الإذعان بتوحيدِ ربكم وإفراده بالعبادة، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها؟» [(٢)].

---

(١) المرجع السابق ٢١/ ٢٣٤.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١٩.

١٠- الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «من قال: لا أعرف الله أفي السماء أم في الأرض فقد كفر، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فإن قال: أقول: بهذه الآية، ولكن لا أدري أين العرش؟ .في السماء أم في الأرض؟ فقد كفر أيضاً.ونذكره من أعلى لا من أسفل؛ لأن الأسفل ليس من الربوبية والألوهية في شيء»[(١)].

١١- الإمام القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة ١٨٢هـ. فقد قال ابن مندة في كتابه التوحيد: أخبرنا محمد بن أبي جعفر السرخسي ثنا محمد بن سلمة البلخي ثنا بشر بن الوليد القاضي عن أبي يوسف القاضي أنَّه قال: «ليس التوحيد بالقياس ألم تسمع إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ في الآيات التي يصف بها نفسه أنَّه عالم قادر قوي مالك ولم يقل: إني عالم قادر لعلةِ كذا أقدر، بسبب كذا أعلم، وبهذا المعنى أملك، فلذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يعرف إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن

(١) القفه الأبسط ص ٥١.

كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

قال أبو يوسف: لم يقل الله: انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر وكيف أنا الخالق، ولكن قال: انظر كيف خلقت ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]. أي: تعلم أن هذه الأشياء لها ربٌّ يقلبها ويبديها ويعيدها وأنك مكون ولك من كونك. وإنما دل الله عَزَّوَجَلَّ خلقه بخلقه ليعرفوا أنَّ لهم ربًا يعبدوه ويطيعوه ويوحدوه، ليعلموا أنه مكونهم، لا هم كانوا، ثم تسمى فقال: أنا الرحمن وأنا الرحيم وأنا الخالق وأنا القادر وأنا المالك، أي: هذا الذي كونكم يسمى المالك القادر الله الرحمن الرحيم بها يوصف.

ثم قال أبو يوسف: يُعرف الله بآياته وبخلقه ويوصف بصفاته ويسمَّى بأسمائه كما وصف في كتابه، وبما أدَّى إلى الخلق رسوله. ثم قال أبو يوسف: إن الله عَزَّوَجَلَّ خلقك وجعل فيك آلات وجوارح عجز بعض جوارحك عن بعض وهو ينقلك من حال إلى حال لتعرف أنَّ لك ربًا وجعل فيك نفسك عليك حجة بمعرفته تتعرف بخلقه، ثم وصف نفسه فقال: أنا الرب وأنا الرحمن وأنا الله وأنا القادر وأنا المالك فهو يوصف بصفاته ويسمى بأسمائه، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤]، فقد أمرنا الله أن نوحده، وليس التوحيد بالقياس؛ لأنَّ القياس يكون في شيء له شبه ومثل، فالله تعالى وتقدس لا شبه له ولا مثل له تبارك الله أحسن الخالقين. ثم قال: وكيف يدرك التوحيد بالقياس وهو خالق الخلق بخلاف الخلق ليس كمثله شيء تبارك وتعالى. وقد أمرك الله عَزَّوَجَلَّ أن تؤمن بكلِّ ما أتى به نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فقد أمرك الله عَزَّوَجَلَّ بأن تكون تابعاً سامعاً مطيعاً ولو يوسّع على الأمة التماس التوحيد وابتغاء الإيمان برأيه وقياسه وهواه إذاً لضلوا، ألم تسمع إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١] فافهم ما فسر به ذلك»[(١)].

---

(١) ورواه أيضاً الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم إسماعيل التيمي الأصبهاني المتوفى سنة ٥٣٥هـ في كتابه «الحجة في بيان المحجة وشرح التوحيد ومذهب أهل السنة» ولأهميته عنده خصه بفصل مستقل فقال: «فصل في النهي عن طلب كيفية صفات الله عز وجل» وذكره بإسناده من طريق السرخسي به.

١٢- والإمام الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١هـ أبان في مقدمة عقيدته أنه إنما يذكر عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة، أبي حنيفة وتلميذيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وقال: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله أن الله واحد لا شريك له ولا شيء مثله ولا شيء يعجزه ولا إله غيره»[(١)].

فقوله «واحد لا شريك له» شامل لأنواع التوحيد الثلاثة، ثم فصلها بقوله: «لا شيء مثله»، وهذا في أسمائه وصفاته. وقوله «ولا شيء يعجزه» هذا في قدرته ومقدوراته، وهو من توحيد الربوبية، وقوله: «ولا إله غيره» هذا في توحيد الألوهية، فلا إله غيره يعني معبوداً يستحق العبادة. قال الإمام الفقيه ابن أبي العزِّ الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على العقيدة الطحاوية: «التوحيد يتضمن ثلاث أنواع: أحدهما: الكلام في الصفات والثاني: توحيد الربوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شيء والثالث: توحيد الألوهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يُعبد وحده لا شريك له [(٢)].

١٣- والإمام ابن بطة العكبري المتوفى سنة ٣٨٧هـ يقول في كتابه الإبانة: «إن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً.

---

(١) العقيدة الطحاوية مع شرحه لابن أبي العز ص٢٦.

(٢) المرجع السابق.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها»[(١)].

١٤- والإمام ابن منده المتوفي سنة ٣٩٥هـ في كتابه «كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته على الاتفاق والتفرد»، فعقد فيه أبوابًا في توحيد الربوبية، مثل: بدء الخلق، وخلق العرش، وتقدير المقادير، وخلق السموات والأرض، وغير ذلك مما هو دليل على توحيد الربوبية. ثم ذكر أبوابًا متعلقة بتوحيد الألوهية، مثل: الدعاء والذكر واسم الله الأعظم، وهو لفظ الجلالة، ثم ذكر أبوابًا متعلقة بتوحيد الأسماء والصفات[(٢)].

١٥- وابن أبي زيد القيرواني المالكي (ت٣٨٦هـ) في مقدمة عقيدته حيث قال: «من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير ولا ولد له ولا والد له، ولا صاحبة له ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء لا يبلغ كنه صفته الواصفون ولا يحيط بأمره المتفكرون... إلى أن قال: ... تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنًا، خالقًا لكل شيء، هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم... فذكر الأقسام الثلاثة»[(٣)].

---

(١) الإبانة لابن بطة (١٩٣، ١٩٤) من النسخة الخطية وفي مختصره (ق ١٥٠).

(٢) انظر هذه الأبواب في كتاب التوحيد لابن مندة ٦١١/ ١٦١.

(٣) الرسالة لابن أبي زيد القيرواني مع شرحه الثمر الداني ص١٠.

مخالفة الخلف فهم السلف:

يقول بعضهم: «إخوتنا الكرام، ابتدع محمد بن عبدالوهاب شيخ الوهابية بدعة جديدة فاسدة في الدين لم يسبقه إليها أحد قبله لا من السلف الصالح ولا الخلف .وهو قوله: «أقسام التوحيد: ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية»، ويقوم أذناب الوهابية في هذا العصر بالترويج لكتاب شيخهم هذا الذي يحتوي على هذا الكلام الفاسد بدعوى أنّه من الدين...».

وجاء في كتاب مصباح الأنام الفصل الثاني لعلوي بن أحمد الحداد «توحيد الألوهية داخل في عموم توحيد الربوبية بدليل أن الله تعالى لما أخذ الميثاق على ذرية آدم خاطبهم تعالى بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ولم يقل بإلهكم فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية ومن المعلوم أن من أقرَّ له بالربوبية فقد أَقرَّ له بالألوهية إذ ليس الربُ غير الإله بل هو الإله وأيضا ورد في الحديث أن الملكين يسألان العبد في قبره فيقولان من ربُكَ ولم يقولا من إلهك، فدلَّ على أن توحيد الربوبية شامل له.

ومن مجلة نور الإسلام والتي تصدرها مشيخة الأزهر الشريف (ربيع الثاني سنة ١٣٥٢هـ) نقد تقسيم التوحيد إلى ألوهية وربوبية لفضيلة العلامة يوسف الدجوي الأزهري المتوفى سنة ١٣٦٥هـ قولهم «إن التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية» تقسيم غير معروف لأحد قبل ابن تيمية، وغير معقول أيضا كما ستعرفه، وما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يقول لأحد دخل في الإسلام: إن هناك توحيدين وإنك لا تكون مسلما حتى توحد توحيد الألوهية، ولا أشار إلى ذلك بكلمة واحدة، ولا سُمِع ذلك عن أحد من السلف الذين يتبجحون باتباعهم في كل شيء، ولا معنى لهذا التقسيم...» وإنكارهم لتقسيم التوحيد كثير مشهور.

ومن هؤلاء المدعو حسن بن علي السقاف، صاحب كتاب: «التنديد بمن عدَّد التوحيد. إبطال محاولة التثليث في التوحيد والعقيدة الإسلامية»[(١)].

وجه مخالفتهم السلف: أن السلف فهموا من استقرائهم نصوص الباب أن التوحيد ينقسم إلى الأقسام الثلاثة المذكورة، وأن الخلف فهموا من النصوص أن التوحيد قسم واحد فتوحيد الربوبية، والأسماء والصفات هو توحيد الألوهية يلزمهم أن المشركين الذين أقروا بتوحيد الربوبية بنص القرآن مؤمنون كاملوا الإيمان.

شبهات المنكرين لتقسيم التوحيد:

الشبهة الأولى: أن هذا التقسيم اصطلاح حدث بعد القرون الثلاثة، وأن أول من اخترعه شيخ الإسلام ابن تيمية.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: بيان صحة هذا التقسيم:

أولا: أن هذا التقسيم لأنواع التوحيد مستفاد من النصوص الشرعية، فكل

---

(١) انظر كتاب «القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد للدكتور/ عبدالرزاق بن عبد المحسن العباد ص١٠ وما بعده.

نوع من أنواعه له مميزاته وخصائصه، وإن كان بينهما ترابط من وجه آخر، فتوحيد الربوبية تعلقه بإثبات الخلق والسيادة والتدبير، وتوحيد الألوهية تعلقه بعبادة الرب جل وعلا، وتوحيد الأسماء والصفات تعلقه بإثبات الأسماء والصفات لله عَزَّوَجَلَّ. كما أن اعتقاد الربوبية لا يتحقق للعبد به النجاة، ولا الدخول في الإسلام، أما توحيد الألوهية فهو الذي يتحقق به للعبد النجاة، ويدخل به الإسلام، وهذا لا يكون إلا مع الإيمان بالربوبية. أما الأسماء والصفات فتتعلق بالعلم والإثبات، فلو جهل شيئًا منها، فإنه لا يخرج من الإسلام أما الربوبية والألوهية فلو جهلها فإنه لا يكون مسلمًا، فإن ذلك ينقض إسلامه.

ثانيًا: أن هذا التقسيم هو فهم السلف الصالح للنصوص كما سبق بيان ذلك.

ثالثًا: أن هذا التقسيم هو من جنس تقسيمات العلماء الأخرى المتعلقة بالأمور الشرعية، مثل تقسيم العلماء الأمر الشرعي إلى: واجب ومندوب، أو تقسيمهم النواهي الشرعية إلى محرم ومكروه. أو قولهم إن الإيمان قول واعتقاد وعمل، أو تقسيمهم الصفات إلى ذاتية وفعلية، وغيرها كثير. فسائر هذه التقسيمات لم ترد في كلام الشارع منصوصًا عليها، وإنما استنبطها العلماء من خلال استقراء كلام الشارع. والتقسيم إنما يرد عليه ويبطل إذا كان الاستقراء غير صحيح أو غير كامل، كأن يقول: إن الإيمان هو الاعتقاد فقط أو القول فقط، أو يقول إن المطلوب من العباد هو توحيد

الربوبية والأسماء والصفات فقط، أو يقول: إن الأوامر الشرعية كلها أركان أو واجبات في مستوى واحد من حيث الطلب أو نحو ذلك. أما إذا كان الاصطلاح صحيحاً فلا يعاب من قال به، لأن ذلك من تدبر كلام الشارع والاستنباط منه حتى يعلم عن الشارع مراده.

رابعاً: أن سبب ظهور التقسيم بشكل واضح في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم من جاء بعده من تلاميذه وغيرهم، وخاصة الكلام في توحيد الألوهية يعود إلى ظهور الخلل في الأمة والانحراف في هذا النوع من التوحيد متأخراً، فقد صار كثير من المتأخرين من المسلمين يجهلون الغاية من دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ألا وهي دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، كما جهلوا ما يناقض هذه الدعوة أو يقدح فيها من الشرك والأسباب الموصلة إليه، بسبب عوامل كثيرة:

منها: إعراض المتكلمين من الأشاعرة والماتريدية فضلاً عن الجهمية والمعتزلة عن توحيد العبادة، ومعنى لا إله إلا الله، فلم يذكروها في كتبهم التي رمزوا إليها بأنها في أصول الدين أو قواعد العقائد، أو ما يجب على المسلم اعتقاده جملة وتفصيلا، فصار عند المسلمين عدم إحساس وانتباه لهذا الأصل الأصيل، فانتشر الشرك وعم وطم أكثر البلاد الإسلامية، وهم يظنون أن الشرك الذي حاربه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو أن يصنع تمثالاً على شكل من الأشكال فيصلي له ويسجد، ولم يشعروا أن دعاء غير الله والاستغاثة به أو النذر والذبح عند القبور أو الطواف حولها، سواء كانت قبور أنبياء أو من

يسمون أولياء؛ أن كل ذلك شرك أكبر مخرج من الملة، وما ذلك إلا لجهلهم بتوحيد الألوهية وبدعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما قاتل عليه المشركين.

فلما ظهرت هذه البدع في وقت شيخ الإسلام ابن تيمية بذل طاقته رَحِمَهُ اللَّهُ وجهده في نصح المسلمين وتحذيرهم من خطورة ما عليه كثير من المسلمين من الانحراف والضلال بوقوعهم في الشرك وهم لا يشعرون، فظهر في كلامه الدعوة إلى توحيد الألوهية، وأبان عن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع، وأن تلك الأنواع الثلاثة مطلوبة من العبد لا يغني واحد منها عن الآخر، كما أنا نقول إن الله موصوف بصفة السمع والبصر والقدرة والحياة ونحو ذلك. والمطلوب من العبد الإيمان بكل ذلك أنه من صفات الله تعالى.

كذلك التوحيد المطلوب من العباد أن يؤمنوا به هو أن الله تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن لا رب غيره، وأن لا يعبد إلا هو، فلا يشرك معه في العبادة غيره.

وهو في تقسيمه رَحِمَهُ اللَّهُ إنما هو متبع لمن سبق من العلماء لا مبتدع في تقسيم التوحيد.

ونشير هنا إلى أن دأب السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنه كلما ظهرت بدعة من البدع تكلم فيها ونصح للأمة فيها من عاصرها من العلماء والأئمة، ويكون من تقدم منهم على تلك البدعة فلم تظهر في زمانه لا يوجد له كلام فيها، مع أن الحق الواضح والراد على كل بدعة موجود ضمن الشرع في كلام الله تعالى وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يستنبطه من الشرع أهله.

فلو نظرنا في بدعة نفي الصفات فإنا لا نجد أحداً من الصحابة تكلم فيها، وذلك لأنها لم تظهر في زمانهم، وإنما ظهرت في زمن التابعين فكثر كلام التابعين فيها بخلاف بدعة الخوارج فإنا نجد للصحابة كلاماً كثيراً فيها، وذلك لأنهم أدركوها. وكذلك بدعة نفي القدر أدركها صغار الصحابة فظهرت في كلامهم، وأبانوا عن بطلانها وردوا على دعاتها.

وهكذا سائر البدع إنما تظهر في كلام العلماء الذين أدركوها فيجتهدون في دعوة الخلق إلى الحق نصحاً لله ولرسوله ولكتابه وللمسلمين لا أنهم مبتدعون في ذلك.

كذلك الأمر بالنسبة لتقسيم التوحيد وإبراز توحيد الألوهية الذي وقع عند المتأخرين من المسلمين الخلل في فهمه وتطبيقه، فظهر في كلام من أدرك ذلك، كشيخ الإسلام ابن تيمية ومن جاء بعده رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تلاميذه، وغيرهم من العلماء الداعين إلى الله على نهج القرآن والسنة وسلف الأمة.

الوجه الثاني: أن تقسيم التوحيد لم تنفرد به مدرسة أهل السنة: والأشاعرة يقسمون التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١ – أن الله واحد في ذاته لا قسيم له.

٢ – وأنه واحد في صفاته لا شبيه له.

٣ – وأنه واحد في أفعاله لا شريك له.

وتقسيمهم لا توافق القرآن بل القرآن ينقض فحواها لأن فحواها نفي أكثر الصفات والقرآن والسنة تثبتها، ولم يذكروا في أقسام التوحيد توحيد الألوهية الذي بعث الله جميع الرسل لتحقيقه.

ومن تناقضاتهم: أن البيجوري الأشعري يفرق بين الألوهية والربوبية: ففي تفسير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]. قال: «يشير الى تقرير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية»... والحاصل: أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية، دون العكس في القضية، لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وهو عين ما قاله العلامة الحنفي ملا علي قاري.

وقال البيجوري معرفًا للتوحيد: «هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتًا، وصفاتًا، وأفعالاً».

وقال الباقلاني: والتوحيد له هو «الإقرار بأنه ثابت موجود وإله واحد فرد معبود ليس كمثله شيء» وقال أيضًا: «إنه ليس معه إله سواه ولا من يستحق العبادة إلا إياه»[(١)].

الشبهة الثانية: كيف تطلقون عليه توحيدا و هو ينقسم إلى ثلاث؟، فلا يكون توحيدا إذا كان ينقسم إلى ثلاث؟.!

الجواب عن هذه الشبهة: من وجهين:

الوجه الأول: فالله هو الذي قسمه في كتابه إلى الأقسام الثلاثة التي هي توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وسماه توحيدا ولم نقسمه نحن.

---

(١) شرح جوهرة التوحيد (ص٩٧).

الوجه الثاني: ما نقول في تقسيم الأشاعرة التوحيد إلى ثلاثة أقسام وتسميتهم توحيدا؟

الشبهة الثالثة: ما قاله ابن رشد الحفيد هذه التفصيلات لا نفع منها غير تشرذم الامة والتقاتل والتنافر فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل من الأمة -الله في السماء- قولا واحدا مجملا من غير تفصيل و تقسيم.

الجواب: هذا التقسيم ليس تقسيما اصطلاحيا، وليس تقسيما وضع لتسهيل دراسة التوحيد كما زعم بعض الجهال هذا التقسم تقسيم شرعي ورد في كلام الله. فانظر إلى سورة الفاتحة:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] هذا الربوبية.

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣] هذا الأسماء والصفات.

وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] هذا توحيد الألوهية «العبادة».

وانظر بارك الله فيك إلى سورة «الكافرون» فهي تقرير لتوحيد الألوهية. وإلى سورة «الإخلاص» تقرير لتوحيد الأسماء والصفات. وإلى سورة «الناس» لتقرير توحيد الربوبية.

فهذا التقسيم من الله سبحانه وتعالى وليس التقسيم كان سببا في تفريق الأمة الى آخر هذا الكلام الباطل.

الشبهة الرابعة: قولهم: توحيد الألوهية داخل في عموم توحيد الربوبية بدليل أن الله تعالى لما أخذ الميثاق على ذرية آدم خاطبهم تعالى بقوله:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ولم يقل بإلهكم فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية ومن المعلوم أن من أقرَّ له بالربوبية فقد أَقرَّ له بالألوهية إذ ليس الربُ غير الإله بل هو الإله وأيضا ورد في الحديث أن الملكين يسألان العبد في قبره فيقولان من ربُكَ ولم يقولا من إلهك، فدلَّ على أن توحيد الربوبية شامل له.

الجواب عن هذه الشبهة:

منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال: أنهم يعملون بالنصوص كلها، والله قد أفرد الألوهية في آيات كثيرة، بل أنزل سورة كاملة في تقرير توحيد الألوهية وهي: سورة الكافرون. ومن الآيات التي أفرد الله فيها تقرير توحيد الألوهية قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والآيات أكثر من أن تحصر.

❁ ❁ ❁

المطلب الثاني

أثرها على الربوبية

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أثرها على اعتقاد أن بعض الأولياء يعلمون الغيب.

المسألة الثانية: أثرها على اعتقاد البعض أن بعض الخلق يتصرف في الكون.

المسألة الأولى: أثرها على اعتقاد أن بعض الأولياء يعلمون الغيب.

النصوص:

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النمل: ٦٥] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي يصعب حصرها.

ومن الأحاديث حديث جبريل المشهور: «قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل: المسئول عنها بأعلم من السائل...»[(١)].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم**

(١) سبق تخريجه.

ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[(١)].

روى مسلم في صحيحه عن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما**»[(٢)].

وروى أبو داوود عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٣)].

وقد قص الله تعالى علينا من أحوال الأنبياء والرسل وأخبارهم ما يؤكد هذا المعنى ويرسخه: فها هو إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم لم يعلم بأنه يولد له ولد من زوجته سارة إلا بعد أن جاءته الملائكة. وجاءته الملائكة في صورة بشر فلم يعرفهم فذبح لهم عجلا وقربه إليهم وقال: ألا تأكلون، ولم يعرف مقصدهم حتى أعلموه أنهم ذاهبون لتدمير قرى لوط.

وأما لوط، فإنه ساءته رؤية الملائكة، ولم يعرف حقيقة أمرهم إلا بعد أن أعلموه أنهم جاؤوا لإنجائه وإنجاء أهله. وكذلك سليمان قال له الهدهد: أحطت ما لم تحط به. وكذلك قصة يعقوب لم يعلم ما حصل ليوسف، ولم يعلم أين هو؟ حتى جاءه البشير. بل قال الله تعالى لسيد ولد آدم: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٧٣٣ برقم: ٤٤٢٠.

(٢) أخرجه مسلم ٧/ ٣٧ برقم: ٥٩٥٧.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٨٧ برقم: ٦٥٧ والترمذي ١/ ٢٣٨برقم: ١٣٥ وابن ماجه ١/ ٢٠٩ برقم: ٦٣٩ قال الألباني: صحيح.

أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، وأصابه هم عظيم، وقلق، وانشغال بال لما قذف المنافقون عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومكث أياما يستشير أصحابه ولم يعلم حقيقة الأمر حتى أنزل الله عَزَّوَجَلَّ براءتها، وكذب المنافقين إلى غير ذلك من أخبارهم وأحوالهم التي لا تدع للشك مجالا، وتدل على اليقين القطعي.

فهم السلف لهذه النصوص وأمثالها:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «من حدثك أن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه فقد كذب وهو يقول: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول: «**لا يعلم الغيب إلا الله**» وبلفظ: «من زعم أن محمد رأى ربه فقد أعظم ولكن قد رأى جبريل في صورته وخلقه سادا بين الأفق»[(١)].

ولفظ مسلم عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «... ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾» [النمل: ٦٥][(٢)].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من أتي، أو ساحرا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٨١، برقم ٣٠٦٢.

(٢) رواه مسلم ١١١٠ برقم: ٤٥٧.

(٣) البزار ٥/ ٢٧٤ برقم: ١٦٥٥، والطبراني ٨/ ٤٠٣ برقم: ٩٨ ٦٢.

قال البخاري في «صحيحه»: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن تأوّل غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلّفٌ ما لا علم له به»[(١)] وإن ناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من اعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا.

ولعمري ما من نجم الا يولد به الاحمر والاسود والطويل والقصير والحسن والذميم.

وما علم هذا النجم وهذه الدابة، وهذا الطائر بشيء من الغيب.

وقضى الله انه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله وما يشعرون ايان يبعثون ولعمري لو ان حدا علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه اللهبيده، واسجد له ملائكته، وعلمه اسماء كل شيء، واسكنه الجنة يأكل فيها رغدا حيث شاء، ونهى عن شجرة واحدة، فلم يزل به البلاء حتى وقع بما نهي عنه.

ولو كان يعلم الغيب لعلمته الجن حين مات نبي الله سليمان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فلبثت تعمل له حولا في اشد الهوان لا يشعرون بموته ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منساته أي تأكل عصاه فلما خر تبينت الجن وهي في مصحف ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تبينت الانس ان الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المبين وكانت الجن تقول قبل ذلك، إنها تعلم الغيب وتعلم ما في غد فابتلاهم الله بذلك، وجعل موت سليمان للجن عظة»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ١٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩١٣-١٩١٤.

وفهم السلف هو الذي اعتمده أصحاب المذاهب الأربعة وإليك أقوالهم:

أولا: نصوص الحنفية:

قول جمع من فقهاء الحنفية: لقد صرح جمع من فقهاء الحنفية وقالوا: «رجل تزوج بغير شهود، وقال: أشهد الله ورسوله والملك قالوا: يكفر؛ لأنه اعتقد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والملك يعلمان الغيب، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان يعلم الغيب حين كان في الأحياء، فكيف بعد الموت»[(١)].

قول جمع من فقهاء الحنفية: «رجل قال: أنا أعلم المسروقات، قال الشيخ الإمام محمد بن الفضل: هذا القائل ومن صدقه يكون كافرا، قيل له: فإن قال هذا القائل: أنا أخبر بإخبار الجن إياي بذلك قال: هو ومن صدقه يكون كافرا بالله لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أتى كاهنا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٢)]، لا يعلم الغيب إلا الله، لا الجن، ولا الإنس يقول الله تعالى: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾[(٣)] [سبأ: ١٤].

ثانيا: بعض نصوص المالكية:

قول ابن بطال حيث قال: «وهذا يبطل خرص المنجمين في تعاطيهم علم

---

(١) الفتاوى الخانية ٣/ ٥٧٦، والفتاوى الهندية ٢/ ٢٢٦ ن والجامع الوجيز ٦/ ٣٢٥ والبحر الرائق ٣/ ١٩٤.

(٢) أخرجه أحمد ١٥/ ١٦٤ برقم: ٩٢٩٠ وأبو داوود ١٠/ ٣٩٨ برقم: ٣٨٨٦ والترمذي ١/ ١٤١ برقم: ١٣٥ وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٣) الفتاوى الخانية ٣/ ٥٧٦، الجامع الوجيز ٦/ ٣٢٦ والبحر الرائق ٥/ ١٣٠، ودر المختار ٤/ ٢٤٢.

الغيب، فمن ادعى علم ما أخبر الله ورسوله، وأن الله منفرد به، فقد كذب الله ورسوله، وذلك كفر من قائله»[(١)].

قول القرطبي المفسر حيث قال: «فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه وتعالى شيئا عن الخلق، ويثبته لنفسه، ثم يكون له في ذلك شريك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، فكان هذا كله مما استأثر الله بعلمه، لا يشركه فيه غيره»[(٢)].

قول القاضي عياض حيث قال: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ تنبيه على حالة البشرية، وأن البشر لا يعلمون الغيب والبواطن إلا ما يطلعهم الله سبحانه عليه، وأنه منهم، وأنه يجوز عليه في أمور الظاهر باللحون عليهم...»[(٣)].

بعض نصوص الشافعية:

قول الحافظ ابن حجر حيث قال: «وفي الآية رد على المنجمين، وعلى كل من يدعي أنه يطلع على ما سيكون من حياة، أو موت، أو غير ذلك؛ لأنه مكذب للقرآن، وهم أبعد شيء من الارتضاء مع سلب صفة الرسالة عنهم»[(٤)].

---

(١) شرح البخاري لابن بطال ٧/ ٦١.

(٢) تفسير القرطبي عند قوله تعالى: وما يعلم تأويله إلا الله ٤/ ١٧.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم٥/ ٥٦١.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٣٧٧.

قول الإمام النووي حيث قال: «... معناه التنبيه على حالة البشرية، وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور إلا أن يطلعهم الله على شيء من ذلك، وأنه يجوز عليه في أمور الأحكام ما يجوز عليهم... فأجرى الله أحكامه على الظاهر الذي يستوي فيه هو، وغيره؛ ليصح الاقتداء به، وتطيب نفوس العباد للانقياد للأحكام الظاهرة من غير نظر إلى الباطن»[(١)].

بعض نصوص الحنابلة:

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال منكرا على مدعي علم الغيب: «وقد حدثني بعض الثقات عن هذا الشخص أنه كان يقول: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم مفاتيح الغيب»[(٢)].

وقال الشيخ عبدالرحمن بن الحسن: «والمقصود من هذا معرفة أن من يدعي معرفة علم الشيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، أو مشارك له في المعنى فيلحق به... بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي بذلك وليا لله؟»[(٣)].

مخالفة الخلف لفهم السلف في هذه المسألة:

أقوالهم:

فالباطنية زعموا أن أئمتهم وأولياءهم يعلمون ما كان وما يكون، ومن

---

(١) شرح مسلم للنووي ٥/ ١٩-٢٠.

(٢) الرد على البكري ص٢٠٧.

(٣) فتح المجيد ص٣٠٨.

النقولات في ذلك: ما ذكره صاحب «تأويل الدعائم» من أنه «جاء عن أولياء الله من الأخبار عما كان وما يكون من أمر العباد»[(١)].

وجاء في كتاب (المجالس المؤيدة): «أن الأئمة يعلمون من أمر المبدأ والمعاد ما حجبه الله عن كافة العباد»[(٢)]. وغيرها. وهذا القول قول محدث باطل لم ينقل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع توافر الدواعي على نقله.

ومثل ذلك ما نقل عن الرافضة حيث ينسب الكليني إلى جعفر الصادق قوله - وهو منه بريء براءة الذئب من دم يوسف -: «ورب الكعبة ورب البنية لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما، ولأتباعهما بما ليس في أيديهما؛ لأن موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أعطيا علم ما كان ويعطيا علم ما يكون، وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثنا من رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراثة»[(٣)].

وينسبون إلى الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله - وهو منه بريء أيضا -: «إنا نعلم المكنون، والمخزون، والمكتوم الذي لم يطلع عليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل غير محمد وذريته»[(٤)]. وهذا القول قول محدث باطل لم ينقل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع توافر الدواعي على نقله.

---

(١) تأويل الدعائم للقاضي النعمان ١/ ١٤٥.

(٢) المجالس المؤيدة لهبة الله الشيرازي ص٤٤١ نقلا عن الإسماعيلية إحسان ظهير.

(٣) الكافي للكيليني ١/ ١٦٠-٢٦١

(٤) دلائل الأمة لأبي جعفر الطبري الشيعي ص٦٧ تنبيه هام: هذا الكلام كسابقه لا يصح عن الحسن.

وهذه الفكرة موجودة لدى غلاة المتصوفة فبينهم وبين الرافضة أوجه شبه كثيرة من أهمها تقديس الأئمة والأولياء:

فهذا عبد الكريم الجيلي صاحب كتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) يزعم أنه كشف عن حقائق الأمور على ما هي عليه من الأزل إلى الأبد، وأنه رأى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة... [١].

وهذا الشعراني في كتاب (الطبقات الكبرى) ينقل عن شيخه الخواص أنه كان يعلم ما يكتب في اللوح المحفوظ ساعة بساعة[٢]. ومما قاله المتصوفة: «... وينبغي على المريد أن يعتقد في شيخه أنه يرى أحواله كلها كما يرى الأشياء في الزجاجة»[٣].

وبعضهم يعتقد في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يعلم جميع ما في اللوح المحفوظ وزيادة ومن ذلك قول البوصيري:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم [٤].

وزادت البريلوية زعموا أن علم الغيب سطر من سطور علمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونهر من بحور علمه بل ذرة منها [٥].

---

(١) الكامل ٢/ ٩٧.

(٢) راجع هذا وأمثاله في «الفكر الصوفي» لعبدالرحمن عبد الخالق.

(٣) الرماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم ص٢٨.

(٤) قصيدة البردة ص٥٢.

(٥) الدولة المكية بالمادة الغيبية للبريلوي ٢٣٠و ٦٩و ٧٠ وخالص الاعتقاد له ص٥٨ و١٥١.

وجه مخالفتهم فهم السلف:

أن السلف فهموا من نصوص الباب أن الغيب لا يعلمه إلا الله كما سبق، وأن الخلف ادعوا علم الغيب وحملوا النصوص على وجوه أخرى.

خلاصة شبهاتهم:

١- الاستثناءات في النصوص.

٢- قياس أنفسهم على الأنبياء بزعمهم لا فرق بين الأنبياء والأولياء، والأنبياء يعلمون الغيب.

٣- قول عمر: يا سارية الجبل.

٤- أنهم يتلقون الغيب عن الجن.

٥- الإلهام.

٦- الفراسة.

٧- الرؤية.

٨- الاستغناء عن النصوص.

٩- الاستدلال بقصة موسى والخضر.

نماذج:

قال علي حرازم ما نصه: وسألته (-يعني التجاني- في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

[الأنعام: ٥٩] فأجاب «بقوله: نفى الله العلم بالغيب عن الخلق بهذه الآية فلا يعلمها أحد سواه لكن العلم المنفي ما كان للخلق إليه طريق وطرق العلم إلى الخلق من أحد ثلاث: إما بحاسة من الحواس وإما بطريق السمع وتبليغ الخبر وإما بطريق الفكر وهو النظر في أمور معلومة يتوصل بالنظر فيها إلى العلم بأمور مجهولة فهذه الطرق هي المنفية عن الخلق وبقيت الطريق الرابع وهي ما يقذفه الله في قلب العبد بغير حاسة ولا واسطة ولا فكر ويسمى هذا بالعلم اللدني فإن هذا العلم غير منفي على الرسول ولا على غيره من النبيين والمرسلين يشهد بهذا قوله سبحانه وتعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضي من رسول «قال المرسي أو صديق أو ولي» ٤٣٥ اهـ أنظر كيف ادعى معرفة مفاتيح الغيب.

شبهاتهم:

الشبهة الأولى: الفراسة، قال مفتاح التجاني: (خامسها أنه لما انقطع الوحي التشريعي بانتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى أكرم الله أمته بأن أبقى لها ثلاثة أبواب مفتوحة للاطلاع على الغيب هي الفراسة والرؤيا والإلهام. أما الفراسة فدليلها من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله: (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) قال هم المتفرسون.

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبن السني وأبو نعيم معا في الطب وأبن مردويه والخطيب عن أبي سعيد

الخدري قال: قال رسول الله: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ** ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾» [الحجر: ٧٥] ثم ذكر شواهد هذا الحديث عن ثوبان وأنس وأبي الدرداء وأبي أمامة(١).

الجواب عن هذه الشبهة:

الفراسة ليست وحيا ولا علما وإنما هي ظن وتخمين قال ابن الأثير وابن منظور في تعريف الفراسة: «ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس».

وللعلماء فيه أقوال متقاربة يرجع معناها كلها إلى شيء واحد فعن قتادة: «للمتوسمين أي المعتبرين» وعن مجاهد: «للمتوسمين أي المتفرسين» وعن ابن عباس والضحاك: «للمتوسمين أي للناظرين» وعن مالك عن بعض أهل المدينة: «للمتوسمين أي للمتأملين» ولا يخفى أن الاعتبار والنظر والتفرس والتأمل معناها واحد وكذلك قول ابن زيد ومقاتل: «للمتوسمين أي للمتفكرين» وقول أبي عبيدة: «للمتوسمين أي للمتبصرين» فمآل جميع الأقوال راجع إلى شيء وهو أن ما وقع لقوم لوط فيه موعظة وعبرة لمن نظر في ذلك وتأمل فيه حق التأمل.

الشبهة الثانية: قصة موسى مع الخضر:

الجواب عن هذه الشبهة:

قال ابن حجر العسقلاني: «ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة

---

(١) انظر ص ٤٠ - ٤١ اهـ.

تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا: إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء أما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم... إلى أن قال نقلا عن أبي العباس القرطبي: وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت وكذا قال آخر أنا آخذ عن قلبي عن ربي وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع ونسأل الله الهداية والتوفيق»[(١)].

وقال القسطلاني: «وأما قصة موسى مع الخضر فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر يخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

والفرق أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن مبعوثا إلى الخضر ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته ولو كان مأمورا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل قال نعم، ومحمد مبعوث إلى جميع الثقلين فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه. فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى أو جوز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه وليشهد بشهادة الحق فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله تعالى وإنما هو من أولياء الشيطان وحلفائه ونوابه»[(٢)].

---

(١) فتح الباري ١/ ٣٥١.

(٢) المواهب اللدنية ٢/ ٤٩٢-٤٩٣.

قال القاضي عياض المالكي: «... أو من ادعى النبوة لنفسه أو جوز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة المتصوفة وكذلك من ادعى منهم أنه يوحى إليه وإن لم يدع النبوة أو أنه يصعد إلى السماء ويدخل الجنة ويأكل من ثمارها ويعانق الحور العين فهؤلاء كلهم كفار مكذبون للنبي؛ لأنه أخبر أنه خاتم النبيين لا نبي بعده وأخبر عنه الله تعالى أنه خاتم النبيين وأنه أرسل كافة للناس؛ وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره وأن مفهومه المراد منه دون تأويل ولا تخصيص فلا شك في كفر هؤلاء الطوائف كلها قطعا اجماعا وسمعا»[(١)].

قال محمد عليش المالكي: «ويكفر إن جوز اكتساب النبوة بتصفية القلب وتهذيب النفس والجد في العبادة لاستلزامه جوازها بعد سيدنا محمد «وتوهين ما جاء به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم»[(٢)].

المسألة الثانية: أثرها على اعتقاد البعض أن بعض الخلق يتصرف في الكون.

النصوص:

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

---

(١) الشفا ٢/ ٥٨٦-٥٨٧.

(٢) منح الجليل شرح مختصر خليل ٤/ ٤٦٤ وانظر حاشية الدسوقي ٤/ ٢٦٩.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢- ٢٤].

قال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة: ٥].

قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢].

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة.

ومن الأحاديث: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنت خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوما، فقال: يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم: أن الأمة إذا اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»(٢).

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. قال: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم.. لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٢٨٩ برقم: ٨٠٨ مسلم ٢/ ٤٧ برقم: ١٠٩٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٤/ ٦٦٧ برقم: ٢٥١٦ قال الترمذي: حسن صحيح وقال الألباني: صحيح.

من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سليني ما شئت من مالي! لا أغني عنك من الله شيئا»»[(١)].

فهم السلف لهذه النصوص وأمثالها:

نماذج:

ما جاء عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن عبدالأعلى الثعلبي، عن أبي عبدالرحمن السلمي، عن عليّ رفعه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢]، قال: شكركم تقولون مُطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا[(٢)].

وقال: حدثنا ابن حُميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن عبدالأعلى، عن أبي عبدالرحمن، عن عليّ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢]، قال: كان يقرؤها (وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ) يقول: جعلتم رزق الله بنوء النجم، وكان رزقهم في أنفسهم بالأنواء أنواء المطر إذا نزل عليهم المطر، قالوا: رُزقنا بنوء كذا وكذا، وإذا أمسك عنهم كذّبوا، فذلك تكذيبهم[(٣)].

ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حدثنا ابن بشار، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال:

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ١٠١ برقم: ٢٦٠٢ ومسلم ١٣٣ برقم: ٥٢٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٥٤.

(٣) المرجع السابق.

ما مُطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافرًا، يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذَا، وقرأ ابن عباس (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)[(١)].

حدثنا أبو كُرَيب، قال: ثنا ابن عطية، قال: ثنا معاذ بن سليمان، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ثم قال: ما مُطر الناس ليلة قطّ، إلا أصبح بعض الناس مشركين يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، قال: وقال وتجعلون شكركم أنكم تكذّبون[(٢)].

حدثني يعقوب، قال: ثنا هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شكركم على ما أنزلت عليكم من الغيث والرحمة تقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا؛ قال: فكان ذلك منهم كفرًا بما أنعم عليهم.

ما جاء عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال مجاهد: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢]. قال: قولهم في الأنواء: مُطِرنا بنوء كذا، وبنوء كذا، يقول: قولوا: هو من عند الله، وهو رزقه. وهكذا قال الضحاك وغير واحد[(٣)].

ما جاء عن ابن جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن جرير: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج قال: قال ابن جريج: قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي

(١) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٥٤٧.

نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، قال: الهدى والضلالة «لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير» قال: «أعلم الغيب»، متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح [(١)].

وقد اعتمد فهم السلف الصالح أصحاب المذاهب الأربعة:

قال الإمام محمود الألوسي، وتبعه ابنه نعمان الألوسي، وحفيده شكري الألوسي: «... ومنهم من يثبت التصرف لهم جميعا في قبورهم، وإن طولبوا بالدليل قالوا: ثبت ذلك بالكشف... قاتلهم الله ما أجهلهم، وأكثر افتراءهم، ومنهم من يزعم أنهم يخرجون من القبور، ويتشكلون بأشكال مختلفة، وعلماؤهم يقول: إنما يظهر أرواحهم مشكلة، وتطوف حيث شاءت، وربما تشكلت بصورة أسد، أو غزلان، أو نحوه... كل ذلك باطل لا أساس له في الكتاب، والسنة، وكلام سلف الأمة» [(٢)].

وقال العلامة شكري الألوسي: «إن أريد بها «أي المبالغة في التعظيم» المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيما حتى الحج إلى قبره، والسجود له، والطواف به واعتقد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يعطي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين، وأن يشفع فيمن شاء، ويدخل الجنة من يشاء، فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين» [(٣)].

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٠٢.

(٢) روح المعاني ١٧/ ٢١٢، وجلاء العينين ص٤٩.

(٣) فتح المنان ص٣٩٦.

وقال ابن عبدالبر في معنى حديث «من قال: مطرنا بنوء كذا... الحديث»: «فمعناه من وجهين: أما أحدهما: فإن المعتقد أن النوء هو الموجب لنزول الماء وهو المنشئ للسحاب دون الله عَزَّوَجَلَّ، فذلك كافر كفرا صريحا، يجب استتابه وقتله إن أبى؛ لنبذ الإسلام، ورده للقرآن. والوجه الثاني: أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه، وهذا وإن كان وجها مباحا فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ، وجهلا بلطيف حكمته...»[(١)].

وقال الباجي: «إن ما يدعى للكوكب من التأثير في ذلك على قسمين: أحدهما: أن يكون الكوكب فاعلا للمطر. والثاني: أن يكون دليلا عليه. وإذا حملنا لفظ الحديث على الوجهين لاحتماله لهما اقتضى ظاهره تكفير من قال بأحدهما، فإن الله تعالى هو المنفرد بالخلق والإنشاء... ولو جرت العادة بنزول المطر عند نوء من الأنواء، فاستبشر أحد بنزوله عند ذلك النوء على معنى أن العادة جارية به، وأن ذلك النوء لا تأثير له فيه وأن المنفرد بإنزاله هو الله تعالى، لما كفر بذلك بل يعتقد الحق، وإنما كفر من قال: مطرنا بنوء كذا لإضافة المطر إلى النوء، واعتقاده أن له تأثيرا وفعلا، مع أن هذا اللفظ لا يجوز إطلاقه بوجه، وإن لم يعتقد قائله ما ذكرنا لورود الشرع بالمنع منه، وما فيه من إيهام السامع ما تقدم ذكره»[(٢)].

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر ١٦/ ٢٨٦.

(٢) المنتقى للباجي ١/ ٣٣٤.

وقال الإمام الشافعي تعليقا على حديث زيد بن خالد الجهني: «ومن قال: مطرنا بنوء كذا وهو يريد أن النوء أنزل الماء كما عنى به بعض أهل الشرك من الجاهلية، فهو كافر، حلال دمه إن لم يتب»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «... وجماع الأمر أن الشرك نوعان: شرك في ربوبيته بأن يجعل لغيره معه تدبيرا ما، كما ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٢- ٢٣] فبين سبحانه أنهم لا يملكون ذرة استقلالا، ولا يشركون في شيء من ذلك، ولا يعينونه على ملكه، ومن لم يكن مالكا، ولا شريكا، ولا عونا، فقد انقطعت علائقه»[(٢)].

مخالفة الخلف لفهم السلف:

أولا: أقوالهم:

من المعروف عن الباطنية تأليههم لبعض الأشخاص، فالنصيرية مثلا يؤلهون علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والدروز يؤلهون الحاكم بأمره، وهكذا، فالباطنية لديهم غلو ظاهر في هذا الجانب، ولعلنا نقتصر هنا على إبراز معتقد النصيرية في ذلك: وملخصه: يعتقدون أن الله يحل في الأشخاص وأن آخر حلول له كان في علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل ذهبوا إلى ما يشبه عقيدة

---

(١) الأم للشافعي ١/ ٢٢٣.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٢٢٦.

التثليث عند النصارى؛ إذ إنهم ألفوا ثالوثا يتكون من علي، ومحمد، وسلمان الفارسي، ويزعمون أن العلاقة بين أطراف هذا الثالوث علاقة إيجاد، فعلي خلق محمدا، ومحمد خلق سلمان، وسلمان خلق الأيتام الخمسة، ويقصدون بهم: المقداد بن الأسود، وأبا ذر الغفاري، وعثمان بن مظعون، وعبدالله بن رواحة، وقنبر بن كادان مولى علي، أوكلوا لهؤلاء مسؤوليات معينة في التصرف في الكون، فالمقداد موكول إلى الرعد، والصواعق، والزلازل، وأبو ذر موكل بالرياح، وقبض أرواح البشر، وقنبر موكل بنفخ الأرواح في الأجسام. إذن والأيتام الخمسة ينفردون بتصريف الكون، من الخلق، والموت، والحياة وغيرها في زعم هؤلاء[(١)].

وأيضا يعتقد الرافضة الإمامية في أئمتهم شيئا من ذلك، فينسبون إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رواية جعفر بن محمد قوله: «انتقل النور إلى غرائزنا، ولمع في أئمتنا، فنحن أنوار السماء، وأنوار الأرض، فبنا النجاة، ومنا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور، وبمهدينا تنقطع الحجج...»[(٢)].

ويقول أحد أئمتهم المعاصرين وهو الخميني: فإن للإمام مقاما محمودا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون...[(٣)].

---

(١) ينظر الباكورة السليمانية ص٢٩و ٣٠ ومجموع الفتاوى ٣٥/ ١٤٧.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ١/ ٣٣.

(٣) الحكومة الإسلامية للخميني ص٥٢.

أما غلاة الصوفية، فاعتقادهم في أوليائهم، ودعوى تصرفهم في الكون وشؤون الخلق مشهور معلوم بل زعم غلاة الصوفية أن من كرامات أوليائهم أنهم يحيون الموتى، فهذا البدوي تستغيث به امرأة ليحيي ولدها الذي مات فمد سيدي أحمد البدوي يده إليه ودعا له فأحياه الله [١].

وأما اعتقادهم في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يتصرف في الكون، فحدث ولا حرج وإليك نماذج من نصوصهم: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقضي كل قسم من الحاجات؛ لأن جميع أمور الدنيا والآخرة في اختياره [٢].

ما ذا في كفة الله تعالى سوى الوحدة؛ إن كنت تريد شيئا، فاطلبه من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٣].

إن مفاتيح الكون كلها في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مالك الكل، وأنه النائب الأكبر للقادر وهو الذي يملك كلمة «كن» [٤].

إن المسلمين... من أهل السنة والجماعة، وهم جمهور الأمة المحمدية يعتقدون فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يعلم الغيب، ويعطي ويمنع، ويقضي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة

---

(١) الجواهر النفيسة ص٤٦ نقلا عن السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة د/ أحمد صبحي منصور.

(٢) بركات الإمداد للبريلوي ٤/ ٧٠.

(٣) سرور القلب لصفدر ص٣٤ وإمداد المتقين ٢/ ١٢٦.

(٤) الاستمداد على أجيال الارتياد للبريلوي ص٣٢-٣٣.

من يشاء، فهذا من أصح الاعتقادات، وإنكاره من أكبر المنكرات [١].

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خزانة السر، وموضع نفوذ الأمر، فلا ينفذ أمر إلا منه، ولا ينقل خير إلا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٢].

ثانيا: بيان شبهاتهم وتزييفها:

الشبهة الأولى: يأتي هؤلاء يؤيدون عقيدتهم الشركية بقصص وحكايات ينسبها إلى أنبياء الله تعالى وصفوته من خلقه مستدلين بما أورده الخطيب البغداد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قيل له: هل لعلم النجوم أصل؟ قال: نعم.

كان نبي الأنبياء يقال له يوشع بن نون قال له قومه: أنا لا نؤمن لك حتى تعلمنا بدء الخلق وآجاله. فأوحى الله تعالى إلى غمامة فأمطرتهم واستنقع على الجبل ماء صاف، ثم أوحى الله تعالى إلى الشمس والقمر والنجوم أن تجري في ذلك الماء، ثم أوحى إلى يوشع بن نون أن يرتقي هو وقومه على الجبل، فارتقوا الجبل، فقاموا على الماء حتى عرفوا بدء الخلق وآجاله بمجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار، فكان أحدهم يعلم متى يموت، ومتى يمرض، ومن ذا الذي يولد له، ومن ذا الذي لا يولد له. قال: فبقوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قاتلهم على الكفر، فأخرجوا إلى داود في القتال من لم يحضر أجله، ومن حضر أجله خلفوه في

---

(١) شواهد الحق ص٢٧٩.

(٢) المواهب اللدنية وشرح الزرقاني عليها ١/ ٥٦

بيوتهم، فكان يقتل من أصحاب داود ولا يقتل من هؤلاء أحد، فقال داود: يا رب أقاتل على طاعتك، ويقاتل هؤلاء على معصيتك، فيقتل أصحابي، ولا يقتل من هؤلاء أحد. فأوحى الله إليه أني كنت علمتهم بدء الخلق وآجاله، وإنما أخرجوا إليك من لم يحضر أجله، ومن حصر أجله خلفوه في بيوتهم، فمن ثم يقتل من أصحابك ولا يقتل منهم أحد، قال داود: يا رب على ماذا علمتهم؟ قال: مجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار. قال: فدعا الله فحبست الشمس، فزاد في النهار. فاختلطت الزيادة بالليل فلم يعرفوا قدر الزيادة، فاختلط عليهم حسابهم. قال علي: فمن ثم ذكره النظر في النجوم»[(١)].

الجواب عن هذه الشبهة: الاستدلال بهذه الرواية باطل من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنها باطلة لأن إسنادها ضعيف جدا[(٢)]، إذ أن فيه غير واحد مجهول[(٣)]، بالإضافة إلى ما تحويه من الكفر والشرك.

الوجه الثاني: أن المعتمد أن الشمس لم تحبس على أحد إلا على يوشع بن نون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ [(٤)] لما روى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الشمس لم تحبس على بشر إلا يوشع ليالي سار إلى بيت المقدس**»[(٥)].

---

(١) أخرجه الخطيب في حكم علم النجوم (ق ١٢ب) (ق ١٣ أ).

(٢) ذكر ذلك ابن حجر في «فتح الباري» ٦/ ٢٢١.

(٣) ذكر ذلك الخطيب في علم النجوم (ق/ ١٣ أ).

(٤) انظر منهاج السنة ٦/ ١٦٩.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٣٢٥ وصححه ابن كثير.

الوجه الثالث: إن ما ذكره من علم القوم بأوقات آجالهم وغير ذلك من غالب أحوالهم غير مقبول لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]، وأخبار الله لا تبدل ولا تنسخ على مر العصور.

الشبهة الثانية: استدلوا أيضاً بما روي عن ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إياكم والتكذيب بالنجوم فإنه علم من علم النبوة»(١).

وبما روي أيضاً عنه أنه قال: «ثلاث ارفضوهن: لا تنازعوا أهل القدر ولا تذكروا أصحاب نبيكم إلا بخير، وإياكم والتكذيب بالنجوم فإنه من علم النبوة»(٢).

الجواب عن هذه الشبهة: وهذا استدلال باطل من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن نسبة مثل هذا إلى نبي من الأنبياء المتقدمين لا يثبت إلا بخبر من الله تعالى أو بحديث صحيح، وبغير هذا لا يثبت.

الوجه الثاني: أن الناظر في حال ميمون بن مهران يعلم عدم صحة نسبة هذا القول إليه، فقد أثر عنه الزهد والورع وبغض الكذابين والمحتالين، والعداء للمنجمين والتحذير منهم، ولو كان هذا العلم مأثوراً عن الأنبياء، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحض على تعليمه لكان من أوائل من يعض عليه بالنواجذ،

---

(١) ذكره الرازي نقلا عن مفتاح دار السعادة ٢/ ١٨٨.

(٢) المرجع السابق.

ولكننا نجد من سيرته انه على العكس من ذلك، فقد كان يحذر الناس من اقتفاء أثر هؤلاء بقوله: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تسبوا أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تعلموا النجوم». وبقوله: «أربع لا يكلم فيهن: علي وعثمان والقدر والنجوم» فكيف يكون من هذا حاله وقوله مشجعاً للعمل بأحكام النجوم؟

الوجه الثالث: على فرض ثبوت هذا القول يحمل على أنه أراد علم التسيير، إذ قد يكون ما عرف من هذا العلم مأثوراً عن أحد الأنبياء، إذ لا مانع من ذلك، ويحمل قوله الآخر على التنكير والتحذير من علم أحكام النجوم.

وجعل هؤلاء أول المنجمين آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تارة وإدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تارة أخرى، فما نسب إلى آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما ذكره علي بن طاووس: «أن الله تبارك وتعالى أهبط آدم من الجنة وعرفه علم كل شيء فكان مما عرفه النجوم والطب»[(١)]، وذكر الرازي: «أن أول من أعطي هذا العلم آدم، وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألفاً، وتفرقوا عنه في الأرض وكان يغتم لخفاء خبرهم عليه فأكرمه الله تعالى بهذا العلم وكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب، فيقف على حالته»[(٢)]، وبيان بطلان هذا القول واضح لمن عنده أدنى علم بأحوال الأنبياء وما يجوز في حقهم وما يمتنع. وشبهاتهم كثيرة لكنها باطلة.

❁❁❁

(١) فرج المهموم ص٢٢.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ١٨٨.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الافتتاحية	٣
المقدمة	١٣
أسباب اختيار الموضوع:	٢١
أسئلة البحث:	٢٣
الدراسات السابقة:	٢٤
منهج البحث:	٢٤
خطة البحث:	٢٥
التمهيد: وفيه:	٣٥
مكانة السلف الصالح	٣٧
مفهوم القاعدة باعتبار مفرديه:	٤٢
مفهوم القاعدة باعتباره لقبا	٥٠
الباب الأول: حجيتها، وفيه فصلان:	٨٩
الفصل الأول: الأدلة النقلية على حجية القاعدة، وفيه ثلاثة مباحث:	٩١
المبحث الأول: حجيتها في القرآن الكريم، وفيه تسعة مطالب:	٩٣
المطلب الأول: الآيات الدالة على خيرية هذه الأمة:	٩٥
المطلب الثاني: الآيات الدالة على حجية الإجماع:	٩٦
المطلب الثالث: الآيات الآمرة بلزوم الجماعة والناهية عن الفرقة	٩٧
المطلب الرابع: الآيات التي تأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصدقين:	٩٨
المطلب الخامس: الآيات التي جاءت في مدح الراسخين في العلم:	٩٩

المطلب السادس: الآيات التي تدل على فضل الصحابة: ١٠٠
المطلب السابع: الآيات التي تدل على وجوب اتباع السلف: ١٠٢
المطلب الثامن: الآيات التي تحذر من الغلو في الدين: ١٠٥
المطلب التاسع: الآيات التي تحذر من البدعة: ١٠٦
المبحث الثاني: حجيتها في السنة الصحيحة، وفيه تسعة مطالب: **١٠٧**
المطلب الأول: الأحاديث الدالة على خيرية هذه الأمة وتزكية الشارع... ١٠٩
المطلب الثاني: الأحاديث الآمرة بلزوم الجماعة (الجماعة الأولى): ١١٠
المطلب الثالث: الأحاديث التي جاءت في مدح الراسخين في العلم:..... ١١٣
المطلب الرابع: الأحاديث التي تأمر المؤمنين :..... ١١٤
المطلب الخامس: الأحاديث التي تدل على فضل الصحابة:..... ١١٥
المطلب السادس: الأحاديث التي فيها دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابة بأن يعلمهم التأويل والعلم..... ١١٧
المطلب السابع: الأحاديث التي تدل على وجوب اتباع السلف: ١١٧
المطلب الثامن: الأحاديث التي تحذر من الغلو في الدين:..... ١٢٠
المطلب التاسع: الأحاديث التي تحذر من البدعة:..... ١٢٠
المبحث الثالث: الإجماع، وفيه ثلاثة مطالب: **١٢٣**
المطلب الأول: حجيتها عند الصحابة، وفيه مسألتان: ١٢٧
المسألة الأولى: تأصيل القاعدة عندهم، وفيه ثلاثة فروع:..... ١٢٧
الفرع الأول: تصريحهم بأنهم أعمق فهما وعلما: ١٢٩
الفرع الثاني: إنكارهم على من خالف فهمهم ولها نماذج:..... ١٣١
الفرع الثالث: حثهم على الاتباع في الفهم والعمل:..... ١٤٤

المسألة الثانية: تفريع الصحابة على القاعدة فعلا وتركا. ١٤٨
المطلب الثاني: حجيتها عند المذاهب الأربعة، وفيه أربع مسائل: ١٥٧
المسألة الأولى: حجتها عند الأحناف، وفيه سبعة فروع: ١٥٩
الفرع الأول: تأصيل الأحناف القاعدة..... ١٦٣
الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة: ١٦٤
الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على بيان مجمل النصوص: ١٦٥
الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على صرف الأمر من الوجوب ١٦٦
الفرع الخامس: استدلالهم بالقاعدة على الرد على المخالف: ١٦٧
الفرع السادس: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية: ١٦٧
الفرع السابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية: ١٦٩
المسألة الثانية حجيتها عند المالكية، وفيه ثمانية فروع: ١٧٥
الفرع الأول: تأصيل المالكية قاعدة فهم السلف الصالح: ١٧٩
الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة: ١٨٦
الفرع الثالث: تقديمهم القاعدة على الآثار في بعض المسائل: ١٨٨
الفرع الرابع: تقديمهم القاعدة على القياس:..... ١٨٨
الفرع الخامس: استدلالهم بالقاعدة على بيان المراد من نصوص الكتاب والسنة:..... ١٨٩
الفرع السادس: جعلهم القاعدة دليلا على المنسوخ: ١٩٠
الفرع السابع: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية: ١٩٠
الفرع الثامن: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية. ٢١٣
المسألة الثالثة: حجيتها عند الشافعية، وفيه ستة فروع: ٢٢٥

الفرع الأول: تأصيل الشافعية القاعدة: ٢٢٩
الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة: ٢٣٢
الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية: ٢٣٣
الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على طهورية الماء وعدمه:..... ٢٥٥
الفرع الخامس: جعلهم القاعدة ميزانا لصحة المذهب: ٢٥٥
الفرع السادس:استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية: ٢٥٧
المسألة الرابعة: حجيتها عند الحنابلة، وفيه أربعة فروع: ٢٥٩
الفرع الأول: تأصيل الحنابلة للقاعدة. ٢٦٣
الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة: ٢٦٧
الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية: ٢٦٨
الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية:..... ٢٨٢
المطلب الثالث: حجيتها عند سائر العلماء، وفيه مسألتان: ٢٨٩
المسألة الأولى: حجيتها عند الفقهاء المجتهدين، وأئمة أهل الكلام المثبتين، وأئمة الصوفية، وفيه أربعة فروع:..... ٢٩١
الفرع الأول: تأصيلهم للقاعدة:..... ٢٩٥
الفرع الثاني: استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة. ٢٩٩
الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية: ٢٩٩
الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية:..... ٣٢٨
المسألة الثانية: حجيتها عند علماء الحديث، وفيه أربعة فروع: ٣٣١
الفرع الأول: تأصيلهم القاعدة. ٣٣٦
الفرع الثاني:استدلالهم بالقاعدة على تأصيل البدعة: ٣٣٨

الفرع الثالث: استدلالهم بالقاعدة على الأصول العقدية. ٣٣٩
الفرع الرابع: استدلالهم بالقاعدة على الفروع الفقهية: ٣٦٦
الفصل الثاني: الأدلة العقلية على حجية القاعدة، وفيه ثلاثة مباحث: ٣٦٩
المبحث الأول: ميزات الصحابة وهي ٣٧٣
المبحث الثاني: خصائص الصحابة منها ٣٧٤
المبحث الثالث: القاعدة الشرعية ٣٨٠
الباب الثاني: أثر القاعدة، وفيه ثلاثة فصول: ٣٨١
الفصل الأول: أثرها على الاتجاهات المنحرفة في التفسير، ٣٨٣
وفيه سبعة مباحث: ٣٨٣
اتجاهات المنحرفة في التفسير ٣٨٥
المبحث الأول: أثرها على تفسير الخوارج ٣٨٩
المبحث الثاني: أثرها على تفسير الشيعة ٣٩٣
المبحث الثالث: أثرها على تفسير المعتزلة ٣٩٨
المبحث الرابع: أثرها على تفسير الأشاعرة ٤١٣
المبحث الخامس: أثرها على تفسير الصوفية ٤٤٤
المبحث السادس: أثرها على تفسير أصحاب التفسير العلمي ٤٥٦
المبحث السابع: أثرها على تفسير مدعي التجديد من المحدثين ٤٦١
الفصل الثاني: أثرها على العقيدة، وفيه سبعة مباحث: ٤٦٥
المبحث الأول: أثرها على الإيمان، وفيه سبعة مطالب: ٤٦٧
المطلب الأول: أثرها على مفهوم الإيمان ٤٦٩
المطلب الثاني: أثرها على زيادة الإيمان ونقصانه ٥٢٩

المطلب الثالث: أثرها على العلاقة بين الإسلام والإيمان ٥٣٧
المطلب الرابع: أثرها على شعب الإيمان ٥٤٤
المطلب الخامس: أثرها على الاستثناء في الإيمان ٥٥٦
المطلب السادس: أثرها على تفاضل أهل الإيمان ٥٧٩
المطلب السابع: أثرها على الأسماء والأحكام ٥٨٧
المطلب الثامن: أثرها على الخروج على الإمام ٦١٥
المبحث الثاني: أثرها على التوحيد فيما يتعلق بذات الله، ٦٨١
وفيه أربعة مطالب: ٦٨١
المطلب الأول: أثرها على تقسيم التوحيد..... ٦٨٣
المطلب الثاني: أثرها على الربوبية، وفيه مسألتان: ٧٠٣
المسألة الأولى: أثرها على اعتقاد أن بعض الأولياء يعلمون الغيب. ٧٠٥
المسألة الثانية: أثرها على اعتقاد البعض أن بعض الخلق يتصرف. ٧١٨
فهرس الموضوعات ٧٣٢

https://t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah